

المؤرخ العربي



مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

١٥

العدد الخامس عشر

مجلة

المؤرخ العربي

رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

العدد الخامس عشر

١٩٨٠

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

محتويات العدد الخامس عشر من المجلة

اللجنة الاستشارية

مقدّمـــة

ان الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب اذ تقـــدم بكــل فخــر واعتزاز للباحث العربي العدد الخــامس عشــر من مجلتـــه العلمية ــ المؤرخ العربي ــ والتي تبرز المكانة الحضاريـــة للمؤرخين العرب وقدرتهم الفائقة على منهجية البحث التي تتمثل فيــه الروح الموضوعية واتباع أساليب علمية في الكتابة التاريخية نعاهدهم اننا سنعمل وبكــل اخلاص وصدق وبعزيمة ثابتة على ازدهار الدراسات التاريخية وتوثيق الصلات المتينة بين المؤرخين والباحثين العرب كافـــة وتحقيق رسالتنا الانسانية النبيلة في الحفاظ على تراث امتنا الخالد وتاريخها المجيد .

تحية اجلال واكبار الى اخواننا وزملائنا المؤرخـــين والباحثـين العرب أينما كانوا والى الاقلام الخيرة الصادقة الـــتي تدعم مسيرتنا الثقافية وتسهم في اغناء مجلتنا بحوثهم العلمية القيمة .

والله نسأل ان يوفقنا لخدمة أمتنا الكريمـة بمـــا يحقق عزتهــا ورفعتها .

الدكتور حسين أمين

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب



الدولة السامانية

الدكتور حسين امين
الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

هي من الدويلات التي استقلت من جسم الدولة العباسية ذاتيا ولعبت دورا مهما في تاريخ الحضارة الاسلامية ، وتنتسب هذه الدولة الى اسرة فارسية قديمة أصلها من بلخ ، ويدعى جدهم الاعلى سامان ابن خدات ، وقد أسلم في العهد الاموي على يد أسد بن عبد الله القسري ، والي خراسان ، ونال أحفاد سامان حظوة كبيرة من لدن الخليفة المأمون ، فتولى بعضهم وظائف سامية • فقد تولى نوح بن اسد ابن سامان مدينة سمرقند وأخوه أحمد على فرغانه وأخوه الثالث يحيى على مدينة الشاش والياس على هرات[1] ، وقد ورث احمد اخوته الذين توفوا فتولى أمر سمرقند وفرغانه والشاش وقسما من الصغد سنة ٢٤٤ هـ ـ ٨٥٥م وورثه ابنه نصر الذي اتخذ مدينة سمرقند حاضرة لدولته • وفي عهد نصر قويت الدولة السامانية وتمكن نصر من ضم بخارى وتولية اخيه اسماعيل عليها سنة ٢٦١ هـ ـ ٨٧٤م ، وفي السنة

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ٦ ص ٣ •

التالية حصل نصر على عهد من الخليفة العباسي المعتمد بولاية ما وراء النهر بكامله .

ان تاريخ الدولة السامانية لم يخلو من نزاع بين افراد العائلة الحاكمة فقد جرى نزاع بين نصر وأخيه اسماعيل ، ولكنه كما يبدو كان نزاعا عائليا ، فقد ساءت العلاقة بين الاخوين وقصد نصر أخاه اسماعيل سنة ٢٧٢هـ ، ولكنهما تصالحا ، ثم ساءت العلاقة بينهما من جديد وقامت الحرب بينهما سنة ٢٧٥هـ وظهر اسماعيل باخيه نصر فلما حمل اليه ترجل له اسماعيل وقبل يديه ورده في موضعه الى سمرقند وناب عنه في ولاية بخارى . ولما مات نصر سنة ٢٧٩ هـ (٢) أصبحت الزعامة السياسية في الدولة السامانية لأخيه اسماعيل . وفي عهد اسماعيل تظهر الدولة السامانية دولة قوية تدحر الدولة الصفارية .

نجح اسماعيل من فتح طبرستان ، وتمكن من صد هجوم الاتراك الذين أغاروا على حدود بلاده الشرقية ومات اسماعيل في مدينة بخارى سنة ٢٩٥ هـ (٣) ، ولا يزال قبره حتى اليوم في مدينة بخارى . وبوفاة اسماعيل أمر الخليفة المكتفي ابنه ابا نصر أحمد بن اسماعيل على ولاية ابيه وخلع عليه . ولم تطل ولايته فقد قتل سنة ٣٠١هـ اذ هجم عليه بعض غلمانه فذبحوه وهو على سريره وهربوا وحمل الى بخارى فدفن فيها ولقب بالشهيد (٤) . وكان قد خلف ولدا صغيرا يدعى ابو الحسن نصر بن احمد الساماني فاستصغر الناس سنه واستضعفوه ، واعتقدوا

---

(٢) ـ ابن تغري بردى ـ النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٨٣ .

(٣) ابن الاثير ـ جـ ٦ ص ١١٧ .

(٤) ابن خلدون ـ تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ٣٣٦ .

أن أمره لاينتظم مع وجود عم أبيه اسحاق بن احمد بن أسـد صاحب سمرقند الذي استمال الناس في بلاد ما وراء النهر ـ عـدا بخارى ـ اليه والى أولاده ، وأرسل بعض أمراء البيت السامانـي الى الخليفة العباسي المقتد يسألوه أن يوليهم ناحية من نواحـي خراسان ولكن الخليفة اقر نصرا على بلاد أبيه • وقد حاول اسحاق بن احمد بن أسـد الساماني وابنه الياس بن اسحاق الثورة ضد نصر ولكن الهزيمة حلـت بجيوشهما واستولى نصر على سمرقند، وقد حاول الياس بن اسحاق أن يعيد الكرة في القضاء على نصر ولكنه لم يفلح •

أما عن علاقة الدولة السامانية بمقام الخلافة العباسية فانها كانـت تقوم على أساس المودة [٥]، وكان الخلفاء العباسيون يعتمـدون على أمراء البيت الساماني في اقرار سلطانهم في بلاد المشرق •

وقد عرف ان نصر كان ميالا الى الاسماعيلية ، لذا فان قواد الدولة السامانية حاولوا قتله ، ولما علم نصر بذلك تنازل عن الامارة لابنه نوح، الذي حمل بشدة على الاسماعيلية ومن الجدير بالذكر أن المقريزي ذكر أن نصر بن أحمد الساماني بعث الى عبيد الله المهدي يعترف فيه بسلطته الروحية ويعد بامداده بالرجال •

وفي عهد نوح يبدأ الصراع بين السامانيين والبويهيين وقد تبادلا النصر والهزيمة ، وقد نجح نصر من ايقاع الهزيمة بالبويهيين والسيطرة على مدينة الرى • وتوفي نوح سنة ٣٤٣هـ [٦]، فتولى السلطة أخـوه

---

(٥) آدم ميتز ـ الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ٤٩ •

(٦) ابن الاثير جـ ٦ ص ٢٤٦ •

منصور بن نوح . وفي عصره بدأ الضعف يدب في جسم الدولة السامانية وفي عهده وقع الصلح بين البويهيين والسامانيين سنة ٣٦١هـ [٧] . وتزوج نوح بن منصور الساماني بابنة عضد الدولة . ولما مات منصور بن نوح تولى أمر السامانيين نوح الثاني بن منصور وأخذت الدولة تتداعى وتضمحل نتيجة النزاع المستمر بين افراد البيت الساماني وبسبب ظهور الدولة البويهية ، وقام بعض قواد الدولة بالاستيلاء على بعض البلدان . ومن الجدير بالذكر أن قيام الدولة الغزنوية كان عاملا من عوامل سقوط هذه الدولة ، كما ان خانات تركستان كانوا كثيرا ما يحاولون اقتطاع اجزاء من جسم الدولة . فقد هاجم ايلك (خان ما وراء النهر) مدينة بخارى في السنة التي تولى فيها محمود على خراسان سنة ٣٨٣ هـ [٨] وظفر بعبد الملك واسره بافكند الى أن مات بها .

للدولة السامانية فضل كبير في نمو الادب كما انتعشت علوم الطب والفلك والفلسفة وقد ألفت فيها كتب كثيرة في اللغة العربية، ومن أشهر كتب هذا العصر في الطب الكتاب المنصوري الذي ألفه أبو بكر الرازي وأهداه الى أبي صالح منصور بن اسحاق الساماني الذي ولي سجستان نيابة عن السامانيين . وقد عاصر ابن سينا الفيلسوف المشهور بعضا من امراء السامانيين .

وجدير بالذكر أن السلاجقة الاتراك تأثروا بالسامانيين خاصة في مذهبهم الحنفي ، كما أن السلاجقة صاروا يتوسعون على حساب

---

(٧) النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٦٢ .

(٨) ابن الاثير جـ ٧ ص ١٦٠ .

دولتهم • كما أن آخر معقل للسامانيين سقط سنة ٩٩٩م وكان ذلك على يد الترك القرخانيين الذين دخلوا بخارى قاعدة السامانيين •

ان اقليم الصغد هو أهم المناطق التي شملتها دولـــة السامانيين ، ويعتبر من أخصب الاقاليم الواقعة بين نهري جيحون وسيحون الــتي كانت تسقيها مياه نهرين ، هما زرفشان أي نهر السغد وعليه كانت تقوم مدينة بخاري وسمرقند والنهر المنساب حيال مدينتي كثرونسف وكـان هذان النهران ينتهيان الى مستنقعات أو بحيرات ضحلة في المفازة الغربية من جهة خوارزم • وكان الصغد يحسب احدى جنان الدنيـا الاربع ، وقد بلغ أوج ازدهاره في النصف الاخير من المئة الثالثة للهجرة في ايام الامراء السامانيين ، وكانت من أجمل مدنه سمرقند وبخارى ، ويمكـن أن يقال أن سمرقند كانت مركزه السياسي ، بينما كانت بخارى عاصمته الدينية ، وان كلا من المدينتين كانت في مرتبة واحدة وتعـدان قصبتي الصغد •

ولمدينة بخارى سور وليس بالقرب منها وحولهـــا كثير من المدن والقصور والبساتين ، ولسور المدينة أبواب ، وهنـــاك خرائب بخارى القديمة التي كانت قائمة قبل الاسلام ويقال لتلك الخرائـــب (ريامين) وحافظت بخارى عن مكانتها الرفيعة في أوائل العصور الوسطى ولكن في سنة ٦١٧هـ ـ١٢١٩م دخلها المغول ونهبوها ودمرت عن آخرها[٩]، وفي عهد تيمورلنك الذي اتخذ سمرقند عاصمة له استعادت بخارى شيئا من سابق عهدها •

وقد أنشأ اسماعيل الساماني في بخارى قصرا فخما كان قد انشىء

---

(٩) المرجع السابق ص ٣٣٠ ـ ٣٣٣ •

أصلا قبل الاسلام حتى جاء اسماعيل فقام بتوسيعه وزخرفته ليصبح بذلك مقرا للامير الحاكم وكبار رجال الدولة ، ثم أقام قصرا آخر على ضفاف القناة التي تعرف بهذا الاسم وقد صرف اسماعيل الاموال الطائلة على اظهاره بشكل يليق بمعظم الامراء ويشتهر هذا القصر بروعة بنائه ، وكانت تحيط به الحدائق والمروج وأحواض الزهر وفيها النافورات والغدران الجارية . كذلك مد اسماعيل أسوار المدينة وحصنها وكانت هذه قد بناها الحاكم ابو العباس الطوسي في عهد الخليفة المهدي العباسي ، ويقال أن عدد المدارس الجامعة ببخارى كان في عهد اسماعيل يزيد على نصائره في كل مدن آسيا ، حتى لترى مدينة بلخ والتي تعرف بقبة الاسلام لم تستطع أن تبرز لتنافسها الا بعد ذلك بكثير . وصارت هذه المدينة بخارى تزدهر ويعلو قدرها يوما بعد يوم بوصفها قصبة المال والعلم ومركز انتاج الحرير الذائع الصيت كذلك .

أما سمرقند فكانت في أعلى النهر (نهر السغد) على نحو ١٥٠ ميلا من شرق بخارى تقوم على مسافة قصيرة من ضفة نهر السغد الجنوبية على نشز من الارض وعلى المدينة سور حوله خندق عميق ولها قلعة مرتفعة عن الارض وفي أسفل المدينة قرب النهر رياض كثيرة تحف بها البساتين والاشجار ، وقل دار تخلو من بساتين ولا دار الا وفيها ماء حار الا القليل ، وتكثر في سمرقند اشجار السرو وفي القلعة دار الامارة والحبس وكان للقلعة باب من الحديد ، وتمتد أرياض المدينة بامتداد النهر في بسيط من الارض وعليها سور نصف دائري طوله فرسخان يحيط بهما من ناحية البر والنهر من ناحية الشمال احاطة القوس بالوتر ، فيتم بذلك خط دفاعها .

وكانت أسواق سمرقند مجمع التجارات زاخرة بالسلع الواردة

اليها من جميع أنحاء العالم ومن جملة ماشتهرت به هذه المدينة (الكاغد) السمرقندي وهو يحمل منها الى بلاد الشرق وكانت صناعته قد دخلت اليها من الصين ، وقد خرب المغول مدينة سمرقند سنة٦١٧هـ ــ ١٢١٩م ولما زارها ابن بطوطة بعد ذلك قال انها مدينة لا سور لها ولا أبواب عليها ، وقد سمي نهرها نهر القصارين عليه النواعير [١٠] ، وكما قلنا سابقا أن تيمورلنك اتخذها عاصمة له فاستعادت مجدها الغابر فجدد المدينة وشيد المساجد والربط .

وقد برز في ظل الدولة السامانية كثير من العلماء والادباء ذلك لان امراء سامان كانوا يقربون العلماء ويعنون بالعلم وأهله فالفارابي محمد ابن طرخان ، الفيلسوف الاسلامي الكبير احتضنه منصور بن نوح الساماني وألف له بعض كتبه . ومن مؤلفاته كتاب مبادىء آراء أهل المدينة الفاضلة طبع في لندن سنة ١٨٩٥م وكتاب احصاء العلوم والتعريف باعراضها كما له تسعة كتب في الرياضيات والنجوم والكيمياء والموسيقى وتوفي الفارابي سنة ٣٣٩هـ [١١] . والعالم الكبير أبو بكر الرازي محمد بن زكريا الذي تولى رئاسة الاطباء ببغداد ، وكان أكثر مقام الرازي في الري وغيرها من بلاد العجم وخدم بصناعته الاكابر من ملوكها وامرائها وصنف بعض كتبه لهم ، ككتاب المنصوري الذي ألفه للامير منصور من آل سامان وكتاب الملوكي لعلي ابن صاحب طبرستان

---

(١٠) ابن بطوطة ــ الرحلة جـ ١ ص ٢٤٤ .

(١١) ابن خلكان ــ وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٧٦ .

طبقات الاطباء جـ ٢ ص ١٣٤ .

ومن اشهر كتبه في الطب كتاب الحاوي، وقد توفي الرازي سنة ٣١١هـ، ٩٢٣م [١٢] .

ومن نزل مدينة بخارى من العلماء الاعلام الشيخ الفيلسوف الطبيب ابن سينا ابو علي الحسين بن عبد الله والذي يلقب بالشيخ الرئيس وكان ابوه من بلخ . وفي قرية من قرى بلخ ولد ابن سينا سنة ٣٧٠هـ وتعلم في مدينة بخارى علوم القرآن واللغة وقيل انه حفظ القرآن وأخذ يقرأ الفقه قبل أن يتجاوز العاشرة ، ولم يدرك السادسة عشرة حتى تعلم المنطق والهندسة والطبيعة والفلسفة والطب ، وكان يحي الليل في الدرس والبحث ، واخذ في التأليف وهو في الحادية والعشرين من عمره ، ويمتاز ابن سينا بقوة جسمه وعقله، ويعتبر ابن سينا نادرة عصره فقد ألف في كل فن من العلم والادب ، من أشهر كتبه كتاب (قوانين الرياضيات) ١٨ جزءا طبع منه جزءان وكتاب القانون في الطب في (٤) اجزاء طبع في روما وفي القاهرة وهو من اهم كتبه وحوى أهم ما عرف من علوم الطب وخصائص العقاقير والتشريح وغيرها وعلى هذا الكتاب وكتاب الحاوي لابي بكر الرازي اعتمد معظم أطباء العصور الوسطى في الشرق والغرب .

الدولة الغزنوية :

تعتبر هذه الدولة من الدويلات المهمة التي قامت في المشرق الاسلامي ، قام بتأسيسها البتكين وهو من الموالي الاتراك في خدمة

---

(١٢) ابن النديم ــ الفهرست جـ ١ ص ٢٩٩ .
وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٧٨ .

الدولة السامانية ومن الذين توصل الى مراكز سامية في تلك الدولة ، فقد شغل منصب حاجب البلاط ، وكان أبوه يشغل منصب حاكم مدينة غزنة ، وتولى حكمها بعد وفاة والده سنة ٣٥٢هـ ، ولكن البتكين مات بعد سنة ولم يحقق أهدافه التوسعية . وسيطر على الامور مملوكه سبكتكين (زوج ابنته) وتمكن من توسيع املاكه بشكل كبير ، فسيطر على مدينة بست في سجستان كما نجح نجاحا باهرا في التوسع في الهند فقد هزم جيوش جيبال راجا لاهور وشتت جيوشه على حدود البنجاب ثم ما لبث أن أسر جيبال نفسه ، ثم أطلق سراحه بعد أن تعهد بدفع الجزية .

ومن الجدير بالذكر أن سبكتكين بالرغم من قوته وسعة نفوذه، فانه اعترف بسيادة الدولة السامانية ، وانه انما كان يفتح البلدان باسمهم ، وقد استعان نوح بن نصر الساماني بسبكتكين صاحب غزنة، على حرب (ابن علي بن سيمجور وفائق الخاصة) وكانا قد خرجا على الامير الساماني واستقلا في خراسان ، فانتصر سبكتكين عليهما ، واعاد مدينة نيسابور الى حظيرة السامانيين ، عندئذ عين الامير الساماني نوح ابن نصر ، محمود بن سبكتكين على مدينة نيسابور ولقبه سيف الدولة كما لقب سبكتكين بلقب ناصر الدولة ، وحكم سبكتكين عشرين سنة وكان قد وضع الاسس الرصينة للدولة الغزنوية وتوفي سنة ٣٨٧ هـ .

اذن فالدولة الغزنوية هي وريثة الدولة السامانية التي حكمت خراسان وسجستان وطبرستان والري وكرمان وما وراء النهر ، والتي جمعت في قيامها بين النزعة القومية في احياء التراث الفارسي وبعثه باللغة الفارسية وبين تمسكها بالاسلام في الدفاع عنه والقضاء على المناهضين ، وقد انتهى امر السامانيين الى ما انتهى اليه امر العباسيين من

الاعتماد على الاتراك في امداد جيوشهم بالعناصر الجديدة ، وأصبح من السهل على الاتراك أن يتدرجوا في المراتب العليا للجيش الساماني وفي دواوين الادارة وقد استفحل خطر الاتراك وأصبح من المتعذر التخلص منهم ، فقد عين عبد الملك الاول بن نوح المملوك التركي البتكين قائدا عاما لخراسان بقصد اقصائه ولما تولى انسحب البتكين الى غزنة وأعلن نفسه ملكا عليها بعد انتصاره على أميرها المحلي ابي بكر لاديك ، فهب جيش منصور الساماني لقتاله ، واضطر منصور بعد هزيمة جيشه للمصالحة والاعتراف به حاكما لغزنة ، وتوفي البتكين وكان سبكتكين مملوكه المخلص وفيا لابنه اسحاق الذي عاجلته المنية ، وآنذاك اتفق جيشه على تولية سبكتكين الذي عرفه التاريخ مؤسسا للدولة الغزنوية .

تولى الامور في الدولة الغزنوية محمود الغزنوي (١٣) ، بعد أن نجح بابعاد أخيه اسماعيل الذي تولى الامور مدة سبعة أشهر بعد وفاة سبكتكين ، وقد غزا محمود الغزنوي بلاد الهند الوثنيين ، واستطاع السلطان محمود الغزنوي أن يبسط نفوذه الى ما وراء كشمير والبنجاب وأن يجعل من اقليم البنجاب ولاية اسلامية يحكمها ولاة مسلمون من قبل الدولة الغزنوية .

وكان محمود الغزنوي يعاصر الخليفة العباسي القادر بالله ، والذي أرسل الى السلطان محمود خلعة السلطنة ولقبه بيمين الدولة .

وكانت الدولة الغزنوية دولة اسلامية ، تخضع روحيا للخليفة

---

(١٣) ابن الاثير جـ ٧ ص ١٨٥ .

العباسي في بغداد وتقوم بفتوحاتها في الهند باسم الدعوة الاسلامية ، وكانت من الناحية الحضارية متأثرة بالحضارتين العربية والفارسية، ولم تكن اللغة التركية في عهدها لغة الدواوين والكتاب والشعراء ، اذ كانت اللغة العربية والفارسية تتبادلان القيام بهذه المهام •

وقصد محمود الغزنوي بلاد خراسان وسيطر عليها وأصبحت ضمن أملاكه الواسعة [١٤] • كما انتزع الرى من مجد الدولة البويهي سنة ٤٢٠ هـ[١٥] ، واقتاده الى عاصمته غزنة • وكان محمود قد حارب الغور وكانوا من الوثنيين ويسكنون المناطق الوعرة بين هراة وغزنة ، وكانوا أيضا مصدر قلق واضطراب في الديار الاسلامية الخاضعة للغزنويين ، وقد حاربهم محمود الغزنوي وطاردهم حتى أخضعهم وعمل على نشر الاسلام في صفوفهم •

ان فتوحات محمود الغزنوي في الهند مهمة من الناحية التاريخية لذا يجب الوقوف عندها والاطلاع على بعض نواحيها ، فالهند لم تكن غريبة على محمود فقد عرفها في حروب أبيه وأحاط بظروفها الطبيعية والجغرافية والبشرية ليسهل عليه أمر مواجهتها حين يتصدى لفتحها على أوسع نطاق بعد موت أبيه ، اذ قام بغزوها سبع عشرة مرة في مدى سبع وعشرين سنة امتدت بين سنة ٣٩١ و٤١٧ هـ وكان من نتيجتها أن خضع له شمال بلاد الهند من بنارس الى غزنة ومن الهملايا الى الدكن ، ففي طريقه اليها أول مرة بعد توليته استولى على سجستان سنة ٣٩٠هـ التي كانت لخلف بن أحمد ثم قصدها وواقع جيبال سنة ٣٩١هـ وبرغم

---

(١٤) المصدر السابق ص ١٩٦ •
(١٥) المصدر السابق ص ٢٣٥ •

قلة عدده وعدته فقد هزمه هزيمة منكرة وغنم منه غنائم كثيرة واسره مع جملة من أصحابه ، واثر هذا النصر الكبير لقب محمود بالغـازي وفي سنة ٣٩٥هـ عاود الهند فاستولى على (بهاطية) ونشر الاسلام بين أهلها، ووافاه خبر خروج ابن الفتوح القرمطي صاحب الملتان (جنوب البنجاب) عليه وكرهه للاسلام فسار اليه ، وحين وجد صعوبة في اجتيـاز الانهار ولا سيما نهر سيحون طلب من (اندبال) ان يأذن له في العبور ببـلاده الى الملتان فأبى فقرر مهاجمته فدخل بلاده وأعمل فيها الحرق والنهـب والقتل ، واستمر يطارده حتى كشمير ، ثم هاجم ابا الفتوح ودخل بلاده وأخضع الملتان وضرب على أهلها عشرين ألف ألف درهم عقابا لهم، وعلم محمود ان ايلك خان امير كاشغر صهره هاجم بـلاده فصالح الهنود وما زال يقاتل الترك ويتعقبهم حتى قضى عليهم ، واستنجد ايلـك خان بقدرخان ملك الختن على محمود ، وحين سمع هـذا وهو بطخارستان أسرع الى بلخ فحصل بالقرب منها صراع عنيف انهزم له ايلك خان شـر هزيمة ، وعاد للهند يخضع نائبه (نواسه شاه) ابن جيبال الذي ارتد عن الاسلام وخرج عليه فلم يكتف عنه حتى افتـدى نفسه بأربع مائة الف درهم وعقد داوود صاحب الملتان مع الامراء الهنود حلفا للخـروج على طاعة محمود والقضاء عليه ، فالتحم الطرفان بارض البنجاب في معركـة ضارية انتهت بانتصار محمود وانطلق الى حصن نكركت وهو على جبل عال كان قد اتخذ منه الهنود جيلا بعد جيل مخزنة للامـوال والذخائر التي كانوا يتقربون بها الى صنمهم الاعظم ، فنـازل حراسه وأجبرهم على الاستسلام وفتح باب الحصن لينقل ذخائره الكبيرة الى غزنة .

وهكذا استمر محمود الغزنوي كما ترون في غزواتـه المتكررة والمتعددة للهند . وفي احدى غزواته استولى محمـود على صنم يدي (سومنات) الذي يرمز لعناد الهنود ووثنيتهم وحمله الى غزنة وعرضـه

على المسلمين هناك وابتهجوا بذلك النصر الكبير ، وبعث اليه الخليفة العباسي القادر بالله رسالة اعترف له فيها بحكمه على خراسان والهندوستان وسجستان وخوارزم ولقبه كهف الدولة والاسلام ولقب ابنه مسعودا (شهاب الدولة وجمال الملة) وابنه الثاني محمدا (جلال الدولة وجمال الملة) والامير يوسف اخا محمود (عضد الدولة ومؤيد الملة) وتلقب محمود بلقب سلطان وهو أول من تلقب بهذا الاسم في الاسلام .

وقد اتصف محمود الغزنوي بقوة الشخصية وبرجاحة العقل وعمق الايمان بالعقيدة الاسلامية ، كما اتصف بحبه للعلم والعلماء والادب والادباء ، واجتذب الى بلاطه العلماء والشعراء ، وفي آخر أيامه كان في خدمته عالم عصره وأحد كبار العلماء في دنيا الاسلام ، أبو الريحان محمد البيروني الذي التحق به في غزنة سنة ٤٠٨ هـ ١٠١٧ م، وفي غزنة قام البيروني بعدة رحلات علمية في الديار الهندية التي فتحت على يد محمود الغزنوي وتعلم البيروني اللغة السنسكريتية على بعض العلماء الهنود ، وساعدت هذه اللغة البيروني على فتح مغاليق الثقافة الهندية الزاخرة بالعلوم والاداب والفلسفة ، وقد ألف البيروني كتابا عن الهند اسمه (تحقيق ما للهند) والذي يعتبر من أدق ما كتب في المشاهدات كما يعتبر نسيج وحده في الادب العربي ، وكان البيروني قد ألف قبل هذا كتابه الشهير (الآثار الباقية عن القرون الخالية) [١٦].

---

(١٦) ياقوت ــ ارشاد الاريب جـ٦ ص ٣٠٨ .
السيوطي ــ بغية الوعاة ص ٢٠ .

كما حفل بلاط محمود الغزنوي بالأديب الكبير والشاعر المبدع الفردوسي صاحب كتاب الشاهنامه ـ كتاب الملوك ـ الذي يمثل العبقرية العربية الفذة التي كان يتحلى بها الفردوسي وقد قدم هذا الكتاب الى محمود الغزنوي والكتاب يبحث عن الاساطير المتصلة بملوك الفرس وأبطالهم ، هذا ومن الجدير بالذكر أن الفردوسي قصد بغداد بعد أن انقلب على محمود الغزنوي ولجأ الى بهاء الدولة البويهي ونظم ملحمته الشعرية المشهورة (يوسف وزليخا) والتي كانت لا تقل عن الياذة هوميروس في طول نفس الشاعر كما تميزت هذه المحلمة بالرقة وحسن التصوير وان اعتبرها الادباء انها دون الشاهنامه في الجودة والمكانة. ومات الفردوسي سنة٤١١هـ ـ ١٠٢٠م في بلدة طوس [١٧] .

وتوفي محمود الغزنوي بعد أن أصيب بمرض عاناه مدة سنتين لم يضطجع فيهما على فراش بل كان يتكيء جالسا حتى مات سنة ٤٢١هـ وهو كذلك ، وقبره لا يزال في غزنة .

وقبيل وفاة محمود الغزنوي أوصى بولاية العهد من بعده لولده محمد الذي كان ينوب عن والده بمدينة بلخ ، ولقبه جلال الدولة ، ولم يوص لمسعود ولده الاكبر ، وكان محمود قد مال عن ولده مسعود أثر وشاية دبرت ضد مسعود ، وكان هذا عند وفاة والده باصفهان [١٨] فسار الى خراسان وكتب الى أخيه يطلب منه اقراره على البلاد التي

---

(١٧) الفردوسي ، هو ابو القاسم الفردوسي توفي سنة ٤١١ هـ . راجع كتاب جهار مقالة ترجمة عزام . وكتاب الشاهنامة ترجمة عزام أيضا .

(١٨) البيهقي ـ تاريخ البيهقي ص ١٢ .

كان قد فتحها ، ولكن محمدا لم يلب طلب أخيه ، كما قلنا أن مسعودا كان أكبر سنا من محمد وأكثر شجاعة واقداما ، وهذه كانت من العوامل التي ساعدت مسعودا على الوصول الى عرش الغزنويين ، فقد ثار الجند ضد محمد ونودي بمسعود سلطانا للدولة الغزنوية ، فلقبه الخليفة القادر بالله بلقب ناصر دين الله وحافظ عباد الله وظهير خليفة الله ، وسيد ملوك السلاطين .

وعظم سلطان مسعود حتى اجتمع له ملك خراسان وغزنة والري وأصبهان وبلاد الجبل وفتح قلاعا في الهند كانت ممتنعة على أبيه ، وفي عصره ظهرت قوة السلاجقة وقد نجحوا في دخول هراة سنة ٤٢٢هـ وبدأوا بالاغارة على خراسان وقد نجح مسعود في كسب انتصار عليهم سنة ٤٢٦ هـ ، ولما كان مسعود مشغولا في فتوحاته في الهند ، فان هذا مما ساعد السلاجقة على التجمع والاستعداد والهجوم على القوات الغزنوية ، فاستولوا على مرو ونيسابور وسرخس سنة ٤٢٩ هـ، فاضطر مسعود على قتالهم فانتصر انتصارا أوليا سنة ٤٣٠ هـ ، ولكنه انهزم امام السلاجقة هزيمة منكرة سنة ٤٣١هـ [١٩] ، وبعد هذه الهزيمة فكر في اللجوء الى الهند لجمع جيوش جديدة والقيام بهجوم شديد على القوات السلجوقية ، وأخذ معه الى الهند أخاه محمدا الذي كان من قبل سلطانا، فلما عبر نهر سيحون ائتمر به بعض عسكره واكرهوا اخاه على موافقتهم واعتقلوه في قلعة كيكي [٢٠] ثم قتلوه سنة ٤٣٢ هـ .

---

(١٩) الراوندي ـ راحة الصدور ص ١٦٣ .

(٢٠) ابن الاثير جـ ٨ ص ٢٦ .

وتولى امور الغزنويين السلطان مودود بن مسعود الـذي حارب عمه محمد وانتصر عليه ودخل غزنة وقتل جميع أولاد عمه محمد عدا واحدا (عبد الرحيم وذلك لعدم رضاه لمقتل عمه) وقد بدت في الأفق خصومة بين مودود وأخيه مجدود الذي كان واليا على اقليم البنجاب ، الـذي أعلن استقلاله بلاهور والملتان وقد تجهز مجدود من اجل احتلال غزنـة ولكنه مات بلاهور سنة ٤٣٢ هـ (٢١) . وفي عهد مودود كان السلاجقة قد ازداد خطرهـم على مر الايـام وانتصر الب ارسـلان بن داوود السلجوقي على جيش مودود الغزنوي ، ومن الجدير بالذكر ان مودود هذا تمكن من احراز انتصار على الغزبنواص بست وفي سنـة ٤٤١ هـ كان يتأهب لمعركة جديدة مع السلاجقة ولكن المنية عاجلته في غزنة وله من العمر تسعة وعشرون سنة (٢٢) .

وتولى حكم الغزنويين ولده مسعود الثاني ولكن سرعان ما سيطر على السلطنة عمه علي بن مسعود الاول وانتهز الفرصة عبد الرشيـد بن محمود الغزنوي ودعا الجند الى طاعته وتأييده فسار الى غزنة وانهـزم منها علي بن مسعود فدخل المدينة عبد الرشيد ونصب نفسـه سلطانا وتلقب بعز الدولة وشمس دين الله .

وفي تلك الفترة عاشت الدولة الغزنوية فتـرة من الاضطرابات والقلاقل وسارت نحو الاضمحلال وبدأت في الظهور دولـة جديدة اتسعت على حساب الدولة الغزنوية، تلك الدولة هي الدولة السلجوقية.

---

(٢١) المرجع السابق ص ٢٨ .

(٢٢) المرجع السابق ص ٥٢ .

ملابسات فتح دمشق في روايات المؤرخين العرب

الدكتورة أمينه البيطار
كلية الآداب - جامعة دمشق

في التاريخ الاسلامي ثغرات متعددة ، وأحداث يصعب على المؤرخ أن يتخذ حولها موقفا جازما وحازما . وتبقى نتائجه التي يحصل عليها بمثابة ترجيحات ، وآراء تمثل في كثير من الاحيان وجهة نظر المؤرخ الشخصية المعتمدة على بعض الروايات التي رأى فيها الصحة ، قياسا الى بعض الحقائق التي يتصف بها المؤرخ ، صاحب المصدر ، ومقارنه مع الاحداث الاخرى المعاصرة ، وغير ذلك من أمور .

وقد عمل المؤرخون العرب القدامى - توخيا للنزاهة العلمية - على تسجيل اكثر من رواية للحادثة الواحدة ، دون تفضيل احداها على الاخرى . وقد تكون هذه الروايات مختلفة عن بعضها بعضا في الاسس أحيانا ، أو في بعض التفصيلات الجزئية في أحيان كثيرة ، أو أن الرواية تختلف من مؤرخ الى آخر بحسب ناقل الرواية . وفي كثير من الاحيان، تكون المعلومات مضطربة بشكل يعجز الباحث معها عن اعطاء رأي نهائي في الموضوع . ولذلك فان الوصول الى الحقائق يتطلب من المؤرخ بذل الكثير من الجهد والوقت .

ومهما يكن من أمر ، فان هذه العوائق التي يصادفها مؤرخنا الحديث ، والتي تجعل البحث شاقا وعسيرا ، يجب ألا تمنعه من المحاولة. فعليه وحده يقع عبء كتابة تاريخنا القومي كتابة علمية . ولا بد من أجل ذلك من أن يسخر كل امكانياته وجهده ، ما وسعه ذلك. وأن يترك المجال واسعا فسيحا أمام من يأتي بعده لاضافة ما يجدونه .

وقد أحببت أن أعرج لتأكيد حديثي هذا على ما أورده مؤرخونا القدامى في فتح مدينة دمشق من روايات ، والصعوبات التي تعتري مؤرخنا الحديث حين يريد اعطاء صورة صادقة ، أو اعطاء رأي جازم حول ذلك . وقد اخترت أن أجمع كل الروايات حول هذا الموضوع، والتي وردت في كتاب الواقدي [١] ، والبلاذري [٢] ، والطبري [٣] ، وخليفه بن خياط [٤] ، وتاريخ ابن عساكره [٥] . والتي تجعل القارىء بعد أن يطالعها يتسأل : هل فتحت دمشق قبل معركة اليرموك أم بعدها ؟ وهل كان فتحها صلحا أم حربا ؟ واذا كانت كما تذكر غالبية المصادر التاريخية قد فتح نصفها صلحا ونصفها الآخر حربا ، فأي الأجزاء تلك التي فتحت صلحا ، وأيها فتحت

---

(١) فتوح الشام ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة .

(٢) فتوح البلدان ، دار الكتب العلمية بيروت ، عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان .

(٣) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، الطبعة الثانية دار المعارف بمصر .

(٤) تاريخ خليفه بن خياط ، رواية بقي بن مخلد ، تحقيق سهيل زكار .

(٥) عبد القادر بدران : تهذيب تاريخ ابن عساكر ، مطبعة روضة الشام ١٣٢٩ هـ .

حربا ؟ ومن من القادة دخل صلحا ؟ ومن منهم دخل حربا ؟ وغير ذلك من الأسئلة التي تسجل مصادرنا روايات مختلفة حولها . وسأبدأ بتسجيل الروايات التاريخية التي ورد فيها زمن حدوث معركة اليرموك وفتح دمشق ، والملابسات التي لازمت هذا التأرجح في التأريخ للحادثتين . تاركة مناقشة بقية التساؤلات لبحث آخر .

أ ــ الروايات التي ذكرت فتح دمشق بعد معركة اليرموك .

أورد الطبري [١] رواية منقولة عن السري عن شعيب عن سيف عن محمد عن أبي عثمان عن خالد وعبادة جاء فيها : (... لما هزم الله جند اليرموك، وتهافت أهل الواقوصة [٢]. وفرغ المقاسم والانفال... استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب بن أبي الحميري ، كيلا يغتال بردة ... وخرج أبو عبيدة حتى ينزل بالصفر [٣] ، وهو يريد اتباع الغالة ، ولا يدري يجتمعون أو يفترقون ، فأتاه الخبر بانهم أرزوا الى فحل [٤] ، وأتاه الخبر، بان المدد قد أتى أهل دمشق من حمص . فهو لا يدري أبدمشق يبدأ أم بفحل من بلاد الاردن ...).

---

(١) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٣٦ .

(٢) الواقوصة كما وردت في هذه الرواية ، وقد ترد الياقوصة . واد بالشام في أرض حوران على اليرموك . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، دار صادر بيروت ١٩٥٧م ، جزء ٥ ، ص ٣٥٤ .

(٣) صفر بالضم ثم الفتح والتشديد والراء ، كأنه جمع صافر . وهو مرج الصفر : موضع بين دمشق والجولان . انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ٣ ، ص ٤١٣ .

(٤) موضع بالشام بالأردن قرب طبريه : ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٢٣٧ .

وقد أجاب الخليفة عمر بن الخطاب عن ذلك [١] بقوله : (أما بعد ، فابدأوا بدمشق ، فانهدوا لها • فانها حصن الشام ، وبيت مملكتهم • واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بازائهم في نحورهم ، وأهل فلسطين ، وأهل حمص • فان فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب ، وان تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق ، فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها ، وانطلق أنت وسائر الامراء حتى تغيروا على فحل ، فان فتح الله عليكم ، فانصرف انت وخالد الى حمص •••) •

ولم يقتصر الطبري [٢] في ذلك على رواية واحدة• بل أورد رواية أخرى بنفس المعنى في أحداث سنة ١٣ هـ [٣] ، عن عمر عن علي بن محمد قال فيها : (حدثني عمر عن علي بن محمد باسناده عن النفر الذين ذكرت روايتهم عنهم في أول ذكري أمر أبي بكر ، أنهم قالوا : قدم بوفاة أبي بكر الى الشام ، شداد بن أوس بن ثابت الانصاري ، ومحمية بن جزء ويرفأ • فكتموا الخبر الناس حتى ظفر المسلمون ــ وكانوا بالياقوصة [٤] يقاتلون عدوهم من الروم ، وذلك في رجب ــ فأخبروا أبا عبيدة بوفاة أبي بكر وولايته حرب الشام ، وضم عمر اليه الامراء ، وعزل خالد بن الوليد) •

كما أورد ابن عساكر [٥] رواية على لسان خالد وعباده وأبي

---

(١) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٣٧ ــ ٤٣٨ ابن بدران : تهذيب تاريخ ابن عساكر ، جزء ١ ، ص ١٥٤ ــ ١٥٥ .

(٢) المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٣٤ .

(٣) على حين ان فتح دمشق كان في سنة ١٤ هـ ، انظر فيما بعد .

(٤) هي نفس الواقوصة الذي ورد تعريفها فيما سبق ، انظر حاشية ٢ ، صفحة ٢٥ .

(٥) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٧٢ .

حارثة ، جعل فيها معركة اليرموك سنة ١٣ هـ ، وقد جاء فيها : (... ثم تواعدوا أن يكونوا باليرموك ، وبلغ هرقل أمر اجتماعهم ، فكتب الى بطارقته ، أن اجتمعوا لهم ، فنزلوا الواقوصة على ضفة اليرموك ... فقال عمرو أيها الناس ألا ابشروا حضرت والله الروم ... وكان خروجهم في صفر سنة ثلاث عشرة . فاقاموا شهري ربيع لا يقدرون من الروم على شيء ، ولا يخلصون اليهم ...) .

ويضيف ابن عساكر [1] رواية اخرى ، ينقلها عن رجال من أهل الشام عن أشياخهم ، دون أن يحدد أسماءهم ، فيقول : (... وانتهت الهزيمة (في اليرموك) الى هرقل وهو دون مدينة حمص . فارتحل ، وجعل حمص بينه وبينهم ، وأمر عليها أميرا ، وخلف فيها ... كما كان أمر على دمشق وخلف فيها وارتحل) .

ويبدو مما جاء في هذه الروايات ، أن معركة اليرموك كانت قبل فتح مدينة دمشق . وأن الراوي الأول لها سيف بن عمر . ثم تأتي رواية أهل الشام عن أشياخهم .

ب ـ الروايات التي ذكرت فتح مدينة دمشق قبل معركة اليرموك .

ينقل الطبري عن محمد بن اسحق والواقدي [2] ، أن فتح دمشق كان سنة ١٤ هـ في رجب . فيقول عن الواقدي : (فانه زعم أن فتح دمشق كان في سنة أربع عشرة . كما قال ابن اسحق . وزعم أن حصار

---

(١) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٧٣ .
(٢) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٤١ .

المسلمين لها كان ستة اشهر . وزعم أن وقعة اليرموك كانـــت في سنة خمس عشرة) .

ويورد خليفه بن خياط[1] في أحداث سنة أربع عشرة للهجرة نقلا عن ابن الكلبي : (كان الصلح (صلح دمشق) يوم الاحـد للنصف من رجب سنة أربع عشرة) . ثم ينتقل لتحديد تاريخ معركـــة اليرموك ، وينقل في ذلك عن محمد بن اسحق وابن الكلبي ، فيقول كانت الوقعة يوم الاثنين لخمس مضين من رجب سنة خمس عشرة .

ويذكر ابن عساكر نقلا عن الواقدي [2] ، والوليـد بن مسلـم ، ومحمد بن اسحق [3] أن فتح دمشق كان في سنة ١٤ هـ . وهاك رواية الواقدي كما نقلها : (وفي سنة أربع عشرة كان فتح مرج الصفراء [4] ، فأقام المسلمون بهاخمس عشرة ليلة من المحرم، ثم زحف المسلمون الى دمشق في المحرم ، فحاصروها ستة أشهر الا يوما) . أمـا عن معركـة اليرموك ، فيقول نقلا عن الوليد بن مسلـم ، ويزيد بن عبيدة [5] ، ومحمد بن اسحق [6] ، وسعيد بن عبد العزيز [7] . (وكانت اليرموك سنة خمس عشرة وعلى المسلمين أبو عبيدة بن الجراح).

أما الواقدي فقد ذكر في هذا المجال هاتين الروايتـــين : الرواية

---

(١) تاريخه ، جزء ١ ، ص ١١٢ .
(٢) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٤ .
(٣) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٦٩ .
(٤) مرج الصفراء هو مرج الصفر انظر حاشية ٣ ، ص ٢٥ .
(٥) ابن بدران : المرجع السابق، جزء ١ ، ص ١٥٩ .
(٦) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٦٩ .
(٧) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٦ .

الاولى يحدد بها ان ارتحال خالد بن الوليد الى دمشق لحصارها بعد فتحه لمدينة بصرى • فيقول [1] : (••• كتب (خالد بن الوليد) الى أبي عبيدة كتابا يبشره بالفتح (فتح بصرى) ويقول له : يا صاحب رسول الله قد ارتحلنا الى دمشق ، فالحقنا اليها • ثم كتب كتابا آخر الى أبي بكر الصديق يخبره برحيله (الى دمشق) •••) • ويحدد في الرواية الثانية تاريخ معركة اليرموك [2] • وهي مروية عن عبد الرحمن ابن الفضل عن يزيد بن أبي سفيان عن مكحول قال : (••• كانت وقعة اليرموك في رجب سنة خمس عشرة من الهجرة) •

كما يوحي الواقدي [3] للقارىء ، بان فتح مدينة دمشق كان قبل معركة اليرموك عن طريق ذكره للخطبة التي ألقاها هرقل الامبراطور البيزنطي في الجموع التي جمعها لارسالها الى اليرموك ، ويطلب من جنوده أن يقفوا موقفا صلبا من العرب الذين غلبوهم على مدن الشام ومنها دمشق فقال : (••• وقد غلبوكم على بصرى وحوران وأجنادين ودمشق وبعلبك وحمص) •

وكما اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ معركة اليرموك ، فانهم اختلفوا كذلك في تحديد تاريخ مدينة دمشق • فهي في سنة ثلاث عشرة للهجرة في بعض الروايات ، وفي سنة أربع عشرة في روايات أخرى •

١ ــ تجعل روايات الواقدي فتح مدينة دمشق سنة ١٣ هـ ، ومنها

---

(١) الواقدي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٣ •

(٢) الواقدي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢١٨ •

(٣) الواقدي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٦٠ ــ ١٦١ •

على سبيل المثال الرواية التي مفادها أن خالد بن الوليد بعد فتح مدينة بصرى ، انتقل مباشرة لحصار مدينة دمشق . وكتب كتابا الى أبي عبيدة ابن الجراح يبشره فيها بالفتح ، وقد جاء فيه (... يا صاحب رسول الله ، قد ارتحلنا الى دمشق فالحقنا اليها) . وكتب آخر الى الخليفة أبي بكر يقول له (... يوم كتبت اليك هذا الكتاب ارتحلت الى دمشق [1]) .

كما أورد رواية [2] يذكر فيها أن أبا بكر ارسل مخاطبا خالد بن الوليد قائلا له : (... وأخبرك ان تنزل الى دمشق ، الى أن يأذن الله بفتحها على يدك . فاذا تم ذلك فسر الى حمص وانطاكية والسلام عليك ...)

واتبع الواقدي هذه الرواية برواية أخرى تدل على أن دخول المسلمين لمدينة دمشق كان يوم وفاة أبي بكر فقال في هذا الشأن (... فقد ورد واتفق رأيهم أن يكتبوا كتابا الى أبي بكر الصديق (رض) في ذلك . وليس عندهم خبر انه مات يوم دخولهم دمشق) [3].

ويستطرد الواقدي [4] في ذكر الروايات المتتابعة ، والتي تجعل حصار مدينة دمشق في عهد الخليفة ابي بكر الصديق ، وأن القيادة لخالد ، وان وفاة أبي بكر في أثناء الحصار . فيذكر أن خالدا أراد بعد عودته من مطاردة فلول الخارجين من مدينة دمشق على أثر فتحها أن

---

(١) الواقدي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٣ .
(٢) الواقدي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٦٨ ـ ٦٩ .
(٣) الواقدي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٨٣ .
(٤) الواقدي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٩٢ .

يكتب كتابا الى الخليفة ابي بكر الصديق بالفتح والبشارة ، لانه لم يكن قد علم بوفاته، ثم يورد الواقدي تتمة للرواية [1] توضح انه كتب هذا الكتاب الموجه الى أبي بكر، وأن عمر تلقاه وقرأه على الناس . ثم انه (... نزل عن المنبر (عمر بن الخطاب) وكتب الى أبي عبيدة (رض) بتوليته وعزل خالد) .

واذا أخذنا هذه الروايات بعين الاعتبار ، فاننا نقرر أن دخول المسلمين الى مدينة دمشق كان في الايام الاخيرة من حياة الخليفة أبي بكر الصديق ، أو عقب وفاته مباشرة . ومعنى ذلك أن دخول المسلمين الى مدينة دمشق كان في نهاية النصف الاول من سنة ١٣ هـ ، لان أبا بكر توفي في جمادي الآخرة من هذه السنة .

٢ ـ هناك روايات أكثر عددا تلك التي جعلت فتح دمشق بعد وفاة الخليفة أبي بكر الصديق ، أو بالأحرى في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وفي سنة ١٤هـ . ومن هذه الروايات تلك التي ينقلها لنا ابن عساكر عن ابن اسحق ، ومفادها أن دمشق فتحت سنة ١٤ هـ ، واليرموك بعدها سنة ١٥ هـ . جاء فيها : قال ابن اسحق ، مات المثنى بن حارثة ... في سنة أربع عشرة ...، ودخل ابو عبيدة في تلك السنة دمشق ... فلما علم المسلمون بتلك الجموع ساروا اليهم ، وهم أربعة وعشرون ألفا عليهم أبو عبيدة بن الجراح ، فالتقوا باليرموك في رجب سنة خمس عشرة) [2] .

---

(١) الواقدي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٩٥ .

(٢) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٦٩ .

كما ينقل عن ابن اسحاق وينقل عنه أيضا الطبري رواية اخرى [1] مفادها (••• سار المسلمون الى دمشق، وعلى الناس خالد ابن الوليد • وقد كان عمر عزله [2] وأمر أبا عبيدة فرابطوها حتى فتح الله عليهم • فلما قدم الكتاب على أبي عبيدة بامرته وعزل خالد ، استحيا أن يقرىء خالدا الكتاب حتى فتحت دمشق • وكانت سنة اربع عشرة في رجب ، وأظهر ابو عبيدة أمرته ، وعزل خالد •••) •

أما الرواية التي ينقلها عن أبي حذيفة [3] فقد ورد فيها عبارات تعطي نفس المدلولات ، فتذكر (وولى أبو عبيدة حصار دمشق ، وولى خالد بن الوليد القتال على الباب الشرقي ••• فحاصروا دمشق بعد هلاك أبي بكر حولا كاملا وأياما •••) •

ولا تختلف عن هذه الروايات ، تلك التي أوردها ابن عساكر [4] على لسان الاوزاعي ، والتي يقول فيها : (كنت عند ابن سراقه ، عندما أتاه النصارى من أهل دمشق بعهدهم ، فاذا فيه ••• وكتب في رجب من سنة أربع عشرة) •

وينقل ابن عساكر عن الشيخ الاموي ، فيذكر : (قال الاموي : لما ولي عمر بن الخطاب فتحت على يديه دمشق سنة أربع عشرة) [5] •

---

(١) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٦ ــ الطبري : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٣٥ .

(٢) هكذا جاء في الرواية .

(٣) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٥٢ .

(٤) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٨ .

(٥) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٦ .

ويؤكد ابن عساكر ذلك بروايات أخرى ، فيذكر (في سنة أربع عشرة كان فتح مرج الصفراء ، فأقام المسلمون بها خمس عشرة ليلة من المحرم . ثم زحف المسلمون الى دمشق في المحرم ، فحاصروها ستة اشهر الا يوما ...) [١] .

وينقل عن الوليد بن مسلم قوله [٢] : (سمعت أشياخنا يقولون ، ان دمشق فتحت في سنة أربع عشرة . وأن عمر بن الخطاب توجه نحو الشام سنة ست عشرة ، فولاه الله فتح بيت المقدس على صلح ...وكانت اليرموك سنة خمس عشرة ، وعلى المسلمين ابو عبيدة بن الجراح) .

كما يذكر رواية منقولة عن سعيد بن كثير بن عفير المصري ، فيها ذكر لبدء حصار المدينة وانتهائه ، فيقول : (... فنزلوا عليها في رجب سنة ثلاث عشرة . وتوفي ابي بكر رضي الله عنه بعد ذلك ، وولي عمر ابن الخطاب ، فعلى يديه فتحت دمشق في سنة اربع عشرة ...) [٣] .

ويورد خليفة بن خياط [٤] رواية يوضح فيها الاشهر التي تم فيها الحصار ، يقول فيها : (حدثني بكر بن عطية قال : حاصرهم أبو عبيدة رجبا وشعبان وشهر رمضان وشوال ، والصلح في ذي العقدة) .

وكما اختلف المؤرخون حول السنة التي تم فيها فتح مدينة دمشق ، فانهم اختلفوا أيضا في الشهر الذي تم فيه الفتح . وفي المدة التي استغرقها الحصار . فالحصار في بعض الروايات سبعون يوما ، وفي

---

(١) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٤ .
(٢) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٦ .
(٣) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٦ ــ ١٤٧ .
(٤) تاريخه : جزء ١ ، ص ١١٣ .

بعضها الآخر أربعة أو خمسة أو ستة اشهر ، أو حولا كاملا ، أو أربعة عشر شهرا . والفتح كان في رجب أو شوال أو ذي القعدة وغير ذلك .

فمن الروايات التي ذكرت أن فتح دمشق كان في شهر رجب ، رواية الطبري [1] والواقدي ، وخليفة بن خياط [2] ، وابن عساكر [3] في ما نقلوه عن محمد بن اسحق ، والتي جاء فيها : (... وكان فتح دمشق في سنة أربع عشرة في رجب) . ولا تختلف عن ذلك الرواية التي أوردها خليفة بن خياط ، والتي ينقلها عن ابن الكلبي [4] وتزيد فقط عن سابقتها ، في تحديد يوم كتابة الصلح ، فيقول : (كان الصلح يوم الاحد للنصف من رجب) .

ويورد ابن عساكر [5] وكذلك البلاذري [6] ، نقلا عن الواقدي بان المسلمين زحفوا الى دمشق في المحرم ، وحاصروها ستة أشهر الا يوما . وتتفق مع هذه الروايات ، الرواية التي نقلها ابن عساكر عن ابي زرعة [7] .

أما ما ينقله ابن عساكر عن ابراهيم بن سيف بن عمر ، وخليفه بن خياط ، الذي ينقل بدوره عن بكر بن عطيه ، فيجعل وقعة دمشق في

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : جزء ٣ ، ص ٤٤١ .
(٢) تاريخه : جزء ١ ، ص ١١٢ .
(٣) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٦ .
(٤) تاريخه : جزء ١ ، ص ١١٢ .
(٥) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٤ .
(٦) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٢٧ ــ ١٢٨ ــ ١٣٠ .
(٧) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٦ .

شهر شوال فيقول : (كانت وقعة دمشق في شوال) [1] . وتضيف رواية خليفه بن خياط أن كتاب الصلح تم في ذي القعدة فتقول : (... حاصرهم أبو عبيدة رجب وشعبان وشهر رمضان وشوال ، وتم الصلح في ذي القعدة .)

اما رواية الواقدي [2] والتي تجعل فتح دمشق يوم وفاة ابي بكر الصديق ، فانها تشير بشكل غير مباشر الى أن الفتح تم في يوم الاثنين ٢٢ جمادي الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة [3] .

أما مدة الحصار فقد اختلفت الروايات فيها . فالمدة في رواية ابن عساكر المنقولة عن الواقدي [4] ستة اشهر الا يوما ، وكذلك في رواية الواقدي المنقولة عن محمد بن اسحق [5] . أما الرواية التي ينقلها ابن عساكر عن سعيد بن كثير بن عفير المصري ، فيجعل مدة الحصار فيها اربعة أشهر أو أربعة عشر شهرا فيقول : (... وحاصروها أربعة أشهر ، ومنهم من قال حاصروها اربعة عشر شهرا [6] . وتتفق معها الرواية التي نقلها المؤرخ نفسه عن ابي عثمان الصنعاني [7] ، فتجعل مدة الحصار اربعة أشهر فقط .

---

(١) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٦ ، على حين ان ابن عساكر نقلا عن الاوزاعي يرى أن الصلح تم في رجب سنة أربع عشرة ابن بدران ، جزء ١ ، ص ١٤٨ .

(٢) المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٨٣ .

(٣) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٤١٩ .

(٤) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٤ .

(٥) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٤١ .

(٦) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٦ — ١٤٧ .

(٧) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٧ .

اما الرواية التي يوردها ابن عساكر عن ابي حذيفة [1] ، فالحصار فيها يمتد لمدة سنة كاملة . فيقول : (فحاصروا دمشق بعد هلاك أبي بكر حولا كاملا واياما) . ورواية اخرى يذكرها لنا ، يقول فيها : (... ان حصار دمشق كان سبعين ليلة حصارا شديدا) . [2] .

بعد استعراضنا للروايات المختلفة في فتح دمشق . وبعد استقرائنا لها نجد : ان هذه الروايات المختلفة وردت على لسان مؤرخين معروفين، وكلهم ثقة لا يمكن الشك بما جاؤوا به . ومن هؤلاء السري ، وشعيب، وسيف بن عمرو ، وخالد ، وعبادة، ومحمد بن اسحق ، وخليفة بن خياط ، وابن الكلبي ، وبكر بن عطية ، والواقدي ، والشيخ الاموي ، وابو زرعة ، والوليد بن مسلم ، وسعيد بن كثير بن عفير المصري ، وأبي عثمان الصنعاني ، والاوزاعي .

ولا يمكنني الا أن أعمل جاهدة على الوصول الى الحقيقة ولو جزئيا . ولذلك فانني رأيت ما يلي :

١ ـ ان سبب الخطأ في تأريخ فتح دمشق واليرموك ، ان الروايات لم تسجل في حينها . بل تناقلها الناس عن طريق الرواية الشفهية . وان الراوي وبسبب خصائص الذاكرة الانسانية قد يخطىء بين التواريخ المختلفة . ولما كان مؤرخونا يتوخون الحقيقة والموضوعية، فانهم نقلوا الينا كل ما حمله لهم الرواة والحفظة، ولو كان الاختلاف في المتن بسيطا .

---

(١) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٥٢ .

(٢) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٥٤ .

٢ ـ يمكن القول أن فتح دمشق كان أسبق من معركـة اليرموك استنادا الى ما يلي :

ان التواريخ كتب الصلح التي أعقبت فتح دمشق كانت في سنـة اربع عشرة للهجرة ، وبالتحديد في رجب من هذه السنة [١] .

كما أن بعض الخطب التي وردت في هذه المصادر التاريخية، تؤكد بعض الروايات وترجحها على الاخرى . ومنها على سبيل المثال ما ورد في خطبة هرقل ، والتي ينصح فيها رجاله بالاستبسال في المعركة المقبلة وهي معركة اليرموك . ويذكرهم بغلبة العرب عليهم في بصرى وحوران وأجنادين ودمشق وبعلبك وحمص [٢] .

٣ ـ يمكن أن نضيف أن دمشق خرجت عن الطاعة أثناء معركـة اليرموك ، بسبب قوة الجيوش البيزنطية التي اخترقت بـلاد الشام في هذا الوقت ، وبسبب ما توقعه اهالي المدينـة من نجـاح الجيوش البيزنطية في الانتصار على المسلمين . ولما خاب أملهم وانتصـر العرب انتصارا ساحقا ، عاد أهالي دمشق يطلبون تجديد معاهدة الصلح . فقد ورد في المصادر التاريخية ، ان أهالي دمشق طلبوا تجـديد معاهـدة الصلح . ولا يمكن أن يكون طلب تجديد الصلح فقط لان خالـد بن الوليد حين كتب الكتاب الاول لم يضع له تاريخـا . فقـد أورد البلاذري [٣] رواية نقلها عن الواقدي قال فيها : (... وتاريخ كتـاب

---

(١) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٨ .
(٢) الواقدي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٦٠ ـ ١٦١ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

خالد بصلحها (صلح دمشق) في شهر ربيع الآخر سنــة خمس عشرة • وذلك أن خالدا كتب الكتاب بغير تاريخ ••• فلما اجتمــع المسلمون للنهوض الى من تجمع لهم باليرمــوك ، أتــى الاسقف خالــدا فسأله أن يجدد له كتابا ، ويشهد عليه أن أبا عبيدة والمسلمين ففعل • وأثبت في الكتاب شهادة أبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنه وغيرهم ، فأرخه بالوقت الذي حدده •

وقد طلب الاسقف كما جاء في هذا النص تجديد الكتــاب ، ولم يطلب منه تأريخه • واذا لم يكن هناك جديد ، فلا حاجــة لتجديده ، ويكفي التأريخ على الكتاب القديم • وبالتالي ، فان خروج دمشــق عن الطاعة أثناء اليرموك ، هو الذي جعل المؤرخين يحيرون ، هل فتحـت دمشق قبل اليرموك أم بعدها •

أما رواية سيف بن عمر ، والرواية التي جاءت على لســان بعض أهالي الشام عن أشياخهم ، والتي تجعل اليرموك قبل فتح دمشق ، فهي روايات ضعيفة للاسباب التالية :

أ ـ ان الرواية التي أوردها سيف بن عمر لم ترد الا على لسانه• وقد يكون تأثر بخروج دمشق عن الطاعة أثناء معركة اليرمــوك • وهو يعرف أن دمشق فتحت سنة ١٤ هـ ، فجعل اليرموك قبلها سنة ١٣ هـ •

ب ـ الرواية الثانية التي جاءت على لسان أهالي الشام ، والــتي تجعل هرقل يضع أميرا لدمشق أثناء فراره بعد اليرموك ، فلا يؤكد أن دمشق لم تكن قد فتحت بعد ، بل يمكن اتخاذه دليلا على خروج دمشق عن الطاعة (طاعة العرب المسلمين) اثناء معركة اليرموك •

٤ ـ ان عقد صلح دمشق باسم خالد بن الوليد ، يـــدل على أن مدينة دمشق هي التي كانت تحاصر أثناء وفاة ابي بكر ، وان خالد عزل في أثناء الحصار ، ولم يعلم به . ولذلك فانه وقع على كتـــاب الصلح بنفسه . وكتب الكتاب باسمه [١] . والذي يقول فيه : (كان خالد على الناس ، فصالحهم . فلم يفرغ من الصلح حتى عزل ، وولي أبو عبيدة).

٥ ـ ان أبا عبيدة كان يخاطب خالد بالامرة طيلةمدةحصار دمشق، وان خالد رفض الصلح الذي منحه ابو عبيدة في بداية الامــر ، وذكر بعض كلمات تنم عن أنه هو الذي يسير الامور ، وهو الـــذي يعطي الصلح أو يمنعه . ومما قاله خالد في هذا المجال مخاطبا ابا عبيـــدة : (وكيف صالحتهم من غير أمري ، وأنا صاحب رايتك ، والامير عليك.. فقال أبو عبيدة : والله ما ظننت أن تخالفني اذا عقدت عقـــدا ورأيت رأيا ، فالله الله في أمري ..) [٢] .

وبهذا يمكنني أن أحدد التالي : ان فتح مدينة دمشق أسبـق من معركة اليرموك . وان القيادة فيها كانت لخالد بن الوليد . وان فتحهـا تم في سنة ١٤ هـ ، وان بداية حصارها كان في سنة ١٣ هـ . على حـين أن معركة اليرموك كانت سنة ١٥ هـ . وان دمشق خرجـــت عن طاعة المسلمين أثناء معركة اليرموك .

وانني لا أدعي الوصول الى الحقيقة فيما كتبت ، ولكن محاولـة للبحث عن الحقيقة . وأرجو ان لم أكن قد توصلت اليها ، أن أكون قد اقتربت منها . والله من وراء القصد .

---

(١) خليفه بن خياط : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١١٢ .

(٢) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٣٥ .

روسيا ومشروع سكة حديد بغداد

الدكتور نوري عبد البخيت
جامعة البصرة

بدأ اهتمام المانيا بالدولة العثمانية منـذ النصف الاول من القرن التاسع عشر • وقد ظهر هذا الاهتمام في مؤلفات الاقتصادي الالماني الشهير «فردريك ليست» (١) • فقد نبه الى ما تتمتع بـه الامبراطورية العثمانية من أهمية كبرى بالنسبة لألمانيا ودعا الى مبدأ تكافؤ الفرص بين جميع الدول الاوروبيـة للاستفـادة من أسواق الامبراطورية العثمانية ، كما أنه تنبأ بقرب سقوط تلك الامبراطورية • وكان يرى أن اتحاد دول وسط اوروبا بزعامة بروسيا هو الوسيلة الناجحـة لمجابهة بريطانيا اذ بوسع هذا الاتحـاد أن يستفيـد من الاجزاء الاوروبية للامبراطورية العثمانية وعارض ليست هجرة العنصر الجرماني الى العالم الجديد ودعا الى أن تتجه الهجرة الى هذه الاجـزاء ولا سيما الـى هنغاريا لانها المدخل الى الدولة العثمانية (٢) •

---

1 - List - National System of PoliticealEconomy 1901 London .

2 - Ibid t IX p. 558 .

لقد دعا ليست الى اقامة شبكة من الخطوط الحديدية تربط بين اوروبا وأجزاء امبراطورية العثمانية كمصر وبلاد الشام وما بين النهرين، وان ذلك يقل أهمية عن خطوط الملاحة البحرية التي تربط بين اوروبا والشرق الاقصى لأن هذا المشروع سينعش التجارة الالمانية وسيسهل نقل مصنوعات بافاريا وفرانكفورت وميونيخ الى الشرق وسيلحق أضرارا كبيرة بالمصالح الفرنسية والروسية في الامبراطورية العثمانية [١] . كما ظهرت مثل هذه النوايا الالمانية الاستعمارية بالنسبة للدولة العثمانية بصورة واضحة في المقالات التي نشرها مولتكا بعد رجوعه من اسطنبول حيث شغل هناك منصب رئيس البعثة العسكرية الالمانية سنة ١٨٣٥ ــ ١٨٣٩ [٢] .

وبعد قيام الوحدة الالمانية وما تبع ذلك من تطور سريع في الاقتصاد الالماني ازداد اهتمام البرجوازية الالمانية بالدولة العثمانية كسوق لتصريف صناعاتها والاستفادة مما يتوفر فيها من المواد الاولية ، وهكذا بدأت المانيا منذ سنة ١٨٨٠ تكرس اهتماماتها في موضوع المسألة الشرقية . ولعل وجود البعثة العسكرية الالمانية برئاسة الفون «كولتز» في اسطنبول ١٨٨٢ ــ ١٨٩٥ أوضح دليل على تزايد النفوذ الالماني في الامبراطورية العثمانية . وتعتبر مصانع كروب الحربية من أولى المؤسسات الصناعية الالمانية التي عقدت صفقات تجارية مع الدولة العثمانية وخاصة بعد الحرب الروسية التركية ١٨٧٧ ــ ١٨٧٨ . ثم جاء دور البنوك الالمانية في الحصول على امتيازات بناء السكك الحديد في آسيا الصغرى .

---

1 -Ibid t VII 274 - 275 .

2 - Moltke - Speeches and momaries Newyork 1893 .

وظهرت فكرة مشروع سكة حديد بغداد منذ السبعين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر عندما فكر بها المهندس النمساوي «الفون بريسل» والذي كان يعمل لدى الدولة العثمانية كخبير في شؤون السكك الحديد • فرحب السلطان عبد الحميد الثاني بهذا المشروع وانجز القسم الاول منه في الفترة ١٨٧١ ــ ١٨٧٣ الذي يصل اسطنبول ومدينة أزمير وتم تنفيذ المشروع برؤوس أموال فرنسية ثم انتقل هذا الامتياز الى البنك الماني عام ١٨٨٨ • وقام هذا البنك بتأسيس شركة لبناء الخطوط الحديدية في الاناضول • ودخل رأس المال الالماني في صراع عنيف مع رؤوس الاموال الانكليزية والفرنسية للسيطرة على مشاريع السكك الحديد في الامبراطورية العثمانية حتى استطاع في نهاية القرن التاسع عشر أن يسيطر على ٢٥٠٠ كم من الخطوط الحديدية في آسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان (١) • وبعد اندحار الدولة العثمانية في حربها مع روسيا القيصرية ركز السلطان عبد الحميد اهتمامه على انجاز مشروع سكة حديد بغداد لتقوية نفوذ الحكومة المركزية على بقية الولايات لاسيما غير التركية منها ولتسهيل القضاء على الثورات التي تقوم في المناطق النائية من أرجاء الامبراطورية • الا أن انشغال السلطان بالحرب البلغارية ١٨٨٥ ــ ١٨٨٨ أخر تنفيذ المشروع• وكان السلطان عبدالحميد يحبذ أن يتولى تنفيذ هذا المشروع ألمانيا او الولايات المتحدة الاميركية باعتبار أن هاتين الدولتين ليست لهما أطماع سياسية في الامبراطورية العثمانية ، وان قيام احداهمابتنفيذه لا ينطوي على أي نوع من الاخطار • على أن العسكرية الالمانية أخذت تعير

---

(١) توبوليف ــ الأمبريالية والعسكرية الالمانية موسكو ١٩٦٥ ص ٢٢٢ « باللغة الروسية » •

مسألة الربط بين شبكة الخطوط الحديدية في أوروبا وشبكة الخطوط في آسيا الصغرى اهمية بالغة . وكان لبعثة الفون كولتز اثر ليس بالقليل على ذلك . اذ اقترحت على السلطان العثماني ضرورة بناء شبكة من الخطوط الحديدية في آسيا الصغرى لخدمة الاغراض العسكرية . ولم يهتم بسمارك بتلك المشاريع عكس الامبراطور وليم الثاني الذي أعار موضوع التوسع الالماني في الدولة العثمانية أهمية كبرى اضافة الى اعتقاده بان الحرب مع روسيا أمر حتمي وان الامبراطورية العثمانية ستكون حليفا لالمانيا في تلك الحرب [1] .

لقد شعرت روسيا القيصرية بخطورة هذا المشروع على مصالحها الاستعمارية في الامبراطورية العثمانية فحاولت القضاء عليه وهو لا يزال في المهد . فذكرت السلطان العثماني بالصداقة الروسية العثمانية وحذرته من مغبة اعطاء الامتيازات لبناء السكك الحديد في بلاده للدول الاوروبية . فلم يلتفت السلطان العثماني الى التحذيرات الروسية لاعتقاده بان روسيا لا تملك قدرات عسكرية فعالة تمكنها من مجابهة النفوذ الالماني . يضاف الى ذلك ان على بتروغراد ان تأخذ بنظر الاعتبار طوعا أو كرها مصلحة حليفتها فرنسا في الحصول على امتيازات جديدة لرؤوس اموالها في أرجاء الامبراطورية العثمانية . الا أن روسيا حاولت من جهة اخرى الاتفاق مع المانيا لحماية مصالحها في الامبراطورية العثمانية والتي ستتعرض للخطر نتيجة لتزايد النفوذ الالماني في اسطنبول . فصرح السفير الروسي في برلين أثناء حديثه مع وزير خارجية

---

(١) خفستوف ـ تاريخ الدبلوماسية ، موسكو ١٩٦٣ جـ ٢ ص ١٣٦ ـ ١٣٧ « باللغة الروسية » .

المانيا الهر بيلوف . بان النجاحات الاقتصادية الالمانية في الامبراطورية العثمانية سوف تؤدي الى انتصار السياسة الالمانية وهيمنتها على الدولة العثمانية ، وهذا ما لا تسمح به روسيا . فرد عليه الوزير الالماني بقوله : ان ما تحتاج المانيا اليه هو الاسواق وأهدافها اقتصادية فقط وليس هناك أية خطورة على المصالح السياسية الروسية في الامبراطورية العثمانية . الا ان روسيا لم تثق بهذه التعهدات فاقترحت على المانيا توقيع اتفاق ينص على اعتراف المانيا بحقوق روسيا في المضايق مقابل تعهد روسيا بعدم عرقلة مشاريع السكك الحديد في آسيا الصغرى [1]. وصرح السفير الروسي : بان أهداف حكومته هي ضمان سلامة الدولة العثمانية ولا يسمح بزحزحة المصالح الروسية في المضايق أو تعرضها للخطر وفي حالة ظهور مثل هذه الاخطار فان روسيا ستكون ملزمة باحتلالها [٢] .

لم تعر الحكومة الالمانية اذنا صاغية للتهديدات الروسية وعروضها بعقد الاتفاقية بسبب قوة مركزها في السياسة الدولية بعد حصولها على ميناء «بورت ارثر» في البر الصيني والذي حد من نفوذ روسيا في الشرق الاقصى وشكها في احتمال لجوء روسيا الى اسلوب القوة والحرب لحماية مصالحها ولذلك لم تر من مصلحتها أن توافق على تحديد نفوذها في الدولة العثمانية .

---

1 - W. L. Langer . the diplomacy of imperialism1890 - 1902 New-york 1951 p. 640 .

(٢) خفستوف ــ تاريخ الدبلوماسية ، موسكو ١٩٦٣ جـ ٢ ص ١٣٨ « باللغة الروسية »

زار الامبراطور وليم الثاني اسطنبول للمرة الثانية سنة ١٨٩٨ . وقد ساعدت هذه الزيارة المؤسسات الالمانية في حصولها على امتياز سكة حديد بغداد وتمت موافقة السلطان المبدئية على ذلك المشروع في ٢٣ كانون أول من عام ١٨٩٩ وقد استاء الحكام الروس بعد أن وصلت اليهم أنباء الامتياز لاسيما وان روسيا القيصرية كانت أشد الدول الاوروبية معارضة للمشروع منذ اللحظة الاولى لظهور فكرته . اذ أنها اعتبرته وسيلة لتقوية النفوذ الالماني في الامبراطورية العثمانية وانه سيسهل نقل وتصدير منتجات الحبوب من كافة ارجاء الامبراطورية العثمانية الى الاسواق العالمية . وفي نفس الوقت يسهل مهمة نقل المنتجات الصناعية الاوروبية وخاصة الصناعات الالمانية الى أسواق الشرق وهذا ما يهدد مصالح النبلاء والاقطاعيين الروس واصحاب المصانع والتجار منهم في الوقت الذي يحول فيه الامبراطورية العثمانية الى مستعمرة المانية . ولم يكن المشروع ضد خطط روسيا القيصرية التوسعية في الشرق الادنى فقط بل جاء تهديدا مباشرا لحدودها الجنوبية كذلك . وكان لهذه الاعتبارات أثر واضح في تحديد موقف روسيا القيصرية من مشروع السكة . وقد كتب السكرتير الاول للسفارة الروسية في اسطنبول « تشاريكوف» في سنة ١٨٩١ مقالة المعنون « تساؤلات حول مشروع سكة حديد آسيا الصغرى » جاء فيه: ستنافس آسيا الصغرى روسيا بعد تنفيذ مشروع سكة حديد الاناضول ـ بغداد في تصدير الصوف والجلود والحبوب الى الاسواق العالمية كما سيسهل عملية تدفق البضاعة الغربية ورؤوس الاموال الى آسيا الصغرى وسيمتد ذلك الى اسواق فارس بعد ان كانت سكة حديد القفقاس مغلقة امام البضاعة الاوروبية منذ سنة ١٨٨٣ فستصل هذه

البضائع الى شمال فارس عن طريق آسيا الصغرى [1] . وقد أوضح تشاريكوف انبناء الخطوط الحديدية في آسيا الصغرى سيساعد على تدفق البضاعة الاوروبية الرخيصة الى فارس وافغانستان ويوجه ضربة قوية للصادرات الروسية الى تلك الاقطار . وجاء في تقارير تشاريكوف السرية التي بعث بها الى بتروغراد ان بناء شبكة الخطوط الحديدية في آسيا الصغرى سيؤدي الى توسع النفوذ الاقتصادي للدول الاوروبية ولا سيما المانيا وبريطانيا في الدولة العثمانية وان هذا النفوذ الاقتصادي سيؤدي بدوره الى ازدياد النفوذ العسكري والسياسي لتلك الدول على سواحل البوسفور وعندئذ تفقد روسيا ممرها الحيوي الوحيد من خلال البحر الاسود ومن جميع مناطق الجنوب ولا يمكن استرجاع هذا المنفذ الحيوي الا باندلاع حرب عالمية [2] . وقد حققت البرجوازية الروسية في الواقع مكاسب اقتصادية مهمة في الشرق الادنى ففي سنة ١٩٠٠ كانت العلاقات التجارية الروسية التركية تكون ٩ بالمائة من مجموع التجارة الخارجية للامبراطورية العثمانية .وفي هذا الوقت كان المجموع السنوي لقيمة البضاعة المصدرة من روسيا الى تركيا ٣٠ مليون روبل والى فارس ٤١ مليون روبل وكانت معظم تلك الصادرات من الاقمشة والدقيق والجلود والحبوب . ولا شك في أن فوائد هذا المشروع لا تقتصر على سد حاجة أسواق تركيا بما تحتاج اليه من الحبوب فقط بل ستسهل لها عملية تصدير المواد الغذائية الى الاسواق

---

(١) تشاريكوف ـ تساؤلات حول مشاريع السكك الحديدية في آسيا الصغرى ـ مقتطفات جغرافية وطوبوغرافية حول آسيا ج ٩ بتروغراد سنة ١٨٩١ ص ١٠ « باللغة الروسية » .

(٢) نوفيجيف ـ اقتصاديات تركيا حتى الحرب العالمية الاولى موسكو ١٩٣٧ ص ١٤٦ « باللغة الروسية »

العالمية، وسيصبح بامكان المنتجات العثمانية منافسة المنتجـات الروسية في تلك الاسواق • يضاف الى ذلك المنافسة التي ستتعرض لها المنتجات الروسية في الاسواق العثمانية والفارسية من تدفق البضـائع الالمـانية والنمساوية • كما ستغزو الاسواق الاوروبية ملايين الاطنان من حبوب وادي الرافدين بعد تنفيذ المشروع مما سيوجه ضربـــة قوية للمنتجات الزراعية الروسية في اسواق اوروبا (١) •

اما المخاطر العسكرية للمشروع فتكمن في أنه سيسهل على الدولة العثمانية نقل جيوشها من كافة ارجاء الامبراطورية الى حـدود روسيا الجنوبية • وستقوى تركيا عسكريا وهي التي تحتفظ بمفتـاح البحر الاسود • كما سيسهل المشروع نقل الجنود من اوروبـا الى حـدود القفقاز وقد أشار الفون كولتز على السلطان العثماني صراحة بان تتهيأ الامبراطورية العثمانية للعدو الكبير ويقصد به روسيا • وستظهر أهمية السكك الحديد في هذا المجال لقيامها بنقـل الجيوش من اوروبا الى حدود القفقاس خاصة وقد أكد الامبراطور وليم الثـاني بان الدولة العثمانية ستكون حليفة لالمانيا في حربها المنتظرة ضد روسيا (٢)• كمـا اعتبرت روسيا أن تنفيذ المشروع سيؤدي الى احتـلال الالمان آسيـا الصغرى بصورة سلمية وذلك عن طريق ارسال المهاجرين الى المناطق التي سيمر بها خط السكة وكان الاقتصادي الالماني الشهير «فردريك ليست» قد دعا الى ذلك صراحة في النصف الاول من القرن التاسع عشـر ، وما

---

(١) توميلوف ـ تقرير حول رحلة في تركيا الاسيوية ج ١ بتروغراد سنة ١٩٠٧ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ « باللغة الروسية »

2 - Earle Edward mead - Tuyrky the great power and the Baghdad railway . New york 1939 p. 65 66 .

سيؤدي اليه ذلك من ارهاق الخزينة العثمانية ورأس المال العالمي في مشاريع وأهداف لا تخدم مصالح روسيا القيصرية اطلاقا [1]. ولا يخفى أن روسيا لا ترغب أن يكون لها جار قوي ولذلك فانها تعمل على أن تبقى الدولة العثمانية ضعيفة . ولا يفوتنا أن نشير الى وجود مشروع روسي مقترح حول مد خط حديدي من ارمينيا الى الاسكندرونة ، مما يجعل مشروع سكة حديد بغداد معارضا لهذا المشروع الروسي . وذلك مما يزيد في معارضة روسيا مثل هذه المشاريع . وقد ازدادت المقاومة الروسية للمشروع شدة بعد ان طرح المهندس النمساوي «ليسمان» مشروع بناء جسر يربط بين ضفتي البوسفور في المكان الذي لايزيد فيه عرض المضيق ٦٠٠م بين حصار روميلي وحصار اناضول . وكان القصد من وراء هذا المشروع ليس فقط ربط السكك الحديدية المباشرة بين اوروبا وآسيا بل انه يحمل اهدافا عسكرية ايضا تتمثل ببناء القلاع والحصون العسكرية على جانبي الجسر المقترح [2] . فادرك الحكام الروس خطورة المشروع على مصالح روسيا الاستعمارية وضرورة بذل جهود مكثفة لتحويل مسار السكة من الشرق والجنوب بعيدا عن سواحل البحر الاسود والقفقاس وخاصة بعد فشل محاولاتهم الرامية الى احباط المشروع قبل ولادته . فتقدمت الحكومة الروسية بطلب الى العثمانيين حول حصول روسيا على امتياز بناء السكك الحديد في المناطق الواقعة في جنوب سواحل البحر الاسود ودارت محادثات بهذا الشأن بين السفير الروسي في اسطنبول «زينو فيسيف»

---

1 - Ibid p. 140

2 - W L. Langer diplomacy of Imperialism 1890 - 1902 New-york 1961 p. 640 .

ووزير خارجية الدولة العثمانية توفيق باشا • وكانت السفارة الالمانية في العاصمة العثمانية تتابع اخبار هذه المحادثات بكل دقة وعناية ولم تقف في وجهها أية صعوبة في حصولها على ما دار في تلك المحادثات نظرا للعلاقات الحسنة القائمة بين المانيا والدولة العثمانية • وحينما علم السفير الالماني في اسطنبول ــ مارشال ــ بالمشروع الروسي حول انشاء خط حديدي في المناطق الجنوبية للبحر الاسود اقترح على حكومته وجوب اتخاذ موقف صلب لاحباط المشروع الروسي والمباشرة بانشاء سكة حديد بغداد دون انتظار النتائج النهائية للمحادثات الروسية العثمانية ودون انتظار تقرير لجنة «شتيمريخ» الموفدة الى بلاد ما بين النهرين حول تثبيت مسار الخط • واقترح أن يكون هذا المسار من خلال دياربكر ــ الموصل ثم الضفة اليسرى لنهر دجلة • وقد اعتقد مارشال ان هذه الاقتراحات سوف لا تخدم المصالح الالمانية فقط ولكنها ستحبط محاولات روسيا في الحصول على امتياز انشاء خط حديدي في جنوب البحر الاسود [1] •

وصلت المفاوضات الروسية ــ العثمانية الى طريق مسدود في شباط عام ١٩٠٠ بسبب تعنت الجانب العثماني لاعتقاده بعدم لجوء روسيا القيصرية الى اسلوب القوة في الحصول على هذا الامتياز يضاف الى ذلك النشاط الدبلوماسي الالماني في احباط تلك المفاوضات في الوقت الذي طلبت فيه من روسيا المساهمة في المشروع [2] • فحاولت الدبلوماسية الالمانية

---

(١) بروسليمسكي ــ السياسة الخارجية والدبلوماسية الالمانية في نهاية القرن التاسع عشر موسكو ١٩٥١ ص ٥٠٢ « باللغة الروسية »

(٢) Earle p. 83 .

اقناع السفير الروسي بان تعاون اصحاب رؤوس الامــوال من الروس والالمان في آسيا الصغرى يعتبر من أحلام وطموحات الساسة الالمان في الوقت الذي آوصى فيــه السفير الالماني المسؤولين العثمانيين بضرورة قطع مفاوضاتهم مع روسيا • وحاول الحكـــام العثمانيون استغــلال الخلافات الروسية الالمانية وتعميقها لصالحهم • وعلى هــــذا الاساس كشف توفيق باشا للسفير الالماني في ٢٥ شباط ١٩٠٠ محادثـــاته مع السفير الروسي فـــي اسطنبول والذي اعلن بان روسيا ستكشف عــن مطالبتها في الحصول على امتيازات السكك الحديد في آسيا الصغرى فيما اذا رفضت الدولة العثمانية الامتياز الالماني لمشروع سكـــة حديد بغداد • وبعكس ذلك فقد هدد زينو فيسيف بقيـــام الثورة في شبه جزيرة البلقان ضد السلطات العثمانية [١] ولما علم الروس بذلك طلبت وزارة الخارجية الروسية من سفيرها في اسطنبول ان يكون حـذرا في محادثاته مع المسؤولين العثمانيين وأن يكف عن المواقف العلنية والصريحة في مناهضة المصالح الالمانية في الامبراطورية العثمـانية • فتوقف زينو فيسيف الحاحه على السلطات العثمانية برفض مشـــروع سكة حديد بغداد خاصة وقد انتهى خطر قيام الثورة في البلقـــان الذي استغلته روسياكوسيلة للضغط على الدولة العثمانية من اجل تنفيذ مطاليبها •

ويتضح الموقف الروسي الجديد في الرسالة التي بعث بهـــا وزير خارجية روسيا موار فيسيف الى السفير الروسي في برلين التي تضمنت عدم معارضة روسيا للمشروع كليا وانما اقتصرت على عـــدم اقتراب السكة من المناطق الواقعة الى الجنوب من سواحل البحر الاسود حيث المصالح الاستعمارية لروسيا وعلى ضوء الموقف الروسي الجديد أراد

---

(١) نوفيجيسيف ـ تاريخ الاقتصاد التركي حتى الحرب العالميــة الاولى موسكو ١٩٣٧ ص ٢٣٢ « باللغة الروسية » .

زينو فيسيف ان يقنع المسؤولين العثمانيين بمنح رؤوس الاموال الروسية امتيازات انشاء الخطوط الحديدية في المنطقـــة المذكورة اذا ما قررت السلطات العثمانية انشاء تلك الخطوط هناك [١] . الا ان الدبلوماسية الالمانية عارضت المواقف الروسية الجديدة كما عارضها السفير البريطاني في اسطنبول ـ كونور ـ الذي هاجم المطاليب الروسية بشدة حتى أنه في ٢ مارس سنة ١٩٠٠ هدد برفض الحكومة البريطانية تنفيذ التعهدات الملقاة على عاتقها بموجب اتفاقية قرض سنة ١٨٧٨ اذا ما منحت روسيا مثل تلك الامتيازات [٢] كما حاولت الدبلوماسية البريطانية دفع المانيا مجابهة المشاريع الروسية فنبه رئيس وزراء بريطانيـا في كانون الثاني سنة ١٩٠٠ الحكومة الالمانية الى التحشدات الروسيـــة في آسيا وان الغرض منها ارهاب السلطات واجبـاره على الموافقـــة على المشاريع الروسية ، وان روسيا تنوي بناء شبكة من الخطوط الحـديدية تحيط بسواحل البحر الاسود . ودعا للعمل المشترك لاحبـاط تلك المشاريع . وساهمت الصحافة البريطانية ايضا في ذلك فقد أشارت بعضهـــا الى وجود تحشدات روسية تقدر بـ ٢٥٠ ألف جندي على الحدود الروسية العثمانية في القفقاس [٣] .

وعلى الرغم من معارضة بريطانيا والمانيا وفرنسا واتهامهم روسيـا بمحاولاتها لتحويل آسيا الصغرى الى منطقة نفوذ روسية فقد استمرت

---

(١) خفستوف ـ تاريخ الدبلوماسية ج ٢ ، موسكو ١٩٦٣ ص ٤٥٥ ـ ٤٥٦ . « باللغة الروسية »

(٢) مذكرات زينوفيسيف ٤ ـ ١٧ مارت سنة ١٩٠٠ موسكو ١٩٢٢ « باللغة الروسية »

(٣) Standard 28 Mart 1900 .

المحادثات الروسية العثمانية. وتتضح اهداف روسيا من هذه المفاوضات من فحوى الرسالة التي بعث بها موارفيسيف الى القيصر نيقولا الثاني: وقد جاء فيها : تهدف شروطنا التي نطرحها على السلطـــان الى تأمين المناطق الغربية من سواحل البحر الاسود وحدودنا مع آسيا الصغرى في القفقاس من أي عدوان أو غزو اجنبي وذلك بان يمتنع السلطان عن منح اقامة السكك الحديدية في هذه المنطقة لأية دولة اجنبية ، وان يتعهــد كذلك بعدم تحصين البوسفور . كما دعا مورا فيسيف في رسالته الى التوفيق بين المصالح الروسية والالمانية في الامبراطورية العثمانية بشرط أن لا يفسح المجال لالمانيا بان تلعب دور فعال على سواحــل البوسفور حيث تملك روسيا مهمة تاريخية [1] ، لقد حققت المفاوضات الروسيــة العثمانية تقدما ملحوظا عندما وقع وزير الخارجية العثماني توفيق باشا مع السفير الروسي في اسطنبول زينو فيسيف اتفاقا في ٣١ مارت سنة ١٩٠٠ تضمن موافقة الجانب العثماني على انه اذا ما تقرر انشاء خطوط حديدية في المناطق الممتدة بين سواحل البحر الاسود وخط المدن المتمثل بـ انقرة ــ قيصري ــ سيواس ــ خاربوت ــ دياربكر ــ وان . فانها ستقيمها باموالها الخاصة وفي حالة عجز رأس المال العثماني عن القيـــام بذلك فيمنح الامتياز الى رؤوس الاموال الروسية بنفس الشروط التي منح بموجبها مشروع سكة حديد بغداد ــ برلين الموقعة في ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٨٩٩ [2] علما ان روسيا لم تحقق كل طموحاتها واهدافهـــا بهذا الاتفاق اذ ان تعهد السلطان بعدم منح الدول الاجنبية أي امتيــاز

---

(١) الارشيف الأحمر ، موسكو ١٩٢٦ ص ١٠ـ١١ «باللغة الروسية»

(٢) نوفيجيف ــ تاريخ الاقتصاد التركي حتى الحرب العالمية الاولى موسكو ١٩٣٧ ص ٢٣٣ « باللغة الروسية » .

بناء السكك الحديدية خلال عشرة سنوات في مناطق آسيا الصغرى الواقعة على سواحل البحر الاسود وعلى حدود روسيا في القفقاس كانت عهدا شكليا [1] كما استثنى الاتفاق المنطقة الممتدة بين مدينة ادا بازر ــ هرقليا من احكامه وذلك بتأثير النفوذ الالماني على السلطان العثماني كما لم يعالج الاتفاق كافة المشاكل التي تعاني منها روسيا القيصرية والتي ظهرت نتيجة للتوغل الالماني في الامبراطورية العثمانية. وكان المكسب المهم الذي حصلت عليه روسيا من ذلك هو تعهد العثمانيين بابعاد مسار سكة حديد بغداد عن سواحل البحر الاسود وان يكون مسارها جنوب انقره عبر جبال طوروس ثم أضنه ــ حلب ــ الموصل ــ بغداد •

ان نجاح المانيا في حصولها على امتياز سكة حديد بغداد ثم تواجد البعثات العسكرية الالمانية وتزويد الجيش العثماني بالسلاح الالماني ومحاولة الحصول على امتيازات جديدة لمد فروع جديدة لسكة حديد بغداد • كل هذه الامتيازات تعني وقوع الدولة العثمانية في الحلقة الستراتيجية العسكرية الالمانية • وهذا مما زاد من قلق العسكريين الروس وشعورهم بالخطر الالماني المتزايد ولم يكن من الصدفة ان ترسل الحكومة القيصرية بعثة عسكرية تحت اشراف الجنرال (توميلوف) في سنة ١٩٠٠ لدراسة الاهمية العسكرية لمشروع سكة حديد بغداد فكان على البعثة ان تدرس أهمية الخط للمسافة بين أضنة ولموصل واثر ذلك على سرعة نقل الجيوش العثمانية الى حدود القفقاس •

فجاء تقرير اللجنة بعد زيارتها لتلك المنطقة موضحا ما ينطوي عليه

---

(١) W. L. Langer p. 646 .

هذا المشروع من مخاطر عسكرية تهدد حدود روسيا الجنوبية وخاصة منطقة القفقاس. فقد جاء في التقرير (ان السكك الحديد ستساعد على نقل الفيلق التركي الخامس الموجود في ديار بكر الى الحدود الروسية بمدة لا تتجاوز نصف اسبوع في الوقت الذي كان مقررا ان هذه العملية تستغرق اسبوعين ونصف او ثلاثة آسابيع . وبالنسبة للفيلق السادس المتواجد في آرضروم فلا تزيد مدة نقله على ثلاثة أيام بدلا من اسبوعين او ثلاثة كما ستساعد السكة على تنقل الجيوش العثمانية بسرعة للقيام بمناورات عسكرية ضد روسيا يضاف الى ذلك انه سيصبح بامكان الدولة العثمانية الابقاء على وحدات عسكرية قليلة في هذه الاماكن وتتكاثف عند الحدود الروسية [1] وأشار في ختام تقريره الى خطورة النفوذ الالماني في الامبراطورية العثمانية بالنسبة للمصالح الروسية . وفي الواقع فان هذا المشروع يعزز مكانة الدولة العثمانية العسكرية بقدر ما يقوي من مركز الامبريالية الالمانية في الامبراطورية العثمانية ، وسيكون بامكان الجيش الالماني الوصول الى حدود القفقاس بفترة زمنية تتراوح بين ٦ ـ ١٠ ايام كما سيتيح للامبريالية الالمانية السيطرة على مضايق البوسفور والدردنيل وستتمكن من فرض حصار عسكري على المناطق الجنوبية للحدود الروسية ويسهل عملية وصولها الى فارس . لقد حددت هذه الاسباب اضافة الى تهديد معالم الطبقات المتنفذة في روسيا القيصرية موقف الدبلوماسية الروسية من مشروع سكة حديد بغداد . حاولت روسيا عرقلة تنفيذ المشروع عن طريق اقناع بريطانيا بعدم المساهمة المالية في تكاليفه [٢] كما تمكنت من صرف

---

(١) توميلوف ـ ملاحظات حول رحلة في تركيا الاسيوية ج ١ بتروغراد سنة ١٩٠٧ ص ٤١٣ ـ ٤١٥ « باللغة الروسية »

2 - J. B. Walf - the diplomatic history of Baghdad Railroad L. 1933 p. 40 .

فرنسا عن المشروع ولو لفترة قصيرة ولكن سرعان ماغيرت فرنسا موقفها واظهرت استعدادا للمساهمة فيه ولم تقف فرنسا عند هذا الحد بل اخذت باقناع روسيا للمشاركة المالية في المشروع اذ انها اعتقـــدت ان رفض روسيا ما هو الا مناورة للحصول على مكاسب سخية ولذلك استمـرت محاولاتها في اقناع روسيا مستغلة كونها في حلف واحد الا ان المحاولات الفرنسية هذه باءت بالفشل ولم تلق تأييدا من قبـــل لامزداروف وزير الخارجية وفيته وزير المالية اللذين يمثلان العناصر الاكثر رجعيــــة في الحكومة الروسية ، وقد أيدتها الصحافة الرجعية في روسيا كصحيفـــة الازمنة الحديثة التي نشرت في آب ١٩٠١ مقالتين أكدت في المقالةالاولى على ان مشروع السكة لا يخدم الا مصلحة المانيا فقط واتنقـدت موقف بريطانيا من المشروع واعتبرت مساهمتها او تأييدها للمشـروع تدميـرا لمصالحها لانها تساعد المانيا على الوصول الى الخليج العربي [1] • واكدت في المقالة الثانية على أن مساندة بريطانيا مشروع سكة حديد بغداد يعني مساهمتها في فتح الطريق للبضائع الالمانية لكي تصل الى الهنـد • كما هاجمت الصحيفة وأنصارها المساندة الفرنسية للمشروع واعتبرت مساهمة فرنسا فيه متناقضة لمضمون الاتفاق الروسي الفرنسي سنة ١٨٩١ [٢] •

وفي اللقاء الذي تم بين القيصر نيقولا الثانـــي والامبراطور وليم الثاني في مدينة دانزاك في الفترة ١١ـ١٣ ايلول سنـــة ١٩٠١ حـاول الامبراطور الالماني اقناع القيصر الروسي في أن مشروع سكة حديد بغداد مشروع تجاري صرف وأن أهدافـه عالميـة وان مصلحة روسيا ستؤخذ بنظر الاعتبار عند تحديد مسار السكة وان المانيا سوف لاتساهم

---

(١) الازمنة الحديثة ١٧ آب سنة ١٩٠١ موسكو « باللغة الروسية »

(٢) الازمنة الحديثة ١٨ آب سنة ١٩٠١ موسكو « باللغة الروسية »

باكثر من ٢٥ بالمائة من مجموع اسهم الشركة • وفي ٢٤ ايلول سنة ١٩٠١ اعلن وزير خارجية المانيا عن قناعة القيصر الروسي بسياسة المانيا في الشرق وترحيبه بفكرة مساهمة راس المال الروسي في المشروع واعتقاده بصحة ادعاءات المانيا بان مشروع السكة تجاري بحت• ويظهر ان هذه الاتفاقيات لم تتعد اطار المجاملة اذ استمرت الصحافة الروسية في مهاجمة مشروع السكة كما استمر زينو فيسيف في مناهضته للسياسة الالمانيةفي اسطنبول ولذلك فقد طلب بيلوف ــ وزير خارجية المانيا في ١٩ تشرين أول من عام ١٩٠١ من الممثل الالماني في بتروغراد ان يحتج لدى الحكومة الروسية حول المقالات اللاذعة التي توجهها الصحافة الروسية ضد المانيا ووجوب الفات نظر زينو فيسيف للكف عن مهاجمته الدبلوماسية الالمانية في العاصمة العثمانية الا ان جواب لامزداروف على مذكرة الاحتجاج لم يكن مرضيا اذ جاء في قوله لا تدهشه تحركات الصحافة الروسية مادامت هذه التحركات متطابقة مع المصالح الروسية والالمانية [١] وحاولت روسيا عرقلة تنفيذ المشروع عن طريق مطالبتها للسلطة العثمانية بدفع ما بذمتها من غرامات نقدية وتعويضات الحرب• ومن جانب آخر استمرت الضغوط الالمانية لاقناع روسيا للمساهمة في المشروع ضمن شروط مغرية مثل اعطائها ٤٠ بالمائة من مجموع الاسهم وحصولها على مركز ملائم في مجلس ادارة السكة• ومع ذلك بقيت روسيا متحفظة تجاه هذا المشروع وفي كانون الثاني من سنة ١٩٠٢ اعلن فيته وزير مالية روسيا أسباب رفض روسيا المساهمة في مشروع السكة وهي : ــ

١ ــ ستنقل سكة حديد بغداد الحبوب والغلال الرخيصة من

---

(١) مذكرات زينو فيسيف ١٥تشرين ثاني سنة ١٩٠١ موسكو ١٩٢٢ « باللغة الروسية »

آسيا الصغرى وبلاد مابين النهرين الى الاسواق الاوروبية فتنافس الغلال والحبوب الروسية •

٢ ـ ستقلل من اهمية الطريق البري بين اوروبا والهند عبر آسيا الوسطى •

٣ ـ ستزيد السكة من قوة النفوذ الاجنبي في آسيا الصغرى •

٤ ـ أن تعدد مالكي المشروع سيعرقل ازدهاره • وقد تنفرد في المستقبل دولة واحدة بالسيطرة عليه ، كما حصل بالنسبة لقناة السويس وان هذه الدولة سوف لا تكون روسيا •

٥ ـ سيشتد الصراع بين الدول الاوروبية بعد تنفيذ المشروع•

٦ ـ ستقوم الدولة العثمانية بالدفع لسد نفقات المشروع الى الدول الاوروبية بدلا من دفعها هذه المبالغ الى روسيا كغرامات حربية [١] •

٧ ـ تفضل السلطة القيصرية صرف امكانياتها المالية على مشاريع السكك الحديدية داخل روسيا بدلا من صرفها على مشروع سكة حديد بغداد [٢] •

وعلى الرغم من الوضوح الذي اتسم به موقف روسيا فقد استمرت محاولات فرنسا في جر روسيا للمساهمة في المشروع ، ففي نهاية كانون الثاني سنة ١٩٠٢ عرض وزير خارجية فرنسا دلكاسيه على السفير

---

(١) كانت الغرامة المالية التي فرضت على الدولة العثمانية بعد حربها مع روسيا ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ ٧٠٠ مليون فرنك •

(٢) مجلة اخبار المال والصناعة والتجارة ٦ كانون الثاني سنة ١٩٠٢ بتروغراد « باللغة الروسية »

الروسي في باريس «ارسوق» قيام فرنسا بدفع قيمة الاسهم الروسية في المشروع فرفض فيته العرض الفرنسي الجديد، ومن جانب آخر فقد استمرت صحيفة الازمنة الحديثة في انتقاداتها اللاذعة للسياسة الفرنسية وموقفها من مشروع سكة حديد بغداد ، ووصفت مساهمة فرنسا في المشروع بانه دليل على عدم اعتراف فرنسا بواقع علاقاتها مع روسيا ، وبموجب مضمون الاتفاق الروسي الفرنسي فان على روسيا ان لا تساند المشاريع الالمانية في الالزاس واللورين وانطلاقا من هذا المبدأ يجب على فرنسا ان لا تساند او تسعى الى تنفيذ مشروع سكة حديد بغداد [1] .

وبعد التوقيع النهائي على امتياز سكة حديد بغداد في سنة ١٩٠٢ سلكت الدبلوماسية الروسية اسلوبا جديدا لمناهضة المشروع، فقام زينو فيسيف بتحذير السلطات من الكارثة المالية والتضحيات المالية التي ستلازم عملية تنفيذ المشروع . ودعا زينو فيسيف الى اتباع كافة الوسائل لمنع قيام أي اتفاق تجاري جديد بين الدولة العثمانية والدول الاوروبية . ودعا فيه الى عدم موافقة الحكومة الروسية على زيادة نسبة الضرائب والمكوس الخارجية الى ١١ بالمائة ولكن على العكس يجب المطالبة بتخفيضها الى حد ٣ بالمئة كما يرى من الضروري أن تدفع الدولة العثمانية ما بذمتها من الغرامات المالية لروسيا ووجوب وضع اشراف على نظام الدولة العثمانية المالي في استلام الضرائب من الولايات العثمانية الاخرى لحساب تسديد الديون بذمة الدولة العثمانية [2] وقد عارضت السلطة القيصرية مشروع

---

(١) الازمنة الحديثة ـ موسكو سنة ١٩٠١ ـ ١٨ مارت . « باللغة الروسية »

(٢) نوفيجيف ـ اقتصاديات تركيا حتى الحرب العالمية الاولى . موسكو ١٩٣٧ ص ١٥٨ « باللغة الروسية »

زيادة القروض للدولة العثمانية والذي تقدمت به البنوك الالمانية وأيدتها البنوك الفرنسية على ان يتم انفاق هذه القروض على مشروع سكة حديد بغداد .

وحاولت روسيا أن تجر الى جانبها امبراطورية النمسا والمجر في سبيل عرقلة تنفيذ المشروع فقد اقنع زينو فيسيف سفير النمسا والمجر في اسطنبول في أن سبب فقر مقدونيا يعود الى ضآلة ما تنفقه الدولة العثمانية في تلك البلاد واتفق الدبلوماسيان على مطالبة السلطة العثمانية بأن تزيد من الانفاق على المشاريع الاصلاحية في مقاطعة مقدونيا من الاموال التي تحصل عليها من القروض الاجنبية او زيادة الضرائب والرسوم الجمركية . وقد حظيت هذه الآراء بتأييد وزير خارجية النمسا والمجر لاسيما وان سياسة النمسا والمجر كانت تناهض السياسة الالمانية حينذاك [1] . وهكذا اتفق وزيرا الدولتين ـ النمسا والمجر وروسيا ـ على احباط مشروع سكة حديد بغداد مشروع حلفائها ـ المانيا وفرنسا. وحاولت الدبلوماسية الروسية احباط المشاريع الالمانية حول انشاء فروع لسكة حديد بغداد . ففي أوائل مارت سنة ١٩٠٢ علم زينو فيسيف من سفير فارس في اسطنبول بمحاولات الرأسماليين الفرس ومن وراءهم الالمان الهادفة الى انشاء فرع لسكة حديد بغداد يصل بين بغداد وخانقين ثم بغداد وكربلاء والنجف ، حيث يصل سنويا الى هذه المناطق ما يزيد على ١٠٠ ألف من زوار العتاب المقدسة في العراق ، ويمكن تنفيذ هذا المشروع بمبالغ قليلة في فترة زمنية قصيرة . وقد ازعجت هذه الانباء

---

(١) مذكرات زينو فيسيف ـ ١٦ آب سنة ١٩٠٢ ، موسكو ١٩٢٢ « باللغة الروسية »

حكام روسيا لخوفهم من وصول النفوذ الالماني الى شمال فارس الـذي تعتبره روسيا من مناطق نفوذها .

ولاحباط هذا المشروع اخبر زينو فيسيف سفير فارس فياسطنبول بان انجاز هذا المشروع سيؤدي الى زيادة عدد الحجاج الفرس الوافدين للعتبات المقدسة ـ النجف وكربلاء ـ وهذا يعني زيادة في كمية النقود التي ستصرف خارج البلاد مما يلحق اضرارا بليغة باقتصادياتها ولهذا ينصح حكومة فارس بعدم الموافقة على هذا المشروع (1) .

عقد في بتروغراد في ايلول سنة ١٩٠٢ مؤتمر لمناقشة سبل عرقلة تنفيذ مشروع السكة ، ضم الاجتماع كلا من وزير الخارجية لامزداروف ووزير المالية فيته ووزير الحربية كروباتكين وزينو فيسيف سفير روسيا في اسطنبول . وكرر كروباتكين خطورة المشروع على المصالح الروسية في النقاط التالية :

١ ـ ان المشروع يحرم روسيا من جميع الفوائد المترتبة على امتلاك السكك الحديد في آسيا .

٢ ـ ستساعد السكة العثمانية في القيام بتحشدات عسكرية سريعة على الحدود الروسية .

٣ ـ سيصبح بامكان المانيا ان تمد هذا المشروع الى ميناء «شانتونغ» في البر الصيني .

ويرى كروباتكين ان من وسائل درء هذا الخطر هو عدم مساهمة

---

(١) سياسة روسيا الخارجية ج ١٢ موسكو ١٩٢٨ وثيقة ٣٦٢٥ ورقة ٣٢٩ « باللغة الروسية »

روسيا في المشروع والبدء بمحادثات جدية مع حكومة النمسا والمجر حول هذا الموضوع • وبعد مناقشة مستفيضة قرر المؤتمرون عدم المساهمة في المشروع ووجوب العمل على عرقلة تنفيذه وفق الاساليب الأتية :

١ ــ لايفسح المجال للباب العالي بتوقيع اتفاقيات تجارية جديدة مع الدول الاوروبية ، ومنع السلطة العثمانية من زيادة الرسوم على البضاعة المستوردة وعلى العكس يجب اجبارها على تخفيضها الى نسبة ٣ بالمائة •

٢ ــ عدم معارضة السلطان في فرض ضرائب جديدة اذا ما تعهد بصرف هذه المبالغ على المشاريع الاصلاحية في مقدونيا •

٣ ــ انشاء سكك حديدية منافسة لمشروع سكة حديد بغداد [١]

وهكذا اتبعت روسيا اسلوبا جديدا لعرقلة تنفيذ المشروع يقوم على اضعاف الدولة العثمانية ماليا ومع ذلك فان هذا الاسلوب لم يتمكن من منع المانيا من تنفيذ المشروع • ان تنفيذ السياسة الهجومية في الشرق الاقصى والموقف السياسي والاقتصادي لروسيا القيصرية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، لم تسمح لها ان تنهج في الشرق الادنى منهجا مشابها لسياستها في الشرق الاقصى ولذا فانها لم تفكر بعد الحرب الروسية العثمانية في احتلال اسطنبول والمضايق بل فضلت مساندة السلطان ليكون حارسا على بوابة البحر الابيض المتوسط الى البحر الاسود [٢] • ولايعني هذا ترك روسيا مسألة المضايق ومهادنة

---

(١) سياسة روسيا الخارجية جـ ١٢ موسكو ١٩٢٨ وثيقة ٣٦٢٦ ورقة ٤٢ « باللغة الروسية »

(٢) خنستوف ــ تاريخ الدبلوماسية ، موسكو ١٩٤٥ جـ ٢ ص ١١٨ « باللغة الروسية »

النفوذ الالماني المتزايد في الامبراطورية العثمانيـــة بل على العكس فقد ازدادت نشاطات الدبلوماسية الروسية لمواجهة خطط الامبريالية الالمانية بعد ازدياد نفوذها في الدولة العثمانية في بداية القرن العشــرين الا ان الحرب الروسية اليابانية ومضاعفاتها وثورة سنة ١٩٠٥ شغلت روسيا عن المواجهة الجدية للخطر الالماني في الامبراطورية العثمـانية وفارس لفترة قصيرة على أن زيادة النفوذ الالماني في فارس تلك البـــلاد التي تملك فيها مصالح استعمارية خاصة في المناطق الشمالية فيها ـ يضـــاف الى ذلك ازدياد نفوذ ـ حليفة روسيا بريطانيا ـ في المنطقة المحـايدة • قد حتمت هذه الظروف الجديدة مجتمعة على روسيا القيصـرية التقرب من المانيا فقام القيصر الروسي بزيارة برلين سنة ١٩١٠ وتم توقيع اتفاق مع المانيا في ٤ تشرين الثاني سنة ١٩١٠ تعهدت روسيا فيـــه بالكف عن معارضتها مشروع سكة حديد بغداد مقابل اعتراف المانيـــا بالمصالح الروسية في شمال فارس وفقا لمعاهدة سنة ١٩٠٧ وتعهدت المانيا بعـدم الحصول على أي نوع من الامتيازات في المناطق الشمـالية مقابل تعهد روسيا بعدم عرقلة التجارة الالمانية في المناطق الاخرى من بـلاد فارس • كما تقوم روسيا بمد خط حديدي من طهران الى خانقين لكي يتم الاتصال مع سكة حديد بغداد وربط مشاريع السكك الحديد الروسيـــة في ايران بمشروع سكة حديد بغداد [1] • وفي خريف عام ١٩١٣ حققت السلطــة القيصرية خطوة جديدة على طريق حماية مصالحها الاستعمارية في مناطق البحر الاسود وحماية حدودها في القفقاس من خطر اقتراب سكة حديد بغداد الى هذه المناطق • اذ وقعت في خريف ١٩١٣ مع الدولة العثمانيـــة

---

(١) مجموعة الاتفاقات الروسية مع الدول الاخرى ١٨٥٦ ـ ١٩١٧ موسكو١٩٥٢ ص ٤٢٥ « باللغة الروسية »

معاهدة جديدة تقوم على اساس الغاء معاهدة عام ١٩٠٠ وحـــل محلها تعهد السلطان العثماني لمدة عشر سنوات بعدم انشاء السكك الحديديـة في المناطق الواقعة الى الشرق من طرابزون ــ خربوط ــ دياربكر • واذا أصبحت هناك حاجة لانشائها فينفذ المشـــروع برؤوس أموال روسية فقط [١] •

وهكذا كان موقف روسيا من مشروع سكة حديد بغداد • فبعـد فشلها في احباط محاولة المشروع ثم فشلها في عرقلة تنفيـــذه سلكت طريقا جديدا يقوم على اساس حماية حدودها الجنوبيـــة في القفقاس ومناطق البحر الاسود من الخط الالماني المواكـــب لمسار الخط وذلك بالعمل لابعاد الخط عن هذه المناطق كما ضمنت مصالحهـا في الاقسام الشمالية في فارس من الخطر الالماني بعد اتفاقها مع المانيا سنـــة ١٩١٠ ومع السلطان العثماني سنة ١٩١٣ •

(١) مجموعة الاتفاقيات الروسية مع الدول الاخرى ١٨٥٦ ــ ١٩٣٧ موسكو ١٩٥٢ ص ٤٣٥ « باللغة الروسية »

تاريخ الحركة الديمقراطية الأولى في الخليج العربي
البحرين والكويت فترة ما بين "١٩٢٠-١٩٤٠"

محمد جابر الانصاري
قطر

انسحب الانجليز من الخليج عام ١٩٧١ وهم يتحدثون عن المنجزات الحضارية ونعمة الازدهار والاستقرار التي حققوها للمنطقة ، وقد ساعدت الظروف العربية والدولية التي أحاطت بالانسحاب وقيام كيانات الاستقلال في بلدانها على اعطاء انطباع مؤداه ان هذا الاستقلال ومظاهره الدستورية جاء هبة من القوة الحامية ومن الحاكمين .

واذا رجعنا الى الكتب والابحاث التي تتناول تاريخ الخليج العربي الحديث وجدناها تسهب في الحديث اما عن الصراع الدولي ومعاهدات الحماية وشجرات الاسر الحاكمة وفعالها وحروبها ، واما عن احصائيات تزايد انتاج النفط وعلاقة ذلك بالدورة الاقتصادية للعالم المدعو حرا ..

ان تلك الظروف ، وان هذه المدرسة التاريخية الرسمية الشكلية ، قد التقت في خلق نتيجة سلبية خطيرة متعمدة هي اغفال دور الانسان ، ودور نضاله ومعاناته وفكره ، في منطقة الخليج العربي ، فاذا به من

خلال ذلك كله يبدو وجودا مهملا تتلاعب به المصالح الدولية وما تخلقه من صراعات وما تفرضه من واقع سياسي ـ اجتماعي . والحقيقة انه بسبب وقوع هذه المنطقة في قبضة قوى عالمية ، وقوى محلية متحالفة معها ، نشأ جدار من التخويف والحصار والكبت حول انسان الخليج العربي ، الذي لم يتمكن من التنفس سياسيا ، بل وحياتيا ، الا بحذر شديد وصعوبة بالغة . وعندما كان هذا الانسان يناضل فكريا وعلميا ، فانما كان يصارع قوى لا توجد أدنى نسبة بين طاقته المحدودة وطاقاتها الهائلة : مثل ما كان غواص الخليج الاعزل يصارع اسماك القرش المتوحشة في اعماق البحر ، لذلك فقد اتخذت قصة نضاله طابعا مأساويا كصراع الانسان ضد القدر الغشوم الذي يبدو ان لا فكاك منه ، وهي لذلك قصة تستحق من التاريخ وقفة متأنية عادلة . واذا كان علم التاريخ في جوهره الاصيل ، هو سجل منصف واع لتطور الانسان ، وابداعه ونضاله ، فلا بد اذن من العودة الى اصالة البحث التاريخي ، وتجاوز وثائق شركة الهند الشرقية البريطانية ، وسجلات امجاد الامراء ، واحصائيات شركات البترول ، ومن أجل تسليط ضوء الحقيقة على تاريخ نضال الانسان في الخليج العربي الذي كان ضحية ـ وما يزال ـ لهذا التضليل التاريخي المتصل الحلقات الذي لا يبعث الا على الرفض والغضب ، والذي يجب أن تسهم جهود المؤرخين الانسانيين التقدميين في ازالة براقعه الكاذبة .

وقبل النظر في تطورات الحركة الوطنية الديمقراطية الاولى في الخليج ، التي يطمح الى ابراز معالمها الهامة هذا المبحث الوجيز ، نتوقف برهة للتعرف الى الخلفية الاجتماعية ـ الاقتصادية التي كانت الاطار التاريخي الموضوعي الذي احتوى ذاتية تلك الحركة وتحكم في مساراتها

ومنعطفاتها وما تاقت الى تحقيقه من تطلعات ، وما استطاعت ان تحصل عليه من مكاسب .

تبلورت خريطة البنية الاجتماعية ـ الاقتصادية في الخليج ، خلال المئة سنة الماضية ، حسب الصورة التالية :

اولا : فرضت العناصر العشائرية النافذة ذاتها كهيئات حاكمة . وكانت هذه العشائر ، المشتغلة بالحرب والتجارة معا ، تقيم بينها في كل بلد تحتله « حلفا عاما » يتولى السيطرة على شؤون الحكم وتستنفر اطرافه في حالة تعرض الحكم للخطر ، أو قيامه بالغزو ، وتنال هذه الاطراف المغانم حسب اهميتها وانسابها وادوارها ، في حالة الاستيلاء على مناطق جديدة او تحقيق أي مكسب من المكاسب .

وكان الشيخ الحاكم عادة هو رئيس الاسرة القائدة لهذا الحلف العشائري ، وكانت الامور تقرر بمبادرة الشيخ ومشاورة كبار رجال العشائر وعدد من كبار التجار الذين ينتمون في الاغلب الى العائلات الرئيسية المكونة للحلف الحاكم .

ثانيا: وتسيطر الاسرة الحاكمة على الحياة الاقتصادية سيطرتها على الشؤون السياسية ، بل ان بعض هذه الاسر كان يحترف التجارة قبل وصوله الى الحكم ، وساعدته ثرواته وعلاقاته التجارية على التحول الى قوة سياسية . لذلك فلا بد من التنبه الى ان العلاقة بين الحاكمين وكبار التجار في الخليج علاقة عضوية ، وعلاقة وجود متبادل لا تنفصم ، ولعل في هذه الصلة التاريخية الوثيقة بين الهيئة الحاكمة والفئة التجارية النافذة ما يفسر النفوذ الواسع غير المشروع الذي يتمتع به كبار التجار في هذه البلدان الى وقتنا هذا بشكل يفوق كثيرا حجمهم ودورهم

الحقيقي في مجتمعات الخليج الحديثة ، اذ تجدهم يشكلون أغلبية المجالس «الاستشارية» ـ وحتى التشريعية ان وجدت ـ ويتمتعون بامتيازات تفوق الحصر ، ويمثلون « قوة ضاغطة » في الشؤون العامة ، بينما هم لا يمثلون ـ عدديا ـ الا أقلية ضئيلة اذا ما قورنوا بطبقات العمال ، واصحاب المهن والحرف والطبقة المتوسطة الصغيرة وفئات المثقفين •

وهكذا نرى أن قمة الهرم الاجتماعي الاقتصادي في الخليج تتكون من شقين : شق عشائري وآخر تجاري • وان هذين الشقين تجمع بينهما في أعلى قمةالهرم شخصية « الشيخ » الذي يمسك بيده الامور السياسية والامور التجارية الهامة في وقت معا ، ممثلا بذلك وحدة المصالح المشتركة المكونة لطبيعة النظام القائم • وفي ظل سياسة « الباب المفتوح » البريطانية امام الهجرة الاجنبية استطاعت بعض العناصر المهاجرة من ايران ومناطق آسيا الاخرى الصعود بسرعة الى مستوى كبار التجار والانضمام الى حلف الفئات الفوقية بجانب التجار والزعماء المحليين •

هذا فيما يختص بطبيعة « التحالف الفوقي » القائم ، أما فيما يتعلق بتركيب قاعدة الهرم الاجتماعي ـ أي الفئات الشعبية العاملة ـ فان الصورة تتكون من العناصر الآتية :

اولا عمال البحر : منذ عهود طويلة والخليج مجال واسع للنشاط البحري ، كاستخراج اللؤلؤ والتجارة وصيد الاسماك واستغلال احجار البناء • ولذلك فقد ازدهرت فيه صناعة متقدمة لبناء السفن والمراكب الشراعية المناسبة لأجواء الخليج والبحار المجاورة • وكانت الرساميل التجارية ، والرساميل الموظفة في صناعة صيد اللؤلؤ بالذات ، محتكرة

بيد الاقلية الغنية . وكان عمال البحر ، رغم جهدهم ومهارتهم ، يعيشون في ضنك ولا ينالون الا الفتات من هذه الاعمال المدرة للارباح الطائلة. وفي الثلث الاول من القرن العشرين تنامت في الخليج « بروليتاريا » بحرية ذات شأن من الغواصين وعمال البحر الاخرين . وقد قام هؤلاء بعدة انتفاضات وحركات تمرد ضد طواشي اللؤلؤ وطبقة التجار المستغلين ، ولكن سرعان ما تدخل الانجليز لاخماد هذه الحركات العمالية ودعموا الاقلية التجارية التي أخذوا يعدونها لدور « الوكالة » عن مصالحهم الاقتصادية المتنامية في الخليج .

ثم أخذت هذه البروليتاريا البحرية الخليجية تتفتت بسبب اضمحلال صناعة اللؤلؤ الطبيعي عالميا ، وحلول السفن التجارية الكبيرة التي تملكها الشركات البريطانية محل المراكب المحلية ، وكان الانجليز يحرصون على التخلص من عمال الخليج العرب ليحل محلهم بحارة اغراب لايتمتعون بالوعي السياسي المضاد لطبيعة المصالح التجارية الاحتكارية .

والجدير بالذكر أن الانجليز قاموا بدور مزدوج في هذا المجال : عملوا على تفتيت الطبقة العمالية العربية وتشريدها ، لكنهم في الوقت ذاته ، أنقذوا الطبقة التجارية المستغلة التي تعرضت للخسارة بسبب تدهور اسواق اللؤلؤ ، وتوقف سفنها الصغيرة عن العمل ، باعطائها توكيلات الشركات الاجنبية واعمال التصدير والاستيراد، وهكذا تعرض عمال الخليج لعملية قطع الجذور ، وكان الانتقال الحضاري المزعوم الذي حققه مجيء الاستعمار هو انتقال الطبقة الفقيرة في الخليج من مواجهة الاستغلال التقليدي للتجار والزعماء المحليين الى الوقوع في براثن الاستغلال « العصري » و « المنظم » للشركات الرأسمالية ومن

ورائها العالم الامبريالي ، بينما وطد التجار مواقعهم في قمة التكوين الاجتماعي وازدادوا ثراء واستغلالا لمجتمعات الخليج في ظل الحماية الاستعمارية ، التي لم تمثل أية « حماية » الا لهذه المصالح !.

ثانيا المزارعون : كان للزراعة شأن كبير في الخليج خلال عصور تاريخه ، ومن أشهر المناطق الزراعية في الخليج التي ازدهرت في القرنين الماضيين : البحرين والقطيف وعمان الداخل ، وقد نشأت في هذه البلاد مجتمعات زراعية على درجة من التطور ، وبرعت في تنظيم وسائل الري في قنوات باطنية ، وأدخلت العديد من أنواع المزروعات ، بالاضافة الى ما حققته من تطور ثقافي شمل المنطقة بأسرها. غير ان هذه المجتمعات الزراعية المفتوحة لعوامل الغزو لم تنعم بالاستقرار ، وكانت تتعرض اما لسيطرة القوى البحرية من محلية وأجنبية ، واما لهجرة العناصر العشائرية من الصحراء والجبال المجاورة ، هذه العناصر التي تحولت بحكم مقدرتها الحربية على الفور الى عناصر حاكمة في المجتمعات الزراعية ذاتها ، التي نراها الى اليوم تمثل الطبقة الدنيا من القطاعات الشعبية ، ويحال بينها وبين المساهمة بنصيبها العادل في النظام الاجتماعي .

ولم تعرف مجتمعات الخليج الزراعية الاقطاع بمعناه التقليدي ، وكانت الارض الزراعية في الاصل ، موزعة بين عدد كبير من العائلات التي تقوم بزراعتها والاستفادة منها . غير ان ذلك لا يعني ان الفلاحين الفقراء في قرى الخليج لم يتعرضوا للاستغلال . على العكس ، لقد أصابهم من الاجحاف مثل ما تعرض له الغواصون ، ان لم يكن أسوأ . فقد استطاعت فئة الملاكين الزراعيين في الريف بالتحالف مع تجار المدن وزعماء العشائر ، حصر الملكية في ايديها بالتدريج وأخذت تستخدم

الفلاحين الفقراء وعائلاتهم في العمل مقابل قوت يومهم لا غير ، دون وجود أية ضمانات او قوانين رسمية أو عرفية تحميهم بأي شكل من الاشكال .

ثالثا : رجال القبائل الفقراء : ظلت قبائل عديدة فقيرة خارج اطار الاحلاف الغنية الحاكمة . وكانت هذه القبائل تشتغل بالرعي ، او تستخدم بين وقت وآخر في الصراعات الناشبة ، ولم يهتم الاستعمار والحاكمون بتوطينها وتحويلها الى عناصر متعلمة منتجة ، بل ظلت في بعض انحاء الخليج ـ الى يومنا هذا ـ في عداد البدو الرحل على الرغم مما تنتجه أراضيها من نفط هائل . وكان كل هم الانجليز فصل هذه القبائل الفقيرة عن مجرى النضال الشعبي كي لا تتحول الى قوة ذات ايجابية تقدمية .

رابعا : الفئة المتوسطة الفقيرة : الى جانب القطاعات من البحارة والمزارعين والبدو الفقراء، كانت هناك فئة من أرباب المهن والحرف اليدوية التقليدية التي تشبه مثيلاتها على نحو مصغر في الاسواق القديمة بالشام وبغداد والقاهرة ، بالاضافة الى التجار الصغار من اصحاب الدكاكين ، الذين مثلوا مع الحرفيين طبقة متوسطة صغيرة .

وقد كانت هذه الفئة قليلة العدد نسبيا في مطلع القرن . الا انها اخذت في التنامي منذ ذلك التاريخ حتى أصبحت توازي في حجمها ، خاصة في البحرين والكويت ، طبقتي البحارة والمزارعين . وفي الجيل الثاني استطاع ابناء هذه الطبقة بحكم تركيبهم الاجتماعي وعقليتهم أن يكونوا أول من ينفتح للتعليم العصري الذي مكنهم من تسلم عدد من المراكز الادارية والثقافية الهامة . وقد حملت هذه الفئة المتوسطة الصغيرة

الكثير من أعباء التغيير الاجتماعي والسياسي في المنطقـــة • ومع تدفق النفط ، اخذت في الاتساع لتصبح فئة قيادية في المجتمعـات الخليجية ، وهذه الفئة هي التي قادت الطبقات الاجتماعية الدنيـــا في الحركـات السياسية التي شهدها الخليج خلال الاربعينيات والخمسينات ومن المنتظر أن تلعب هذه الفئة دورا متعاظما في مستقبل الخليج السياسي •

وهكذا نجد مجتمع الخليج ينقسم في جذوره الى ثلاثة أنمــاط من الحياة الاجتماعيــة ــ الاقتصاديـة (١) المدينـــة البحريـة التجـارية (٢) القرية الزراعية (٣) الحياة البدوية الصحراوية الرعوية • غير ان هذه البيئات الثلاث تعرضت ــ كما أسلفنا ــ لسيادة «تحالف فوقي» واحـد مكون من كبار زعماء العشائر ، وكبار أغنيــاء الريف ، وكبـار تجار المدن ، ثم جاءت على رأس هذا التحالف الفئة الانكليزيـة المسيطرة من اداريين وعسكريين ورجال أعمال، بالاضافة الى مئات التجـار المهاجرين الاجانب من ايرانيين وآسيويين •

وقد عمل الانجليز باستمرار على استغلال الفروق الاجتماعية ــ الاقتصادية الطائفية بين هذه البيئات الثـلاث ليحولوا دون التحامها في نضال موحد ، الا ان هذه الفروق آخذة في الضمور بفضل تفتح الحس الشعبي والوعي القومي الاجتماعي • وسيكون من بديهات أي عمل وطني السعي الحثيث لايجاد صيغة عملية مرنة جامعة بين هذه العناصر الشعبيـة في تحالف وطني واحد في وجه «التحالف الفوقي» المتلاحمـــة عناصره بالفعل ، ومنذ زمن طويل •

هذه هي الصورة التاريخية لتطور البنية الاجتماعيــة ــ الاقتصادية في الخليج خلال المئة سنة الاخيرة • ومما لا شك فيــه أن التطور الذي

شهدته المنطقة من ذلك الحين حتى يومنا هذا ، قد غير شيئـــا من معالم الصورة ، وان لم يغيرها كليا غير أن هذا التطور لم يدخل في الخليج في وقت واحد ، ولم يتغلغل فيه بدرجة واحدة ، كما ان الاختــلال في توزيع الكثافة السكانية على مناطق الخليج المختلفة ، والتجزئة السياسية القديمة والجديدة التي جعلت من الخليج « بلقانا » مصغرا يمثلان عائقا نحو تفاعل مجتمعات الخليج وطبقاته وعناصره السكانية تفاعــلا طبيعيا منسجما مع قوانين التطور الاجتماعي . أضف الى ذلك ان ظهور النفط بكميات هائلة ومفاجئة في بلدان صغيرة أدى الى خلق تناقضات حادة بين الفئات الاجتماعية ، وخلخلة كثير من القيم ، وخلق نماذج بشرية منعدمة الجذور ، مهزوزة الشخصية ، تأخذ شكليات التحـديث والمعـاصرة ، ولكنها بعيدة ، كل البعد ، عن جوهر ذلك في واقعها العلمي وتفكيرها . ومما يؤسف له أن ثروة النفط الهائلة لم تستخدم في القضـاء علـى الاستغلال ، وسد الهوة بين الاغنياء والفقراء ، بل استخـدمت لتخلق ارتباكا في المجتمع ، ولتزيد من حدة تناقضاته ، فهذه الثروة تبـدد في الجوانب الاستهلاكية العابرة لخدمة السوق الامبريالية ولمصلحة فئـات قليلة ، ودون الاهتمام بالجانب الانمائي الطويل الامـد ، ودون التفات لخلق قاعدة اقتصادية وطنية منتجة ، ودون مراعاة للمصالح العامة وحاجات مختلف فئات المجتمع . والاستمرار في هذه السياسة الانانية ، والقصيرة النظر ، من شأنه أن يعرض الخليج كله للانهيار في أي وقت يفقـد فيه النفط قيمته الاقتصادية الحالية .

على هذه القاعدة الشائكة من العلاقات الاجتماعيـة ــ الاقتصادية تنامت الحركة الوطنية الديمقراطية الاولى في الخليج وئيدة حذرة حينا ، ومندفعة صريحة حينا اخر ، غير انها في الحالتين ، وعبر مختلف الظروف والمراحل كانت تطرح مطالب تاريخية واحدة في جوهرها واطارها العام .

وفي هذه الفترة الاولى ، فترة ما بين الحربين ، التي تعنينا دراستها هنا ، نجد أن الوعي الوطني في الخليج يستيقظ ويتفاعل سريعا مع اصداء ثورة ١٩١٩ الشعبية في مصر ، وثورة العشرين الوطنية في العراق ، وكانت البحرين هي البؤرة التي تلقت هذه المؤثرات لتدمجها مع واقعها الخاص ، وتترجمها بعدئذ الى حركة وطنية سياسية وعمالية وطلابية ، استمرت احداثها وانتفاضاتها وتضحياتها متتالية بين ١٩٢٣ و١٩٣٢ .

وكانت القوى القائمة بهذه الحركة : التجار الوطنيون المتفاعلون مع حركة التحرر الوطني في مصر والعراق ، وعمال الغوص والبحر الذين بلغت قوتهم أوجها قبل سيطرة الشركات الاجنبية على البلاد ، وفئات الطلاب والمثقفين الذين تخرجوا من مدارس البحرين التي كانت تدار من قبل مجالس شعبية وتتبع مناهج تربوية عربية تقدمية قبل أن يخضع الانجليز التعليم لاشرافهم المباشر .

وكانت أهداف هذه الحركة تتركز في تحقيق درجة من الديمقراطية تتمثل في الحد من سلطات الحكم ، بتكوين مجلس تشريعي منتخب ، وتحقيق مستوى من العدالة الاجتماعية يتمثل في وقف تلاعب الاستغلال التجاري ووضع قوانين عادلة تنصف عمال الغوص ، وتعريب الاجهزة والادارات التي بدأت تتسرب اليها عناصر الاغراب الموالين للسلطة ، والحفاظ على المناخ الثقافي والتعليمي الحر الذي حققته البحرين بجهودها الذاتية ، ووقف تدخل المعتمدين البريطانيين في شؤون البلاد الداخلية وحصر الامر في مجال الشؤون الخارجية حسب ما تقتضيه المعاهدات التي عقدتها البحرين مع بريطانيا باعتبارها دولة مستقلة ، لا مستعمرة .

وقد تمثلت معظم هذه المطالب في قرارات المؤتمر الوطني البحراني

الاول الذي انعقد في مدينة المحرق بتاريخ ٢٦ مايو (ايار) ١٩٢٣ بزعامة اثني عشرة شخصية منتخبة واصدر وثيقة وطنية تاريخية جاء فيها : «لقد اجتمعنا وتعاهدنا على السعي في الحصول على المطالب الآتية :

ـ انتخاب مجلس شورى من عموم أهل الوطن ينظر في مصالح البلاد .

ـ وقوف القنصل البريطاني عند نص الاتفاق بين الحكومة البريطانية وحكومة البحرين فلا يتدخل في الامور الداخلية .

ـ تشكيل محكمة من أربعة أعضاء عالمين بأمر الغوص للنظر في جميع دعاوى الغوص [1] » .

وقد كتب المؤرخ الرحالة أمين الريحاني بعد أن زار البحرين في تلك الفترة وتعرف الى أوضاعها السياسية مبينا كيف تطور الامر بين الحركة الوطنية وسلطات الحماية : « طلب أهالي البحرين في الثلاث سنين الاخيرة (١٩٢٠ ـ ١٩٢٣) ثلاثة مطالب من الحكومة كلها ولا شك عادلة ، فوقفت السياسة الانجليزية تصدهم وتقاوم مسعاهم ، طلبوا تشكيل جمعية تشريعية فأجاب الشيخ عيسى (بن علي ، حاكم البحرين حينئذ) وأبى الوكيل البريطاني . طلبوا تنظيم شرطة وطنية فرضي الشيخ عيسى ورفض الوكيل وأصر على الرفض ، قدموا لائحة اصلاح (هي التي أشرنا اليها قبل قليل) فاستحسنها الشيخ عيسى وعزم على تنفيذها فقامت عليه وعلى الوطنيين قيامة الوكيل ، وبذل ما لديه من قوة ونفوذ من أجل احباطها [2] » .

---

(١) أمين الريحاني ، ملوك العرب ج ٢ ، ط ١ ، ص ٢٤٧ .
(٢) المصدر السابق ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

وتجاه هذه الحركة الوطنية الديمقراطية المبكرة في الخليج ، قامت بريطانيا ، الدولة الحامية التي كان يفترض فيها حماية البحرين بغزو بحري مسلح للبحرين في مايو ١٩٢٣ حيث جاء المقيم البريطاني من ابو شهر بساحل فارس ، تصحبه بوارج الاسطول البريطاني المرابطة في الخليج ، وقام بانقلاب رجعي استعماري كامل الملامح ، أمام انظار العالم كله، تمثل فيما يلي :

ـ قمع الحركة الوطنية ، ورفض مطالبها ، ونفي زعمائها البارزين الى الهند بدون محاكمة ، وملاحقة الباقين ، وتشريد القوى الشعبية المساندة .

ـ عزل الشيخ عيسى بن علي حاكم البحرين الذي وقع مع بريطانيا بيده اتفاقية الحماية ، واعترفت به حاكما للبحرين لمدة خمسين عاما ، بسبب ميله للاستماع الى المطالب الوطنية الديمقراطية .

ـ الغاء نظام المحاكم الوطنية ، وتشكيل محاكم مختلطة يشرف عليها المعتمد البريطاني ، ووضع جميع الشؤون الداخلية في البلاد تحت الاشراف البريطاني المباشر .

وبعد أن قمعت بريطانيا التحرك السياسي لهذه الحركة ، اتجهت الى قطع جذورها المتأصلة في حقل التعليم الشعبي . فعمدت أولا الى السيطرة على مجلس التعليم واخراج العناصر التقدمية والاستقلالية منه، ثم أخذت تدريجا في تغيير المناهج ، وابعاد الاساتذة العرب الذين أتوا للتعليم في البحرين بدافع قومي ، وتعيين موظفين ومديرين يأتمرون بأمرها .

وقد وصف الشيخ حافظ وهبة ، الدبلوماسي العربي المعروف ، ومؤلف كتاب « جزيرة العرب في القرن العشرين » وكتاب « خمسون عاما في جزيرة العرب » الجو الارهابي الذي فرضته بريطانيا على الحقل التعليمي في البحرين خلال تلك الفترة ، وكان الشيخ حافظ قد اشتغل بالتدريس فيها وعاين أوضاعها عن كثب مما دفع الانجليز الى اصدار قرار بنفيه منها ، مع غيره من الاساتذة العرب ، اثناء حركة التصفية المضادة التي قادها الميجر ديلي وهو ضابط بريطاني طرد من العراق اثناء ثورة العشرين بسبب غطرسته ـ ضد مختلف القوى التقدمية في البحرين [٣] .

وخلال الفترة بين ١٩٢٦ ـ ١٩٢٨ شهدت البحرين اضرابات شاملة في مجال التعليم احتجاجا على تلك الاجراءات ، غير ان بريطانيا استمرت في خطتها حتى اخضعت التعليم لسيطرتها المباشرة وتم تعيين مدير معارف انجليزي . وبذلك انتهى العهد المشرق من التعليم الشعبي الحر حيث كان المواطنون يتبرعون لميزانية المدارس ضمانة لاستقلالها وحريتها الفكرية ، وحيث كان مجلس التعليم يديره أهل الرأي ورجال الخدمة العامة من الشخصيات البحرانية المتطوعة لهذا العمل ، وحيث كانت المناهج والكتب المقررة توضع طبقا للارادة العامة المتمثلة في مجلس التعليم ، وحيث كانت الندوات الفكرية تدور في أروقة المدارس بلا رقابة حكومية .

---

(٣) حافظ وهبة ، خمسون عاما في الجزيرة العربية ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٤ ـ ١٨ .

وبعد ان تم الاجهاض السياسي ، والاجهاض التعليمي لهذه الحركة ، توجهت الخطة الانجليزية لاجهاض آخر ركيزة من ركائزها بالتدخل في شؤون عمال الغوص والبحر وتنظيماتهم ونشاطاتهم المهنية، وكانوا يمثلون في ذلك الوقت أنضج تجمع عمالي في منطقة الخليج وشبه الجزيرة كلها ، وقد مثلوا سندا كبيرا للمطالب الديمقراطية التشريعية والاستقلالية قبل الانقلاب الانجليزي المسلح في أيار (مايو) ١٩٢٣ .

ففي سنة ١٩٢٦ تم تعيين مستشار انجليزي لحاكم البحرين الجديد بصفة خبير مالي . لكنه ما لبث أن أصبح السلطة الحقيقية في كل كبيرة وصغيرة ، حتى في مسألة تعيين قضاة الشرع وأمناء الوقف الاسلامي . وبذلك ضمنت بريطانيا احكام قبضتها النهائية فالمعتمد يتصرف في علاقات البحرين الخارجية ، وهذا المستشار - الذي ظلت بريطانيا تقول عنه انه موظف لدى حاكم البحرين - تولى الاشراف المباشر على مختلف أمور الحكم المحلي من سياسية ومالية وأمنية وقضائية . وأول عمل رئيسي قام به هذا المستشار - وهو شارلز بلكريف - محاولته وضع قانون خاص للغوص يخول الحكومة الاشراف على انظمته ، وتحديد علاقات البحارة مع تجار اللؤلؤ ، بحجة حماية الغواص الفقير . ولقد كان البحارة يتعرضون لكثير من الاستغلال حقا . غير ان القانون الجديد الذي وضعه المستشار دون معرفة حقيقة العلاقات العمالية في هذه الصناعة البحرانية القديمة والفريدة من نوعها ، جاء شكليا يمس الجوانب السطحية الاجرائية تاركا واقع الاستغلال كما هو . ومن ناحية اخرى كان القانون يفرض على جانب واحد هو الجانب العمالي ، أما التجار فقد تمكنوا في موسمين متتاليين،

باعتراف المستشار نفسه في مذكراته [٤] ، من خرق القانون وتحديه علنا وبشكل جماعي دون ان تتحرك السلطة لتنفيذ قانونها .

كان هذا هو السبب المباشر للانتفاضات العمالية التي شهدتها البحرين في السنوات بين ١٩٢٦ ـ ١٩٣٢ ، أما الاسباب العميقة فكانت تعود الى استغلال التجار للبحارة لدرجة ان دين الآباء كان ينتقل ارثا على الابناء ، كما تعود الى جو القمع السياسي والتدخل المباشر في شؤون البلاد كما أسلفنا .

وقد وصلت خطورة هذه الانتفاضات العمالية وقوتها واتساعها ـ خاصة في مايو ١٩٣٢ ـ ، اذ هاجم العمال محلات التجار المعادين ، واحتلوا الاسواق ، كما هاجموا مخافر الشرطة وسيطروا على مركز الامن في العاصمة وأطلقوا سراح رفاقهم المعتقلين ، واشتبكوا مع البوليس الاجنبي من المرتزقة ، ومع الحرس العشائري في معارك امتدت على طول سواحل مدينتي المحرق والمنامة لليال عديدة . وكل هذه الاحداث التي يعترف بها بصورة مسهبة المستشار الانجليزي نفسه ، تكذب ادعاء المدرسة التاريخية الاستعمارية التي تقول ان هذه الانتفاضة العمالية نشأت بسبب عدم تفهم البحارة لقانون الغوص الجديد الهادف لمصلحتهم ، وثبتت أن هذه الحركة في اساسها استمرارا للحركةالوطنية ضد الاستغلال الاقتصادي والقمع السياسي [٥] .

هكذا احتاجت السياسة البريطانية الى عشر سنوات بين ١٩٢٣ ـ

---

(4) Charles Belgrave, Personal Column, 2nd ed. p. 51 .

(٥) المصدر السابق : ٥٠ ـ ٥٣ .

١٩٣٢ لتصفية الحركة الوطنية الديمقراطية في البحرين تدريجيا ، وقطع جذورها الشعبية واحدا بعد الاخر •

ولكن بعد خمس سنوات من ذلك كانت أصداء هذه الحركة وغاياتها وتجاربها تتخمر لتنفجر في ثورة وطنية ديمقراطية مماثلة في الكويت بين ١٩٣٧ — ١٩٣٩ •

وكانت الكويت قد شهدت تجربة بدائية للحكم الشوري سنة ١٩٢١ عندما تولى أحمد الجابر الحكم • غير ان هذه التجربة لم تصب حظا من النجاح لانها كانت تجربة فوقية انحصرت في عدد من كبار التجار والوجهاء وضعوا في المجلس الاستشاري عن طريق التعيين وتاهوا في خلافاتهم الشخصية ، حتى انحل المجلس من تلقاء ذاته • ويتفق المؤرخان الكويتيان يوسف الجناعي ، وعبد العزيز الرشيد على ان هذه التجربة مبهمة الاهداف ، منعدمة الجذور الشعبية (٦) •

الا ان التجربة الثانية التي بدأت سنة ١٩٣٧ كانت أفضل تنظيما ، وأوضح رؤية ، وأشد مراسا • يصف السيد عبد العزيز حسين في كتابة « محاضرات عن المجتمع العربي بالكويت » هذه الحركة في جذورها وتطوراتها بقوله : « رغبة في تكتيل القوى وتوجيهها فكر المعارضون في انتهاج طريق يحمي الحركة ، فألفوا جمعية سرية من ١٢ عضوا وجدت في الصحافة العراقية منبرا لنشر دعوتها بالاضافة الى منشوراتها السرية التي كانت تطبع في العراق وتوزع بالكويت • وظلت

---

(٦) الرشيد : تاريخ الكويت .
والقناعي : صفحات من تاريخ الكويت •

تعمل في السر فترة حتى ادركت ان التعبئة الشعبيـــة قد وصلت حدا مناسبا ، حينذاك كشفت عن نفسها وأرسلت الى الحاكم أحمد الجـابر كتابا تاريخيا في ٣٠ ربيع الثاني ١٣٥٧هـ (١٩٣٨) ، جاء فيه ان الاساس الذي بايعتك عليه الأمة لدى توليك الحكم هو جعـل الأمر على اساس الشورى التي فرضها الاسلام ، لذلك تتقدم اليك بطلب تشكيل مجلس تشريعي مؤلف من احرار البلاد للاشراف على تنظيم أمورها .

وبعد ان تمت الموافقة على هذه المطالب ، جرت الانتخابات ، ونزل الوطنيون تحت اسم الكتلة الوطنية « وكان اول ما عملـــه المجلس التشريعي هو وضع قانون أساسي يعتبر أول وثيقة من نوعهـا في تاريخ الكويت » ومن أهم مبادئها ما يلي : ـ

١ ــ الامة مصدر السلطات ممثلة في هيئة نوابها المنتخبين .

٢ ــ يشرع المجلس كافة قوانين البلاد .

٣ ــ مجلس الامة التشريعي هو الجهة التي تصدق على المعاهدات الخارجية .

أثر الفرنسيين في القضاء على مكانة اللغة العربية في إفريقيا الغربية

الدكتور عبد القادر زبادية
أستاذ التاريخ الافريقي الحديث
جامعة الجزائر

الانسان الجديد :

ان التساؤل عن الاسباب التي أدت الى التطورات الشخصية أو النفسية السريعة في أفريقيا الغربية يمكن اعتباره في صميم الموضوع ، ذلك أنه في خلال أقل من نصف قرن أمكن للفرنسيين احلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية وأمكن لهم كذلك خلق جيل مهما تكن نسبته المئوية ضعيفة فانه استطاع أن يركز للاعتزاز بالفرنسية وللارتباط المصيري بها في كامل المنطقة الناطقة أو المستعملة للفرنسية في افريقيا الغربية والمدارية [1] . وأذكر بهذه المناسبة انه في مؤتمر المؤرخين

---

(١) عرف عن الاستعمار الفرنسي دائما الاسلوب المباشر في حكم المستعمرات ، وفي مجال التعليم بصورة خاصة كان هدف الادارة الفرنسية في المستعمرات دائما هو السير بالناس ، وبمختلف الاساليب ، كي يتحولوا الى فرنسيين لغة وعقلية وارتباط وهو ما يعرف لدى الفرنسيين بـ (سياسة) المزج أو الاندماج : Assimilation

راجع D. Bouche, Histoire de L'ENS. en A. O. F. , Université de NANCY, 1974 .

الافريقيين الذي انعقد في شهر ديسمبر من سنة ١٩٧٥ في باوندي عاصمة جمهورية الكاميرون كان هناك جمهور غفير من مثقفي افريقيا وخاصة الغربية والاستوائية ، وكان هناك بحث قدمه احد الاساتذة النيجيريين وموضوعه الهجرة من المناطق الخاضعة للاستعمار الفرنسي نحو المناطق الخاضعة للاستعمار الانكليزي ، ورغم ان الموضوع كان هاما وكان مدعوما بالوثائق والاحصائيات المقنعة ، الا انه حين انتقل الباحث الى الحديث عن الاسباب المتمثلة في طبيعة الاستعمار الفرنسي من حيث كونه استعمارا مباشرا وكان قد ضايق الاهالي وخاصة في قوانين المزج Assimilation وفرض الضرائب ذات الشكل المضر على القبائل الرافضة ، ثار الكثيرون في شكل هوس واعتبروا مثل هذا التحليل الواقعي قدحا في الاستعمار الفرنسي لصالح الاستعمار الانكليزي .

يوجد الآن في أفريقيا الغربية تطاحن واضح بين اللغتين الانكليزية والفرنسية ، ويهتم بهذا الموضوع معظم المثقفين بالثقافة الفرنسية ، وكان هذا الموضوع يهم بلدانهم بمثل ما يهتم به بعض المثقفين والساسة الفرنسيين .

ويتم تعيين المتخرجين الجدد في الجامعات بافريقيا الغربية من طرف الجامعات الفرنسية ويتلقى هؤلاء الاشعار بالترقية من طرف الجامعات الفرنسية ويشكل هؤلاء طبقة ممتازة في بلدانهم ترتبط أشد الارتباط بالدفاع عن الثقافة الفرنسية في أفريقيا .

ولا يقبل الاستاذ Hargraves النظرية الشائعة لدى حكام أفريقيا الغربية السابقين من كونهم قد مكنوا للثقافة الفرنسية وللديانة

المسيحية بدرجة كافية [1] ، والواقع أن اللغة العربية كانت لغة أفريقيا الغربية والمدارية حتى الحرب العالمية الاولى ، ولعل أول عمل رسمي لايقافها نهائيا كان هو المرسوم الذي أصدره حاكم أفريقيا الغربية في سنة ١٩١١ والقاضي بتحريم التحرير بالعربية في المحاكم منذ ذلك التاريخ .

لقد كان للوجود الفرنسي في سواحل أفريقيا الغربية تاريخ طويل يعود الى القرن السادس عشر ، ولكن العمل المنظم ضد وجود العربية واحلال الفرنسية محلها انما بدأ مع بداية القرن العشرين ، ويعود للمفتش جورج هاردي G. HARDY الفضل الكبير في اعطاء الطابع الحقيقي لأهداف اللغة والثقافة الفرنسية في افريقيا الغربية ، فقد جاء مفتشا للتعليم في تلك المستعمرات في ظروف صعبة ، ظروف الحرب الكونية الاولى . ووجد معظم القرى لا يقبل سكانها وجود المدرسة الفرنسية ولا المعلمين الفرنسيين بينهم ، ويفرون من القرية في جنح الظلام حينما يفرض وجود المدرسة الفرنسية في قريتهم بالقوة ، كما وجد المستوطنين الفرنسيين ورجال الشركات وأصحاب الاعمال ضد تعليم الافريقيين لأن ذلك في نظرهم كان مما سيخلق يقظة في المستقبل قد تؤدي الى الفوضى والضرر بالمصالح التي يجنونها من مستعمراتهم ولكن هاردي وجد من الحكام العامين آذانا صاغية فراح يشجع امتداد المدارس الفرنسية الى جميع المناطق الاستراتيجية في تلك البلاد

---

(٢) الاستاذ هاريجريفس HARGRAVES من اقدم الاختصاصين الباحثين الانكليز في تاريخ المستعمرات الفرنسية في افريقيا وتطورها الاجتماعي والثقافي ، ويغلب على استنتاجاته التأثر الديني . انظر كتابه :
Franch West Africa , New york 1973

الشاسعة وأعطى للمعلمين كل المساعدة وراح يختار ذوي الخبرة من بينهم وذوي الجرأة والصبر وقوة العزيمة .. واعتبر هاردي أن تعليم المستعمرات انما هو تعليم النخبة التي سترتبط البلاد نهائيا بفرنسا ، وأنه يجب أن يكون عبارة عن فتح اخلاقي وثقافي ، ومن ثم فهو لا يخضع لمقاييس التعليم العام في فرنسا وليس هدفه تكوين علماء ولا حتى ذوي معرفة على الشكل الكلاسيكي في أوروبا ، وانما هو عبارة عن تعليم في شكل خاص ، فلا تدرس فيه الكيمياء ولا الفيزياء مثلا الا بالمقادير المحدودة والعامة جدا في الاطوار النهائية ، وبدلا عن ذلك يدرس فيه المناخ في فرنسا وأفريقيا الغربية ويعتبر مادة أساسية ، ويدرس فيه النبات في فرنسا وأفريقيا الغربية ويعتبر ذلك مادة أساسية ، ويدرس فيه المحيط والجغرافيا الطبيعية في فرنسا وأفريقيا الغربية ويعتبر ذلك مادة أساسية وتعطى في هذا التعليم الأولوية لكل ما تحتوى عليه فرنسا من ضروب التقدم والرقي [1] .

ويرى هاردي أن جميع الخريجين من الأفارقة يجب أن يضمن لهم مجال العمل حتى يكونوا القدوة لغيرهم ، وفضلا عن ذلك فقد عين هاردي ولأول مرة ، معلمين أفريقيين من بين الخريجين ، وفي سنة ١٩١٦ أرسل عددا من الخريجين الذين لم يستعملوا في التعليم الى الدار البيضاء في المغرب الأقصى حيث هيئت لهم وظائف .

المدرسة الفرنسية ـ الاسلامية كوسيلة مساعدة :

لقد أخذت المدرسة الفرنسية في أفريقيا الغربية طابعها النهائي مع

---

(١) انظر : Georges Hardy, Une Conquète morale = L'Enseignement en A. O. F. , Paris (A. Colin) 1917 .

بدايات الحرب العالمية الأولى ، وذلك في وقت كانت هذه المدرسة قد مرت بتجارب واكتسبت خبرات في شمال أفريقيا وخاصة في الجزائر، وعندما بدأت المدرسة الفرنسية تأخذ طابعها النهائي في أفريقيا الغربية كان في تلك البلاد عدد كبير من المدارس العربية التي تأسست في الماضي وبعضها كان له شهرة كبيرة وقديمة مثل مدرستي تمبكتو وجني اللتين بلغتا درجة الجامعات في أيام الاسقيين على الخصوص ، ولم يكن من صالح الفرنسيين اغلاق تلك المدارس التي انتشرت لها فروع في عديد من الجهات ، كما لم يكن من صالحهم أبدا تركها تؤدي دورها كما كانت تعمل في الماضي ، وهذا ما دعاهم الى استعمالها لصالحهم ، فقد ركز الفرنسيون اهتمامهم على جلب ابناء الوجهاء والعائلات الشهيرة في المنطقة ليرتبطوا عن طريقها بالحكم الفرنسي منذ الصغر ، اما التعليم في تلك المدارس فقد وضع له برنامج خاص يصف هاردي دواعيه بقوله : (لقد كان هناك اقتناع بأنه يوجد في غرب افريقيا كما في الجزائر وتونس والمغرب الأقصى ثقافة اسلامية وذلك يدفعنا الى القيام ببعض التنازلات لهذه الحضارة التي سبقت وجود حضارتنا ، وايضا بغية التسهيل لقبول تعليمنا الفرنسي فقد كان علينا ان نشتغل بالابقاء على نوع التعليم الرسمي للاسلام واللغة العربية بحيث تكون واسطة بين المدارس القرآنية والمدارس الفرنسية ، ويستهدف العمل على نسيان الاولى وقبول الثانية) .

لقد كانت كل مدرسة عربية ــ فرنسية Ecole Franco - Arabe او مدرسة MEDERSA كما كانت تسمى ايضا، تؤدي خدمة لانتشار

---

(١) Hardy , op. cit. p. 108 .

الفرنسية على حساب اللغة العربية التي كانت حتى ذلك الوقت لغة العلم والدين معا ، ويتحدث هاردي عن البرنامج الخاص بتلك المدارس فيقول :

(ان برنامج هذه المدارس قد تحول نهائيا فلم تصبح جامعات اسلامية وانما هي بالضبط مدارس فرنسية ــ عربية ، يأخذ فيها اللسان الفرنسي والعلوم الفرنسية بالناصية اكثر فأكثر وذلك على حساب اللغة العربية والعلوم العربية ، وعلى سبيل المثال فان تعليم العربية قد تحرر من الطرق العربية الصرفة واصبح عبارة عن ترجمات من العربية الى الفرنسية ، وبهذا امكن تحويل الدرس المخصص للعربية الى دروس للفرنسية) ثم يستطرد هاردي الى القول :

« ومن ناحية اخرى فأن العربية والعلوم العربية من نحو وبلاغة وعروض وقانون اصبحت لا تستوعب كل الوقت ، بل نستطيع القول بانها اصبحت لا تؤدي اكثر من رموز وذكريات في استعمال الزمن، وقد اختلط بها تعليم الفرنسية والتاريخ والقانون والجغرافيا والحساب والعلوم المستعملة، وبكلمة واحدة فان اللغة العربية لم يصبح لها من ذلك التاريخ في برنامج المدارس الفرنسية ــ العربية اكثر من الدور والمكانة التي تحتلها اللغات الاجنبية في الثانويات الفرنسية » [1] .

وبالاضافة الى هذا فقد الحق الفرنسيون ببرنامج المدارس الفرنسية ــ العربية تدريس اللهجات المحلية وذلك على حد تعبير هاردي :

---

(1) Ibid , p. 110 .

« لانه يوجد احيانا خط التقاء بين تعليم لغتنا واللهجات الافريقية ، ذلك ان مهنة المترجم تحتاج الى تدريب وطني، وطلابنا في الغرب الافريقي تكون لهم مناسبات للترجمة من العربية الى الفرنسية اقل بكثير من تلك المناسبات التي يحتاجون فيها للترجمة من اللهجات المحلية الى الفرنسية » (١) .

وقد كان لخريجي هذه المدارس دور خاص بهم ، فهم مساعدو الادارة الفرنسية في شؤون الاهالي وخاصة الحالات ذات الصبغة التقليدية والعائلية ، وفي هذه الوضعية نجد الفرنسيين يطبقون القاعدة التي طبقوها في شمال افريقيا على خريجي المدارس الفرنسية ـ العربية ، وقد عبر هاردي بكل وضوح على الدور الخاص لخريجي المدارس الفرنسية ـ العربية كما كانت تستدعيه المصلحة الفرنسية بقوله :

« ... وبما ان مدارسنا تستهدف التصاق الطلبة بالتراب ، وتعويدهم على العمل اليدوي او تحضير قائمين ببعض المصالح التقنية مثل ادارات البريد والاشغال العامة ، فان المدارس الفرنسية ـ العربية تكون بصورة عامة مترجمين رسميين قضاة او كتاب ضبط للمحاكم الاهلية ، ورؤساء للجمعيات المحلية الاهلية ، وبعبارة واحدة مساعدين لادارتنا وعدالتنا وهذا ما يجعل من الضرورة تعويدهم على اللسان الفرنسي قراءة وكلاما، ومن الضرورة كذلك ان يكونوا على معرفة جيدة باغراضنا الحضارية ... » (٢) .

---

(١) Ibid .

(٢) Hardy , op. cit. , p. 111 .

وعلى عكس ما فعل الفرنسيون في الجزائر حينما اصطدموا اصطداما مباشرا مع الطبقة البورجوازية فانهم في افريقيا الغربية اعتمدوا على بعض المتعاونين معهم بين افراد تلك الطبقة، فجعلوا تعليم اولادهم وفق المخطط الفرنسي في المدارس الفرنسية ــ العربية ضمانة وهدفا ، ويشرح هاردي هذه الحقيقة اكثر فيقول :

« وبما انه من المفروض ان المدارس الفرنسية ــ العربية لا توظف طلابها عن طريق الصدفة ولذلك فهي لا تمتلىء الا بالنخبة الاجتماعية ... وهذا يعني استعمال الطبقات الارستقراطية الحاضرة وعلى مختلف المستويات على هذه البلدان الجديدة كضمانات جدية ... ومن ناحية اخرى فان المدارس الفرنسية ــ العربية الثلاث في افريقيا الغربية انما هي في الواقع وقبل كل شيء مدارس لابناء وبنات الوجهاء ، ان مدرسة تمبكتو التي هي اكثر شبها بمدرسة الجزائر قد اقيمت في منطقة حضارية اسلامية قديمة وهي بالتالي تستقبل ابناء الامراء والعلماء المشهورين في حوض النيجر (١)، اما مدرسة بوتليميت (٢) التي وضعت الى حد ما تحت الرئاسة الشرفية للشيخ سيديا (٣) ، فهي تجمع احفاد العائلات الكبيرة للترارزة والبراكنة والعصابة الذين كان

---

(١) تقع تمبكتو في الشمال الشرقي من مالي الحالية .

(٢) في الجنوب الموريطاني .

(٣) الشيخ سيديا ، كان من المتعاونين مع الادارة الفرنسية ، لمزيد من التفاصيل حوله ، انظر بصورة خاصة :

Charles Stewart , The role of *Shaykh* Sidiyya and the qàdiriyya in Southern Mauritania , PH. D. thesis 1970 ; Massignon « Bibliothéque d'un marabout , le cheikh Sidia » Revue Africaine , 1911 .

آباؤهم قد لعبوا دورا مهما في مختلف مراحل الاحتلال الفرنسي... وتعتبر مدرسة سان لويس اكثر اهمية وهي تمتلىء بشروط مماثلة، وتقبل طلابها من بين (قبائل) الاولوف والتوكولور والموريطانيين والفلان والسريس والماند ينغ والسراكوليين والبمبارا [١] وهناك طالبا على الاقل من ابناء الملوك السابقين في الناحية .. كما تأوي هذه المدرسة الابناء الثلاثة لسلطان وضاي السابق الذين بعد ان امضوا بعض الاشهر في ثانوية الجزائر قدر الحاكم العام لافريقيا الاستوائية الفرنسية ان يعهد بهم الينا » [٢] وينتهي هاردي الى النتيجة التالية :

(ان هذه المدارس الثلاث بعد ان تحولت وفق اهداف محددة لافريقيا الغربية الفرنسية .. تستحق البقاء، وهي الى جانب المدارس الاخرى تكفي لان تهيىء لفرنسا رعايا مخلصين ومطيعين) [٣] .

التاريخ :

في سنة ١٩١٢ صرخ نائب لاليه L'Allier في الجمعية الوطنية الفرنسية السيد بيروني Peyronet لمجلة الحوليات الاستعمارية Annales Coloniales قائلا : (ان هناك مادة اريد ان ارى اختفاءها دون تأسف الا وهي مادة التاريخ ويكفي ان تعوض اثناء درس الفرنسية ببعض القراءات لتعطي لطلاب (المستعمرات) فكرة عن قوة بلادنا)[٤].

---

(١) اسماء للقبائل الكبيرة والهامة في غرب افريقيا .

(٢) Hardy , op. cit. , p. 112 .

(٣) Hardy , op. cit. , p. 112 - 13

(٤) Annales coloniales , 1912 , p. 37

وقد طبق الفرنسيون هذه النظرية في البرامج المخصصة لمدارسهم في افريقيا الغربية بكل دقة ، فكانت فكرة هاردي تقتضي تدريس التاريخ وفق الاهداف التي تبرر الوجود والاحتلال الفرنسي للمنطقة بل وتؤدي الى اقتناع الطلاب بوجوب بقائه، ولتحسيم هذه الفكرة يقرر هاردي ان المعلم الفرنسي يجب ان يوضع في قسم تتخلله خطوط متشابكة لتجسم المدفع الذي عياره ٧٥ مم، وذلك هو التاريخ فان اضيف الى هذا حسن التنسيق والاختراع في تقديم المادة فان ذلك سيتناسب كل التناسب مع عقلية الاهالي القابلة للخوارق ، وعلى حد تعبيره) فان تدريس التاريخ في المستعمرات يجب ان يبتعد عن اي تأثير كان قد عرفه ميشلي Michelet) [1] .

لقد كانت الادارة الفرنسية في حاجة الى دراسة الاهالي نفسيا واجتماعيا حتى تتمكن من حكمهم ، وقد كان لرؤساء الاقسام العسكرية (CHEFS des circles militaires)منذ البداية مساعدون لجمع المعلومات الشفاهية حول القبائل المختلفة ، واعتبروا ذلك هو التاريخ الذي يجب ان يعرفه الناس ويتدارسوه ، وكان من اشهر الكتاب الفرنسيين الرواد وفق هذا الاسلوب مارتي : MARTY وموريس دولافوس • Maurice delafosse .

ففي حين كان الاول جماعا للمعلومات الشفاهية ومتحريا الاغراض الادارية والسياسية للاحتلال الفرنسي فيما يكتبه كان الثاني حاكما الاعالي السنغال والنيجر ثم انتصب استاذا (حجة) في تاريخ افريقيا الغربية بباريس •• وفق طريقتهما اصبح هناك تاريخ لقبائل المنطقة

---

(١) هو احد اصحاب النظريات الفلسفية المشهورين ، كرائد للمدرسة الفرنسية الحديثة في كتابه التاريخ .

الفرنسية بافريقيا الغربية والاستوائية من نـوع خاص تهمل فيه الوثائق المكتوبة بالعربية وقـد يشار لبعضها احيانـا بشكل مقتضب وتعتمـد المصادر الشفاهية اعتمادا كليا [1] • ولا يزال لهـذه المدرسة اثرهـا القوي في فرنسا حيث يتصدرها في تدريس طلاب افريقيا الغربية الان او الاشراف على رسائلهم امثال Hubert des Champs هيبر دي شامب وايف بيرسون فـي جامعـة باريس EVES Person وتضـع هـذه المدرسة كأساس الطريقة الاثنولوجية نصب اعينها فيصبح تاريـخ المنطقة عبارة عن حركة مطردة للقبائل في تنقلاتها التاريخية بين الشمال والجنوب وتفسر علاقاتها انها كانت لا تتجاوز فـي نوعيـتها العلاقـة الاستغلالية التجارية في ابشع صورها وخاصة قضية الرقيق والذهب !

وكانت الادارة الفرنسية منذ البداية قد قطعت الصلات الانسانية بين افريقيا الغربية وشمالها • وكونت وحدات جيش المهارة (او الجمال السريعة) لمراقبة الحدود وانهاء حركة القوافل القديمة وبذلك حرمـت كل تنقل عن طريق القوافل، وبقيت هذه الوضعية قائمة حتى استقلال كل من شمال افريقيا وغربها، واثناء هذه الحقبة الطويلة التي استمرت حوالي نصف قرن تمكن الفرنسيون من التشجيع على ظهور تقاليـد سودانية خاصة في مجال الديانة، وذلك بالتدخل المباشر والتمكيـن لنظام المريدين في الطريقة التيجانية ان يصبح هو السائد ، اما العناصر التي عارضت وعلى رأسها رجال الطريقة القادرية فقد قضـي عليهـم بمختلف الاساليب، ومنها العنف •

---

1 - cf. Paul Marty , études sur l'Islam et les tribus du sudan , Paris , 1918 ;

Mauric delafosse , les noirs de l'Afrique , Paris , 1921 .

الفرق بين جيلين :

كان القرن التاسع عشر هو عصر الجهاد في افريقيا الغربيــة [1]. وقبل خضوعها للاحتلال الفرنسي في اخر ذلك القرن، عمل عدد مــن رجالها على القيام بثورات اصلاحية، كانت اهدفها :

١) ـ اصلاح وضعية المسلمين في بلادهم عن طريق احياء الاســلام في النفوس وتكوين دول حسب مفهوم العقيدة الصحيح.

٢) ـ نشر الاسلام الى المناطق الوثنية .

٣) ـ ربط صلات قوية مع الاسلام وخاصة في شمال افريقيا وذلك كله مما يعرف بحركة الجهاد ، الا ان الخلافات التي رافقت فترة الجهــاد هذه بين رجال الطريقة التيجانية والقادرية كان لها اثر عكسي خاصة في مناطق نهري النيجر والسنغــال وساعــد ذلك الفرنسيين على احتلال المنطقة كلها فيما بعد .

ولقد انتبه رجال وزعماء حركة الجهاد الى الخطر الفرنسي منــذ البداية فعمل احمد البكاي الكنتي ، زعيم تمبكتو ، علــــى الاستعانــة بالانكليز ضد الفرنسيين وذلك حين تيقن بان الانكليــز لــم يكونوا يريدون احتلال المنطقة على عكس ما كان يبيته الفرنسيون ، ورفض كل من الحاج عمر وابنه وخليفته احمد الاحتلال الفرنسي او الانتداب بكل الوسائل، ولما بدأ الفرنسيون في الثمانينيات من ذلك القرن تنفيــذ

---

(١) عن حركة الجهاد هذه ، يراجع بصورة خاصة : H. F. C. SMITH , « A Neglected theme of west African History » , Journal of west African society of Nigeria , Vol . 2 , 1961 , p. 184 FF.

مخططهم التوسعي باتجاه الجنوب والشرق انطلاقا من معقلهم القديم في سان لويس كان من اشهر من حاربوهم الشيخ ساموري في غينيا بكل تصميم وضراوة، وانشأ دولة مستقلة تشبه الدولة التي كان قد اسسها الامير عبد القادر الجزائري لملاءمة ظروف الحرب ضد الغزاة الفرنسيين، ولكن كانت الظروف ملائمة للفرنسيين اكثر فتمكنوا من احتلال كامل افريقيا الغربية مع بداية القرن العشرين بقوة السلاح [١] ، وقد رفض السكان التجنيد الاجباري رفضا مطلقا في البداية حينما بدأ الفرنسيون تطبيقه في افريقيا الغربية على غرار ما فعل اخوانهم في شمال افريقيا وذلك اعتمادا على المبدأ الاسلامي لديهم من انه لا يجوز التجند في جيوش غير اسلامية والقتال والموت للدفاع عن الفرنسيين المحتلين وكانت الحكومة الفرنسية انذاك قد قررت وتريد تجنيد ابناء المستعمرات استعدادا للحرب العالمية الاولى ، فوجدت صعوبة كبيرة وتهربا من قبل الأهالي ، فاستأجرت العديد من المتعاونين معها لاصدار الفتاوى بجواز الموت الى جانب الدولة الحاكمة وقد خرجت فرنسا من الحرب العالمية الاولى منتصرة ثم دخلت الحرب العالمية الثانية فأعطت وعودا بتصليح اوضاع السكان في المستعمرات بعد الحرب وكانت النخبة المثقفة بالفرنسية قد تكونت فلما جاءت الانتخابات التمثيلية للجمعية الوطنية الفرنسية خاض الاهالي تلك الانتخابات دون استعداد وتحت المراقبة الادارية الصارمة للفرنسيين وكانت له طموحات واسعة بحكم ارضيته الثقافية على الخط الفرنسي، ولكن كانت لا تزال تقف امامه حواجز الرعوية وعدم المساواة بالفرنسيين الشباب الذين اخذ ثقافتهم واراد الاندماج والمساواة بهم وعجز عن بلوغ هذه الاهداف،

---

1 - Jean Suret - Canal , Afrique Noire , Paris 1963 , pp. 123 - 87

ولذلك كانت مطالب الممثلين الافريقيين في الجمعية الوطنية الفرنسية التي تكونت بعد الحرب لا تتجاوز المطالبة بادخال بعض الاصلاحات وعلى رأسها الغاء قوانين السخرة والغاء قانون الاهالي (انديجينا).

لقد نادى فرحات عباس (ممثل حزب البيان الجزائري المعتدل في الجمعية التأسيسية الفرنسية) بقيام دولة جزائرية وبرلمان جزائري ، وقال ميقان ابيتي : MIGAN APITHY الذي كان ممثل منطقة الداهوس ـ طوغو : (ان عنايتنا ليست الجلوس على ضفاف السين ولا ان نقحم انفسنا فيما هو اساس قضايا الوطن الام ولكن لتنظيم قضايا بلداننا على ضفاف الكونغو والنيجر)، ثم اراد التأكيد على الارتباط بفرنسا قائلا : (ان الافريقيين سيستمرون على المحادثة مع الشعب الفرنسي في القضايا التي تهم الجميع، هذا الجميع الذي نكونه معهم) [(١)] . وربما يعتبر ميقان اكثر الممثلين من افريقيا الغربية الفرنسية تقاربا مع مطالب بعض الممثلين من الشمال الافريقي وزعماء افريقيا الغربية الواقعة تحت الحكم الانكليزي الذين كانوا يطالبون اما بالحكم الذاتي او الاستقلال ، وفي غير ذلك فقد كانت الواقعية هي ابرز سمة ارتبط بها السادة نواب الغرب الافريقي في الجمعية الوطنية الفرنسية[(٢)] فحينما لوحظ بعض الامتعاض من طرف النواب الفرنسيين من مطالبة

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن قرارات مؤتمر برازافيل ومطالب الممثلين الافريقيين في الجمعية الوطنيةالفرنسية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، راجع بصورة خاصة :

- R. Morgenthau , Political parties in French west Africa , oxford 1964
- E. Mortimer France and the Africans , London 1969 .

(٢) Ibid .

عباس فرحات بالحكومة المحلية ضمن الاتحاد الفرنسي في بلاده انبري APITHY ليخاطب النواب الفرنسيين قائلا : (بالتأكيد فان بعض زملائي قد طالب بالاستقلال في اطار الاتحاد الفرنسي للبلدان التي يمثلونها، ولكن هذا لا يتعارض مع المبادىء التي كنتم قد قبلتموها انتم انفسكم واكدتموها في احيان كثيرة) [١]. وحينما تم رفض المشروع الاول للدستور من طرف المنتخبين الفرنسيين لانه كان يتضمن بعض مبادىء للمساواة بالرعاية في المستعمرات قال ياسين ديالو (وكان يمثل غينيا): انه فيما يختص بالافريقيين فان الدستور المقترح قد أدى رفضه الى الرضى الكامل) [٢] .

حينما اعلنت نتائج الانتخابات في افريقيا الغربية بعد نهاية الحرب الكونية الثانية لم يفز بها غير بعض المثقفين في المدارس الفرنسية وكان للادارة المحلية الفرنسية دورها على كل حال، ومنطقيا كان لا يمكن لنائب ان يؤدي دوره في الجمعية الوطنية الفرنسية على شكل من الاشكال بغير اللغة الفرنسية، ولقد كان نواب الغرب الافريقي حريصين منذ البداية على اعلان الارتباط بفرنسا، وباستثناء ممثل غينيا (ياسين ديالو) فقد انقسم نواب الغرب الافريقي جميعا حسب الانضمام اما للحزب الاشتراكي الفرنسي او للحزب الشيوعي الفرنسي وهذا ضرب من الواقعية حيث كان هؤلاء الوافدون الجدد على باريس في حاجة الى التوجيه والخبرة بالمداولات البرلمانية، ووجدوا في الحزبين الشيوعي

1 - Ajayi and crowder (eds.) , History of west Africa , Vol. 2 , London 1964 , pp. 664 FF.

2 - Journal officiel , débats 2eme session , 18 September 1964 , p. 474 FF.

والاشتراكي قبولا للانخراط ضمن كتلتيهما النيابيتين، ولم يكن من هم نواب الغرب الافريقي غير الاهتمام بادخال الاصلاحات ولما وجـدوا في البرلمان الفرنسي خطرا واضحا تجاه مثل هذه المطالب انخرطوا ضمن مجموعة كتلة ما وراء البحار «الممثلة للمستعمرات» وهذا حتى يجدوا، كغيرهم ، بعض التضامن (١) ولقد ضمت كتلة النواب لغـرب افريقيـا الفرنسية انذاك نائبين مسلمين من مجموع ستة نواب، وباستثناء ممثل غينيا فان التمثيل لم يكن له ابدا علاقة نسبية بالديـن، ففـي منطقـة السنغال كان انتخاب سنغور المسيحي المتدين والذي لم يعش فـي السنغال منذ ١٩٢٨ حتى نهاية الحرب بتأييد واضح من لمـين غاي ، ولم يكن تمثيل المناطق الاسلامية الاخرى، وهي تمثل اكثر من ثلثي المساحة والسكان حتى ذلك الوقت، ليتسجم هو الاخر مع الوازع الدينـي ، وكان هذا اتجاه جديد لم تكن لتعرفه افريقيا الغربية على هذه الصورة فـي سنة ١٩٠٠ مثلا ولا في السنوات التي بعدها مباشرة قبل التجنيد الاجباري منذ سنة ١٩١٢، وبتكاثر عدد الطلبة الخريجين من المدارس الفرنسية في فترة ما بين الحربين اخذ الاتجاه الجديد طريقـه الواضح الذي مثلته نخبة ضئيلة العدد، ولكنها كانت شديدة الاثر لدرجة انهـا جعلت النخبة القديمة المتمثلة في شيوخ القبائل والزعماء الدينيين تنقاد اليها والحقيقة ان الادارة الفرنسية كان لها دورها الكبير في انتقـاء افراد من النخبة القديمة وخلقهم ليتلاءموا وهذا الاتجاه الجديد، امـا المناهضون فقد اكلتهم فترة الجهاد الاولى وقضي على انصارهم وتشتت احفادهم تحت نير الفاقة، وبقي المناصرون الذين ازداد عددهم بفعـل

---

1 - MARCEL CHAILLEY , Histoire de l'Afrique occidentale , Paris 1968 pp. 474 FF.

التهجير واعطاء الاولوية في كل ناحية للقادمين من مناطق بعيدة كي يواكبوا الركب ويخدموا اهداف الادارة مقابل ابهة الوجاهة والعيش الرغيد نسبيا في ظلها .

التعليم الديني الفرنسي :

لم يكن في افريقيا الغربية كلها عند بداية القرن العشرين مسيحيون افارقة، وهذا باستثناء افراد قلائل من الهجناء الذين توالدوا من جراء المعاشرة الطويلة للفرنسيين مع بعض الاهليات في سان لويس فلما انتهت الحرب العالمية الثانية تكونت البذور الاولى للجاليات المسيحية من الاهالي في عدة مناطق هي :

١) ــ بلدية السنغال (سان لويس، داكار ، كوري، روفسيكوتيار)

٢) ــ في الكازامانس (السنغال الجنوبي) .

٣) ــ في اعالي السنغال والنيجر (افراد قلائل من قبائل البمبار او الموسى في سيغو بصورة خاصة) .

٤) ــ بعض الافراد في باقاس بغينيا .

٥) ــ في ساحل العاج (على الساحل بصورة خاصة).

٦) ــ في الداهوي (في الجنوب الغربي من ذلك الاقليم) .

لقد كانت تلك هي حصيلة سياسة التمسيح في مدة اربعين عاما، وقد وجدت ثمارها الاولى في المناطق الوثنية وكان الرسميون الفرنسيون منذ البداية يعتبرون ذلك فتحا مبينا [1] والحقيقة ان

---

1 - Hardy , op. cit. , p. 319

الفرنسيين في افريقيا كما في غيرها من مستعمراتهم كانوا يطبقون باستمرار قول غمبتا ذلك السياسي الفرنسي الشهير : (ان مناهضة اعمال الكنيسة يجب ان لا تكون مادة للتصدير) ذلك ان التبشير كان قد منع في فرنسا منذ مدة طويلة ولكن الادارة الفرنسية في المستعمرات كانت تعتمد عليه اعتمادا كبيرا، وكانت مدارس المبشرين في افريقيا الغربية قد سبقت الى الوجود قبل المدارس الحكومية ، ولذلك فقد كانت المدارس التبشيرية واستمرت طيلة عهود الاحتلال تنفق عليها الادارة الفرنسية كما تنفق على مدارسها ، وذلك حسب تعبير هاردي (لانه يكون من غير الصواب عدم الاعتراف بالعمل الفرنسي العميق الذي يؤديه المبشرون) [١] .

لقد كان المبشرون الكاثوليك هم عمدة العمل الفرنسي، ولكنه سمح للبروتستانت ايضا بالعمل ، وكانت نسبة الكاثوليك الى البروتستانت بين الاهالي المتنصرين هي الغالبة منذ البداية. وبالرغم من ان مدارس (المرابطين) الاسلامية كما كان يطلق عليها [٢] ، كانت في ضعف متزايد من حيث كفاءة رجالها فان المبشرين وجدوا صعوبة كبيرة في تنصير المسلمين ولذلك قلدوا طريقة لافجري التي كان قد جربها في الجزائر، وهي تعتمد مطالب اليتامى واقتناص مناطق المجاعات لتنصير بعض الافراد من بين المسلمين ثم الهروب بهم او عزلهم من المناطق الاسلامية بقدر الامكان حتى لا يعودوا للاسلام [٣]. ثم مال

---

1 - Ibid , p. 320

2 - Les écoles de MARAB outs .

3 - CF. HARDY , op. cit. , p. 320 ; Paul MARTY , Les écoles Mouraboutiques du sénégal , Paris 1914 .

المبشرون في الاتجاه الى الاعمال الاجتماعية مما سهل مهمتهم للاستقرار والانتشار في جميع المناطق، وهذه الطريقة هي التي لا يزال يسير عليها المبشرون في افريقيا الغربية، واغلبهم فرنسيون، حتى الان [1] .

لقد سخرت الادارة الفرنسية في افريقيا الدين لخدمة اهدافها واستخدمت المدرسة لنشر اللغة الفرنسية، واستفادت من الامتيازات التي كان يحصل عليها الافراد من التعاون مع تلك الادارة للقضاء على اللغة العربية وتمكنت في اقل من نصف قرن من خلق طبقات جديدة تتوق الى اهداف وتتعلق بمفاهيم تختلف عن مفاهيم الاجيال السابقة، وهو عمل كبير لا يمكن المؤرخ ان لا يلاحظ المجهودات التي بذلها الفرنسيون عن جدية ومعرفة في سبيله . واخيرا فانه لايمكن اعتبار هذا البحث احاطة بموضوع واسع كهذا الذي نحن بصدده، ولكنه، وهذا هو الهدف الذي كتب من اجله، اقتراح جدي لعناصر الموضوع نضعها امام الباحثين وخاصة الشباب من بينهم، ولنا اليقين بأنه سوف لن تنقصهم المصادر وانما يلزمهم العمل .

(١) لمزيد من التفاصيل حول طريقة الكاردينال لافيجري ، راجع بصورة خاصة : Lavigerie , oeuvres choisis , Paris 1884 .

العصر الذهبي عصر الازدهار الحضاري وبدايات التدهور السياسي الإداري

الدكتور فاروق عمر فوزي
كلية الآداب - جامعة بغداد

مقدمة :

حين بدأ عهد المهدي تنفس الناس الصعداء بعد حزم المنصور وشدته فقد آمن الخائف وانصف المظلوم وبسط يده في العطاء ، الا ان المهدي لا يستوي مع المنصور في الكفاءة الادارية والدهاء السياسي • وقد ظهرت نتائج ذلك في العصر الذي تلاه والذي اصطلحنا على تسميته « بالعصر الذهبي » •

ان العصر الذهبي بكل ما فيه من مظاهر الحضارة ودلالات الازدهار يعتبر في نظرنا بداية منعطف جديد في تاريخ الخلافة العباسية تتمثل فيه بدايات التدهور الاداري والتفكك السياسي والتحلل الحضاري •

فمظاهر الحضارة في عصر الرشيد بادية للعيان في الروايات التاريخية التي تضمها كتب مؤرخينا الرواد ولعلنا نقتبس هنا رواية اليعقوبي حيث يقول (١) :

«وكان الرشيد مع ذلك اول خليفة ضرب بالصوالجة والطباطب ورمى بالنشاب في البرجاس وقدم اهل الحذق بذلك . واول خليفة لعب بالشطرنج والنرد وقدم اللعاب وأجرى عليهم الارزاق واول خليفة اتخذ القيان من بني هاشم فتشبه الناس جميعا به وسلكوا سبيله» .

وعن السيدة زبيدة زوجة الرشيد يقول اليعقوبي فيما يقول :

«واما ما يتلين به الملوك وينعمون به ، فهي (أي زبيدة) اول من عمل في الاسلام الاله من الذهب والفضة المكللة بالجوهر واتخذت رفيع الوشي حتى بلغ ثوب وشي عمل لها خمسين ألف دينار . وأول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري يركبون الدواب ويختلفون في حوائجها برسائلها وكتبها . واول من عمل القباب من الفضة والابنوس والصندل ورأسها وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والخز ... وأول من اتخذ القمص اللؤلؤ مفصلة بالجوهر وشمع العنبر وتشبه الناس بأم جعفر في جميع أفعالها »[٢] .

ومهما كانت درجة المبالغة في هاتين الروايتين وأمثالهما ، فالواقع ان هذه الصفات والمزايا كانت من خصائص العصر الذهبي العباسي التي توغلت في سائر فئات المجتمع فكثرت مجالس الانس والغناء وزاد شراء الناس للجواري والمغنيات حتى بلغت قيمة الواحدة منهن الاف الدراهم فراجت تجارة الجواري وتثقيفهن وبانت مظاهر الترف الاجتماعي والثراء الكبير في المأكل والملبس والمشرب وفي المواكب الرسمية والشعبية وألعاب الفروسية وركب الخيل والصيد ولعب الصولجان ومواكب النزهة في دجله وما الى ذلك .

على أن عهد الرشيد بكل ما فيه من مظاهر الحضارة والترف

الاجتماعي والازدهار الثقافي كان منعطف جديد نحو التدهور سياسيا واداريا • ان روايات (ألف ليلة وليلة) جعلت من شخصية هارون الرشيد شخصية اسطورية واخفت الكثير من حقائق شخصيته التاريخية [٣] •

فقد عاش هارون في بلاط ابيه المهدي الذي بدت عليه مظاهر الترف والاسراف والتحلل الحضاري • حياة نعيم ودعة بعيدا عن المسؤولية وتحمل المشاق والعقبات ، محاطا بالخدم والجواري والخصيان • ثم عين وليا للعهد بتحريض من امه الخيزران ومربية يحيى البرمكي اللذين لعبا دورا مهما في تنصيبه خليفة للمسلمين بعد وفاة الهادي بطريقة غامضة •

ان المنعطف الجديد يتصف بما يأتي :

من الناحية الادارية فوض الرشيد امور البلاد منذ سنة ١٧٠ هـ حتى ١٨٧ هـ للبرامكة حيث يشير الطبري الى قول الرشيد ليحيى البرمكي « ••• قد قلدتك امر الرعية واخرجته من عنقي فاحكم بما ترى ••• [٤] » ، ورغم ان هذا القول يمكن ان يكون من صنع صنائع البرامكة موضوعا على لسان الرشيد فالواقع ان البرامكة كانت لهم اليد الطولى في السياسة والادارة حوالي العقدين من الزمان وان نكبتهم كانت بمثابة نقطة تحول في الكفاءة الادارية للدولة التي بدأت تسير نحو التدهور رغم ان اثارها لم تبدأ بعد نكبتهم مباشرة •

ولم يكن الرشيد ذلك الاداري الكفؤ من مراقبته للعمال ولعل ذلك ظاهر في علاقاته بولاة الاقاليم حيث لم يكن موفقا في قضية علي بن عيسى بن ماهان واليا على خراسان الذي عاث بهذه الولاية وأخذ أموال الناس واستخف بالرجال وكان الرشيد يغض الطرف عنه لكثرة ما يقدمه

له من « الاموال والهدايا والطرف من المتاع والمسك والجوهر وأنية الذهب والفضة والسلاح والدواب .. [٥] » . وكان حماد البربري والي الرشيد على اليمن شديد الجور على أهلها الذين لم يهدأوا حتى عزل .

وقد اتخذ الرشيد جملة من التدابير الادارية تعتبر بدعة في التاريخ الاداري للدولة العربية الاسلامية فلم تكن الكتب الصادرة من ديوان الخراج تصدر الا بتوقيع الخليفة فخص يحيى البرمكي بهذا الاجراء . وأشرك الرشيد جعفر البرمكي في النظر في المظالم [٦] . كما تنازل عن واجبه في مراقبة عيار العملة النقدية وقلدها لجعفر البرمكي الذي ضرب اسمه على الدنانير والدراهم في بغداد والمحمدية . ويعلق المقريزي حول اشراف جعفر البرمكي على دور الضرب قائلا « اذ هو شيء لم يتشرف به أحد قبله [٧] » . ولا شك فان هذه الاجراءات تدل على تماهل الخليفة عن اداء واجبات من صميم مسؤولياته المباشرة .

ومن الناحية السياسية لم يكن الرشيد موفقا في معالجته لمشاكل الأقاليم بل ان المستشرق بارتولد يرى ان « هيبة الخليفة نفسه لم يحافظ عليها دائما فقد هاجمه أهل الكوفة سنة ١٨٠ هـ/٧٩٩ م عندما امضى ٤٠ يوما في الحيرة [٨] » .

وتفاقمت الاضطرابات في المشرق الاسلامي بحركة رافع بن الليث ولم يستطع الرشيد ان يجد حلا لها . بل ان تكتلات البلاط عقدت المشاكل أكثر بحيث ضاعت المسؤولية بين الآراء المتضاربة والمصالح المتنازعة . أما في المغرب الاسلامي فقد نجح ادريس بن عبدالله الحسني في اقامة كيان مستقل في مراكش سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م فنشأ كيانان اسلاميان لأول مرة . وازاء هذا الوضع المتأزم وبسبب القلاقل في

افريقيا (تونس وشرقي الجزائر) اضطر الرشيد ان يعترف بالاغالبة امراء مستقلين مقابل دفع ٤٠ الف دينار لبيت المال . ان هذا الوضع ان دل على شيء فانما يدل على اعتراف الرشيد بالتفكك السياسي والانحلال الاداري في الخلافة العباسية .

ويعتبر الخليفة الرشيد مسؤولا عن التفكك السياسي حين قرر تقسيم اقاليم الخلافة بين ابنائه الثلاثة الامين والمأمون والمؤتمن . ان توليه العهد لاكثر من واحد وتقسيم الخلافة أدى الى الحرب الاهلية بين الامين والمأمون تلك الحرب التي ضيعت الاموال والارواح وافقدت الخلافة هيبتها ونشرت الفوضى في البلاد . وربما كان الرشيد في ما قام به مدفوعا برغبته في أن يحكم أبنائه من بعده . أي ان يستمر الحكم في نسله ، وكذلك لتأكيد السلطة العباسية على كل الاقاليم الا انه من الصعب القول بان هذا الحل الذي ابتدعه الرشيد كان حلا صحيحا .

والواقع أن الرشيد بعث روحا جديدة في الحرب الاسلامية ـ البيزنطية ولكن الذي يؤخذ عليه عدم السير على خطة منظمة في عملياته البحرية وعدم متابعته الضغط على الروم واستغلاله مشاكلهم الداخلية لتأكيد تفوقه العسكري وتحسين حدود الخلافة البرية والبحرية بل انه كان يجنح للسلم حالما يطلب الامبراطور الصلح ، ولهذا ورغم ان الجهاد كان من مآثر العصر الذهبي البارزة فان الحدود لم تتغير في صالح المسلمين .

ومع أن عهد المهدي شهد بدايات بروز التكتلات في البلاط ، فقد

زادت حدة هذه التكتلات في بلاط الرشيد فقد كان للبرامكة اتباعهم ومواليهم وكان للفضل بن الربيع ويزيد الشيباني اتباع وموال وكان لعلي بن عيسى بن ماهان انصاره وشيعته . وكان لا بد ان يحدث صراع على النفوذ والسلطة لعبت فيه الخيزران وزبيدة دورا كبيرا فقد استعان البرامكة بالخيزران التي كانت « هي الناظرة في الامور وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن أمرها [٩] » . ان ذلك يظهر لنا أثر التكتلات في سياسة الرشيد وبوادر تأثير الحرم في سياسة الدولة العباسية ويبدو أن خروج الرشيد من عاصمته بغداد بين حين وآخر ولكثرته في الرقة يدل على تضايقه من الجو المتأزم في بلاطه في بغداد . على اننا يجب الا ننظر ، كما فعل بعض المستشرقين [١٠] الى هذه التكتلات نظرة عنصرية بل ان كل كتلة كانت تضم افرادا وشخصيات من عناصر مختلفة جمعتهم المصلحة المشتركة .

ومن المستغرب ان يهمل الرشيد شؤون الاتصال والمواصلات مع سعة رقعة دولته ففي رواية « ان امور البريد والاخبار [١١] » اهملت في عهده وان الخليفة حين توفي كانت هناك ٤ آلاف خريطة لم تستعمل .

كل هذه اسباب تجعلنا نعتبر الرشيد وعهده نهاية فترة وبداية منعطف جديد في التاريخ العباسي .

ان ما ارتكبه الرشيد من اخطاء في حالات معينة اثارت عجب واستغراب المؤرخين الرواد انفسهم فيعجب ابن الاثير من تدابيره فيما يتعلق بولاية العهد قائلا « وهذا من العجائب [١٢] » ذلك لان الرشيد لم يتعظ بما جرت ولاية العهد لاكثر من واحد من ويلات على الدولة .

ويوافقه الطبري حيث يقود على لسان العامة « وقال بعضهم بل قد القى بأسهم بينهم وعاقبة ما صنع في ذلك مخوفة [١٣] » •

ونحن بعد ذلك كله لا ننكر تدابير الرشيد واصلاحاته الا اننا لانتفق مع بعض المؤرخين روادا ومحدثين حين يقارنون الرشيد بجده المنصور حيث تقول عنه احدى الروايات بانه « كان يقتضي اثار المنصور [١٤] » فالاول لايمكن ان يصل في حزمه وكفاءته الادارية وحكمته السياسية الى درجة الخليفة المؤسس ابي جعفر المنصور •





التطورات السياسية للخلافة : نظرة تحليلية

عصر الرشيد (١٧٠/٧٨٦ - ١٩٣/٨٠٨) :

يقول بارتولد « من المعروف ان شخصية هارون الرشيد لم تعد تحيطها هالة الف ليلة وليلة » والواقع ان شخصية هذا الخليفة تعتبر اكثر الشخصيات شهرة لا في الاساطير الشعبية فحسب بل في روايات المؤرخين الاوائل والمحدثين منهم على حد سواء . وهذه الحقيقة تدفعنا الى احتراز اكثر من اجل غربلة حقائق التاريخ من بين مئات الروايات المفعمة بالخيال البراق والقصة الساذجة والخبر الموضوع والمدسوس .

لقد اخفت هذه التناقضات شخصية هارون الرشيد الحقيقية وضاعت مظاهر سياسته الداخلية والخارجية ولعل ذلك يعود الى ظروف عصره السياسية والحضارية الى حد كبير .

كان هارون الرشيد ثالث اولاد الخليفة المهدي وثاني ابنائه من الخيزران الجارية ذات الآمال الكبيرة والطموحات الواسعة التي تزوجها المهدي وحررها سنة ١٥٩ هـ/٧٧٥-٧٧٦م فلعبت دورا مهما في حياة زوجها وابنها الرشيد [١] .

ان تربية الرشيد وحياة الدعة والرفاهية التي عاشها جعلت منه

شخصية يسهل التأثير عليها خاصة من قبل امه ومربيه يحيى البرمكي • وتصفه رواياتنا التاريخية بحدة المزاج وسرعة تغلب العواطف بين الثورة العارمة والرقة المتناهية • كما وانه كان لايدخر وسعا في تبذير الاموال الوفيرة وبذلها لسبب او دون سبب حتى ان الطبـــري يقول « لم ير خليفة قط قبله اعطش منه للمال [٢] » ويقول ابن الطقطقي ان الرشيد كان « يجزل العطاء [٣] » •

ولم يكن هارون الرشيد ولي عهد مهتما بالخلافة ومصيرها بل كاد أن يقبل بالتنازل لجعفر بن موسى الهادي لولا الحاح الخيزران ويحيى البرمكي وتشجيعهما له على الصمود في وجه اخيه الهادي والحفاظ على حقه الشرعي في الخلافة • ولذلك فقد كان من الطبيعي ان يتمتع البرامكة ومن ورائهما الخيزران بسلطات واسعة بعد ان تبوأ الرشيـد كرسـي الخلافة • حتى ان الجهشياري [٤] يرى ان الدواوين كلها كانــت بيد يحيى البرمكي •

ان الظروف الصعبة التي مر بها هارون الرشيد في خلافة موسـى الهادي وضياع شخصيته بين البرامكة والخيزران وحدة مزاجه شجعت الى حد كبير على نمو التكتلات في البلاط العباسي وتبلورها • فقد أمر الرشيد في أوائل عهده بقتل او سجن او ابعاد الاشخاص الذين تعاونوا مع أخيه الهادي • ومع ان البرامكة تمتعوا بصلاحيـات واسعة الا ان شخصيات عربية مهمة كانت تنافسهم في البلاط نذكـر منها الفضل بن سليمان الطوسي ومحمد بن فروخ الازدي ويزيد بن مزيــد الشيباني والكثير من امراء العباسيين وكذلك كل من الفضل بن الربيع بن يونس وعلي بن عيسى بن ماهان وغيرهم • وقد لعبت هذه الشخصيات والكتل التي وراءها دورا مهما في سياسة الرشيد واجراءاته المختلفة •

ولم يكن عصر الرشيد خاليا من الاضطرابات الداخلية في ارجاء مختلفة من الخلافة العباسية • على أن اسباب هذه الاضطرابات تعود احيانا الى حركات المعارضة الخارجية أو العلوية او الفارسية او غيرها وهذا ما سنتطرق اليه في فصل قادم • اما البعض الآخر فكان يعود الى اضطرابات قبلية او حركات تمردية ذات طابع سياسي لا لون عقائدي له بل سببته سوء ادارة بعض الولاة وتذمر فئات معينة من الرعية •

ففي بلاد الشام ثارت العصبيات القبلية بين اليمانية والقيسية في سنة ١٧٤هـ ـ ٧٩٠م وتكررت سنة ١٧٦هـ ـ ٧٩٢م واشتدت سنة ١٨٠ هـ ـ ٧٩٦م • ورغم ان الخلافة العباسية تدرك بان انقسام اهل الشام ، اعداء الدولة التقليديين ، على انفسهم قوة لها فان تفاقم الوضع أدى من جهة اخرى الى ارباك الادارة واضعف من قوة السلطة المركزية مما دفع الرشيد الى ارسال جعفر البرمكي للسيطرة على الاقليم [٥] ، وقد نجح جعفر في استعادة الامن والاستقرار وذلك بتجريد القبائل من السلاح وقتل اهل الفتنة والمحرضين عليها والمنتفعين بها من (الزواقيل) واللصوص وبعض شيوخ القبائل مثل ابي الهيذام [٦] • وقد جلب جعفر البرمكي معه عددا من الزعماء الشاميين الى عاصمة الرشيد الذي قرر فرض نوع من الاقامة الجبرية عليهم في بغداد كما انه اصطنع البعض الآخر •

وفي اقليم اليمن تمرد الهيصم الهمداني ومعه اليمانية سنة ١٧٩ هـ ـ ٧٩٥م وتمركز في الجبال الوعرة وكلما طال امر حركته كلما تجمع حوله عصاة آخرون فأيده عمر الحميري والصباح الذي اعتصم بناحية حرار وقد استطاع حماد البربري ان يشتت شملهم بعد مجزرة قتل فيها الالاف فانتهى التمرد بعد اكثر من تسع سنوات وقتل الهيصم

في بغداد . اما الوالي فقد بقي في اليمن ثلاثة عشر عاما واشتهر بسوء سياسته وتعسفه (٧) .

اما خراسان ذات الموارد البشرية والاقتصادية الكبيرة فقد بقيت موضع اهتمام الرشيد الا انه اساء اختيار الولاة لها ولعل الدسائس وتكتلات البلاط لعبت دورها في قرارات الرشيد فيما يخص ادارة خراسان فقد عين خاله الغطريف بن عطاء على خراسان فكان سيء السيرة والتدبير ، ولكن الرشيد لم يعزله حتى اشتدت الفتن عليه . وفي سنة ١٧٨هـ - ٧٩٤م توجه الفضل البرمكي الى خراسان بعد ان عينه الرشيد عاملا عليها . وتمتدح مصادرنا التاريخية سياسة الفضل وحسن ادارته فقد « ازال سيرة الجور وبنى الحياض والمساجد والرباطات وأحرق دفاتر البقايا وزاد الجند والقواد (٨) » .

ولكن الامر لم يدم للفضل البرمكي حيث تعاقب على حكم خراسان ولاة اخرين حتى عين الرشيد علي بن عيسى بن ماهان وتجمع الروايات (٩) على ان علي بن عيسى تعسف في الجباية وفي المعاملة فشكى الناس ذلك للسلطة المركزية دون جدوى ذلك لان هذا الوالي كان يحمل الى الخليفة الكثير مما خف وزنه وغلى ثمنه من المتاع والمسك والجوهر وآنية الذهب كما وان وارد خراسان لم ينقص في عهده . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان الوالي كان من منافسي البرامكة ومن كتلة غير كتلتهم ولذلك فان الخليفة لم يكن يصدق ما يسمع عنه من شكاوى ظانا انها من اختلاق البرامكة وانصارهم ولذلك استمر هذا الوالي عشر سنين يحكم الاقليم .

ان ثورة رافع بن الليث بن نصر بن سيار في سمرقند هي التي

نبهت الرشيد الى سوء ادارة علي بن عيسى . فقد استطـــاع رافع ان يهزم جيش علي في معركة ضارية زادت من شيعته حيث انضم اليه أهل نسف كما التحق به اعداد كبيرة من اهالي بخــارى وخوارزم وفرغانة واشروسنة والختــل وغيرهــا من اقاليم ما وراء النهر وبلاد التـرك . وقد اضطر علي بن عيسى تجاه هذا الضغط العسكري ان ينسحـب من بلخ الى مرو ولكن الرشيد لم يمهله طويلا حيـــث عزله وصادر امواله وارسل هرثمة بن اعين لتسلم امر واصلاح الوضع ومعه كتــاب العزل الذي يشير فيه الرشيد الى ظلم ابن ماهان للناس ومخالفته للخليفـــة حيث يقول :

« رفعت من قدرك ونوهت باسمك واوطأت سادة العرب عقبـك وجعلت ملوك العجم حولك واتباعك فكان جزائي ان خالفت عهـــدي ونبذت وراء ظهرك أمري حتى عثت في الارض وظلمت الرعية واسخطت الله وخليفته بسوء سيرتك وظاهر خياناتك وقد وليت هرثمة بن أعـــين مولاي ثغر خراسان وامرته ان يشد وطأته عليك وعلى ولـدك وكتابك وعمالك ... (١٠) » .

ولم يستطع الرشيد في حياته ان يقضي على الحركة رغم انه حاول ان يسير اليها بنفسه حيث وافاه الاجل وهو في طريقـــه الى خراسان وبقيت الحركة حتى ولاية المأمون سنة ١٩٥هـ ــ ٨١٠م الذي استطـاع بسياسته في استرضاء اهل خراسان ان يفرق اتباع رافـــع بن الليث ويكسبهم الى جنبه مما ادى الى استسلام رافع وذوبان معارضته .

اما ارمينية فقد انتشرت فيها القلاقل في عهد الرشيد وعمل هــذا الخليفة على توطين قبائل عربية برمتها في ارمينية فكان كل والي يأخـذ

معه افخاذا من عشيرته فلما عين يوسف السلمي نقل اليها قبائل نزارية ولما تولى يزيد الشيباني جاء ومعه جماعة من ربيعة وجلب الوالي عبد الكبير الخطابي قوما من مضر • وهكذا فقد تنوعت قبائل العرب في ارمينية بعد ان كانت صفتها الغالبة قبل عهد الرشيد من القبائل اليمانية •

ومع ذلك فلم تستقر الاوضاع في هذا الاقليم ، ويورد المؤرخون اسبابا لحركات الخزر (١٢) هذه منها الموت الفجائي لابنة خاقان ملك الخزر التي تزوجها الفضل البرمكي ومنها اثارة بعض العصاة والمتمردين العرب الذين دخلوا اراضيهم واستجاشوهم على التمرد على الوالي العربي ••• على ان هذه العوامل وغيرها ربما كانت عوامل مساعدة ولكن الاهم من ذلك كله طبيعة الخز وموقع بلادهم بين دولتين متعاديتين العباسية والبيزنطية فكان كل منهما يستغلهم في مناسبات عديدة لمصلحته ضد الطرف الاخر •

اما الاضطرابات في افريقيا (١٣) فقد استمرت الحرب سجالا مع الاباضية في ولاية يزيد بن حاتم المهلبي وابنه داوود المهلبي • وفي سنة ١٧٧ هـ ـ ٧٩٣م تحرك الجند بقيادة ابن الجارود وطردوا الوالي المغيرة ابن بشر المهلبي ثم قتلوا الوالي الجديد الذي ارسل لتولي افريقية واستمر ابن الجارود بالعصيان حتى ارسل الرشيد هرثمة بن اعين الذي فتح القيروان سنة ١٧٩هـ ـ ٧٩٥م وسلم ابن الجارود نفسه لهرثمة فارسله بدوره الى الرشيد •

وهكذا فان تمرد الجند والتنازع على السلطة بين قادة الجيش حالت بين السلطة وبين مقارعة الحركة الاباضية في افريقيا التي ، كما سنرى ،

استفحل امرها في تونس • وقد عين الرشيد محمد بن مقاتل العكي سنة ١٨١ هـ ـ ٧٩٧م فتمرد عليه الجند لسوء سيرته وهنا برز ابراهيم بن الاغلب فقضى على حركة الجند ودخل القيروان مما دعا الرشيد الى تعيينه واليا على افريقيا تخلصا من مشاكلها السياسية واعبائها المالية !! فقد تعهد ابن الاغلب ان يضمن الاستقرار ويستغني عن الاموال التي تدفعها مصر الى والي افريقيا سنويا كمعونة وضمن فوق ذلك ان يدفع لبيت المال ٤٠ الف دينار سنويا •

تعاظم نفوذ البرامكة ونكبتهم :

البرامكة اسرة ايرانية من بلخ وينسبون الى برمك (١٤) وهو لقب لرئيس سدنة معبد النوبهار في بلخ • وهذا المعهد من المعابد البوذية التي تعبد فيها الهتهم حيث يشير ابن الفقيه انه معبد للاصنام ويؤيده في رأيه هذا جغرافيون آخرون •

وليس يهمنا هنا تاريخ اتصال البرامكة بدولة العباسيين واسلام جدهم خالد البرمكي والتحاقه بالدعوة العباسية ثم خدمته للدولة في عهدي ابي العباس والمنصور• ثم ازدياد نفوذ يحيى بن خالد البرمكي في دولة المهدي واتصاله بالخيزران زوجة المهدي وعلاقته الوثيقة بها وبابنها هارون الرشيد حيث اصبح يحيى البرمكي مربيا لهارون الرشيد ومشرفا على شؤونه ومرافقا له في حملاته وسفراته ، بل ان الذي نود التأكيد عليه في هذا المجال هو دورهم في عهد الرشيد •

كان يحيى البرمكي مثقفا ذا قابليات كبيرة يذكيها طموح ليس له حدود وقد سخر كل هذه القدرات في خدمة هارون فقد لعب دورا كبيرا في ولاية العهد لهارون بعد الهادي ولعب دورا كبيرا في وقوفه

وراء هارون يشد من عزمه ويشجعه على الحفاظ على حقه الشرعي في الخلافة تجاه ضغوط الهادي الشديدة آملا ان يحقق من وراء ذلك طموحاته .

ان المبالغات التي اثرتها الروايات التاريخية القديمة والقصص الروائية التي حبكتها اقلام الادباء مثل جرجي زيدان والكتاب المحدثين مثل جميل المدور جعلت من « اسطورة البرامكة » قصة شعبية يتداولها الناس مبالغين في احداثها ومدلولاتها ، والواقع أن البرامكة الذين نعرفهم في التاريخ لم يتعدوا اصابع اليد الواحدة ومهما بلغ هؤلاء القلة من نفوذ وسطوة فان نفوذ الخليفة بقي على الدوام اقوى واهم . ولعل اكبر دليل على ذلك السهولة التي استطاع بها الخليفة ان يقضي عليهم .

كان يحيى البرمكي والخيزران عاملين مؤثرين في سياسة الرشيد بعد تقلده السلطة . فقد تقلد يحيى البرمكي الوزارة وفوضه الرشيد الامر قائلا :

« فاحكم بما ترى واستعمل من شئت واسقط من رأيت فاني غير ناظر معك في شيء [١٥] » .

على أن يحيى كان من الذكاء بحيث اشرك الخيزران في الامر فكان يستشيرها ويعرض عليها الامور قبل اصدارها لدرجة ان بعض الروايات تعتبرها « الناظرة في الامور [١٦] » . ومهما يكن من امر فقد كانت الدواوين كلها بيد يحيى البرمكي خاصة بعد سنة ١٧١هـ حين اضاف اليه ديوان الخراج . اما الفضل بن يحيى البرمكي فكان الساعد الايمن لابيه في الامور الادارية وتولى امارة عدة اقاليم من اهمها خراسان وطبرستان وارمينية . وارسل للقضاء على حركة يحيى بن عبد الله الحسني . ومهما

بالغت الروايات الشعبية في اظهار اعمال الفضل البرمكي ، فالواقع انه قام باصلاحات مهمة في الولايات التي أدارها فقد شجع الزراعة في خراسان واعفى الزراع من الضرائب الخراجية المتبقية عليهم وبنى المساجد والرباطات . كما وان الرشيد عهد له بتربية ابنه محمد الامين. ولم يكن جعفر بن يحيى البرمكي مثل اخيه بل كان يحب الانس والطرب والمتعة ويتأنق في مسكنه وملبسه . وقد قربه الرشيد لدرجة كبيرة حيث تشير رواية تاريخية « وغلب جعفر على الرشيد غلبة شديدة حتى صار لا يقدم عليه احد [١٧] » . ولا بد ان نشير بان الخليفة اخطأ حين عهد لجعفر بمهام سياسية وادارية فقد اعطاه خاتم الوزارة مرة ثم اشركه معه في النظر في المظالم وامره بان يراقب دور الضرب ، وكتب اسمه على الدنانير بجانب اسم الخليفة.

ان هذه الحظوة الكبيرة وهذا النفوذ السياسي والاداري الواسع اضافة لما اشتهروا به من كرم جعلت من البرامكة اسرة تتمتع بصيت كبير وشعبية واسعة بدت وكأنها تضاهي سمعة الخلافة وهيبتها . وكثر شيعتهم وصنائعهم ومواليهم والمنسوبون الى كتلتهم لدرجة ان رواية تقول : « ان في دولة الرشيد دولة ملوكها البرامكة » . كما درج الناس على تسمية بعضهم «بالسلطان» او «الملك» [١٨] . فقد قال اشجع السلمي في جعفر البرمكي :

ذهبت مكارم جعفر وفعاله ... في الناس مثل مذاهب الشمس
ملك تسوس له المعالي نفسه ... والعقل خير سياسة النفس

وهنا لابد ان ندرك انسلطةالبرامكة المطلقة لم تستمر اكثر من اربع سنين ذلك ان وفاة الخيزران سنة ١٧٣ هـ ــ ٧٩٠م كانت بداية لنهاية نفوذهم الذي بدأ يتقلص بصورة تدريجية رغم أنها بطيئة. ان موت

الخيزران يعتبر في رأينا بداية لنهاية نفوذ البرامكـة ، لا لان الخيزران كانت السند المهم ليحيى البرمكي فحسب بل لان موتهـا اخلى الجو ليحيى البرمكي واولاده لكي يتصرفوا في الامور بسلطة مطلقة اكثر من ذي قبل الامر الذي جعل الخليفة يشعر اكثر من أي وقت مضى بثقـل نفوذهم وتماديهم ، والى ذلك يشير الفخري [١٩] حين يقول :

« وقيل ان جعفرا والفضل ظهر منهما من الادلال ما لا تحمله نفوس الملوك فنكبهم لذلك » .

ولقد استمر تأثير البرامكة وبدرجات متفاوتة خلال اكثر من سبع عشرة سنة ، ولكن الرشيد تخلص منهم سنة ١٨٧هـ فجأة بعد ان دبـر المكيدة لهم سرا . وقد حار المؤرخون في سبـب النكبة فاختلطـت الروايات الموضوعة بالروايات الشعوبية وحبكـت القصص والاساطيـر وتداخلت بالوقائع الحقيقية حتى بات من الصعب التفريق بينهما . ولعلنا ننفي منذ البداية (اسطورة العباسة) اخت الرشيد وقصـة زواجها الصوري من جعفر البرمكي لانها رواية لاتقف امام النقد الداخلي لمتن الرواية ولا امام النقد الخارجي . فالرواية يرويها الطبري دون سند او سلسلة رواة وليس لها ذكر في كتب الدينوري واليعقوبي والاصفهاني وهم من اوائل من كتب في احداث العراق في هذه الفترة . ويبـدو الجهشياري مستهزئا بها ويشير الى رواية عن مسرور الكبير مفندا هذه القصة بقوله [٢٠] :

« كأنك تريد ما تقوله العامة فيما ادعوه من أمر المرأة ... لا والله ما لشيء من هذا اصل ولكنه من ملل موالينا وحسدهم » .

ويناقش ابن خلدون [٢١] هذه القصة وينفيها اصلا ولا يعقـل ان

تقدم العباسة على ذلك وعصرها قريب عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين • فاين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب منها ؟ • واكد ابن كثير (٢٢) وغيره ان العديد من العلماء انكروا هذه الاسطورة التي وضعتها الاقلام الفارسية الحاقدة خاصة وان متنها يغلب عليه الطابع الاسطوري المختلق •

هذا من جهة ومن جهة اخرى فالعباسة كانت متزوجة من محمد بن سليمان وتوفي عنها ثم تزوجت ثانية وثالثة فلم تبق دون زوج • حتى ان الشاعر ابا نواس يتندر في شعره بامرها ويقول اذا اراد رجل الموت فما عليه الا الزواج من العباسة !! وكانت القيم والتقاليد قوية فعالة في عصر الرشيد فان هذا الخليفة جعل ابنه الامين وهو من ام عربية وليا اولا للعهد فكيف يوافق على زواج اخته من مولى أعجمي ؟ وكيف يتم الزواج والخليفة لا علم له • واذا كان الزواج صوريا فكيف يوافق عليه الخليفة مع انه ينافي الشريعة الاسلامية التي لا تقر زواجا بالصورة التي تقرأنا في الرواية •

ومن الروايات تلك التي تدعي أن سبب نكبتهم هو ميلهم الى العلويين وهذه روايات ضعيفة موضوعة (٢٣) وليس لها ما يبررها كما وان البرامكة يظهرون في روايات اخرى وكأنهم اعداء للعلويين (٢٤) على اننا لا نعتقد بان البرامكة كانوا موالين سياسيا للقضية العلوية وربما اظهروا في مناسبة او اكثر تعاطفهم مع بعض العلويين او سمحوا في مجالسهم بمناقشة الافكار والاراء الشيعية العلوية كما كانت تناقش آراء عديدة اخرى • وليس لدينا روايات موثوقة تدل على اخلاصهم للقضية العلوية او ولائهم لشخصية سياسية علوية • كما واننا لا نعتقد بان

البرامكة كانوا زنادقة كما حاول بعض المؤرخين اتهامهم [٢٥] • فقد قيل في حقهم :

اذا ذكر الشرك في مجلس ... اضاءت وجوه بني برمك
وان تليت آية عندهم ... أتوا بالاحاديث من مزدك [٢٦]

وهذه تهمة قذفوا بها بعد زوال نفوذهم كما اتهم قبلهم ابو مسلم الخراساني وآخرون غيره• وليس في رواياتنا الموثوقة ما يؤيد ذلك • والمعروف ان تهمة الزندقة كانت سلاحا سياسيا بيد السلطة تصم بها كل من تشك في ولائه لها •

وقد ذهب المؤرخون المحدثون [٢٧] مذاهب شتى في تفسير سبب سقوط البرامكة • فقد اورد الدكتور الدوري جملة اسباب سياسية ومالية وعنصرية وشخصية تعود الى تكتلات في البلاط ادت الى الاسراع في سقوطهم • اما الدكتور حسن ابراهيم حسن فيرى بان النكبة حدثت اثر وقوع حوادث جاءت متتابعة ووجد اعداء البرامكة من بطانة الرشيد من العرب وخاصة الفضل بن الربيع من استئثار البرامكة بالنفوذ واستمالتهم الناس ما اوغر صدر الرشيد عليهم • ويعزو الدكتور الجرمود ان السبب الرئيسي للنكبة يعود الى اجراءات سياسية جعلت الرشيد مطوقا سياسيا وعسكريا بالبرامكة وانصارهم خاصة بعد تشكيل الفضل البرمكي لفرقة العباسية (او الكرمينيه) الاعجمية التي تدين بالولاء للبرامكة • اما الدكتور عبد المنعم ماجد فيرى ان النكبة مبعثها نزاع شخصي بين كتل البلاط العباسي وان العامل الاول في النزاع هو مشكلة ولاية العهد •

ولعل من الصواب الا نعزو النكبة الى عامل واحد بعينه ذلك ان مؤرخينا الرواد يعددون اكثر من سبب لسقوط البرامكة • فالجهشياري يذكر اكثر من عشرة مسائل اعتبرها اسبابا للنكبة ويعدد ابن خلدون اخطاء البرامكة التي يعتبرها المسؤولة عن سقوطهم • ويمكن تلخيص هذه العوامل في رأيه :

« باستبدادهم على الدولة واحتجابهم اموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه على امره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في امور ملكه ••• (٢٨) » •

وعلى هذا فالوقائع تثبت ان سقوط البرامكة المفاجىء لم يكن وليد انفعال مفاجىء من قبل الخليفة بل كان تدبيرا مخططا له ولدته احداث تراكمت على بعضها لعل ابرزها نفوذهم الكبير في البلاط والادارة والمجتمع • فكان جعفر البرمكي يتصرف وكأنه الخليفة • واجتمعت ليحيى البرمكي الوزارتان وهما ادارة الدواوين والخاتم • وكان الفضل يسمى الوزير الصغير لانه كان اداريا متنفذا وكان يحيى يرى بان الفضل سيخلفه في المسؤولية •

ان هذه السطوة اثارت شكوك الرشيد واذكت فيه تجاربه المريرة فحز ذلك في نفسه وشعر بان كرامته قد اهينت وهو شيء كما يقول ابن الطقطقي « لاتحتماه نفوس الملوك » • وقد عبر الجهشياري عن موقف الرشيد قائلا بان الرشيد ندد بيحيى البرمكي متهما اياه « استبد بالامور دوني وأمضاها على غير رأيي وعمل بما احبه دون محبتي (٢٩) » •

واذا كان السبب الاول سطوتهم السياسية ونفوذهم الاداري فان السبب الثاني هو جمعهم للثروة والاموال بين ايديهم وهذا ما يبرر كثرة عطاياهم وسخاءهم الكبير الذي فاق عطايا الرشيد رغم ما يعرف عنه من

الكرم • ويظهر من بعض الروايات انهم حجزوا عنه الامـــوال ولذلك اتهمهم بانهم « نهبوا مالي وذهبوا بخزائني(٣٠) » •

اما السبب فهو في رأينا حبهم للنقاش والجدال فيأمور السياسة والعقيدة والكلام ويظهر ان مجالسهم كانت حافلة بالكتـــاب والادباء والمفكرين والشعراء واصحاب العقائد والمذاهـــــب المختلفة وكانوا لايتحرجون في نقاش مسائل عديدة سياسية ومذهبية ، وتشير روايات تاريخية (٣١) ان جعفر البرمكي كان يسمح للعلويين في حضرته لمناقشـــة مسائل تتعلق بالنص والاختيار والاحقية في الخلافة • وربما كان ذلـــك سببا في اتهامهم مرة بالتشيع للعلويين او للمعتزلة (٣٢) ومـــرة بالزندقة ومرة ثالثة بالميل للفارسية وللمجوسية • والمعروف ان موقف البرامكـــة هذا في حرية النقاش كان على عكس موقف الرشيد الذي كان يتحرج في النقاش والجدال في الدين خاصة (٣٣) • ولعل موقف الرشيد يعود الى سبب ديني ذلك لانه يعتقد ان الجدال يؤدي الى الخلط والتشويه وخاصة على العامة من الناس كما وانه يسمح لمذاهب معاوية بالانتشـــار وكذلك الى سبب سياسي لانه يعتبره خطرا على سلامة وأمن الدولة لانه يؤدي الى استفحال التيارات السياسية المعادية ثم ضعف عوامل التماسك وغلبة عوامل الانفصام •

اما العامل البارز الاخير في سقوط البرامكة فيعود الى تكتـــلات معادية ضد كتلة البرامكة ولعل ابرز من يمثل الكتلة المعـــادية لهم هو الفضل بن الربيع بن يونس حاجب الخليفة الذي سعى بهم وأوغر قلـــب الرشيد عليهم • كما وان علي بن عيسى اتهم موسى بن يحيى البرمكي بمحاولة التآمر ضد الدولة في خراسان • وتكلم محمد بن الليث ضدهم وذكر الرشيد بمسؤولياته تجاه الامة ، وكانت البرامكة تكره ابن الليث

هذا « لان فيه ميلا على العجم » . كما وان البرامكة كانت منحرفة عن القائد العربي يزيد بن مزيد الشيباني . ولم تكن علاقة زبيدة ام الامين ودية مع البرامكة وكانت تشكوهم باستمرار الى الخليفة الرشيد [٣٤] هذا اضافة الى علاقة الفضل البرمكي بالخليفة ساءت بعد ان نكث الرشيد بعهده ليحيى بن عبد الله العلوي الذي استسلم للفضل البرمكي بعد أن اقنعه هذا الاخير بالعفو والامان . ولا ننسى كره بعض الهاشميين لهم كما وان ابن خلدون [٣٥] قال ان بني قحطة وهم عرب يمانية كانوا اعداء للبرامكة .

واغلب الظن ان هذه العوامل الاربعة قررت مصير البرامكة حيث أمر الرشيد عام ١٨٧هـ ـ ٨٠٣ بالقبض عليهم وصادر املاكهم وضياعهم. وفي نفس الليلة ١ صفر ـ ٩ كانون الثاني أمر الخليفة بقتل جعفر البرمكي وعلق جثته على جسور بغداد لقد صورت الروايات الشعبية نكبة البرامكة وكأنها مذبحة مأساوية ان الرشيد لم يقتل منهم الا جعفرا اما يحيى والفضل فقد أمر بحبسهما وقد توفي الاول سنة ١٩٠هـ ـ ٨٠٥م والثاني ١٩٣هـ ـ ٨٠٩م . وقد رثاهم العديد من شعراء زمانهم وقال عنهم الرقاشي :

على اللذات والدنيا جميعا ودولة آل برمك السلام

وقد استوزر الرشيد بعدهم الفضل بن الربيع الذي بقي وزيرا للرشيد حتى اخر خلافته ولعل سقوط البرامكة بالسهولة هذه تدل على مدى قوة الخليفة العباسي ومدى المبالغة في الاراء التي تبرز دور الفرس في الحياة السياسية والادارية للدولة والخطأ الكبير الذي وقع به المؤرخون الذين ادعوا بان الدولة العباسية قسمة بين العرب والفرس

فقد كان العرب ولما يزالوا في عهد الرشيد اصحاب اليد الطولى في الامر .

الحرب الاهلية (النزاع بين الامين والمأمون) :

ان الصراع على السلطة بين الامين والمأمون الذي استمر حوالي خمس سنوات عجاف سالت خلالها دماء اهل العراق واهل خراسان وانتهى بمقتل الامين تعود في واقعها الى ذلك القرار السياسي الخاطىء الذي اتخذه الرشيد بتقسيمه الخلافة بين ابنائه الثلاثة والذي ينم عن قصر نظر في الادارة والتدبير .

فلقد كان الرشيد ابنه محمد العهد سنة ١٧٥هـ ـ وكان ابن عشر سنين فقط وولاه ولاية المغرب [٣٦] ، وبعد سبع سنوات أي في سنة ١٨٢هـ ـ ٧٩٨ م ولى الرشيد ابنه عبد الله ولاية العهد الثانية وحين حج سنة ١٨٦هـ ـ ٨٠٢م كتب عهدا احتاط فيه لاحدهما على الاخر واشترطت هذه العهود على محمد الامين الوفاء لاخيه عبد الله المأمون وأرسلت نسخ منه الى العمال واثبتت في الدواوين . وجاء في نصها : « ان محمد الامين اذا فعل غير ما ورد فيها فحقه يسقط في الخلافة » [٣٧] .

ولا جدال فقد كانت عهود الكعبة في صالح المأمون ولم يكن للامين سلطة على اخيه في المشرق ولم يعط الحق في عزله او التدخل في ادارة الدويلات التي تحت نفوذه . بينما اعطى للمأمون اذا افضت الخلافة اليه الخيار في ابقاء اخيه الثالث المؤتمن او عزله .

وفي سنة ١٨٩هـ جدد الرشيد البيعة وأعطى للمأمون جميع ما في

العسكر من الاموال والسلاح ووجه الخليفة هرثمة بن اعين لكي يعيد البيعة على الامين ومن بحضرته في بغداد للمأمون والمؤتمن •

ان النصوص الواردة حول هذه العهود والمواثيق تتضمن تعهدات من قبل الطرفين ولعل هذه التعهدات كانت متداخلة وتعتمد على توفر حسن النية بين الامين والمأمون وهي صفة لم تكن متوفرة بين الطرفين مما ادى الى زيادة الشكوك ولعب الرجال الذين حولهما دورا في تعميق الخلاف لمصالح شخصية وسياسية • فكان الفضل بن الربيع وعلي ابن عيسى بن ماهان الى جانب الامين اماالفضل بن سهيل وطاهر بن الحسين فكانا الى جانب المأمون • ولا ننسى كذلك فان « جماعة من بني العباس قد مدوا اعناقهم الى الخلافة [٣٨] أي طمعوا فيها • ويقول المسعودي حين كتب الرشيد الشرطين وعلقهما على الكعبة « استعظم الناس أمر الشرط والايمان في الكعبة » [٣٩] ذلك لان هذا التدبير لم يكن له سابقة من قبل •

يقول الشرط على لسان محمد الامين : [٤٠]

« ان امير المؤمنين ولاني العهد وولى عبد الله •• بعدي وولاه خراسان وثغورها وكورها وحربها وخيرها وخراجها •• وبيوت اموالها •• في حياته وبعد مماته • واتعهد على تسليم ذلك له وتسليم ما اقطعه امير المؤمنين للمأمون من قطيعة او جعل له من عقدة او ضيعة وتسليم ما ابتاع المأمون لنفسه من الضياع والعقد او ما اعطاه ابوه من مال او حلى او كسوة او منزل او دواب » •

ويقول الشرط على لسان المأمون :

« امير المؤمنين ولاني بعد اخي وولاني في حياته ثغور خراسان

وبعد مماته على ان لا يعرض لي الامين في شيء مما اقطعني امير المؤمنين وما اعطاني وعلى ان لا يعرض لاحد من عمالي بسبب محاسبة ولا يدخل علي ولا عليهم مكروها ... وعلي انا ان انفذ كتبه واحسن مؤازرته وجهاد عدوه من ناحيتي فان احتاج محمد مني الى جند فعلي ان انفذ امره ولا اخالفه ولا اقصر في شيء كتب به » .

ولكن نص تعهد الامين يختلف في الطبري عنه في اليعقوبي في نقاط جوهرية ثلاث :

اولها تجديد المنطقة التي يحكمها المأمون من الري وهمدان حتى اقصى اقليم خراسان والثانية يذكر الطبري اسم القاسم وهو الابن الثالث للرشيد الذي عين واليا للعهد بعد المأمون وأعطى حق اعفائه من هذا المنصب للمأمون وثالثها جملة تشير الى ان كل المسلمين مسؤولين امام الله تعالى بان يحافظوا على ما في هذا العهد من شروط في صالح المأمون .

لقد تعددت تفاسير المؤرخين المحدثين حول طبيعة هذا الصراع ودوافعه وحاول اكثرهم ان يفسروه تفسيرا عنصريا باعتباره نزاعا بين عرب وفرس اختل التوازن بينهما مرة اخرى معتمدين على اقوال الفضل ابن سهل للمأمون «انت بين اخوالك وشيعتك» الا ان المتمعن في الحرب يرى انها استمرارا للكفاح الاجتماعي الذي ميز الفترة السابقة وازداد تعقيدا بدخول نزاعات اقليمية (عراقية ــ خراسانية) وليست عنصرية وقد حاول الامين ان يستفيد كذلك من اهل الشام ولكنه فشل في مسعاه وكان عليه ان يتعظ بتجربة عبد الله بن علي العباسي واستفاد المأمون من اهل خراسان . ولكنه اعتمد كثيرا على الفضل بن سهل وطاهر بن

الحسين وكان عليه ان يتعظ بتجربة اجداده مع ابي مسلـم الخراساني والخلال والبرامكة .

حين خرج الرشيد من بغداد لقمع حركة رافع بن الليث سنة ١٩٣هـ ـ ٨٠٨م كان يشكو من تدهور حالته الصحية ، وقد صحبه في هـذه الرحلة ابنه المأمون والفضل بن سهل والفضل بن الربيع بينما بقي الامين في بغداد. وقد توفي الرشيد فعلا في هذه الرحلة في طوس تاركا وراءه مشكلة معقدة شغلته طويلا وتخبط في وضع الحلول لها الا وهي فكرة من سيخلفه في الحكم بعد وفاته ؟

ان الحل الذي استقر عليه الرشيد كان حلا غير عملي من المحتمل ان يؤدي الى انفجار الوضع السياسي في أية لحظة ويعتمد عليه في دقة تطبيقه كما قلنا سابقا توفر حسن النية وقوة شخصية الطرفين الامين والمأمون بحيث تبعدها عن تأثيرات رجال البلاط والحاشية وذوي المصالح . ولا بد ان نقر بعد ذلك كله ان الرشيد قد قسم الدولة فعلا الى شطرين لا يرتبط أحدهما بالاخر .

في ظل هذه الظروف استلم الامين الخلافة فأمر بمنح الجند عطاء يعادل مقدارا رواتبهم لسنتين . أما المأمون فقد عاد من سمرقند الى مرو واخذ البيعة لاخيه من ثم لنفسه ومنح الجند عطاء يعادل رواتبهم لسنة كاملة . كما أرسل هدايا عديدة لاخيه الامين بهذه المناسبة . على ان الامين امر ان يعود الجيش الذي كان مع الرشيد الى بغداد ولكن المأمون كان بحاجة اليهم لقتال رافع بن الليث خاصة وان الرشيد نفسه أوصى بان يبقى الجيش بعهدة المأمون . وقد نفذ الفضل بن الربيع أوامر الامين وعاد بالجيش الى بغداد . من هنا بدأت العلاقات تتوتر ذلك

ان الامين كخليفة لابد وان يحاول ان يمد سلطته على كل الاقاليم بما فيها خراسان الواقعة ضمن سلطة المأمون . ومن الطبيعي كذلك ، وكما حدث من قبل ان يحاول الخليفة الامين خلع المأمون واعلان ولاية العهد لابنه موسى . كل هذه الامور كانت تخامر ذهن الامين ومما زاد في تعنته حاشيته التي كانت تشجعه على الاسراع في خلع المأمون . (٤١)

ففي سنة ١٩٣هـ عزل الامين اخاه القاسم عن الجزيرة وابقاه على قنسرين والعواصم ثم استقدمه بعد سنة الى بغداد . وفي سنة ١٩٤هـ امر الامين بالدعاء لابنه موسى بالامرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم. وقد استوحش المأمون من ذلك فقطع البريد واسقط اسم الخليفة من الطراز . فارسل الامين وفدا الى خراسان يطلب من المأمون القدوم الى بغداد يعرفه فيه حاجته اليه وايثاره والاستعانة برأيه ومشورته !! فحذره الفضل بن سهل من الذهاب الى بغداد فاعتذر المأمون وارسل رسالة الى الخليفة يقول فيها :

« اما بعد فان الامام الرشيد ولاني هذه الارض على حين طلب من عدوها ووهي من سدها وضعف من جنودها ومن أخللت بها او زلت عنها لم آمن انتفاضي الامور فيها وغلبة اعدائها عليها بما يصل ضرره الى امير المؤمنين حيث هو. فرأى امير المؤمنين ان لا ينقض ما ابرمه الامام الرشيد » (٤٢) .

وكل ذلك لم يمنع الامين من اعادة الكرة لتوكيد سلطته على الاقاليم التابعة لاخيه فطلب منه ان يتنازل له عن مناطق من خراسان تكون تابعة للسلطة المركزية وان يقبل بتعيين صاحب البريد من قبل الامين له اهميته الخاصة اذا علمنا ان مسؤولياته تتعدى البريد الى

مراقبة اعمال الولاة واحوال الرعية والكتابة حول ذلـــك الى الخليفة بشكل تقارير سرية مستمرة • ولكن الفضل بن سهل شجع المأمون على الرفض قائلا بان « محمدا تجاوز الى طلب ما ليس له بحق » •

والظاهر ان المأمون قد أدرك أن هذا الرفض معناه القطيعة فسيطر على الاحوال في خراسان وشدد الحراسة والامــن وخاصة على الطرق الموصلة بين العراق وخراسان ويشير الطبري انه : (٤٣)

« حصر أهل خرسان من ان يستمالوا برغبة او تــودع صدورهم رهبة او ان يحملوا على سؤال خلاف او مفارقة » •

وقد استمرت الرسائل تترى بين الاثنين الامين يريد تأكيـد سلطته والثاني يتشبث بالعهود والمواثيق على الابقاء على ما في يده من سلطان وفشلت كافة محاولات الخليفة في كسب وجوه أهل خراسان اليه•

وكان لا بد للامين تجاه هذا الصمود ان يعزل المأمــون من ولاية خراسان ومن ولاية العهد كذلك ولكنه وقبل ان يقدم على هذه الخطوة قرر ارسال العباس بن موسى بن عيسى اليه عله يقنعه في تقديم موســى ابن الامين على نفسه • ولكن الطلب رفض من قبل المأمون بتحريض من الفضل بن سهل ، كما وان المأمون هدد بان أي عمل يقدم عليه الخليفــة في هذا الاتجاه سيعارض بقوة السلاح • ولكن الامين اعلن سنة ١٩٥هـ ــ ٨١٢م البيعة لابنه موسى بولاية العهد ولقبــــه (الناطق بالحق)• اما المأمون فكان قد اتخذ لقب (امام الهدى) دون ان يلجأ الى ادعاء الخلافة لنفسه • وقد أرسل الامين رسولا الى مكة لجلب الشروط التي كتبهــا الرشيد حول ولاية العهد وقد مزقها الامين وحرقها• وفي جمادي الثاني سنة ١٩٥هـ ــ اذار ٨١١م عهد الامين بقيادة الجيش لعلي بن عيسى بن

ماهان ووعده بولاية الاقاليم الشرقية وارسله لقتال المأمون . ولم يضيع المأمون وقته بل اعلن نفسه خليفة في ١٠ شعبان ١٩٥ هـ ـ مارس ٨١١م وبويع من قبل اعوانه وحاشيته في خراسان .

ولم يستطع ابن ماهان ان يقابل جيش طاهر بن الحسين، فقد اندحر وقتل في المعركة وارسل رأسه الى المأمون . وتقدم طاهر نحو العراق بسهولة حيث لم يجابه في طريقه عقبة كبيرة فقد استطاع طاهر بن الحسين واحمد بن الحسين والحسن بن هرثمة ان يحتلا الاحواز وواسط والمدائن والكوفة والموصل والبصرة حيث اعلن اسم المأمون خليفة للمسلمين . كما اعلن امير مكة داوود بن عيسى بن موسى خلعه الامين لنكثه بعهد اخيه واحراقه الشروط المعلقة في الكعبة .

وقد حوصر الامين في بغداد وتأزمت أوضاعه ثم أسر وقتل وأرسل طاهر برأسه الى المأمون مع شارات الخلافة . وقد اصبح طاهر ابن الحسين مسيطرا على الموقف والزعيم الذي لا ينازعه احد ولكن سرعان ما طغت شخصية الفضل بن سهل عليه وعلى بقية القادة امثال هرثمة بن اعين . فقد سيطر على الامور الادارية والعسكرية وأصبح يلقب (ذي الرئاستين) متمتعا بنفوذ لا حدود له . كما اصبح اخوه الحسن بن سهل واليا على العراق والاقاليم التابعة له اما القادة العسكريين فقد حرموا ، عن قصد ، من الامتيازات التي كانوا يستحقونها !

وكان المأمون قد خطب في أهل خراسان موضحا سياسته التي سيسير عليها اذا ما قدر له أن ينتصر على اخيه فقال : (٤٤)

« ايها الناس اني جعلت لله على نفسي ان استرعاني اموركم ان

اطيعه فيكم ولا اسفك دما عمدا لا تحله ضرورة .. ولا اخذ لاحد مالا ولا اثاثا ولا نحلة تحرم علي . ولا احكم بهواي في غضبي ولا رضاي الا ماكان في الله له. جعلت ذلك كله لله عهدا مؤكدا وميثاقا مشدودا اني أفي رغبة في زيارته اياي في نعمتي ورهبة في مسألته اياي عن حقه وخلقه .

فان غيرت او بدلت كنت للعبد مستأهلا وللنكال متعرضا ...»

واذا كان الامين قد اندحر وقتل بسبب تفكك انصاره وقلة اخلاص القادة الذين حوله امثال العباس بن موسى بن عيسى الذي بايع المأمون في السر حين زار خراسان والفضل بن الربيع الذي اختفى عن الانظار سنة ١٩٦هـ في رجب حين كان الامين في اشد الحاجة اليه . وقد اثرت رعاية المأمون القوية على معنويات القادة والانصار من جماعة الامين اذا كان كل ذلك قد حدث فانه لم يحدث بسبب القابليات الخارقة للمأمون ذلك اننا يجب ان نحذر من المبالغات والدعاية القوية التي بثها انصار المأمون وهم الكتلة التي انتصرت في نهاية المطاف ولذلك نلاحظ الكثير من الروايات التي اوردها الكتاب والرواة كانت الى جانب المأمون وهم حين يذكرون يطلقون عليه لقب «المخلوع» . وليس من شك فان لكل من الاخوين نقاط قوة ونقاط ضعف . فرغم ان الامين اخطأ في تقليد امرة الجيش الى علي بن عيسى بن ماهان الوالي سيء السيرة فان وصية له تدل على بعد نظر في امور السياسة . كما وان الامين كان لينا مع قواد جيشه مثل الحسن بن علي بن عيسى الذي قام بحركة ضد الامين سنة ١٩٦هـ . وقبض على الخليفة وامه وسجنهما ولكن الامين افلت من السجن بمساعدة (الحربية) فلم يعاقب الحسين بل عفا عنه !! وكان عند الامين شهامة العربي وغيرته فقد كان بامكانه ان يستعمل ولدي المأمون

وحرمه كوسيلة لجلب المأمون الى الطاعة ولكنه رفض الفكرة أصلا قائلا : « تدعوني الى قتل ولدي وسفك دماء اهل بيتي ؟ ان هذا للخدمة والتخليط » لقد قتل الامين ولكن مشاكل ونتائج الفتنة الداخلية ونتائج الحرب الاهلية بقيت دون حل تواجه الخليفة المأمون ووزيره الفضل بن سهل .

عصر المأمون ١٩٨/٨١٤ - ٢١٨ هـ /٨٣٣ م :

حاول المأمون ان يستقر بمرو مركز خراسان معتمدا على مشورة الفضل بن سهل وعلى العون والمساعدة من اهل خراسان ولكنه واجه تحديا عنيفا من العراق المركز التقليدي للخلافة العباسية وخاصة من « اهل بغداد » .

ولعل اهم ما يميز عصر المأمون عدا الازدهار العلمي والرقي الفكري والثقافي ظواهر سياسية ثلاث :

اولا : محاولتهنقل مركز الدولة الى خراسان وعاصمتها مرو .

ثانيا : التوفيق مع العلويين حين بايع الرضا بولاية العهد .

ثالثا : اتخاذه الاعتزال مذهبا رسميا للدولة واتباعه سياسة (المحنة) .

ولعل هذه النقاط الثلاث تعكس صفاته كرئيس فقد كان مثقفا وفيه دهاء وسياسة وحسن تدبير ومن يتمعن في تعقيدات سياسته بعد تبوئه الخلافة يدرك بانه كان سياسيا ذا نزعة واقعية لا تخدعه الاماني ولا تجور عليه الخدائع » (٤٥) .

فقد برر قتل اخيه الامين باصدار منشور نص على :

« اما بعد فان المخلوع وان كان قسيم امير المؤمنين في البيت والحمة فقد فرق حكم الكتاب والسنة بنية وبينه في الولاية والحرمة لمفارقته عصمة الدين وخروجه من الامر الجامع للمسلمين » (٤٦) .

اما الظاهرة الاولى ... فقد ظل المأمون في مرو حوالي خمس سنوات وكان الفضل بن سهل يحسن له البقاء في مرو متظاهرا بعدم الاستقرار في العراق ولعله كان يرمي من وراء ذلك الى نقل مركز الدولة الى مرو . ولا شك فان الفضل هذا كان فارسيا مجوسيا لم يدخل الاسلام الا قبل وقت قصير ولذلك كان يحبذ التقاليد والثقافة الفارسية ويحاول ادخالها في مراسيم الدولة والبلاط العباسي .

ويظهر انه كان يحمل على كرسي مجنح حين يذهب لمقابلة الخليفة ويقول الجهشياري « وانما ذهب ذو الرياستين في ذلك مذهب الاكاسرة ... » (٤٧) . كما وان الفضل بن سهل عين اخاه الحسن بن سهل واليا على العراق مكان طاهر بن الحسين ليكون بالامكان احكام السيطرة على الوضع في العراق والاطمئنان الى عدم وصول اخباره الى اذن الخليفة . واستطاع الفضل بن سهل كذلك ان يفرق بين المأمون وقائده هرثمة بن اعين الذي أصر على مقابلة الخليفة ليعرفه على اسباب الاضطرابات في العراق والجزيرة ويطلب اليه الرجوع الى بغداد . وحين قابل هرثمة الخليفة عاتبه قائلا « قدمت هذا المجوسي (يقصد الفضل) على اوليائك وانصارك » . ولكن الخليفة أمر بسجنه ثم دس اليه الفضل بن سهل من قتله .

ان بقاء المأمون في مرو اثار الكثير من الامتعاض بين العرب فعدا هرثمة بن اعين ونصر بن شبيث الذي سنأتي على ذكره بعد قليل ـ اظهر

نعيم بن حازم بن خزيمة التميمي وعبد الله بن مالك الخزاعي ويحيى بن عامر معارضتهم لسياسته الخراسانية . ويظهر ان المأمون فقد الثقة بالقبائل العربية امكانية الاستفادة منها حيث اجاب على سؤال لماذا لا ينظر الى عرب الشام كنظرته الى عجم اهل خراسان فقال : ــ

« والله ما انزلت قيسا عن ظهور الخيل الا وانا ارى انه لم يبق في بيت مالي درهم واحد ، واما اليمين فوالله ما احبتها ولا احبتني قط . واما قضاعة فسادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من اشياعه ، واما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ولم يخرج اثنان الا خرج احدهما شاربا ... » .

اما اهل بغداد فقد عارضوا سياسة هذه وتحدوه حين دعوا صالح بن المنصور ليبايعوه بالخلافة ولكنه رفض فبايعوا ابراهيم بن المهدي مما دعا المأمون بعد اطلاعه على ما يجري في العراق الى العودة الى بغداد سنة ٢٠٤هـ ــ ٨١٩م والتخلص اثناء سفرته الى بغداد التي استغرقت حوالي سنتين من علي الرضا والفضل بن سهل .

حركة نصر بن شبيت العقيلي : (٤٨)

« انما هواي في بني العباس وانما حاربتهم محاماة على العرب لانهم يقدمون عليهم العجم » .

وتعتبر حركة نصر بن شبيت العقيلي في الجزيرة من ردود الفعل الاقليمية تجاه سياسة المأمون الخراسانية . تصاير العقيلي فلقد كان العنصر الفعال في الثورة العباسية سنة ١٢٩هـ ــ ١٣٢هـ القبائل العربية الخرسانية الذين كونوا اغلبية الشيعة العباسية يساعدهم في ذلك الموالي

من الفرس على اننا يجب ان نفرق بين فترة الثورة وبين ما حدث في اعقابها ، فرغم ان العرب قاموا بالثورة ورغم انهم احتفظوا باغلب المراكز الادارية والسياسية والعسكرية بعد تأسيس الدولة العباسية الا أنه ظهرت في هذه الدولة نزعة قوية تميل الى ادخال المظاهر الحضارية الفارسية في الادارة وأصول السياسة وتقاليد المجتمع ، كما وبدأ الموالي وخاصة من الفرس يقلدون مناصب ادارية وسياسية مهمة وعلى ذلك فان ما حدث في العصر العباسي الاول أن العرب لم يفقدوا مراكزهم بل شاركهم فيها غيرهم من المسلمين من غير العرب ، وهذا هو الفرق بين الدولة الاموية والعباسية التي كانت فمهما للاسلام أوسع من الفهم الاموي المحدود •

وهكذا فان التفسير العنصري الذي نادى به كان كلوتن وولهاوزن حول الثورة العباسية والادعاء بان ثورة الفرس المظلومين ضد العرب الحاكمين لا اساس فيه من الصحة ومثلما رفضنا التغير العنصري للثورة العباسية فاننا نروض التفسير العنصري للحرب الاهلية بين الامين والمأمون والتي حدثت بعد وفاة الخليفة هارون الرشيد سنة ١٩٣هـ لاننا نلاحظ تواجد العرب والموالي في كلا الكتلتين المتنازعتين ، رغم اعترافنا بطغيان العنصر الفارسي الى جانب المأمون وطغيان العنصر العربي الى جانب الامين •

ان افضل تفسير للحرب الاهلية هي انها شكلت نزاعا اقليميا بين العراق وخراسان حول ايهما سيكون اقليما مركزيا للدولة • ويتمتع بامتيازاتها • الا ان بلاد الشام ظلت ناقمة على العباسيين منذ ان نقلوا عاصمتهم من دمشق الى الهاشمية ثم بغداد في العراق •

وقد امل السوريون استعادة مجدهم السليب فقاموا بثورات متتابعة ضد العباسيين وتعلقوا باسطورة السفياني المنتظر الذي سينقذهم من الظلم العباسي كما وانهم ضد ثوارا من العباسيين مثل عبد الله بن علي للثورة ضد الحكم العباسي وكان الاجدر بعبد الله بن علي ان يدرك كأنه لا يمكن الاعتماد على اهل الشام ذوي الميول الاموية لتحقيق مطامح سياسية عباسية .

وقد وقع الامين في نفس الخطأ الذي وقع فيه عبد الله بن علي حيث اقتصه عبد الملك بن صالح العباسي بجدوى الاعتماد على القبائل السورية ومحاولة الانتصار بهم في حربه ضد المأمون قائلا : « ان اهل الشام قوم ضرستهم الحروب وأوتهم الشدائد وحلمهم منقاد الي مسارع الى طاعتي » على ان اهل الشام تجنبوا الاصطدام باهل خراسان وخافوا قضية الصراع بعد ان اعطوا عهدا بمساعدة الامين .

وقال احدهم « انكم لتعرفون مواقع سيوف اهل خراسان في رقابكم . اعتزلوا الشر قبل أن يعظم وتخطوه قبل ان يضطرم شأنكم . داركم داركم . (الموت الفلسطيني خير من العيش الجزري) وقال آخر « والله ما انا من قيسها ولا يمنها ولا كنت في أول هذا الامر لأشهر اخرة » فانهزم اهل الشام امام اهل خراسان . وفشلت محاولة الامين التمسك بالخلافة وكان من المنهزمين في هذه المعركة بين اهل الشام واهل خراسان نصر بن شبث العقيلي على انه عاد فثار على المأمون ثانية سنة ١٩٨هـ . ونصر من بني كعب بن ربيعة وكان اسلافه من رجال بني امية وكان مقيما في كيسوم بشمالي حلب . وقد اقنع عن بيعة المأمون وتغلب على كيسوم وما جاورها ومنع خراج منطقة ان يرسل الى بغداد ثم امتد نفوذه شمالي الشام والجزين حتى سمياط . وحين زاد عدد

اتباعه وقويت شوكته بما اجتمع اليه من الاعراب واهـل الطمع عبر الفرات الى جانبه الشرقي مستوليا على القرى والمدن ، ثم حاصر حـران وقد أتاه جماعة من الشيعة العلوية وأغروه بمبايعة خليفـة من آل علي فقد قيل له « ايها الامير قد وترت بني العباس وقتلت رجالهم ... فلو بايعت خليفة كان اقوى لما انت فيه . قال من أي الناس ؟ قالوا ترسـل الى بعض من آل علي بن ابي طالب عليه السلام فتبايعه . قال : اولي بني السوداوات ان كان يقول من وليته منهم انه خلقني وانه يرزقنـي . ثم طلب اليه ان يبايع خليفة من بني امية فرفض هذا العرض ايضـا قائلا : « ان اولئك قد ادبر أمرهم والمدبر لا يقبل ابدا ... » .

وقد مرت ثلاث سنوات ونصر العقيلي متقلب على منطقه وقد كان من الممكن ان يكون مصير العقيلي مصير غيـره من الثوار المغامرين ورؤساء القبائل الشامية الحاقدين على الدولة العباسيـة التي ذهبت امتيازاتهم القديمة الذين احرزت ثوراتهم بسرعة لولا ان طاهر بن الحسين الذي ارسله المأمون لمحاربته ، كان يحقد على المأمون ووزيره الفضل بن سهل لانتزاعه بلاد العراق منه « فقد ولي الفضل بن سهل اخاه الحسن على بلاد العراق وكتب المأمون الى طاهر بن الحسين ان يمضـي الى الجزيرة لمحاربة نصر العقيلي وقد علق طاهر بن الحسين على ذلك قائلا : « ما انصفني امير المؤمنين» ويظن من هذا القول ان طاهر بن الحسـين كان يرى بانه كان ينبغي توجيه قائدا آخر لمحاربة نصـر وان منزلته والدور الذي لعبه في أثناء النزاع بين الامين والمأمون تقضي بانصافه . لذلك لم يكن طاهر بن الحسين جادا في محاربته لنصر . بل ان نصـر استطاع ان يهزم جيش طاهر الذي عاد الى الرقة بفلول جيشـه وكان قصارى امره الحفاظ على الامن وسلطة الدولـة في النواحـي التي احتلها .

وبعد رجوع المأمون الى بغداد سنة ٢٠٣هـ اطلع عن كثب على الحالة في الجزيرة وتغلب نصر بن شبث العقيلي عليها فولى عبد الله بن طاهر بن الحسين الجزيرة والشام ومصر والمغرب وأمره بمحاربة المتغلبين بها فذهب عبد الله سنة ٢٠٦هـ . اما طاهر بن الحسين فذهب الى خراسان ولكنه لم ينس ان يكتب الى ابنه كتابا يحوي حكما ووصايا سياسية وادارية واخلاقية . وقد شاع هذا الكتاب بين الناس واعجب به الخليفة المأمون كذلك حتى قيل بانه امر بان يكتب به الى جميع العمال .

وقد حاصر عبدالله بن‌طاهر نصرا وضيق عليه فأوفد اليه المأمون رجلا من اهل الجزيرة هو جعفر بن محمد ليعطي نصر الامان . وقد جاء في الامان :

« اما بعد فان الاعذار بالحق حجة الله المقرون بها النصر والاحتجاج بالعدل ودعوة الله الموصول بها العز ولا يزال المعذر بالحق والمحتج بالعدل من استفتاح ابواب التأيية واستدعاء اسباب التمكين حتى يفتح الله وهو خير الفاتحين ويمكن خير الممكنين . ولست تعدو ان تكون فيما لهجت به احد ثلاثة : طالب دين او متلمس دنيا او متهورا يطلب الغلبة ظلما . فان كنت للدين تسعى بما تصنع فأوضح ذلك لامير المؤمنين يغتنم قبوله ان كان حقا فلعمري ماهمية الكبرى ولا غاية القصوى الا الميل مع الحق حيث قال والزوال مع العدل حيث زال وان كنت للدنيا تقصد فاعلم امير المؤمنين غايتك فيها ولامر الذي تستحقها فاذا استحققتها وامكنه ذلك فعلمه بك فلعمري ما يستجيز منع خلق مايستحقه وان عظم . وان كنت متهورا فسيكفي الله امير المؤمنين مؤنتك ويعجل ذلك كما عجل كفايته موت قوم سلكوا مثل طريقك كانوا

أقوى يدا واكثف جندا واكثر جمعا وعددا ونصر منك فيما اصارهم اليه في مصارع الخاسرين وانزل بهم من جوانح الظالمين • واميــــر المؤمنين يختم كتابه بشهادة ان لا اله الا الله وحده لا شريـــــك له وان محمــــد عبده ورسوله (ص) وضمانة لك في دينه وذمته الصفـــــح عن سوالف جرائمك ومتقدمات جرائرك وانزالك ما تستأهل من منازل العز رالرفاه ان أثبت ورجعت ان شاء الله والسلام » •

وقد قبل نصر بن شيث امان المأمون بشرط الا يطأ بساط المأمون وقد رفض هذا الشرط • وعلق على ذلك قائلا :« أتراه اعظم جرما عندي من الفضل بن الربيع ومن عيسى بن ابي خالد ؟ والمعروف ان الفضــــــل اخذ قواد المأمون وجنوده وسلاحه وجميع ما اوصى به اليـــــه الرشيد وذهب به الى الامين وتركه في مرو وحيدا وأسند عليه اخيه فكان امره ما كان حيث عفى عنه المأمون •

وكتب المأمون الى نصر بن شيث يهدده بالقضاء عليه وعلى اتباعه ومن انطوى تحته من حزاب الناس • وحين سمع نصر بن شيث علق على ذلك قائلا : « ويلي هو لم يقو على اربعمائة ضفدع ــ يقصــد الزط ــ تحت جناحه يقوى على حلبة العرب » والظاهر ان الخليفة المأمون كـــان جادا في امانه لنصر الا ان نصر ذلك الشيخ العربي الحذر اشترط عدم مقابلة الخليفة وحين رفض الخليفة امتنع نصر عن التسليم خوفـــــا على نفسه وعلى قبيلته من اجراءات العباسيين وحفاظا على كرامتـــه حيـث اعتبر اصرار المأمون تحديا له وعلى ملاحقة عبد الله بن طاهر له وجـــده في قتاله خاصة بعد ان عنفه الخليفة وحثه على الاشتـــــداد في القتال اجبرت نصر على الاستسلام والقدوم الى بغداد بعد ان استمرت الحرب خمس سنوات• وفي رواية غير متواترة ان نصرا لما علم عزم المأمون على

القدوم الى بغداد أملى على كاتبه خطابا للبطريق مانويل البيزنطي عارضا انتحالف مع الروم فلما علم الامبراطور ميشيل بذلك بعث رسله فوصلوا الى كيسوم فوجدوه قد خرج الى قرية سروج . ولكن اتباع نصر انكروا عليه اتصاله برسل الروم مما اضطره الى ارسال من قتل هؤلاء الرسل . ويبدو ان الملاحم الرومية حفظت ذكرى ثورة بن نصر ابن شبث وتسميه المصادر الرومية فيوفوبوس . ويشير ميشيل السوري ان نصرا كان يعامل المسيحيين برفق ويقول : « ليس لي عندكم الا الجزية وكل فرد بعد ذلك حر في اختيار عقيدته » وخرج نصر بالامان سنة ٢٠٩هـ ـ ٨٢٥م واستسلمت كيسوم بعد مقاومة خمس سنوات . وسار عبد الله طاهر ليستقري الشام بلدا بلدا لا يمر ببلد الا أخذ من رؤساء القبائل والعشائر والصعاليك والزواقيل وهدم الحصون وحيطان المدن وبسط الامان للاسود والابيض والاحمر وضمنهم جميعا . ونظر في مصالح البلدان وحط عن بعضها الخراج فلم يبق مخالف ولا ضالع الا خرج من قلعته وحصنه .

وقد دخل نصر العقيلي مع جمهرة من اتباعه بغداد في موكب حافل في صفر سنة ٢١٠هـ وانزل مدينة (ابي جعفر) ووكل به من يحفظه . على ان بعض العباسيين والحاقدين على المأمون لم يرضهم الصلح وانتهاء الفزع والقضاء على الخلاف بين السلطة وثائر قوى فقطعوا جسر الزوارق الذي يمتد على عرض نهر دجلة عند اقتراب موكب نصر وقد قبض عليهم وكان المأمون قاسيا في عقابه لهم .

وبدخول نصر العقيلي بغداد ووقوعه تحت سلطة الخليفة انقطعت اخباره وتوقفت فعالياته السياسية ويعترف الطبري بانه لم يسمع عنه شيئا بعد ذلك فيقول « ولم اقف على خبر له بعد » ومن هذا الاستعراض

الشخصي لنصر العقيلي ولاخباره نقول بان الرواة العرب المولعين بتصوير امثال هذه المساجلات بين الخلفاء والثوار واضفاء صبغة اسطورية فيها الكثير من المبالغة قد أبدعوا في تصوير العلاقة بين الخليفة ونصر العقيلي على اننا اذا طرحنا جانبا هذا الترويق بدا لنا بجلاء أن الدولة العباسية لم تعد تعيش في دور قوتها في ايام المنصور بل ان الحرب الاهلية قد انهكتها وان الخليفة كان يحاول بشتى وسائل الاغراء والتشويق ان ينهي ثورة نصر العقيلي التي طالت ، اما نصر فيظهر بمظهر الرئيس القبلي الفخور المتعالي والثائر المغامر الذين زخرت بهم بلاد الشام في العصر العباسي الاول من أمثال حبيب بن مرة المري وابي الورد مجزاة بن كوثر الطلابي وابو الهيذام عامر بن عسارة وغيرهم . فلقد خسرت بلاد الشام وقبائلها خسارة كبيرة بزوال الدولة الاموية حيث ذهبت امتيازاتها والاموال التي كانت تدر عليها . ولم يكن هدف نصر العقيلي حين ثار اسقاط الدولة العباسية بل جلب انتباهها الى اهمية القبائل الشامية وخطورتها وبالتالي نيل حظوة الخليفة وقد ادرك الخليفة المأمون ذلك ولهذا فهو يسبغ عليه الوعود والامتيازات اذا رجع الى الطاعة واستسلم .

لقد كان نصر ثائرا من اجل القبائل الشامية التي فقدت الامتيازات التي اغدقت عليها في العصر الاموي . اما ادعائه بانه ثار من اجل الذين فقدوا مراكزهم للعجم فقول مبالغ فيه ذلك لان الدولة العباسية في عصرها الاول لم تقدم العجم على العرب الذين احتفظوا بمراكز القيادة في السياسة والادارة والجيش ، ولكنها اشركت الموالي في هذه الوظائف والامتيازات . على ان الدولة العباسية التي قامت على اكتاف العرب في اهل خراسان والعراق وخاصة القبائل اليمانية والرعية منهم كانت تنظر نظرة حذر وشك الى القبائل الشامية الموالية للامويين فلم تقرب شيوخهم

ولم تصطفيهم وهذا بعينه يفسر لنا سبب ثورة نصر بن شيبت العقيلي وأمثاله من شيوخ القبائل السورية الذين كانوا يمثلون الفروسية العربية من الطراز الكلاسيكي بكل ما في ذلك من معان •

انفصال طاهر بن الحسين بخراسان :

بعد ان قتل المأمون الفضل بن سهل برزت شخصية جديدة هي شخصية طاهر بن الحسين الذي أصبح صاحب الشرطة ببغداد سنة ٢٠٤ هـ ثم أصبح واليا على خراسان والجبال سنة ٢٠٥هـ وكان طاهر ذا طموح كبير وكان يرغب ان يتولى خراسان وقد ادرك الخليفة ذلك وكان يرى انه سينفصل عن الدولة في حالة تثبيت مركزه هناك • وهذا ماحدث فعلا سنة ٢٠٧هـ ـ ٨٢٢م حين قطع طاهر الخطبة باسم الخليفة• وقد استطاع الخليفة ان يقتل طاهر بطريقة او باخرى ولكنه لم ينجح في ازاحة آل طاهر من خراسان حيث خلف طلحة اباه طاهر ثم جاء بعده اخوه عبد الله بن طاهر فترسخت الامارة الطاهرية في خراسان (٤٩) •

اضطرابات القبائل العربية في الاقليم المصري :

استفحلت العصبية القبلية في مصر القيسية التي ناصرت الامين واليمانية التي انحازت الى المأمون سنة ٢١٤هـ ـ ٨٢٩م ولكن الانتفاضة تطورت الى حركة عارمة سنة ٢١٦هـ حين « انتفضت اسفل الارض عربها وقبطها واخرجوا العمال لسوء سيرتهم وخلعوا الطاعة » مما جعل الخليفة يخرج بنفسه الى مناطق الحركة وجعل قيادة الجيش الى الافشين • ويظهر ان اساس التمرد يعود الى شدة العمال في جباية الخراج من المزارعين من عرب وقبط • ولذلك فقد عزل المأمون عامل الخراج كما جلب معه بعض زعماء الحركة الى العراق ومع ذلك فقد ظل المأمون يعتقد بان

الحركة كان يجب ألا تتطور بالشكل الذي تطورت اليه حيث قال مشيرا الى اشتراك القبط في الحركة :

« هؤلاء كفار لهم ذمة اذا ظلموا تظلموا الى الامام وليس لهم ان يستنصروا باسيافهم ولا يسفكوا دماء المسلمين في ديارهم » •

عوامل التفكك ترجح وعوامل التماسك تتضاءل :

بدأت عوامل التفكك بالعمل الفعال منذ عهد الرشيد حيث نشأت امارة الاوارسة في المغرب وامارة الاغالبة بتونس (افريقيا) وفي عهد المأمون وبسبب ظروف الحرب الاهلية وفقدان قوة السلطة المركزية انفصلت الامارة الطاهرية بخراسان • وقد فعل محمد بن ابراهيم الزيادي باليمن ما فعله طاهر بن الحسين بخراسان وبنى مدينة جديدة له هي زبيدة سنة ٨٢٠م سنة ٢٠٤ ثم توارث الامارة اولاده واعوانه من بعده •

ان السلطة المركزية في بغداد على عهد المأمون لم تقف مكتوفة الايدي تجاه عوامل التفكك هذه بل كانت تحاول جاهدة ان ترجع عوامل التمسك فقد رأينا كيف تخلص المأمون من طاهر بن الحسين، كما واننا نعتقد بان ما أمر به سنة ٢١٢ هـ من لعن معاوية على منابر بغداد والامصار الاخرى كان بمثابة اعداد للرأي العام موجه ضد الامويين في الاندلس في عصر عبد الرحمن الاوسط وربما كان ينوي ان يشن حملة عسكرية على معقلهم في الاندلس كما حاول ذلك قبله المهدي والمنصور •

سياسة المأمون الاعتزالية :

كان العباسيون متقلبين في سياستهم الدينية في عهود خلفائهم الاوائل وبعد تجارب عديدة مع اتجاهات دينية مختلفة مال العباسيون

الى اهل الحديث وكونوا علاقات شخصية قوية مع الكثير منهم وذلك اجعلهم سندا للخلافة .

وحين جاء المأمون الى الخلافة قرب الفلاسفة والمتكلمين وكان فيه ميل الى العلم والثقافة حيث جمع في (بيت الحكمة) امهات الكتب العربية وغير العربية مع مئات العلماء والمفكرين والمترجمين . وجمع بلاط فلاسفة وعلماء تدارسوا القرآن والحديث والفقه والمسائل المتفرعة منها ولكن المأمون كان يميل الى آراء المعتزلة ويعجب بأدلتهم العقلية والنقلية ولذلك أصبح احمد بن ابي داوود المعتزلي ذا نفوذ كبير في دولة المأمون .

وتعرف المعتزلة بانها أول مدرسة كلامية في الاسلام وانها استطاعت ان تثبت الاصول العقلية للعقيدة الاسلامية (٥٠) . ولا شك انها لعبت منذ نشأتها على يد واصل بن عطاء الغزال وعمرو بن عبيد في نهاية القرن الاول الهجري دورا كبيرا في تاريخ الفكر الاسلامي وهناك نظريات عديدة في أصل المعتزلة . ولكن الذي يهمنا في هذا المجال النظرية السياسية لأصل المعتزلة التي قال بها المستشرق نلينو والمستشرق بنبرك واكدها الاستاذ احمد امين وغيره (٥١) وتشير هذه النظرية الى ان الاعتزال بدأ سياسيا في حرب صفين ومعركة الجمل حين ظهر جماعة أطلق عليهم المعتزلة لامتناعهم عن مناصرة الفريقين المتنازعين ووقوفهم على الحياد وان اتباع واصل بن عطاء هم استمرارا فكريا لموقف عملي سابق له وليس من شك فهناك نقاط قوة ونقاط ضعف حول هذه الفرضية وان مؤيديها لم يتوصلوا الى استنتاجات متشابهة حولها . وللمعتزلة أصول مشتركة تميزهم عن غيرهم من الفرق « فليس منهم احد يستحق اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالاصول الخمسة : التوحيد والعدل والوعد

والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر»[٥٢].

وتتشعب من هذه الاصول مسألة مهمة في تاريخ الاعتزال وهي مسألة خلق القرآن التي اصطلح عليها اسم « المحنة » . فكانت المعتزلة تقول بان القرآن مخلوق انطلاقا من مبدأ نفي صفات المعاني عن الله تعالى ومنها الكلام . فالقرآن مخلوق لانه مجموعة من الحروف والاصوات يخلقها الله تعالى ولا يمكن اعتباره قديم وغير مخلوق لان ذلك يؤدي الى مشاركة القرآن بصفة وهي من صفات الله وهي القدم الازلية . فالله وحده لا شريك له واذا كان القرآن غير مخلوق شارك الله في صفة من صفاته عزوجل .

ولكن اهل الحديث عارضوا المعتزلة وتصلبوا في موقفهم ، وتصلب المعتزلة كذلك في موقفهم خاصة وان المأمون اتخذ الاعتزال مذهبا رسميا للدولة . والواضح أن المعتزلة الذين نادوا بحرية الرأي والادارة وسيادة العقل تعسفوا حين وصلوا الى كرسي الحكم واضطهدوا مخالفيهم في الرأي الذين قالوا بان القرآن غير مخلوق فكانت المحنة التي قاسى منها احمد بن حنبل واتباعه الامرين . ومما لا شك فيه ان المأمون نفسه أيد سياسة المعتزلة هذه وقد وضح موقفه في كتابين ارسلهما الى اسحق بن ابراهيم وقال فيهما يرد على وجهة نظر اهل الحديث [٥٣] :

« وتزين في عقولهم الا يكون مخلوقا فتعرضوا بذلك لرفع خلق الله الذي بان به عن خلقه وتفرد جلالته بابتداع الاشياء كلها بحكمته وانشائها بقدرته والتقدم عليها بأوليته التي لا يبلغ اولاها ولا يدرك مداها وكان كل شيء دونه خلقا من خلقه وحدثا هو المحدث له وان كان القرآن ناطقا به ودالا عليه وقاطعا للاختلاف فيه وضاهوا به قول النصارى في

ادعائهم في عيسى بن مريم انه ليس بمخلوق ... ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا الى قولهم ونسبوا انفسهم الى السنة وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل قولهم ومكذب دعواهم يرد عليهم قولهم ونحلتهم ثم اظهروا مع ذلك انهم اهل الحق والدين والجماعة وان من سواهم أهل الباطل والكفر والزندقة فاستطالوا بذلك على الناس وغرروا به الجهال ..

وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن الثلم في دينهم والجرم في أمانتهم وسهلوا السبيل لعدو الاسلام ... » .

ان الاضطهاد الذي عانى منه اهل الحديث وخاصة بعد عهد المأمون حيث توفي بعضهم من الضرب والسجن في عصري المعتصم والواثق زاد من شعبيتهم بين جماهير الناس وكان للمحنة ردود فعل مساوية في العنف في عهد المتوكل حيث سيطر اهل الحديث فسادت المجتمع الاسلامي موجة من التعنت والتزمت .

المأمون وولاية العهد :

في رمضان سنة ٢٠١ هـ ـ اذار ٨١٧م عين المأمون علي الرضا بن موسى الكاظم وليا للعهد وقد استدعى الامام الرضا من المدينة الى مرو حيث كان يقيم الخليفة وقد ضرب اسمه على النقود كما زوجه من ابنته (٥٤) .

ان هذه الاجراءات لاقت معارضة شديدة من اهل بغداد حيث اعلنوا عصيانهم على الخليفة وساندهم في ذلك عدد من العباسيين وقد ارادوا اول الامر البيعة للمنصور بن المهدي ولكنه رفض فبايعوا ابراهيم

ابن المهدي خليفة واسحق بن موسى بن المهدي وليا للعهد • وقد اتخذ ابراهيم لقب « المبارك » •

ولا نريد هنا ان ندخل في تفاصيل البيعة للرضا وانعكاساتها فلذلك مكان آخر ولكننا نقول بان ابراهيم بن المهدي لم يستطع مواصلة الحكم في بغداد بل اعيد الاعتراف بالمأمون خليفة للمسلمين بعد أقل من سنتين سنة ٨١٩ م •

ولم يعالج المأمون مشكلة ولاية العهد طيلة مدة حكمه ولكنه بعد أن وقع مريضا في مرضه الاخير كتب الى ابنه العباس والى عبد الله بن طاهر بن الحسين والاشراف والولاة ان الخليفة من بعده هو اخوه ابو اسحق (المعتصم) • ويظهر ان بعض القادة في الجيش كانوا منقادين للبيعة للعباس [٥٥] ولكن المعتصم استطاع ان يسيطر على الموقف كما وان الذي حسم الامور وهدأ الاوضاع ان العباس نفسه اسرع في البيعة لعمه المعتصم وكان المأمون قد أوصى اخاه المعتصم وصية مهمة أودع فيها خلاصة تجاربه ومما جاء فيها : [٥٦]

« واعمل في الخلافة اذا طوقها الله عمل المريد لله الخائف من عذابه وعقابه ولا تغتر بالله ومهلته فكان قد نزل بك الموت • ولا تغفل أمر الرعية ، الرعية الرعية العوام العوام فان الملك بهم وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين ••• وعجل الرحلة عني والقدوم الى دار ملكك بالعراق وانظر هؤلاء القوم الذين امنت بساحتهم فلا تغفل عنهم في كل وقت » •

والمعروف ان المأمون توفي وهو يجاهد البيزنطيين قرب طرسوس في الجبهة الشمالية •

المعتصم والاتراك :

كانت شخصية المعتصم على نقيض شخصية المأمون فبقدر ما كـان المأمون سياسيا مرنا كان المعتصم رجل حرب صلبا شديـدا ، وبقدر ما كان المأمون مثقفا كان المعتصم عديم الاهتمام بالكتب والمعارف بل انه وصف بكونه « أميا لايكتب » وبقدر ما كان المأمون عقائديا ملتزما كان المعتصم عسكريا محترفا ولذلك فان استمرار تأييده لمذهب المعتزلة لم يكن في أغلب الظن عن عقيدة راسخة بل كان تقليدا أعمى لسياسة سلفه المأمون وانقيادا حرفيا لوصيته له .

ولذلك فنحن لا نرى في سياسة المعتصم وادارته ما ينم عن تبرير حازم او سياسة بارعة ولعل اظهر ما تميز عصره هو اكثاره من استخدام الاتراك وايثاره لهم وتفضيلهم على العرب وسائر العناصر الاخرى .

وفي تفسيرهم للسبب الذي دفع المعتصم على الاستعـانة بالاتراك يسير المؤرخون المحدثون ، كالعادة على التفسير العنصـري التقليدي الذي اقتبسوه من مستشرقي القرن التاسع عشر . فالدوري يشير الى ان « العلاقة ساءت بين الخراسانيين (وهم في رأيه عجم) وبين العباسيـين بعد انتقال المأمون من مرو وبعد نكبة آل سهل وظهرت استحالة التوفيق بين آمال الخراسانيين وبين مصالح العباسيين فالتجأ المعتصم الى عنصـر جديد ... » (٥٧) أي انه يرى ان اعتماد المعتصم على الاتـراك يعود بصورة رئيسية الى اختلال التوازن بين الفرس والعرب وخاصة في الجيش العباسي على اننا لا نقر بان طبيعة الحرب الاهلية ونتائجها كانت ذات مغاز عنصرية كما اوردنا ذلك في حينه . كما وان البحـث في الاصول التاريخية لدخول الترك في البلاط العباسي والادارة والجيش

يظهر لنا بوضوح أن العملية ليست من بناة أفكار المعتصم بل في الواقع بدأت منذ عهد الخليفة المؤسس ابي جعفر المنصور • (٥٨)

ولما كنا سنبحث هذا الموضوع بتفصيل اكثر في مكان آخر فلابد لنا هنا ان نوضح مغزى التنظيم العسكري الجديد الـــذي اقدم عليه المعتصم •

اننا يجب ان ندرك ان اصطلاح « الموالي » كان اصطلاحا مرنا ذو مدلولات واسعة ولم يكن يعني فقط المسلمين من غير العرب ولم يكـــن يقتصر على الفرس كما يحلو للبعض تفسيره واستنباط نتائج خاطئة منه، ومن جملة مدلولات هذا الاصطلاح هو ان المولى الذي يرتبط بنوع من الولاء او الرابطة بقبيلة ما او بسيد ما قد يكون عبدا او مملوكا بغض النظر عن عنصره ارتفع الى مرتبة مولى • وقد كان هـــذا النـــوع من الموالي متواجدا من العصر الاموي وكذلك في العصر العباسي • فقـــد سأل الخليفة المنصور احد انصار الامويين عن سبب سقوط الامويـــين في رأيه ؟ فأجاب من تضييع الاخيار ، ثم سألـــه اين وجد الامويـــين الوفاء ؟ فأجاب في مواليهم (٥٩) وقد استخدم المنصور كما نعلم مواليه في البريد ثم ان الخليفة المهدي اعتمد بدرجة اكبر على مواليه وقدمهـــم على غيرهم في الخدمات بسبب اخلاصهم واندفاعهم في تنفيذ أية خدمة يريدها منهم الخليفة •

واذا ما تقدمنا اكثر في العصر العباسي الاول نلاحظ اصطلاحات جديدة تدل على ازدياد اعتماد الخلفاء على مواليهم وصنعائهـــم فترد في عصر الرشيد مثلا كلمة الخادم كلقب للعـــديد من الافراد الذين اعتمد عليهم هذا الخليفة في اموره المهمة • فقد كـــان هرثمـــة بن اعـــين

من موالي الخليفة وكان مسرور الكبير من اقرب المقربين اليه . كما نلاحظ ان العديد من القادة العسكريين في جيش الخليفة هارون الرشيد في حروبه مع البيزنطيين كانوا من العبيد والخدم التابعين للبلاط العباسي ولشخص الخليفة بالذات وتشير الروايات التاريخية الى ان الامين اغرق بلاطه بالعبيد والخدم وهذا ما فعله المأمون كذلك خاصة اذا علمنا ان الجيش الخراساني الذي قاده طاهر بن الحسين لفتح بغداد كان يتكون اضافة الى العرب والفرس من البخارية والخوارزمية والاتراك مما يدل على ان سكان شرقي خراسان وبلاد ما وراء النهر كانوا ممثلين بصورة واضحة فيه .

وعلى ذلك فان ظهور هذه الكتلة من الموالي المرتبطين بالخليفة من الخدم والعبيد في العاصمة وفي بلاط العباسيين وما نالوه من نفوذ متزايد يعتبر من العوامل الممهدة الرئيسية للتدابير العسكرية التي اقدم عليها الخليفة المعتصم . ومما لا شك فيه فان اهم ما يميز هؤلاء الاتراك الذين اعتمد عليهم المعتصم انهم غرباء لا تربطهم صلة بقبيلة او شخص غير الخليفة العباسي مما يجعل اخلاصهم واعتمادهم وولائهم له وحده ومما يجعلهم بعيدين عن التكتلات والولاءات والعصبيات التي يرتبط بها غيرهم من الكتل الاخرى وبمعنى آخر فان المعتصم ادرك بان الاعتماد على الترك أفضل لدولته وأضمن لخلافته لان ولاءهم غير مشتت وخالص له بينما العرب تتقاسمها العصبيات القبلية والفرس تراودها الامال الاقليمية والدينية القديمة (المجوسية) . هذا من جهة ومن جهة اخرى فقد استقرت العناصر المختلفة في الخلافة العباسية وتحضرت ولم تعد قبائل العراق وخراسان تتسابق للحرب والقتال كما كانت من قبل، ذلك ان حياة الحضارة والرفاهية ارغمتهم على تغيير اسلوب حياتهم ، فمالوا الى

الزراعة والتجارة والمهن وبدأ عندهم الولع بالثقافة اما الاتـراك فكانوا لايزالون بدوا متنقلين ويسميهم الجاحظ « بدو العجم » [٦٠] .

ولا يفوتنا ان نذكر ان التقارب الفكري بين طبيعة المعتصم وثقافته وبين طبيعة هؤلاء الاتراك وثقافتهم فلم يكن لديهم ميـل نحـو امور الحضارة وتقليدها قدر ميلهم الى امور الحرب والسلاح وهذا ما كـان يفضله المعتصم الذي نشأ مولعا بأمور الحرب والفروسية .

وأخيرا وليس آخرا فان عملية دخول المماليك الاتراك الى المؤسسة العسكرية والمؤسسة الادارية العباسية بصورة فعالة في عهـد المعتصم يرتبط كذلك بالتدابير النشطة التي اتخذها المأمون وبعـده المعتصم لاحكام السيطرة على بلاد ما وراء النهر والاقاليـم المجاورة لهـا في ترانسكونيا والعمل على نشر الاسلام فيها بهمة ونشاط . مما سهل عليه عملية هجرة او استقدام الاتراك الى العراق في عصر المعتصم والعهود التي تليه . ولقد كان عدد الاتراك يتزايد سنة بعد اخرى حيث يذكـر اليعقوبي [٦١] بان المعتصم الح في طلب الاتراك من مواطنهـم وكذلك اشترى من كان ببغداد من رقيق الناس !! ويشير علي بن الجهم الـى ان الخليفة جمع ما لا يقل عن ٧٠ ألفا من الاتراك حين يقول : [٦٢]

امامي من له سبعين الفـا من الاتراك مشرعة السهـام

بناء سامراء :

بعد بحث طويل تعرف المعتصم على موضع دير على دجلة شمالي بغداد فبنى مدينة (سر من رأى) سنة ٢٢٠ هـ ــ ٨٣٥م وقـد ذكر مؤرخونا الرواد اسبابا عديدة لانتقال الخليفة بجيشه ودواوينه الـى

سامراء لعل اهمها الفارق الحضاري [٦٣] والاجتماعي بين سكان بغداد وبين الترك الذين كما ذكرنا كانوا بدوا جفاة يركبون الدواب ويسيرون في بغداد دون نظام . هذا اضافة الى تكرار التصادم بينهم وبين الناس لسوء تصرفهم [٦٤] وكذلك لضيق المدينة بهم بسبب كثرتهم وتزايد عددهم [٦٥] .

ومهما عدد المؤرخون من اسباب فاننا نؤكد على سبب واحد نعتبره العامل المهم الذي جعل أمر الانتقال من بغداد الى سامراء امرا حتميا الا وهو التصادم بين كتلتين مسلحتين في العاصمة الاولى (اهل بغداد) والثانية الترك . فاذا كان البلاط العباسي والمؤسسة العسكرية قد تقبلت الاتراك كعنصر جديد فان العاصمة نفسها لم تهضمهم ابدا بسبب الفارق الكبير بين الكتلة القديمة والكتلة الجديدة في الطباع والثقافة والاتجاهات والميول وهذا الامر جعل المعتصم يدرك اكثر فاكثر بان البحث عن مركز عسكري واداري جديد لابد منه اذا أريد للسلطة المركزية ان تثبت وتستقر .

ولكن من هم هؤلاء الذين نصطلح عليهم (اهل بغداد) ؟ ان دورهم في الواقع يعود الى ايام الحرب الاهلية بين الامين والمأمون [٦٦] فهم الذين كونوا العنصر الرئيسي في جيش الامين وهم الذين أبدوا بسالة كبيرة في مقاومة جيش طاهر بن الحسين الذي حاصر بغداد وتذكرهم مصادرنا حين تتكلم عن المعارك العديدة في ضواحي بغداد وفي داخلها وتسميهم احيانا (جند اهل بغداد) ولذلك فهم ليسوا من الرعاع او العامة ، كما يحلو لبعض المؤرخين تسميتهم وانما وحدة عسكرية متميزة تتكون مما لا يقل عن ٥٠ الفا من الفرسان والمشاة مسجلين في (دفاتر الجند) . وتظهر رواية اخرى ولاءهم للامين وندمهم على مقتله .

ولعل أهم من ذلك ان نلاحظ بان جند اهل بغـداد كان يعتمد في تكوينه على كتلة مهمة ظهرت ايضـــا اثنـاء الحرب الاهليـــة وهي (الابناء) (٦٧) .

والابناء ينعتون بنعوت كثيرة في المصادر المتوفرة لدينا فاحيانـا يسمون ابناء الدولة او ابناء الدعوة او ابناء الشيعة (العباسية) . ولكن الشائع في تسميتهم هو الابناء ومفرده الابناوي او البنوي .

والمحتمل جدا ان هؤلاء الابناء هم احفاد اهل خراسـان شيعـة العباسيين واصحاب الدعوة العباسية والذين كانوا في غالبيتهـــم من القبائل العربية الخراسانية ومن الموالي الايرانيين. على انهم حين استقروا في العراق وفي بغداد بالذات تأثروا ببيئتهم العربية الجديدة هذه فمروا بعملية (تعريب جديدة) صقلتهم واظهرت عنصرهم العربي الذي ربـما أثرت عليه البيئة الخراسانية . كما أثرت البيئة العربية العراقية الجديدة على الايرانيين منهم تأثيرا واضحا فقد غدا ارتباطهم السيـاسي بشخص الخليفة العباسي واصبح ولاءهم لسياسة السلطـــة العباسية المركزية . ويظهر أن غالبية قادتهم من العرب من امثال عبد اللـــه بن حميـد بن قحطبة الطائي .

وفي رسالة للجاحظ يتكلم البنوي عن نفسه ودوره في الدفاع عن العباسيين فيقول : (٦٨)

« انا اصلي خراسان وهي مخرج الدولة ومطلع الدعوة .. وفرعي بغداد وهي مستقر الخلافة . وفيها بقية رجال الدعوة وابناء الشيعة وهي خراسان العراق وبيت الخلافة وموضع المادة .

ولنا أبعد في أنفسنا ما لا ينكر من الصبر تحت ظـــلال السيوف القصار والرماح الطوال.. ونحن اهل الثبات عند الجولة والمعرفة عنـد الحيرة .. ولنا القتال عند ابواب الخنادق ورؤوس القناطر ونحن الموت الاحمر عند ابواب النقب » .

ان هؤلاء الابناء المسيطرين على بغـــداد والفخورين بأمجادهم العسكرية والسياسية باعتبارهم احفاد الخراسانية شيعـــة العباسيين وعمادهم هم الذين اجبروا المعتصم على الانتقال الى سامراء بجنـــده . فالابناء منذ حرب الامين والمأمون كانوا يستهزئون بالعجم جند طاهـر بن الحسين فقد قال عبد الرحمن بن جبلة الانباري عن طاهر بن الحسين وجيشه قبل احدى المعارك في ضواحي بغداد :

« يا معشر الابناء يا ابناء الملوك والفـــاف السيوف انهم العجم وليسوا باصحاب مطاولة ولاصبر فاصبروا لهم فداكم ابي وامي »(٦٩).

ان نفس النظرة التي نظر بها اهل بغداد الى جيش طاهر بن الحسين ظلوا ينظرون بها الى جيش المعتصم . وكما اجبر المأمون على تغييـــر سياسته اجبر المعتصم على تغيير عاصمته !!

لقد كانت خطة المعتصم على حد قول الطبري ان يعثر على موضـع « اخرج اليه وابني فيه مدينة واعسكر به فان رابني من عساكر بغـداد حادث كنت بنجوة وكنت قادرا على ان اتيهم في البر وفي الماء » (٧٠) .

ولذلك فان المعتصم كان من جند اهل بغداد فيكون بمأمن منهـم من جهة وليستطيع ضربهم وكسر شوكتهم اذا تمردوا من جهة ثانية .

ويشير اليعقوبي (٧١) الى أن تخطيط المدينة الجديدة تميز بمراعاة النواحي العمرانية والحضارية وذلك امر طبيعي لان الدولة العباسية استقرت وثبتت وان عهد المعتصم يختلف عن عهد المنصور باني بغداد المدورة • وقد اهتم المعتصم بالعمران وصفوف الاسواق وكانت « كل تجارة منفردة وكل قدم على حدتهم على مثل ما رسمت عليه اسواق بغداد » • واهتم بزراعة الضواحي القريبة من المدينة وحمل اليها الاشجار وحفر الترع فكان قدوة لرجال دولته في الاهتمام بالزراعة والتشجير (٧٢) •

على ان ابرز ما اهتم به هذا الخليفة المحارب هو راحة جيشه فقد قسمهم الى وحدات تسكن كل منها في ناحية خاصة وراعى في التقسيم جنسياتهم الاصلية وجعل قائد كل وحدة او صنف مسؤولا عن المحلة او المنطقة التي تسكن فيها •

الاضطرابات في جنوبي العراق :

تعرضت منطقة البطيحة في العراق الى اضطرابات قام بها الزط • ولا نعرف الشيء الكثير عن هؤلاء الناس ويرى المسعودي (٧٣) أن أصلهم من الهند هاجروا الى ايران فالعراق بسبب المجاعة والفاقة ويؤيد البلاذري القول بان اصلهم هندي ويحدد منطقهم بالسند • اما ابن خلدون فيقول انهم قوم من اخلاط الناس (٧٤) •

ومهما يكن من امر فالظاهر انهم من ضعفاء الهنود الذين جابوا البلدان حتى وصلوا اهوار العراق وقد حاول ولاة العراق وخاصة الحجاج الثقفي ان يستغلوهم لزراعة المنطقة عن طريق استقرارهم فيها •

وفي العصر العباسي اثار الزط الاضطراب وعـــدم الاستقرار في عهد المأمون الذي لم يتمكن من قمع حركتهم ، بل انهم بـــدأوا يغيرون على السفن القادمة الى بغداد من البصرة، كماانضم اليهم العبيد وهاجموا المناطق القريبة ونهبوا غلاتها حتى انقطع الطريق المائي الى بغداد كمـــا قطعوا الطريق بين واسط والبصرة.

وفي سنة ٢١٩هـ ـ ٨٣٤م ارسل المعتصم جيشا بقيادة عجيف بـن عنبة فحاصرهم واحكم الحصار فاستسلم مئات منهم وقتـــل آخرون . وقرر الخليفة بعد ذلك تهجير الالاف منهم الى الثغور الشمالية وخاصة ثغر عين زربة وبذلك خفت وطأتهم في الجنوب .

تمرد في الجزيرة الفراتية واذربيجان :

وتمرد جعفر الكردي في الجزيرة واذربيجان ثم انتقل الى ارمينيـا وانضم اليه العديد من الناس فباتت حركته خطرا مما دعـــا السلطـة المركزية الى قمعها بسرعة[٧٥] .

فترة من الهدوء النسبي :

توفي المعتصم سنة ٢٢٧هـ ـ ٨٤١م فخلفه ولي عهده الواثق الذي تميزت فترته بازدياد نفوذ القادة العسكريين الاتراك مثل اشناس الـذي لقب (بالسلطان) ووصيف وايتاخ وبغا الكبير .

كما بقي المعتزلة اصحاب النفوذ والسلطان وخاصة احمد بن ابـي داوود الذي كان احد اثنين لا يصدر الخليفة « الاعن رأيهما ولا يعـاب عليهما رأيهما فيما رأيا وقلدهما الامر ففوض اليهما ملكـــه »[٧٦] اما الثاني فهو الوزير محمد بن عبد الملك الزيات .

وقد حذا الواثق حذو ابيه وعمه في سياسة الاعتزال وتشدد في القول بخلق القرآن (٧٧) وقد ادى ذلك الى تمرد جماعة من اهل بغداد ضده سنة ٢٣١ هـ يعرفون بأهل الحديث بزعامة احمد بن نصر بن مالك الخزاعي ولكن السلطة استطاعت ان تجهض الحركة والقي القبض على زعيمها الذي اتهم بنشر آراء مخالفة لعقيدة الدولة وحوكم محاكمة رسمية حضرها قاضي القضاة احمد بن ابي داوود ، وحكم عليه بالموت حيث قتله الخليفة وصلبه في بغداد (٧٨) •ولكن سياسة (اسكات المخالفين في الرأي والعقيدة كانت ذات مردودات سلبية ذلك انها اذكت المعارضة وشدت من عزم القوى المضادة فكانت من السهل على المتوكل ان ينهي سلطة المعتزلة السياسية فيما بعد •

وشهد عهد الواثق تحركات قبلية اثارت الفوضى في الحجاز حيث انتفض بنوسلوم وبنو مرة وبنو فزارة وقطعوا الطريق بين مكة والمدينة• كما حدثت انتفاضات قبلية في اليمامة وقد لعب القائد (بغا الكبير) دورا مهما في اخماد هذه الحركات مما زاد في نفوذه في البلاط والادارة •

ولم يعهد الواثق لأحد حين توفي سنة ٢٣٢هـ ـ ٨٤٧م برز دور القادة الاتراك في التدخل في تعيين الخليفة الجديد حيث انتخبوا في البدء ابن الواثق ثم بدلوا رأيهم وعينوا جعفر المتوكل فكانت سابقة خطيرة ومثلا سيئا لتدخل القادة العسكريين في السياسة •

الجيش يتدخل في السياسة :

لم يكن جعفر المتوكل من المقربين الى الواثق في عهده بل ان الذي يستعرض سيرته في عهد الواثق لابد وان يتذكر حياة الرشيد في عهد الهادي فقد كان الواثق يسيء معاملة اخيه المتوكل ويود ان يعين ابنه خليفة من بعده رغم انه كما ذكرنا سابقا لم يقم بهذا العمل فعلا •

والواقع فان الواثق حد من نشاط المتوكل وعين اثنان من رجال البلاط للاشراف على اموره ومراقبته . وقد حاول المتوكل ان يوسط الوزير محمد بن عبد الملك الزيات لدى الخليفة الا ان هذا الوزير رفض القيام بالعمل وأهان جعفر المتوكل مما دعا هذا الاخير الى الاستنجاد بابن ابي داوود الذي توسط لدى الخليفة دون جدوى (٨٠) .

ولم يكن حصول المتوكل على الخلافة وليد خطة مدبرة بل نتيجة الظروف الحسنة التي اعقبت موت الواثق الذي لم يعهد لاحد من بعده. فقد اضطرب الجيش وعقدوا اجتماعا لاختيار الخليفة الجديد وقد اقترح ابن الزيات ان يكون محمد بن الواثق خليفة ولكن وصيف رفض الاقتراح باعتبار ان محمدا صغيرا ولا تجوز الصلاة وراءه . ثم نظر المجتمعون في اسماء مقترحة اخرى حتى تقرر تعيين المتوكل حيث لعب القادة العسكريين وعلى رأسهم وصيف وايتاخ دورا بارزا في ذلك وأيدهم احمد بن ابي داوود باسراعه بمبايعة المتوكل الامر الذي جعل ابن الزيات يعترف بالامر الواقع .

ان اهمية مجيء المتوكل للخلافة تكمن في ان القادة العسكريين استطاعوا ولأول مرة في التاريخ العباسي أن يجعلوا كلمتهم هي النافذة في امر سياسي الا وهو اختيار الخليفة .

وعلى ذلك فقد جاء المتوكل الى الحكم (٢٣٢ هـ ـ ٢٤٧ هـ) بترشيح ومساندة القادة الاتراك في الجيش ، وكنتيجة للمنافسة الحادة بين القادة الترك وبين (البيروقراطية) المدنية التي يرأسها الوزير ابن الزيات . وقد سقط ابن الزيات بعد حوالي الشهر من تسلم الخليفة الجديد الحكم وبدأت فترة الاضطراب السياسي ادرك الخليفة المتوكل

خلالها خطر تدخل الاتراك في السياسة وحاول ان ينهج نهجا جديدا ويربط نفسه بتكتلات جديدة لينقذ نفسه والخلافة من الازمة .

على ان الباحث في خلافة المتوكل تواجهه قلة الروايات التاريخية عند المؤرخين الرواد في القرن الرابع الهجري وعدم تناسبها مع الاحداث التي وقعت حينذاك. فالطبري يسكت عند كثير من الاحداث ولعل سبب ذلك يرجع الى سوء العلاقة بالحنابلة ولذلك يتحاشى ذكر اخبارهم . اما المسعودي فيمتدح سياسة الخليفة في اعلاء السنة والحد من نشاط المعتزلة ولكنه ينقد موقف الخليفة تجاه العلويين ولعلنا نستطيع ان نتفهم موقف اليعقوبي الحذر تجاه سياسة المتوكل السنية تلك السياسة التي لم تكن تنسجم مع مشاعر اليعقوبي العلوية المعتدلة . ان اهم ما يذكره اليعقوبي هو القول بان المتوكل منع الكلام حول القرآن واطلق سراح كل المعتقلين بسبب (المحنة) اما المؤرخين المتأخرين امثال ابن الاثير والسبكي والبغدادي وابن الجوزي وابن كثير والسيوطي فيمتدحون سياسة المتوكل الدينية ولكنهم في الغالب ينتقدون موقفه من العلويين اما الشعراء فقد استغلهم الخليفة استغلالا كبيرا في الدعاية لسياسته وابراز وجهة نظره .

ولسياسة الخليفة المتوكل اوجه مختلفة على ان اهم المظاهر الدينية — السياسية ميزت عهده هي الازمة السياسية المستمرة التي انتهت بمقتله ثم موقفه المعادي للمعتزلة والمؤيد لاهل السنة والجماعة الذي يعتبر منعطفا جديدا خالف به سياسة اسلافه منذ عهد المأمون ثم عدائه للعلويين وتشدده تجاه اهل الذمة .

التكتلات السياسية والقادة الاتراك :

ان الازمة التي رافقت اعتلاء المتوكل للخلافة اظهرت بجلاء الصراع الحاد بين المؤسسة العسكرية المتمثلة بالقادة الاتراك وبين البيروقراطية المدينة التي يتزعمها الوزير ابن الزيات وقد سقط ابن الزيات بعد حوالي شهر ونصف من مجيء المتوكل فتدهورت معنويات الكتاب ومرت المؤسسات الادارية بفترة من الاضطراب ادرك المتوكل خلالها قوة تسلط العسكريين وبدأ يعمل على ايجاد تكتل جديد يدين بالولاء له .

ان السياسة الجديدة التي انتهجها المتوكل ساعدت على انتعاش البيروقراطية المدنية بصورة تدريجية وتقلص نفوذ القادة العسكريين . ودعما لنفس السياسة الجديدة تبنى المتوكل سياسة دينية جديدة تتسم بالعداء للمعتزلة والتشدد تجاه العلويين والتضييق على اهل الذمة .. كل ذلك لكسب عواطف جماهير المسلمين وعلى رأسهم الفقهاء والمحدثين وعلى ذلك فان انتقاء الخليفة لموظفي الادارة وحاشيته في البلاط كان يتم خلال عهده وفقا لأطر وشروط السياسة الجديدة .

ولعل سقوط الوزير ابن الزيات يعود في الاساس الى عوامل رئيسية ثلاث هي : اولا : سوء معاملته للمتوكل في عهد الواثق . وثانيا ارتباط اسمه بالمحنة . وثالثا : تأثير قادة الجيش وخاصة ايتاخ . ان رواية اليعقوبي (٨١) التي تنسب سقوط ابن الزيات الى خشونة اخلاقه وتعاليه ليست كافية ولابد ان نربط سقوطه بالضغط الكبير الذي مارسه الجيش. وقد تلا سقوطه فوضى ادارية واضطراب في صفوف الكتاب الذين عانوا الكثير خلال هذه الفترة .

وفي سنة ٢٣٣هـ ــ ٨٤٨م سقط عمر بن فرج (٨٢) وصودرت املاكه واملاك الكتاب الذين في معيته . ولم تجد السلطة العباسية في حوزته

اكثر من ١٥ الف درهم ولكن مولاه نصر سلم الدولة ٣٠ الف دينار من اموال سيده ١٤ الف دينار من امواله الخاصة وقد عومـل عمر بن فرج معاملة قاسية وتعرض لاهانات شديدة • ولعل اهم اسبا بسقوطه تعـود الى سوء معاملته للمتوكل قبل الخلافة والى استغلال نفوذه في الارتشاء وكسب المال وان الاموال الكبيرة التي استطاع عمر واخيه ان يقدماهـا للمتوكل تشير الى اكتنازهم الاموال خلال مدة ترأسهم للادارة •

ان هذه الامثلة للمصادرات تعيد الى الاذهان الاحداث التي تعرض لها الكتاب والوزراء في عهد الخليفة الواثق كذلك•

وقد تبع سقوط عمر بن فرج سجن احمد بن خالد الوزير وسقوط الفضل بن مروان ••• ان هذه الامثلة وغيرها اضافة الى انها مؤشرات ذات دلالات سياسية مهمة تظهـر محاولات الخليفـة لضبط الادارة وتحسينها والقضاء على الرشوة والاختلاس •

المتوكل ورؤساء الجيش :

حاول المتوكل جاهدا ان يرضي قادة الجيش فكان ايتـاخ قائدا للجيش والمغاربة والاتراك والموالي اضافة الى مسؤولياته في الحجابـة والبلاط • اما بغا الشرابي (الصغير) ووصيف فكانا حجابا اضافة الى مسؤولياتهم العسكرية •

اما بغا الكبير الذي كان يرتبط بالخليفة بربـاط القربى من جهة امه [٨٣] فكان قائدا لعدة حملات عسكرية اهمها حملة ارمنية ٢٣٨ــ٨٥٢ وعين المتوكل صالح التركي اميرا على دمشق ويزيد التركي اميـرا على مصر كما ان نديمه المقرب الفتح بن طاقان كان تركيـا • وان موسى بن بغا الكبير اصبح قائدا لحرس القصر نيابة عن ابيه •

على ان المنعطف الذي غير سياسة الخليفة تجاه القادة العسكريين هو انتقال الخليفة الى دمشق حيث « عزم سنة ٢٤٢هـ على المقام بها ونقل دواوين الملك اليها وامر بالبناء بها »[٨٤] وقد شغب الجند والاتراك واجبروا الخليفة على الرجوع بعد اقامة شهرين فيها . ولا شك فان قراره بالرجوع كان حكيما، ورغم انه كان رضوخا للقادة والجند[٨٥] فان بلاد الشام وهي المعروفة بولائها للامويين لا يمكن ان تساند خليفة عباسي وكان على المتوكل ان يتذكر حركة عبد الله بن علي العباسي وفشلها وجهود الامين واخفاقها لقد ادرك المتوكل بعد احداث دمشق سنة ٢٤٢هـ سوء نية بغا الكبير وابنه موسى وتآمرهما عليه مع انه اعفى عنه بعد ذلك بقليل . ولكن القادة العسكريين استمروا في الحصول على امتيازات جديدة فوسعوا اقطاعاتهم في المناطق المحيطة بسامراء كما وان انشاء (ديوان الجند والشاكرية)(وديوان الموالي والغلمان) يدل على ازدياد عدد الترك وتوسع المؤسسة العسكرية وزيادة مصروفاتها المالية وكان القادة وجندهم يحصلون على ارزاقهم رغم تدهور حالة الخزينة المركزية وذلك بالضغط على الخليفة كما استطاع بعضهم مثل وصيف الحصول على ضياع في اصفهان والجبال وفارس[٨٦] وهكذا اصبحت الحالة لا تحتمل بالنسبة للخليفة .

ولكن رؤساء الجيش وجنده لم يقتنعوا بكل هذه الامتيازات ، ولا بد لنا من ان نشير بان تدهور العلاقة بين الخليفة والقادة العسكريين كانت تعود بالدرجة الاولى الى مطاليب هؤلاء القادة المستمرة والمتزايدة للسلطة والمال ، ذلك لانهم كانوا يدركون اهميتهم ويسون قوتهم في الجيش والادارة . وان اية مقاومة من الخليفة كانت غير مجدية بل انهم دبروا خطة لقتله قبيل عودته من دمشق ولكن بغا الكبير وقف ضد هذه المؤامرة .

ولا بد لنا ان نلاحظ بان المتوكل منذ البدء ينتهز اية فرصة مؤاتية لتقليص سلطة الاتراك فانتهز فرصة ذهاب ايتاخ للحج ونقل عنه الحجابة الى وصيف ثم امر والي بغداد بسجنه حين عودته من الحج حيث نجحت الخطة ومات ايتاخ في السجن سنة ٢٣٥هـ • ولاشك بان بغداد بميولها المعادية للترك ولتسلط الجيش كانت انسب مكان لاعتقال ايتاخ وسجنه دون ان يجد نصيرا له والى ذلك تشير رواية تاريخية :

« ولو لم يؤخذ ما قدروا على أخذه ، ولو دخل سامراء فاراد باصحابه قتل جميع من خالفه امكنه ذلك » (٨٧) •

ثم كانت محاولته الفاشلة لنقل الخلافة الى دمشق التي اتبعها باجراء اخر حيث بنى مدينة جديدة سماها « المتوكلية » (٨٩) تبعد ثلاثة فراسخ عن العاصمة سامراء واقطع فيها اتباعه والقادة الموالين له وبذلك اراد الابتعاد عن اعدائه المتمركزين في العاصمة القديمة •

ثم عزز المتوكل مركزه اكثر حين شكل فرقة عسكرية جديدة ليس فيها عنصر تركي بقيادة ابنه المعتز ووزيره عبد الله بن يحيى بن خاقان وتتكون من ١٢ الفا من العرب والصعاليك • وقد حاول الجند القدماء التآمر على الفرقة العربية الجديدة دون جدوى بل ان المتوكل قلص نفوذ وصيف وحاول قتله وقتل بغا معه •

ان هذه الاجراءات المتتالية زادت من حذر الترك وشكوكهم تجاه الخليفة الذي كان يبغي استئصالهم معتمدا على البيروقراطية المدنية التي فشلت في الساعة الحرجة ان تقف معه • فلقد استغل الترك نزاع الخليفة مع ابنه المنتصر فخالفوا الاخير ضد ابيه وكانت النتيجة مقتل الخليفة وانتصار الجيش •

الاضطرابات في الاقاليم :

ان الصبغة الغالبة على عهد المتوكل هي التكتــلات والمؤامرات في العاصمة وفي داخل البلاط بالذات والمتسمة بمحاولات الخليفــة التخلص من نفوذ الجيش في الادارة والسياسة وكذلك الحـــد من ابتزاز كبار الكتاب والوزراء .

على ان انشغال الخليفة بتدبير امور العاصمة زاد من رجحـــان عوامل التفكك فظهر الصفارون في سجستان واستطاعوا تكوين سلطــة سياسية على انقاض السلطة الظاهرية (٨٩) .

كما ثارت قبائل ربيعة في اذربيجان بقيادة محمد بن الليث فأخمــد حركتها بغا الشرابي وقاد البطارقة في ارمينية حركة تمرد واسعة وقتلــوا الوالي العباسي فاشتعلت الحرب وقاد بغا الشرابي حملة كبيرة كـــــان نتيجتها مقتل الالاف قبل اخماد الحركة وفي اسفل صعيد مصر تحــرك البجة الاحباش وقتلوا المسلمين سنة ٢٣٧هـ فانقطع اهم مورد للدولة من معدن الذهب ذلك انهم كانوا يؤدون للدولة سنويا ٤٠٠ مثقال تبر غيــر مصفى . ولكن الحملة العباسية استطاعت اخضاع البجة والعودة الــى شروط العهد السابق مع المسلمين (٩٠) .

ولاية العهد :

ان عهد المتوكل والعديد من اجراءاته تعيد الى الاذهان عهد الرشيد واجراءاته وكان المتوكل لم ينتفع بتجربة الرشيد المريرة ولم يتعظ باخطائه التي أدت الى الحرب الاهلية بين الامين والمأمون .

فقد قسم المتوكل الخلافة بين ابنــائه الثلاثــة ٢٣٥هـ ــ ٨٥٠م (٩١)

وهم المنتصر والمؤيد والمعتز وعقد لكل منهم لواءين الابيض لـواء العمل والاسود لواء العهد . وكان المنتصر اكبر اولاده وعمره ١٣ سنة . وقـد عينه المتوكل على افريقيا والمغرب والثغور الشاميـــة والجزية والجزيرة والسواد والحرمين والجبال والسند والاهواز وغير ذلـــك . اما المعتز فله خراسان وفارس اما المؤيد فله جنـد دمشـــــق وحمص والاردن وفلسطين(٩٢) .

وحين بدأ المتوكل ينحرف عن المنتصر لميوله وآرائه اعطـى ابنـه المعتز امتيازات جديدة منها الاشراف على بيت المال وعلـى دور الضرب حيث ضرب اسمه على الدراهم . لقد كرر المتوكل اخطاء الرشيد فكانت النتيجة وبالا عليه لان المنتصـــر كما سنرى انحرف عنه وتآمر ضـده واشترك في قتله .

اغتيـال المتوكـل :

تعتبر الازمة بين الخليفة والقادة العسكريين سببا رئيسيا في اغتيال المتوكل . لقد بدأت الازمة بسقوط ايتـــاخ وظهور البيروقراطيـــة المدنية على الصعيد السياسي تحت زعامة الوزير عبـــد الله بن يحيـى والفتح بن خاقان . ثم تطورت الاحداث التي صعـــدت الازمة حتـى انفجرت حين بدأ المتوكل يتخذ اجراءات متتاليـــة لاستئصـــال الترك واستبعادهم فصادر ضياع وصيف . وانتهز الاتراك الفجوة الكبيرة بين الخليفة وابنه المنتصر فتحالفوا مع المنتصر ووضعوا نهاية مؤلمة للخليفة .

ولذلك فاننا نميز كتلتين واضحتين على مسرح الاحداث :

الاولى تتألف من الفتح بن خاقان وعبيد الله بن يحيى والامير المعتز واتباعهم .

والثانية تتألف من المنتصر والقادة ووصيف وبغا واتامش واتباعهم كما وانه كان هناك مسألتين اساسيتين :

الاولى من سينتصر في الصراع على السلطة والنفوذ اهل القلم المدنيون ام اهل السيف من قادة الجيش .

والثانية هل سينجح المعتز على الحصول على ولاية العهد الاولى بدلا من اخيه المنتصر وقد جمعت المصالح بين وصيف والمنتصر ولذلك وحدوا جهودهم ضد المتوكل . وقد تبنى الترك وجهة نظر وصيف بالدرجة الاولى ولم تكن تهمهم مشكلة ولاية العهد او مصير المنتصر .

وكان بغا الشرابي العقل المدبر للمؤامرة حيث أعد القتلة ودبر خطة الاغتيال في مجلس الشراب . ورغم ان المنتصر كان الى جانب المتآمرين الا انه لم يشترك في اعداد الخطة والمعروف ان المتوكل اسرف في اهانة ابنه وخلعه من ولاية العهد فاحتمى المنتصر بالقادة لاسباب شخصية بحتة .

ولابد ان نشير الى ان الجند لم يكن لهم يد في المؤامرة بل انهم علموا بها بعد وقوعها وانما حاكها ونفذها حفنة من القادة العسكريين بالتعاون مع بعض المدنيين في البلاط مثل احمد بن خصيب الذي قرأ اعلانا على الناس بان المتوكل قتل في البلاط على يد الفتح بن خاقان وان امير المؤمنين المنتصر قتل الفتح بن خاقان . والمعروف ان الوزير عبيد الله بن يحيى كان حاضرا ولكنه لم يجرؤ على الكلام بل بايع الخليفة الجديد توا .

على ان الجند المغاربة لم يقتنعوا بالتصريح الرسمي وكادت ان تبدأ اضطرابات جديدة لولا ان تمكن المتآمرون من قتل مجموعة صغيرة منهم فهدأت الحالة من جديد .

وقد شعر القادة العسكريين بعد مقتل المتوكل بالاطمئنان الحقيقي فلم يبق احد يهدد مصالحهم ويقلص نفوذهم ولم يكن باستطاعة عبيدالله ابن يحيى ان ينظم مقاومة عسكرية مضادة او يجابه هؤلاء القادة ، ثم ان الرؤساء المدنيين بالامكان اصطناعهم كماحدث بالنسبة لأحمد بن الخصيب

لقد شعر المتوكل بتآمر الاتراك عليه ولذلك اكثر من احاطة نفسه بالخدم والحاشية ولكن لم يكن الى جانبه شخص عسكري كفؤ يتمكن من حمايته من القادة الترك وقد فشل بن خاقان والوزير بن يحيى في اتخاذ اجراءات صارمة للحفاظ على أمن الخليفة وسلامته وفي ليلة الاربعاء ٤ شوال ٢٤٨هـ قتل المتوكل في مدينة الجعفرية وكان في حالة سكر شديد بعد انفضاض مجلس شرابه وقتل معه نديمه الفتح بن خاقان وهو يدافع عنه .

نظرة تحليلية :

ان سياسة الخليفة المتوكل كانت نتيجة حتمية لعاملين مهمين :

الاول : ظهور مذهب (اهل السنة والجماعة) الذي تطور عن اهل الحديث ومحاولته اثبات مكانته بين القوى المنافسة له .

والثاني : عكس مخاوف الخليفة ومحاولته الحفاظ على الخلافة العباسية ضد الاحزاب والتكتلات المعادية لها .

لقد مال الخلفاء العباسيون مثل المتوكل اما على اصحاب الحديث

والفقهاء او على (المعتزلة) وقد فشلت محاولة المأمون للتوفيق الديني ـ السياسي ، وخرج اهل السنة والجماعة وعلى رأسهم احمد بن حنبل من المحنة وهم اكثر قوة من ذي قبل وكان على المتوكل ان يعترف بالامر الواقع وان يجري الاستناد على مذهب (اهل السنة) كقاعدة لسلطته السياسية ضد القادة الترك والعلويين .

لقد انكشف تآمر الترك على الخليفة في محاولة ايتاخ في سنة ٢٣٤ ـ ٨٤٨م اغتيال الخليفة وكانت الحادثة بداية التناحر بينه وبين الاتراك حيث اصبح الاتراك في صف المعارضة للمتوكل . ثم جاء العداء بين الخليفة وابنه وولي عهده والمنتصر بمثابة حلقة الوصل بين الاتراك والعلويين الذين اتخذوا من الامير المنتصر رمزا لوحدة جبهة المعارضة للخليفة .

وهكذا فان سياسة المتوكل الدينية كانت نتيجة طبيعية للظروف السياسية التي كان عليه ان يعيش في خضمها ونحن نعتقد بان المستشرق ميور بالغ حين صوره في صورة الخليفة الظالم المتزمت ذي الافق الضيق . لقد كان الخليفة المتوكل ابن بيئة وكانت سياسته محاولة جريئة لا تخلو من اخطاء لانقاذ الخلافة العباسية من أزمتها ولا بأس هنا ان ننهي كلامنا عن المتوكل وعهده بايراد وجهة نظر اليعقوبي (٩٥) في ذلك العهد :

« ثم كان جعفر المتوكل بن المعتصم فأبطل ما كان يقول به الواثق واظهر القول بالسنة والجماعة واطلق من كان في المجلس من حبس بسبب عدم القول بخلق القرآن ونهى عن الجدل ، وامر كل من اطلقه من المحدثين ان يتحدثوا فترك الناس تلك المقالة وانكرها من كان يقول بها وارتفع الجدل والمناظرة ...

وكانت ايامه حسنة ناظرة كثيرة الخير ، على انه اول خليفة اظهر العبث واطلق في مجلسه الهزل والمضاحك واشياء تركنا ذكرها ذاعت في الناس واستعملوها وجروا فيها .

وكان الفتح بن خاقان اغلب الناس عليه واشدهم تقدما عنده ولم يكن ممن يرجى فضله ولا يخاف مكروهه . وكان عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزيره وكان طالبا للسلامة .. وكان يعتدي عليه بقول لا حقيقة له فكان احمد بن اسرائيل يقول تعلمنا منه الكذب » .





حواشي المقدمة

١ ـ اليعقوبي ، مشاكلة الناس لزمانهم ، ص ٥٧ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٥٨ .

٣ ـ هارون الرشيد ، (دائرة المعارف الاسلامية) بقلم الدكتور فاروق‌عمر .

٤ ـ الطبري ، تاريخ ، ج ١٠ ، ص ٥٠ كذلك الجهشيارى ، ص ١٧٧ .

٥ ـ الطبري ، المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص

٦ ـ الجهشياري ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢٠٤ .

٧ ـ المقريزي ، شذور ، ص ١١ ـ ١٢ .

٨ ـ بارتولد ، دراسات في تاريخ فلسطين في العصور الوسطى مترجم . بغداد ١٩٧٣ ص ٨١ .

٩ ـ الجهشياري ، ص ١٧٧ . الطبري ، ج ١٠ ص ٥٠ .

١٠ ـ بارتولد (البرامكة) ، دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة القديمة .

١١ ـ الجهشياري ، ص ٢٦٥ .

١٢ ـ ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ص ٦٥ .

١٣ ـ الطبري ، ج ١٠ ص ٧٢ .

١٤ ـ الطبري ، ج ١٠ ص ١١٣ . الدوري ، العصر العباسي الاول،ص١٣٣.

حواشي البحث

١ — F. Omar , Harun al - Rashid , *E. I.*

٢ — الطبري ، ج ١٠ ، ص ١١٣ .

٣ — ابن الطقطقي ، الفخري ، ص ١٤٣ .

٤ — الجهشياري ، ص ١٧٧ .

٥ — الجهشياري ، ص ٢٠٨ ، الطبري ج ١٠ ، ص ٦٠ — ٦٦ .

٦ — اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٩٤ .

٧ — المصدر السابق ، طبعة القاهرة ، ج ٣ ، ص١٤٣—١٤٤ . الخزرجي ، الكفاية والاعلام ، مخطوطة المتحف البريطاني ورقة ١٨ أ .

٨ — الجهشياري ، ص ٢٢٨ . الطبري ، ج ١٠ ، ص ٩٥ .

٩ — نفس المصدر السابق .

١٠ — الطبري ج ١٠ ، ص ١٠١ فيما بعد .

١١ — ابن اكثم الكوفي ، مخطوطة الفتوح ، ورقة ٢٤٨ . راجع كذلك :
Movsés Kalan Kat Vats , The history of the Cau Casiaus ...
pp. 190 .
Vasmer , Chronologie .. , Leningrad 1931 , pp. 140 PF.

١٢ — ابن اكثم الكوفي ، الفتوح ، مخطوط ، ورقة ٢٤٩ . راجع ايضا :
Dunlop , The history of the Tewish Khazars , 1941 .

١٣ ـ راجع : الاكاديمية البولونية في روما ، شباط ١٩٥٨ :
Lewicki , Les Ibadites en Tunisie ...

١٤ ـ راجع مقالة (البرامكة) للدكتور فاروق عمر في دائرة المعارف البريطانية ، الطبعة الجديدة ١٩٧٥ .

١٥ ـ الجهشياري ، ص ١٧٧ . ابن خلكان ، وفيات ، ج ٢ ، ص ٤٤٣ .

١٦ ـ الطبري ، ج ١٠ ، ص ٥٠ .

١٧ ـ الجهشياري ، ص ١٨٩ .

١٨ ـ الاصفهاني ، الاغاني ، ج ٤ ص ٣٩ . ج ٥ ، ص ١١٨ .

١٩ ـ الفخري ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

٢٠ ـ الجهشياري ، ص ٢٥٤ .

٢١ ـ ابن خلدون ، المقدمة ج ١ ، ص ١٥ .

٢٢ ـ البداية والنهاية ، ج ١٠ ، ص ١٨٩ .

٢٣ ـ راجع جاسم الكلكاوي، البرامكة والعلويون، كربلاء ١٩٦٥. عبدالله الفياض : تاريخ البرامكة . بغداد ١٩٤٨ . تارتولد . E. I

٢٤ ـ الصدوق ، عيون اخبار الرضا ، ص ٢٤٣ . العاملي ، المجالس السنية ، ج ٥ ، ص ٣٤١ .

٢٥ ـ الطبري ، ١٠ ، ص ٨ . المعارف ، ص ١٦٧ . ابن النديم ، الفهرست ص ٤٧٣ .

٢٦ ـ ابن خلكان ، وفيات ، ج ٢ ، ص ١٥٥ .

٢٧ ـ الدوري ، العصر العباسي الاول ، ص ١٦٨ فما بعد . حسن ، تاريخ الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٦٤ . الجومرد ، هارون الرشيد ، ج ٢ ص ٤٦٠ فما بعد . عبد المنعم ماجد ، اضواء على البرامكة ، الموسم الثقافي ١٩٧٣ .

٢٨ ـ المقدمة ، ج ١ ، ص ١٥ .

٢٩ ــ الجهشياري ، ص ٢٤٥ ــ ٢٤٦ .

٣٠ ــ المصدر السابق ، ص ٢٤٢ .

٣١ ــ انظر الرفاعي ، عصر المأمون ، ج ١ ، ص ١٨٥ .

٣٢ ــ الجاحظ ، البيان ، ج ١ ، ص ١٩٠ ، ١٩٥ .

٣٣ ــ ابن كثير ، البداية ، ج ١٠ ، ص ٢١٥ . المرتضى ، المنية والامل ، ص ٣١ .

٣٤ ــ الاغاني ، ج ١١ ، ص ٨ ــ ٩ . المسعودي ، مروج ، ج ٦ ، ص ٢٧٢ ابن النديم ، الفهرست ، ص ١٧٥ . ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ص ٥٧ ويشير البيروني صراحة الى ان اعداد يحيى البرمكي تكلموا عليه حين اراد ان يؤخر موعد جباية الحاصل بتأخير النوروز وقالوا بتعصب للمجوسية فاضرب عن ذلك (الاثار الباقية ، ص ٣٢ فما بعد) .

٣٥ ــ المقدمة ، ص ١٦ .

٣٦ ــ اليعقوبي ، ج ٣ ، ص ١٤٠ . الطبري ، ج ١٠ ، ص ٥٣ . ويظهران كتلة بني هاشم كانت في غالبيتها تؤيد الامين (الاربلي ، خلاصة الذهب المسبوك ، ص ٨٧) .

٣٧ ــ الطبري ، ج ١٠ ، ص ٧٣ .

٣٨ ــ المصدر السابق ، ص ٥٣ .

٣٩ ــ المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ (طبعة القاهرة ١٩٦٤) .

٤٠ ــ الطبري ، ج ١٠ ، ص ٧٦ ــ ٧٧ .

٤١ ــ عن هذه الاجراءات راجع : صدقي حمدي ، النزاع بين الامين والمأمون ، اطروحة ماجستير (لندن) .

A. Chejne , Successon to the vule ... Lahore , 1960

٤٢ ــ الطبري ، ج ١٠ ، ص ١٢٥ فما بعد . الدينوري ، ص ٢٩٠ــ٢٩١ .

٤٣ ــ ابن الاثير ، الكامل ج ٦ ص ٩٢ .

٤٤ ــ اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٣ ، ص ١٦٧ ــ ١٦٨ .

٤٥ ــ المسعودي ، التنبيه ، ص ٣٠٤ .

٤٦ ــ الجهشياري ، ص ٣٠٤ .

٤٧ ــ المصدر السابق ، ص ٣١٦ .

٤٨ ــ راجع مقالتي عن نصر العقيلي (ثائر من أجل العرب) مجلة العرب ٧ ، ١٩٧١ .

٤٩ ــ ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٦٢ .

٥٠ ــ الدكتور عرفان عبد الحميد، دراسات في الفرق والعقائد الاسلامية ، بغداد ١٩٦٧ ، ص ٨٣ فما بعد .

٥١ ــ نلينو ، بحوث في المعتزلة ، ص ١٧٩ . دائـرة المعارف الاسلامية (المعتزلة) . أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ٢٩٠ فما بعد . كذلك
J. Obermann , political theology ... , M. Watt , the political attitudes of the Mùtazila ... , pp. 38 - 51 .

٥٢ ــ الاشعري ، مقالات الاسلاميين ، ص ٣١ .

٥٣ ــ عن الاعتزال ، راجع زهدي جار الله ، المعتزلة ، القاهرة ١٩٤٧
علي الفزالي ، تاريخ الفرق الاسلامية
البير نادر ، فلسفة المعتزلة ، الاسكندرية ١٩٥٠ . نلينو ، بحوث في المعتزلة ، مجلة الدراسات الشرقية ، م ٧ .

٥٤ ــ الطبري ، ج ١٠ ،ص ٢٤٣ .

٥٥ اليعقوبي التاريخ ، ج ٣ ، ص ١٩٧ . العيون والحدائق ، ص ١ .
الطبري ، ج ١٠ ، ص ٣٠٤ .

٥٦ ــ الطبري ، ج ١٠ ، ص ٢١٤ ــ ٢١٥ .

٥٧ ــ الدوري ، العصر العباسي الاول ، ص ٢٢٨ .

٥٨ ــ فاروق عمر ، نظرة جديدة الى علاقة الترك بالخلافة ، مجلة المكتبة ١٩٦٨ .

٥٩ ــ راجع الطبري ، القسم الثالث ، ص ٤١٤ (الطبعة الاوروبية) .

٦٠ ــ الجاحظ ، مناقب الترك ، ص ٤٣ .

٦١ ــ اليعقوبي ، البلدان ، ص ٢٣ .

٦٢ ــ الاربلي ، خلاصة الذهب ، ص ١٦٢ .

٦٣ ـ الطبري ، ج ١٠ ، ص ٣١١ .

٦٤ ـ المسعودي مروج ، ج ٤ ، ص ٩ . اليعقوبي ، ص ٢٤ .

٦٥ ـ العيون والحدائق ، ص ٥ . الفخري ، ص ٢١٠ .

٦٦ ـ راجع الطبري ، القسم الثالث ، ص ٨٣١ .

٦٧ ـ الطبري ، القسم الثالث ، ص ٨٤٢ ، ٨٤٦ ، ٩٩٨ .

٦٨ ـ الجاحظ ، مناقب الترك ، ص ١٦ ، ١٣ ـ ١٥ .

٦٩ ـ الطبري ، القسم الثالث ، ص ٨٢٩ (الطبعة الاوروبية) .

٧٠ ـ الطبري ، ج ١٠ ، ص ٣١١ (المطبعة الحسينية) .

٧١ ـ اليعقوبي ، البلدان ، ص ٢٤ فما بعد .

٧٢ ـ نفس المصدر السابق .

٧٣ ـ المسعودي ، التنبيه ، ص ٣٠٧ .

٧٤ ـ البلاذري ، فتوح ، ص ٣٨٣ . ابن خلدون ، العبر .

٧٥ ـ المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٣٠٨ .

٧٦ ـ المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١٩ .

٧٧ ـ اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٣ ، ص ١٠٧ .

٧٨ ـ الطبري ، ج ١١ ، ص ١٨ .

٧٩ ـ ابن الاثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٨ .

٨٠ ـ . Miah The Reign of al - Muttawakkil , ph. D. London , 1965

٨١ ـ اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

٨٢ ـ الجهشياري ص ٣١٦ .

٨٣ ـ الطبري ، القسم الثالث ، ص ١٤٥٩ .

٨٤ ـ الطبري ، ج ١١ ، ص ٥٥ (المطبعة الحسينية) .

٨٥ ـ المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٧ ، ص ٢٥٨ .

٨٦ ـ الطبري ، القسم الثالث ، ص ١٤٥٢ .

٨٧ ـ الطبري ، ج ١١ ، ص ٣٣ ـ ٣٥ .

٨٨ ـ المصدر السابق ، ص ٥٦ ـ ٥٧ .

٨٩ ـ ابن الاثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٣٧ .

٩٠ ـ عن هـذه الاضطرابات راجـع : اليعقوبي ، ج ٣ ، ص ٢١٠ ، ص ٢٢٣ . الطبري ، ج ١١ ، ص ٥٢ .

٩١ ـ الطبري ، القسم الثالث ، ص ١٣٩٥ ـ ١٤٠٢ .

٩٢ ـ A. Chejne , Succession ... , pp. 127 F .

٩٣ ـ الطبري ، القسم الثالث ، ص ١٣٦٨ . المسعودي ، مروج ، ج ٧ ، ص ١٨٩ . اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ص ٥٩١ .

٩٤ ـ فاروق عمر ، نظرات في سياسة الخليفة المتوكل ، المجلة التاريخية العراقية ، العدد ٢ ، ١٩٧٣ .

٩٥ ـ اليعقوبي ، مشاكلة الناس لزمانهم ، ص ٦٢ ـ ٦٣ .





بيئات وعلماء
اسفرايين

بقلم الدكتور : محمد بدرى عبد الجليل
كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

تطالعنا المصادر التي هي مظنة البحث بأنماط من صور وروده متعددة فنحن واجدون :

اسفراين بكسر الهمزة [1] أو فتحها [2] وسكون السين المهملة ، وفتح الفاء والراء المهملة وكسر الياء المثناة من تحتها وبعدها نون .

اسفرايين بكسر الهمزة [3] أو فتحها [4] بزيادة ياء ساكنة .

---

١ ـ الفيروز آبادي : القاموس : ج ٤ ص ٢٣٦ « مادة سفن » ، ابن خلكان : وفيات الأعيان : الجزء الأول : ص ٥٦ ، ابن الاثير : اللباب في تهذيب الأنساب : الجزء الأول : ص ٤٣ ، القلقشندي : صبح الأعشى : الجزء ٢ ص ٣٩١ ، محمود مصطفى : اعجام الاعلام ص ٥ .

٢ ـ المقدسي : أحسن التقاسيم: ص ٣٠٠ س ٨ ، ص ٣١٨ س ١٦، ص ٣٢٣ س ٥ ، ص ٣٢٧ س ١

٣ ـ البستاني : دائرة المعارف : المجلد الثالث : ص ٥١٧

٤ ـ ياقوت الحموي : معجم البلدان : المجلد الأول : ص ٢٢٨ ، ابن حوقل : صورة الأرض : ص ٤٢٨ س ٦ ، ص ٤٣٣ س ١٧ ، ص ٤٥٣ س ١٣ ، ص ٤٥٦ س ٦ ، البستاني : دائرة المعارف : المجلد الثالث : ص ٥١٧ ، القزويني : آثار البلاد : ص ٢٩٥ س ١ ، ص ٣٠٤ س ٤ ، ص ٣٤١ س ٩ .

اسفرائن بكسر الهمزة وهمز المثناة [1] .

اسفرائين بكسر الهمزة وهمز المثناة بزيادة ياء ساكنة ، وفتح الهمزة [2] .

اسفراسي بكسر الهمزة [3] .

اسبرايين [4] .

اسبرائين [5] .

واذا كان مما يعين على ضبط الصورة التعرف على معناه ، فالاسم في أصله ليس عربيا وانما هو فارسي الوضع ، مكون من كلمتين هما : « سبر » [6] بالباء الفارسية ومعناها الترس و «آين» [7] وهي العادة ، ومن ثم نعرف ان اهلها قد اشتهروا بحمل التراس ، ويروى انه مأخوذ من « اسفنديار » [8] بانيها ثم أصابه التغيير لقدم العهد [9] .

---

١ ــ نصر الهوريني : القابوس الوسيط : « هامش للقاموش » : ج ٤ ص ٢٣٦ ، اسماعيل البغدادي هدية العارفين : عمود ٨ س ١

٢ ــ الثعالبي : يتيمة الدهر : ج ٤ ص ٤٣٧ ، السيوطي : مراصد الاطلاع : ص ٦٠ س ٣ ، اليعقوبي : البلدان : ص ٥٥ س ١١ ــ ورددها بمختلف الصور ياقوت : معجم الادباء : ج ٤ ص ٢١٠ ، ج ٦ ص ٢٤٢ ، ج ١٥ ص ٩٨ ، ٩٩ ، ج ١٨ ص ١٨٧

٣ ــ ابن الوردي : خريدة العجائب وفريدة الغرائب : ص ١٤٠

٤ ــ البلاذري : فهرست فتوح البلدان : القسم الثالث : ص ٦٨٦

٥ ــ البلاذري : فتوح البلدان : القسم الثالث ص ٥٠٠

٦ ــ خطاب الدكتور محمد جواد مشكور .

٧ ــ ياقوت : معجم البلدان : المجلد الأول : ص ٢٢٨ ينقلها « اسير »

٨ ــ الفيروزآبادي ، القاموس : الجزء الاول ، ص ١٨٥ .

٩ ــ ياقوت الحموي : معجم البلدان المجلد الاول ٢٢٨ .

ومهما يكن من امر تعدد هذي الصور فانها مخالفة لما جرى عليه العهد في البناء العربي ، ولذا فانه يراعي في الاختيار ـ وهو لنا حق ـ ما كان له الفهم اكثر [1] ، ومن ثم فاذا كان وضع الاسم « سبر » و «آين» والباء الفارسية اذا ما دخلت العربية قلبت فاء [2] فتصبح الكلمة «سفر» + «آين» وبزيادة همزة الوصل تيسيرا للنطق يصير الاسم «اسفرايين» بكسر الاول وسكون السين المهملة وفتح الثالث والرابع فساكنة ، فكسر المثناة تليها ياء ساكنة فنون .

ومما سميت به قديما «مهرجان» وذلك لخضرتها وتضرتها [3] ويروى أن الذي أطلقه عليها «قباذ» والد كسرى [4] ، فالمهرجان أحد اعياد الفرس وهو اطيب اوقات الفصول [5] ومعناه فرح النفس [6] ، فكأن في هذه التسمية الدلالة على ما جبتها الطبيعة ، ويعقب ، الحموي [7] بان مهرجان قرية من اعمالها ، بينما يعدها الاصطخري [8] من مدن نيسابور .

---

١ ـ السيوطي : المزهر : الجزء الأول : ص ٢٩٢ س ١٣
٢ ـ المصدر السابق : ص ٢٧٢ س ٦ ، ابن فارس : الصاحبي : ص ٢٤ ، ٢٥
٣ ـ ياقوت الحموي : معجم البلدان : المجلد الاول : ص ٢٢٨
٤ ـ المصدر السابق : ص ٦٩٩ س ٢٢ ، القلقشندي : صبح الاعشى: ج ٤ ص ٣٩١ ، ونسبها لكسرى نفسه ، الفيروزآبادي : القاموس : ج ١ ، ص ٣٧٠ س ١٥
٥ ـ القلقشندي : صبح الأعشى : ج ٤ ص ٣٩١
٦ ـ ياقوت الحموي : معجم البلدان : المجلد الأول : ص ٦٩٩
٧ ـ ياقوت الحموي : معجم البلدان : المجلد الأول : ص ٢٢٨ ، ٦٩٨ س ٢٢
٨ ـ الاصطخري : مسالك الممالك : ص ٢٥٥

وأيا ما كان الامر فانها مما به عرفت .

واذا كنا قد فرغنا من ضبط الاسم وكشفه ، فعلينا ضبط الموقع .

الجغرافية :

لقد تضافرت روايات مابين يدي من مصدر محددة موقعها بانه في نواحي نيسابور من خراسان ، وتقع شمالي شرق خراسان ، وجنوبي أترك [١] وهي آخر عمل نيسابور على مسيرة خمس مراحل منها [٢] وبالتحقيق خمسة أيام [٣] ..

وبينما يعدها البلاذري بايران نجد القاموس الاسلامي يعدها بافغانستان ومهما يكن من أمر تلك المغايرة التي يقتضيها تداول الايام فبالاتصال وضح انها اليوم بالقسم التاسع من اقسام ايران [٤] .

وبالتحقيق فانها تقع على السفح الجنوبي من جبال « ألاداغ » وحدها الشمالي «حومة بجنورد» وقرية «شوفان» ، وحدها الجنوبي «جوين» وحدها الشرقي «صفي آباد» وحدها الغربي «قرية سنخات» [٥]

ومما يعين في الدلالة أن هناك في شمالها تقع قلعة زر أي الذهب [٦] وفي هذه التسمية الدلالة على ما كان بها من تمتع بما أهل البيئة لما سنعرض له .

---

١ ـ هيوار : مادة اسفرايين: دائرة المعارف الاسلامية: ج ٢ ص ١٢١

٢ ـ ابن حوقل : صورة الارض : ص ٤٥٣ س ١٣ ، المقدسي: احسن التقاسيم : ص ٣٥٣ س ١٢ .

٣ ـ مقارنة بين المصدرين السابقين .

٤ ـ سفارة ايران بالقاهرة .

٥ ـ الدكتور محمد جواد مشكور .

٦ ـ المستوفي : زبدة التاريخ ص ١٨٦ ، هيوار : ج ٢ ص ١٢١ .

ولقد انماز جو هذي البيئة بما حمل اهلها على العمل، وبما عبر عنه الفندروجي شعرا :

سقي الله في أرض اسفرايين عصبتي فما انتهت العلياء الا اليهم
وجربت كل الناس بعد فراقهم فما زدت الا فرط ضن عليهم

وهو الذي عاش فيها فانعكست آثارها عليه ، فاذا ما ارتحل عنها جرى بما فيها لسانه ، واذا كان هذا حال من أتى اليها ووفد عليها ، فما بالك بمن نشأ بين احضانها ، فلقد سلفت الاشارة لما يدل عليه اطلاق المهرجان عليها، وفي رواية المقدسي [1] بانها بلد الاعناب الجيدة، ومزارع الارزاز الكثيرة ، وانها عامرة نفيسة ليس في مدائن الرساتيق اجل منها ، ذات اسواق حسنة وخصائص عدة — ورواية اليعقوبي [2] بان خراجها يبلغ اربعة الف الف درهم ، لدلالة على ما به انمازت وما لها من سعة وبسطة .

ومما هو بسبب من هذا معيننا على ارسال هذا القول ما يذكر الحموي [3] من ان لها اربعمائة واحدى وخمسين قرية من اعمالها ، وبالرغم من ضخامة هذا العدد الا انه لم ينص على شيء من ذلك سوى مهرجان [4] اللهم الا ما هو ليس في موضعه الا ان الفيروزابادي — وهو المعني بالبلدان — يسهم في تبيان شيء من ذا فيذكر لنا : التوث — زرد — جوش — حوش — خوش — الجوسق — بزانة [5] .

١ — المقدسي : احسن التقاسيم ص ٣١٨ س ١٦ .
٢ — التعقيد ٢٠ : البلدان : ص ٥٥ س ١٤
٣ — ياقوت الحموي : معجم البلدان : المجلد الاول : ص ٢٢٨
٤ — الاصطخري : مسالك الممالك : ص ٢٥٥ ، السيوطي : مراصد الاطلاع : ص ٦٠ س ٥
٥ — الفيروز ابادي : القاموس المحيط : الجزء الأول : ص ١٦٨ س ٢٤ ، ص ١٦٩ س ١ ، ص ٣٠٨ س ١٣ ، الجزء الثاني : ص ٢٧٦ س ١٢، ص ٢٨٠ س ٢٣ ، ٢٤ ، ص ٢٨٣ س ٢٤ ، الجزء الثالث : ص ٢٢٥ س ٦ ، الجزء الرابع : ص ٢٠٣ س ١٨ .

وهو شيء بالنسبة لما نص عليه عددا جد قليل نسجله بعميق الاسف ـ اذ ليس في مكنتنا التوصل اليه ـ وهو المعول عليه في ارسال القول باتساع الرقعة ، وكثرة الاعمال التي لها تبع والتي كانت سببا في الوان من المناشط الخارجية لها اعتباراتها المتعددة .

التاريخ :

دخل الاسلام هذه البيئة ايام عثمان بن عفان على يد الفاتح العربي عبد الله بن عامر [١] سنة احدى وثلاثين من الهجرة [٢] على ارجح رأي، ويردد ابن الاثير ذكرها في مواطن من كتابه متفرقة [٣] تشير الى انها أضحت مسرحا لما تعاور الحياة الاسلامية في مهدها من صدام مذهبي كانت له آثاره المحسة ، وعلى عدم استقرار ظلت هذي البيئة تعاني منه وتصيب غير مرة [٤] الى أن انتهى امرها بالتخريب على يد المغول عام ١٠٠٦ من الهجرة [٥] .

وتنص الروايات على ان اسفرايين قد احتوت مسجدا كبيرا به وعاء من النحاس عظيم يبلغ محيطه اثنتي عشرة ذراعا [٦] كما انه توجد بشمالها ـ كما أسلفنا ـ قلعة زر التي تعني قلعة الذهب .

---

١ ـ ابن حجر : تهذيب التهذيب : ج ٥ ص ٢٧٢ ، اليعقوبي : البلدان : ص ٥٥ س ١٢ .

٢ ـ ابن الأثير : الكامل : الجزء الثالث : ص ٥١ ، زيني دحلان : الفتوحات الاسلامية : ج ١ ص ١٥٥ س ٣ ، ابن خلدون : المقدمة : الجزء الثاني من بقية الجزء الثاني : ص ١٣٢ ، اليعقوبي : البلدان : ص ٥٥ س ١٣ سنة ثلاثين .

٣ ـ ابن الاثير : الكامل : الجزء الحادي عشر : ص ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٣ س ٢١ ، ١٠٢ ، ١١٤ .

٤ ـ الخوري : آثار الادهار : ص ٢٥ ، ٢٦ .

٥ ـ هيوار : دائرة المعارف الاسلامية : الجزء الثاني : ص ١٢١ .

٦ ـ نفسه .

ونخرج منها بان اعمالا فنية كانت توجد بها ولعلها كثيرة لم يصل الى علمنا بها الا ما ذكر ، بالاضافة الى مايعنيه وجود المسجد من تناول الالوان من المعرفة .

العلمـاء :

وذكر شيء من الحديث عن علمائها من الضرورة بمكان فهو يكشف عن طابع الدرس فيها الذي هو لون من الوان تتيجة ما اعتنقته من مذهب عقدي كانت تنعكس آثاره على مناخ من الحياة معقـدة ، ويوضـح اسهامها ــ بما وهبها الله من امكانات حبتها بنيهـا ــ في ميادين من العلوم شتى لدرجة بلغت الى حد القول بانها « مخصوصـة باخراج الافراد » فيما يعرض له صاحب اليتيمة [1] ، ونحن نعرض لعلمائها تبعا للترتيب الزمني ما وسعنا ذلك وبالقدر الذي يخدم ما اخذنا به انفسنا .

١ ــ ابو عوانة : يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم بن يزيد الاسفراييني ، صاحب الصحيح المسند (ط) المخرج على كتاب مسلم، وهو حافظ جوال ، محدث مكثر ، طاف الشام ومصـر والبصرة والكوفة ، والحجاز وواسطا والجزيرة واليمن وأصبهان وفارس والري .

ولقد سمع بمصر يونس بن عبد الاعلى وابـا ابراهيم المزني ، والربيع بن سليمان ومحمـدا وسعـدا ابني عبد الحكيم .

وسمع بالشام يزيد بن محمد بن عبد الصمد وغيره ..

---

١ ــ الثعالبي : يتيمة الدهر : الجزء الرابع : ص ٤٣٧ .

وبالعراق الحسن الزعفراني وعمر بن شبة ... وبخراسان محمد بن يحيى الذهلي ، ومسلم بن الحجاج ، وأحمد بن سعيد الدارمي ... وبالموصل علي بن حرب الطائي .

وهذا السماع توثيق له دلالته على مكانة الرجل ، وما يصدر عنه ، ويعد أول من ادخل المذهب الشافعي الى هذي البيئة [1] وهو أمر له اهميته في الحديث عن مذهب البيئة ، وروى عنه خلق كثير منهم سليمان الطبراني ، وابو احمد بن عدي ، وحج خمس مرات ، وكان من اهل الاجتهاد والطلب وكانت وفاته باسفرايين عام ٣١٦ من الهجرة [2]

٢ ـ ابو بكر : عبد الله بن محمد بن مسلم الاسفراييني ويروي صاحب قلادة النحر انه كان حافظا له تصانيف . وكانت وفاته عام ٣١٨ من الهجرة [3] .

---

١ ـ ابن خلكان : وفيات الاعيان : الجزء الخامس : ص ٤٣٦ والذي بعدها مع ملاحظة مصرية اثر .

٢ ـ ياقوت الحموي : معجم البلدان : المجلد الاول : ص ٢٢٨ وكرر ذكره مرتين ، ابن الاثير : اللباب في تهذيب الانساب : الجزء الاول : ص ٤٣ ، اسماعيل البغدادي : هدية العارفين : المجلد الثاني : عمود ٥٤٤ س ٢١ ، احمد عطيةالله : القاموس الاسلامي : المجلد الاول : ص ٩٨ ، الزركلي : الاعلام : الجزء التاسع : ص ٢٥٦ ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى : الجزء الثاني : ص ٩٦ س ١ وترجم له عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين : الجزء الثالث عشر : ص ٢٤٢ .

٣ ـ اسماعيل البغدادي : هدية العارفين : عمود ٤٤٤ س ٢٨ ، عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين : ج ٦ ص ١٤١ .

٣ ــ ابو عمـــرو : احمد بن عبد العزيز بن احمد بن عبـــدك ، ورد بغداد حاجا عام ٣٢٢ وحدث بها عن عبد الله بن محمد العطار ، ومحمد بن علي بن ابراهيم المروزي • وروى عنه يوسف بن عمر القواس ، وابن الثلاج ، ولقد حدث الحسن بن ابي طالب ، حـــدث يوسف بن عمر حدث ابو عمرو احمد بن عبد العزيز بن احمـــد بن عبدك الاسفراييني ــ املاء ــ حـــدث عبد الله بن محمد المروزي العطار اخبر بشر بن يحيى اخبر ابو عصمة عن يحيى بن عبيد الله عن ابيه عن ابي هريرة قال : قـال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا تطع فينـا تاجرنا ، ولا مسافرنا ، فان تاجرنا يحـــب الغلاء ، ومسافرنا يكره المطر » (١) •

٤ ــ ابو بكـــر : محمد بن شريك بن محمد الاسفراييني ••• سمـع الحسين بن الفضل البجلي ، وطبقته بنيسابور ، وورد بغداد فكتب بها عن الحارث بن ابي اسامـة ونحوه ، وخرج الى البصرة ، فسمع من ابراهيم بن فهد الساجي واقرانه ، وحج فكتب بمكة عن محمد بن علي بن زيد الصائغ ، وكان يكثر المقام بنيسابور ، وقـــدم بغداد بأخرة ، وحدث بها فروى عنه من اهلها ابو الحسين بن البواب المقرىء • ويروي صاحب تاريخ بغـــداد له حديثا : « من استخار واستشار فقد قضي ما عليـه »

---

١ ــ البغدادي : تاريخ بغداد : المجلد الرابع : رقم ١٩٩٣ ص ٢٥٦ س ١٦ •

وكانت وفاته بنيسابور وحمل الى اسفرايين ، فدفن بها في المحرم من ٣٢٦هـ [١] .

٥ ــ ابو علي : محمد بن علي بن الحسين الواعظ المعروف بابن السقا ، حافظ جوال ، عرف بكثرة الحديث، والتصنيف للشيوخ والابواب ، وصحبة الصالحين من أئمة الصوفية في اقطار الارض ، سمع بخراسان والعراق والجزيرة والشام وبمصر وبواسط والكوفة والبصرة ، وكتب بالري وقزوين وجرجان وطبرستان . وكانت وفاته باسفرايين في ذي القعدة من عام ٣٧٢ من الهجرة [٢] .

٦ ــ ابو حامد : احمد بن ابي طاهر محمد بن احمد ــ بلغ في الفقه الشافعي درجة قال الناس عنها «لو رآه الشافعي لفرح به» وكان يحضر الى درسه سبعمائة فقيه . وقدم بغداد ، وانتهت اليه فيما يقال رياسة الدنيا والدين بها ، ويروي صاحب تاريخ بغداد عنه حديثا ينتهي سندا الى عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم اذ يقول : « لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به ». له تواليف منها :

١ ــ تعاليق على مختصر المزني في الفروع .

---

١ ــ البغدادي : تاريخ بغداد : المجلد الخامس : رقم ٢٨٧٧، ص ٣٥٥ س ٧ .

٢ ــ ياقوت الحموي : معجم البلدان : المجلد الاول : ص ٢٢٨ .

٢ ــ التعليقة الكبرى كذا نحو خمسين مجلدا .

ذكر فيها مذاهب العلماء ، وبسط أدلتهـا والجواب عنها .

٣ ــ كتاب البستان في النوادر .

٤ ــ اصول الفقه .

٥ ــ الرونق في الفقه .

وكانت هذه الصفات مما دفع صاحب اليتيمة للقول بانه بلغ من الفقه والتدريس مبلغا تنثني به الخناصر ، وتثني عليه الافاضل [١] وتوفي عام ٤٠٦ هـ [٢] .

٧ ــ ابو العباس : احمد بن الحسن الاسفراييني :

وهو مفسر ضرير له كتاب : « المصابيح في ذكر ما نزل من القرآن في أهل البيت عليهم السلام » وهو كتـاب كبير . وكانت وفاته عام ٤١٣ من الهجرة [٣] .

---

١ ــ الثعالبي : يتيمة الدهر : ج٤ ص ٤٣٨ .

٢ ــ ابن خلكان : وفيات الاعيان : ج ١ ص ٥٦ ، السبكي : طبقات الشافعية الكبـرى : ج ٢ : ص ١٧ ، ص١٠٤ ، ص١٠٧ ، ص ١٠٨ ، ص ١٣١ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان : المجلد الاول : ص ٢٢٨ ، اسماعيل البغدادي : هدية العارفين : عمود ٧١ س ٢٠ ، عمر رضـا كحالـة : معجم المؤلفين : ج ٢ ص ٦٥ ، احمـد عطية الله : القاموس الاسلامي : المجلد الاول : ص ٩٨ ، البغدادي : تاريخ بغداد : المجلـد الرابع : رقم ٢٢٣٩ ص ٣٦٨ وخالف في تاريخ وفاته اذ ذكر أنها عـام ٤١٠ من الهجرة .

٣ ــ عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين : ج١ ص ١٩٠ .

٨ ـ ابو اسحاق :ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن مهران ركن الدين:

فقيه شافعي ، متكلم أصولي ، يصفه السبكي بانـه من اساطين أهل السنة والجماعة ، وهو وصف له مكانتـه ودلالته فيما سنقرر من نتائج ... بنيت لـه المدرسة المشهورة بنيسابور ، له تواليف منها :

١ ـ ادب الجدل .

٢ ـ الجامع الحلي والخفي في أصول الدين والرد على الملحدين في خمس مجلدات .

٣ ـ العقيدة شرح فروع ابن الحداد .

٤ ـ معالم الاسلام .

٥ ـ نور العين في مشهد الحسين .

٦ ـ رسالة تنسب اليه .

وكانت وفاته بنيسابور يوم عاشوراء من عام ٤١٨ من الهجرة [١] .

٩ ـ ابو الحسن علي بن احمد السهيلي الاسفراييني ،

فقيه متكلم ، جدلي محدث ، حدث بالجامع الاموي في دمشق عام ٤٣١ من الهجرة ، ومن آثاره أدب الجدل ،

---

١ ـ القلقشندي : صبح الاعشى : ج ٢ ص ٣٩١ ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى : ج ٢ ص ١٣٣ ، ٢٨٩ ، ٣١٥ . اسماعيل البغدادي : هدية العارفين : المجلد الاول : ١٠٨ . وردد بعضا من آرائه السيوطي : المزهر : ج ١ ص ٢٠ س ٧ ، ص ٢١ س ٣ ، ص ٦٣ س ١٥ .

وكتاب في الرد على المعتزلة وبيان عجزهم [1] .

١٠ ــ ابو القاسم عبد الجبار بن علي الاسكاف المعروف بالاسفراييني ،

فقيه شافعي ، له مصنفات في الاصلين والجدل. وكانت وفاته عام ٤٥٢ من الهجرة [2] .

١١ ــ ابو المظفر شاهفور بن طاهر بن محمد الاسفراييني ،

ترجم له الكثير وهو امام أصولي ، فقيه شافعي مفسر ، وصنف في الاصول وسافر في طلب العلـم ، وحصل الكثير ، له من المصنفات :

١ ــ التبصير في الدين (ط)

٢ ــ تمييز الفرقة الناجية من فرق الهالكين .

٣ ــ تاج التراجم في تفسير القرآن للاعاجم .

وكانت وفاته عام ٤٧١ من الهجرة [3] .

١٢ ــ ابو يوسف يعقوب بن سليمان خازن كتب المدرسة النظامية . له تآليف :

---

١ ــ عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين : الجزء السابع : ص ١٧ .
٢ ــ اسماعيل البغدادي : هدية العارفين : عمود ٤٩١ س ٧ .
٣ ــ ترجم له في ذيل تاريخ نيسابور لعبد الغافر الفارسي ، ابن عساكر في « تبيين كذب المفترى في ما نسب الى الامام الاشعري »، وابن السبكي في الشافعية الكبرى ، وصاحب طبقات المفسرين الداودي ص٦ من كتاب التبصير : ترجمة محمد زاهد الكوثري . عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين : الجزء الرابع : ص ٣١٠ « شهفهور » ، الجزء الخامس : ص ٣٨ « شاهفور » .

١ ـ بدائع الاخبار وروائع الاشعار .

٢ ـ سير الخلافة .

٣ ـ شرائط الخلافة .

٤ ـ قلائد الحكم وفرائد الكلم من كلام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه .

٥ ـ محاسن الاداب .

٦ ـ المستظهري في الامامة شرائط الخلافة .

وكانت وفاته عام ٤٨٨ من الهجرة [١] .

١٣ ـ ابو الطيب احمد بن محمد بن حمدان .

وصفه القفطي بانه شيخ العربية في زمانه ، وامام اهل اللغة والنحو في أوانه .

كان بخراسان ، وربما روى الحديث . وكانت وفاته بعد عام ٤٠٠ من الهجرة [٢] .

١٤ ـ ابو الفتوح محمد بن الفضل بن محمد بن المعتمد المعروف بالمعتمد الواعظ .

شافعي صوفي ، صنف :

١ ـ بث الاسرار .

---

١ ـ اسماعيل البغدادي : هدية العارفين : المجلد الثاني : عمود ٥٤٥ س ٢١ ، الزركلي : الاعلام : الجزء التاسع : ص ٤٨٨ .
٢ ـ القفطي : انباه الرواة ، الجزء الاول : ص ٥٥٤ .

٢ ـ كشف الاسرار في التصوف .

٣ ـ نثار القلوب كذا .

وكانت وفاته عام ٥٣٨ من الهجرة [١] .

١٥ ـ سعد الدين بن محمد بن عمر بن محمد بن علي :

له تآليف :

١ ـ زبدة الاعمال وخلاصة الافعال في التاريخ .

٢ ـ مختصر تاريخ ابي الوليد الازرقي .

وكانت وفاته عام ٥٨١ من الهجرة [٢] .

١٦ ـ علاء الدين محمد بن احمد البهنسي وله تصانيف :

١ ـ شرح القصيدة الطنطرانية .

٢ ـ المآرب في شرح الاداب للسمرقندي .

وكانت وفاته عام ٧٤٩ من الهجرة [٣] .

١٧ ـ فخر الدين محمد بن علي النيسابوري لايعرف عنه سوى أنه صنف شرح الفصول الايلاقية في الطب . وكانت وفاته عام ٧٦٠ من الهجرة [٤]

---

١ ـ اسماعيل البغدادي : هدية العارفين : المجلد الثاني : عمود ٨٨ س ٢٨ ، ترجم له ابن السبكي طبقات الشافعية الكبرى ، القزويني : آثار البلاد : ص ٢٩٥ .

٢ ـ اسماعيل البغدادي : هدية العارفين : المجلد الثاني : عمود ١٠١ س ١١ .

٣ ـ اسماعيل البغدادي : هدية العارفين : المجلد الثاني عمود ٤٥٦ س ٨ .

٤ ـ المصدر السابق : عمود ١٦١ س ٢٣ .

١٨ ـ العصام ابراهيم بن محمد بن عرب شاه [1] الحنفي .

ولد باسفرايين ، واشتغل بعلوم اللغة ، وله من المؤلفات كثيرها ، وقد امكن البحث من تحقيق مجموعة منها :

١ ـ اطول: كتاب في علم البلاغة، وهو شرح للتلخيص وقد طبع في مجلد [2] .

٢ ـ شرح الرسالة الوضعية العضدية للايجي [3] .

٣ ـ شرح السمرقندية لأبي الليث السمرقندي [4] .

٤ ـ شرح فرائد الفوائد المعروفة برسالة الاستعارات لابي الليث السمرقندي [5] .

٥ ـ حاشية على شرح قطب الدين الرازي على الرسالة الشمسية في المنطق لنجم الدين القزويني [6] .

---

١ ـ هناك شارعان بمنطقة سيدى جابر بالاسكندرية أحدهما يحمل عنوان إبن عرب شاه ، والآخر ابن وصيا شاه ، والنظر في هذا يطرح افتراضين اما ان صاحبي هذين الاسمين قد ورد الاسكندرية وهذا ليدل على أن تأثيرا وتأثرا قد تم على نحو ما ، واما أن ذكرهما قد وصل الى الاسكندرية بسبب وفاة كلتا الحالتين دلالة على بعد صيتهما ومدى تأثيرهما الذي ربما تسنح له الفرصة بتحقيق شيء منه .

٢ ـ طبعة السيد أحمد كمال ـ ط تحت رقم ٣ ، ٤ بلاغة ، خ تحت رقم ٥٧٤٥ هـ بدار الكتب المصرية .

٣ ـ خ تحت رقم ٣٤٣٣ ج بدار الكتب المصرية .

٤ ـ خ تحت رقم ٤٨٥٨ بدار الكتب المصرية .

٥ ـ خ تحت رقم ٤٢٩٢ بدارالكتب المصرية .

٦ ـ خ تحت رقم ٤٠٧٠ و بدار الكتب المصرية .

٦ ـ حاشية على تفسير البيضـــاوي المسمى « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » [١] .

٧ ـ حاشية على الفوائد الضيائية للجامي على الكافية لابن الحاجب [٢] .

٨ ـ حواش على تهذيب المنطق لسعد الدين التفتازاني المتوفي عام ٧٩٢ من الهجرة [٣] .

٩ ـ رسالة على مبحث التلخيص : « وقد يقدم ليفيد تحضيض [٤] بالخبر الفعلي ، نحـــو « ما انا قلـت هذا » [٥] .

١٠ ـ رسالة في المنطق [٦] .

١١ ـ شرح الشمائل في حقوق افضـل الورى وأقوى الدلائل.

١٢ ـ حاشية على جزء النبأ .

١٣ ـ حاشية على شرح المواقف .

١٤ ـ حاشية على شرح عقائد النسفية .

---

١ ـ تحت رقم ٢٣٥١٩ ب + ٢١٢٠٠ ب بدار الكتب المصرية .
٢ ـ خ تحت رقم ٥٩٨١ هـ بدار الكتب المصرية .
٣ ـ خ تحت رقم ٤١٢٢ و بدار الكتب المصرية .
٤ ـ هكذا وردت ولعلها « تخصيصا » .
٥ ـ خ تحت رقم ٥٦٧٠ هـ بدار الكتب المصرية .
٦ ـ خ تحت رقم ٢١٨٤٤ ب بدار الكتب المصرية .

١٥ ــ حاشية على كليات المطالع .

١٦ ــ شرح تهذيب المنطق .

١٧ ــ شرح الشافية في الصرف .

١٨ ــ شرح الطوالع .

١٩ ــ شرح العوامل للجرجاني .

٢٠ ــ شرح القصارى .

٢١ ــ شرح الكافية عارض به الرضي .

٢٢ ــ مختصر في النحو .

٢٣ ــ شرح المختصر المذكور . [١]

وكانت وفاة هذا العالم الجليل في ٩٤٤ من الهجرة [٢].

١٩ ــ ابو الحسن محمد بن الحسين بن محمد .

شاعر عربي له ديوان شعر [٣] .

---

١ ــ هو وما قبله انفرد بذكرها اسماعيل البغدادي : هدية العارفين : المجلد الاول : عمود ٢٦ س ٢٥ ، ومع كثرة هذي الكتب التي آثرنا ايرادها لما فيها من دلالة واسهام ، الا أن هذا الرجل لم يحظ بمن يقف عليه او يفرد له بحثا وهو ــ كما هو باد من هذي المصنفات ــ موسوعة أقل ما يقال فيها أنها حرية بالنظر ، بالاضافة الى ما يعنيه البحث من كشف عن بيان قدر ما من الاتصال بين بيئتي اسفرايين والاسكندرية .

٢ ــ انظر عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين : ج ١ ص ١٠١ ، أحمد عطية الله : القاموس الاسلامي : المجلد الاول : ص ٩٨ ، ولم يتفق واحد منهم على تاريخ .

٣ ــ أحمد عطية الله : القاموس الاسلامي : المجلد الاول : ص ٩٨ عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين : ج ٩ ص ٢٥٦ .

٢٠ ـ تاج الدين محمد بن احمد الاسفراييني ،

ت ٦٨٤هـ اخرناه واعدين بافراد حديث عنه وهو نحوي كاد يضيع في ظلمات التاريخ .

اذن فهذه البيئة بيئة علم خرجت افذاذ العلماء ، اشتهروا على مر التاريخ بما لهم من ذيوع ذكر ، وتداول مصنف ، وحري ببيئة العلم الا تخرج سواهم ، بالاضافة الى أن منهم من تنقل ففاد وفاد ، والى ماتخلصنا اليه اشارات ابن الاثير من ان عناصر توافدت عليها ، وربما استقرت في ربوعها الامر الذي يؤكد طرفا منه صاحب البلدان (١) اذ يروي ان اهلها اخلاط من العرب والعجم ، فكان لذلك كله آثاره البعيدة في ثقافة البيئة العامة، ولم يكن ذلك الامتياز قصرا على العلم بل كان هناك من بلغ في الحياة السياسية أسبابا اشار الى طرف منهم صاحب اليتيمة (٢) .

وتصطبغ طبائع الدرس العامة عندهم بما برع في سائر العجم من ميل الى ما هو من الجدل والتعقيد والرواية بسبب ، وهو اكثر تفشيا مما هو متعلق بسائر الدرس الذي يحتاج الى اعمال العقل ، والحس المتطلب لعربي الفطرة .

وانحصر تفننهم في هذه الفنون ، فاهتداء الايرانيين الى استنباط المقاييس التي سموها بعلوم الحديث ، وفرغوا لها تدريسا وتدوينا ، وبها انتقل من دور الرواية الى دور الدراية لون من الوان التعقيد ، وما قام

---

١ ـ اليعقوبي : البلدان : ص ٥٥ .

٢ ـ الثعالبي : اليتيمة ج ٤ ص ٤٣٧ .

به الامام ابو حنيفة من ادخال الرأي والقياس في علم الفقه انما هي محاولة تقنين [1] .

وبالنظر في هذي المؤلفات التي خلفها علماء بيئة اسفرايين ، نجدها مزاجا من طبائع الدرس الشيعي والدرس السني ،، اذ ان دراسة المنطق وعلم الكلام الى جانب دراسة الفقه وعلم الاصول هي الدراسة الشيعية التقليدية التي تنمي ملكة الجدل ، وقوة الاستدلال ، والدراسة السنية تتبع طريقا آخر يقوم على دراسة الفقه والاصول والحديث والتفسير واللغة والادب [2] وان كان طابع الدرس السني ـ بهذا المفهوم ـ عليها اغلب ، وفيها اكثر شيوعا .

العقيدة :

وبالاحتكام الى المصادر تبدو امامنا روايتان :

الاولى : يرويها المقدسي اذ يذكر ان اسفرايين شفعوية . [3]

الاخرى : ينقلها هيوار اذ يذكر ان سكانها من الشيعة . [4]

وبما نوهنا من خصائص الدرسين وما بينهما من تغاير . وما افادت الروايات من ان المذهب الشافعي لم يدخل هذه البيئة قبل القرن الرابع من الهجرة ، نجد ان اسفرايين كانت اول امرها شيعية ، او انها اتخذت الشيعية ـ وجل العجم من الشيعة ـ موقفا سياسيا ، وكانت لها الشافعية

---

١ ـ يراجع محاضرات عن الشعر الفارسي والحضارة الاسلامية في ايران ص ٩٥ ـ ٩٦ .

٢ ـ الدكتور محمد محمد حسين : محاضرة الاسلام والحضارة الغربية : المحاضرة الثانية ص ٢٤ .

٣ ـ المقدسي : أحسن التقاسيم : ص ٣٢٣ س ٨ ـ ٩ .

٤ ـ دائرة المعارف الاسلامية : ج ٢ ص ١٢١ .

أصولا وفروعا ـ موقفا تعبديا ، واخذت تردد اصداء ذلك كله فيما وصل لنا من درس مزاجا يحظى فيه جانب الدرس السني ممثـلا في المذهب الشافعي بكبير نصيب .

ومؤلفاتهم دليل على ذلك ، فما كان منها ـ تظهر فيه الميول الشيعية ـ ليس فيها من شيء الا هذه الروح العامة ، فهي من حديث عن فضائل اهل البيت الى جمع لمأثورات الامام علي ، بل ان مؤلف « نور العين في مشهد الحسين » من وصف بانه من اساطين اهل السنة والجماعة ، ومن ثم لايروعنا احاديث عما يمت للخلافة بسبب من سير وشرائط .

ويؤكد هذا القول ـ الى جانب ما اسلفنا وهو في القضية أصيل أمران :

الامر الاول : ما يرويه المقدسي ـ وهو الجواب ـ من انه سأل يوما اهل ابيورد [1] انتم قوم على مذهب الشافعي رحمه الله ـ والامر لكم في بلادكم فلم لا تسلون الميت سلا ؟ ـ وكانوا يأخذونه من قبل القبلة عند الدفن .

قالوا : « ما كنا لنتابع الشيعة ، ونخالف المسلمين » .

فكأنهم يرون اتباع الشيعة ـ تعبديا ـ مخالفة للمسلمين ، فاذا كان هذا حالهم في الفروع ، فان رفض الاصول احرى في هذا المناط من الحكم .

---

١ ـ هي واسفرايين من اعمال نيسابور .

الامر الثاني : ما تنقله المصادر لنا من ان نيسابور ـ وهـي التي تتبعها اسفرايين ـ هي التي شيدت اول مدرسة في العـالم الاسلامي ، والتي بنيت للعالم ابي اسحاق الاسفراييني ٤١٨ هـ، وان هذه الحركـة نشأت في كنف الشافعية في القسم الشرقي من العالم الاسـلامي (١) ويعد هذا بمثابة رد فعل لمنهج الشيعة الذين اختطوا التعليم سبيلا لبث دعاواهم (٢) .

من هذا كله نخلص الى ان اسفرايين سادتها الشيعة روحـا عامـة للعجم جميعا وكان لها من الشافعية المذهب التعبدي ـ اصولا وفروعا.

الدكتور محمد بدري عبد الجليل
قسم اللغة العربية ـ كلية الاداب ـ
جامعة الاسكندرية



---

١ و ٢ ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان : الجزء الأول ص ٤ س ٣ ، حسين أمين : المدرسة المستنصرية : ص ٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٧ .

٣

الاسفراييني

نحوي كاد يضيع في ظلمات التاريخ

بقلم الدكتور محمد بدري عبد الجليل

كلية الاداب ـ جامعة الاسكندرية

من علماء بيئة اسفرايين محمد بن محمد بن احمد تاج الدين الذي توفي عام ٦٨٤ من الهجرة الموافقة ١٣٨٥ من الميلاد ، ولم تنص المصادر التي بين ايدينا على شيء من الحديث عنه بل نص صاحب البغية صراحة على انه لم يقف له على ترجمة [١] ولا يعرف عنه سوى انه صاحب اللباب [٢] .

واذا كان للبيئة العامة ـ التي لها عرضنا في الحديث السابق ـ شيء من أثر في صاحبنا فان هناك البيئة الخاصة التي هي اعمق أثرا

---

١ ـ السيوطي : بغية الوعاة : ص ٩٤ .

٢ ـ حاجي خليفة : كشف الظنون : الجزء الثاني : عمود ١٥٤٣ ، ١٥٤٤ ، طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة : الجزء الاول : ص ١٤٩ ، جرجي زيدان : تاريخ اداب اللغة العربية : الجزء الثالث : ص ١٤٧ ، اليسوعي : معجم المنجد : ص ٤٥٨ وذكر كارل بروكلمان : تاريخ الادب العربي : الجزء الاول ص ٩٦ ثم ص ٤٣٨ .

وانجع تشكيلا ، فاسهمت في تكوينه ، وشكلت شخصيته ، وحددت لون دراسته فنحا هذا المنحى من العمل ، يعيننا على هذا ما ينقله عن جده فيما اشار له في الدرس النحوي اذ يقول في غير كتاب « وذكر جدي رحمه الله في تعليل اعراب هذه «الاسماء» الاسماء الخمسة ـ بالحروف وجها حقا » [1] .

ومع ضآلة المادة في هذا الصدد الا انها كافية للالماح عن بيئته الخاصة ، ومن ثم فلقد توافر لهذا الرجل خصوبة البيئة العامة والبيئة الخاصة التي أهلته لان ينفرد بما صدر عنه من عمل .

اعماله :

ومما اخذ القلم به نفسه ـ في عرض ما وصل لنا منه ـ ما يربط بين هذي المصنفات سببا من اسباب التأليف ، وبعد كثير من التعمل كان:

١ ـ المفتاح : ويبدو انه اول ما ألف الاسفراييني ، ولا نعرف من أمر هذا الكتاب شيئا أو نكاد بيد انه اشار هو نفسه الى هذا المؤلف في رسالته « فاتحة الاعراب باعراب الفاتحة » [2] .

اذ يقول : « وقد استقصينا هذه المسائل في كتابنا المترجم بالمفتاح في شرح المصباح » ، والمصباح كتاب في النحو للمطرزي [3] .

---

١ ـ الاسفراييني : فاتحة الاعراب باعراب الفاتحة : ص ١٠٥ س ١٩ ، الاسفراييني : الضوء على المصباح : نسخة الازهر : ورقة ٢٤ ص (٢) س ٩ .

٢ ـ الاسفراييني : فاتحة الاعراب باعراب الفاتحة : ص ٦ س١٢.

٣ ـ هو ناصر بن عبد السيد بن علي بن المطرز بالفتح ابو الفتح النحوي ، انظر : حاجي خليفة :كشف الظنون: الجزء الثاني من المجلد الثاني : عمود ١٧٠٨ . طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة : الجزء الاول : ص ١٠٨ ، ووصف الكتاب بانه مشهور في ايدي الناس .

٢ ـ الضوء : وهو مختصر للمفتاح [١] واشار اليـــه المؤلف في كتابه حواشي اللباب [٢] اذ يقول : « وقد لخصته في ضوء المصباح » .

اذن فالكتابان شرح للمصباح، ولعبارتي «استقصينا» عن المفتاح، و«لخصته» عن الضوء دلالة على سعة الاول واختصار الثاني [٣] ..

وهذا المختصر شائع النسخ كثيرها [٤] وقد عرف بانه شرح بالقول على المصباح . واول ما يلاحظ على الكتاب هذي التسمية ، وهي ليست بدعا في هذا العصر الذي صدر فيه فلقد شهد القرن السابع من الهجرة

---

١ ـ طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة : الجزء الاول : ص ١٠٨ ـ ص ١٥٦ .

٢ ـ الاسفرايني : حواشي اللباب : ص ١٧ س ٩ .

٣ ـ يذكر كارل بروكلمان انه اتم تأليفه في ٦٨٤ من الهجرة ونقول: انها السنة التي توفي فيها صاحبنا واذا كان ذلك صحيحا فان الرجل قد نشط للتأليف في أخريات حياته اذ ان حواشي اللباب الفت بعد الضوء لانه اشار فيها الى الضوء .

٤ ـ هذه النسخ كثيرة ففي مكتبة الازهر بمصر : الفهرست : الجزء الرابع ص ٢٧٤ـ٢٧٥ .

١ ـ نسخة (خ) في مجلد بقلم فارسي ، بأولها نقص وبها آثار رطوبة وبهامشها وبين سطورها في ١١٤ ورقة ، ومسطرتها ١٥ سطرا ـ ١٧ سم تحت رقم (١١٢) ١١١٧ .

٢ ـ نسخة (خ) ضمن مجموعة في مجلد بقلم معتاد قديم بخط محمد ابن عيسى بن يوسف سنة ٩٤٢ هـ ، مجدولة بالمداد الاحمر ، بهامشها وبين سطورها حواش ، وبها خروم ، مسطرتها ١٢ سطرا (من ورقة ١ـ١٣٨) ٢١ سم تحت رقم (١٨٢) ١١٨٧ .

٣ ـ نسخة (خ) في مجلد بقلم معتاد قديم، بخط عبد الله عبد اللطيف سنة ٧٦٠هـ ، بها خرم واثار رطوبة وترميم في ١٠٨ ورقة ومسطرتها ١٧ سطرا ـ ١٦ سم تحت رقم (٢١٥) ١٣٤٨ .



كثيرا من الكتب التي تحمل هذا الاسم عنوانا لها ودليلا عليها [1] .

اما نسخ الكتاب فهي كثيرة تسمح بالتحقيق :

اولها [2] نسخة بقلم معتاد بهامشها وبين سطورها تعليقات وتفسيرات كثيرة ، وبأولها تمليكات وتقع في ١٧٤ ورقة ومسطرتها ٩ اسطر ، وبين اوراقها خلط ، وترقيمها حديث ، وأظنه من بعض مفهرسي دار الكتب المصرية ، فقد وضع ورقة مكان اخرى ولا يدرك ذلك الا بالمقارنة .

وهذي النسخة ان لم تكن الاصل فهي اقدم ما وصل الينا ــ الامر الذي دفع بروكلمان الى النص على انها بمعرفة نفس المؤلف . [3]



٤ ــ نسخة في مجلد بقلم معتاد ، بها أكل أرضة في ١٣٠ ورقة ومسطرتها ١٧ سطرا ــ ٢ سم تحت رقم (٩١٥) اباظة ٦٤٦٥ .

٥ ــ نسخة اخرى في مجلد بقلم معتاد في ١٢٢ ورقة ، ومسطرتها ٢١ سطرا ــ ٢٣ سم تحت رقم (١٠٥٢) ٨٥٢٧ .

٦ ــ نسخة في مجلد بقلم معتاد سنة ١١١١ هـ بآخرها وقفة كاتب ، وبهامش بعض اوراقها حواش ، في ١٤٧ ورقة ، ومسطرتها ١٥ سطرا ــ ٢١ سم ــ تحت رقم (٢٢٨٠) رافعي ٢٧١٨٥ .

٧ ــ نسخة ضمن مجموعة بقلم فارسي بهامش بعض اوراقها حواش مسطرتها ١٣ سطرا (من ورقة ١ــ١٠٩) ٢ سم تحت رقم ٢٣٥٥ السقا ٢٨٦٨٣ .

١ ــ من هذا :

١ ــ كتاب لب الالباب في شرح ابيات الكتاب للشيخ سليمان بن بنين ٦١٩ ــ ٦٩٤ .

٢ ــ كتاب اللباب في علل البناء والاعراب للعكبري البغدادي المتوفي ٦١٦ هـ .

٣ ــ لباب الاشارات للفخر الرازي هذب فيه اشارات ابن سينا ٦٠٦ من الهجرة .

٢ ــ تحت رقم ٥٤١ (٥٧٤١ هـ) من دار الكتب المصرية ــ وهي ليست في موضعها الان .

٣ ــ بروكلمان : الملحق : جـ ١ ص ٥٢٠ .

ثانيها : نسخة كتبها مصطفى عبد الواحد في شهر شعبان عام ٧٨٠ من الهجرة ، وهي التي عليها عولت وعنها اخذت . (١)

ثالثها : نسخة بقلم عادي كتبت عام ٨٨٥ من الهجرة . (٢) .

رابعها : نسخة اخرى كتبت عام ٧٧٥ من الهجرة . (٣)

خامسها : نسخة أخرى تحوي كتابين : أحدهما «اللباب» والاخر «لب الالباب» (٤) .

٤ ـ حواشي اللباب : واسمه يعلن عن الرابطة بينه وبين سابقه ، ويذكر صاحبي في مقدمته الدافع الذي من اجله كان هذا الصنيع فيقول: « لما فرغت من انشاء لباب الاعراب ، وضبط معاقده وقضيت لبانتي من ربط أوابده ، لم أرد أن يكون مسائله غفلا عن تتمة الايضاح ، عطلا من حلية الافصاح .. فأخذت في تعليق حواشي تجري مجرى الشرح لبعض مشكلاته » (٥) .

---

١ ـ تحت رقم ٢٥٦ نحو ـ دار الكتب المصرية .

٢ ـ تحت رقم (ن ٢٣٧١د) مكتبة محافظة الاسكندرية .

٣ ـ تحت رقم (٣٩٨ نحو) وهي بالمكتبة التيمورية وقد قامت كلية الاداب بجامعة الاسكندرية بطلبها من معهد المخطوطات العربية تصويرا وجاءت ولأخطاء عادت .

٤ ـ تحت رقم ٣٦٩ نحو ـ دار الكتب المصرية .

يعد بروكلمان مع خلط في التسمية بين اللباب ولب الالباب ـ ج ١ ص٩٦ ـ جوتة (٢٨٤)ـ ليدن (١٩٨) ـ فينا (١٨٣) انجلترا (١٨٤)، وقد قامت مكتبة لندن ـ قسم الدراسات الشرقية باهدائنا هذه النسخة تصويرا وهي لدينا ولعل الزمن يسمح بتحقيقها ، وهي ليست كاملة ولكن تمثل ما يعدل ثلثي الاصل ـ أمبروزو (١٥٠) ـ الجزائر (١٣٤ ـ ١٣٥) ـ أياصوفيا (٤٥٧٦ ـ ٤٥٧٧) .

٥ ـ نسخة تحت رقم (١٣ نحوم) بدار الكتب المصرية ، مسطرتها (١٧) سطرا .

فالكتاب اذن بسط لبعض مما ارتآه مجملا في لبابه ، من نسبة رأي لصاحبه او قول لقائله الى عرض اسباب شاهد وما الى ذلك .. ولم يرد ذكر هذا الكتاب ضمن كتب الاسفراييني التي نص عليها المعنيون بالترجمة .

٥ ــ لب الالباب : وكان هذا الكتاب مثار خلط وشك لدى كثير ممن اخذ عن هذا او ترجم لصاحبه ، والباعث على ذلك ــ فيما نرى ــ سببان :

١ ــ وجود كتب تشارك هذا الكتاب في عنوانه وميدانه [١] .

٢ ــ الخلط بينه وبين اللباب . [٢]

والتحقيق ان الكتاب كتاب وحده مغاير لما عداه مما اشترك معه في العنوان او الميدان ، ويعقد الاسفراييني في مقدمة الكتاب حديثا عن السبب في تأليفه ، والباعث على عقده اذ انه اراد اتحاف الوزير شمس الدين صاحب الديوان [٣] .

---

١ ــ لب الالباب : البيضاوي : وهي رسالة في علم الاعراب ــ وانتبه لهذا البغدادي : خزانة الادب : في استشهاداته اذ انه حرص على التمييز بينهما ، فحينما يعرض لما نحن فيه يقول « صاحب اللباب » اما عند تعرضه لرسالة البيضاوي فيذكر وفي لب البيضاوي ــ وان كان اظهارا للبيضاوي .. كذلك هناك من شرح الكتابين (السيد عبد الله ..) فينشأ الخلط في قول المستشهد « شارحه » فلا يدري ايهما عني .

٢ ــ بروكلمان : تاريخ الادب العربي : ج ١ ص ٢٩٣ ــ الملحق: ٥٢٠ . يكتبه بهذه الصور : لب ــ لباب ــ الباب ــ تقديم طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة : ذكر اللب على اللباب دليل على الخلط .

٣ ــ حاجي خليفة : كشف الظنون : ج ٢ ص ١٥٤٣ ، ترجم له : ابن العماد : شذرات الذهب : ج ٥ ص ٣٨١ ــ عباس العزاوي : تاريخ

ولهذا الاهداء دلالاته اذ يمكننا القول بان الرجل كان على قدر ما من الاتصال بسياسة عصره تمثل في هذا الرجل الذي حفلت حياته بما هو مدون بكتب التاريخ بيد ان نهايته لم تكن كما كان متوقعا لمثله فقد انتهت حياته بقتله ، ولعل في هذه النهاية شيئا من الارتباط بمصير الاسفراييني الذي لم يعرف عن اجتماعياته شيء غير ان الرواية تفيد ان كليهما قد انتهى امره في ٦٨٤ هـ .

لم يكن بد من هذي اللفتة التي تلقي لونا من الضوء يفسر شيئا من غموض اخبار هذا الرجل ، ثم يقرر الاسفراييني « فاخترت له من العلوم علم النحو » [١] وكأني به اختار له من كتبه كتابه اللباب فاختصره له ويعنيني على هذا الامر ظاهرتان :

الاولى : استقراء ما في اللب يؤكد انه صدى لنهجه في اللباب .

الثانية : وجود مجلد يحوي الكتابين .

اما نسخ الكتاب التي اطلعنا عليها فهي :

الاولى : نسخة تحوي كتاب اللباب ولب الالباب ، وقد سلفت الاشارة اليها [٢] .

الثانية : نسخة كتبت عام ٧٧٤ من الهجرة [٣] .

→

العراق بين احتلالين : حكومة المغول : ص ٣٢٥ ، ونقل هذا الاخير عن خواندمير : دستور الوزراء ، وحكى وفاته ابن العبري : تاريخ مختصر الدول : ص ٢٩٨ .

١ ــ الاسفراييني : لب الالباب : مقدمة الكتاب .

٢ ــ نسخة (خ) تحت رقم (٣٦٩ نحو) دار الكتب المصرية .

٣ ــ نسخة (خ) تحت رقم (ن ــ ٢٤٧٢ د) مكتبة محافظة الاسكندرية.

الثالثة : نسخة كتبت بقلم نسخ عام ٧٥٩ من الهجرة وعليها هوامش كثيرة [١] .

٦ ــ فاتحة الاعراب باعراب الفاتحة : وهذا العنوان مطابق لما عنون به اذ ان الرجل اراد الى اعراب الفاتحة ، ومن خلال هذا الاعراب كان الحديث كتابا كاملا في النحو [٢] . ونلحظ في هذا الكتاب نقطتين هامتين :

الاولى : وتتمثل في يقظة الرجل التي بدت من خلال قوله « واما ما لم اتعرض لذكره في هذا الكتاب من الابواب التي جرت العادة بايرادها في كتب الاعراب كالتكسير والتصغير والنسب والامالة والادغام والاعلال والوقف وغيرها فهو في الحقيقة كالدخيل في هذا العلم » [٣] .

وان كان قد ذكر شيئا من ذلك في كتابه «اللباب» اذ يشير صدد حديثه عن غير العاملة في الحروف ــ الى ان ذكرها استطراد [٤] الا انه امتاز هنا ــ فيما نحن بصدده ــ بالنص عليه صراحة وفي مقدمة الكتاب .

الاخرى : وتبدو في اسناده رأيا الى جده [٥] ــ الامر الذي قرر

---

١ ــ نسخة (خ) تحت رقم (ن ــ ٣٧٤٢ جـ) مكتبة محافظة الاسكندرية

٢ ــ الاسفراييني فاتحة الاعراب باعراب الفاتحة : نسخة (خ) كتبها محمد بن محمود بن رجب بن عمر بن محمود الحافظ الشيرازي عام ٨٢٥هـ ــ تحت رقم (٦١) م بدار الكتب المصرية .

٣ ــ الاسفراييني : فاتحة الاعراب باعراب الفاتحة : المقدمة .

٤ ــ الاسفراييني : اللباب : ورقة (١٣٥) ــ ص ٢ ــ س ٥ .

٥ ــ الاسفراييني : فاتحة الاعراب باعراب الفاتحة : ص ١٠٥ س١٩

لنا بيئة خاصة اخذت من العلم قدرا ونوعا بنصيب فيما اسلفنا القول فيه .

٧ ـ رسالة في الجملة الخبرية : وهي أمال له تقع في اربع صفحات ، ومسطرتها اربعة عشر سطرا [١] ، وهي عبارة عن حديث عن الجمل التي لها محل من الاعراب ، والجمل التي ليس لها محل ، ولايعنينا شيء بقدر مايعنينا انها من اماليه وللعبارة دلالتها يزيد من قوتها ما يختم به رسالته اذ يقول : « فهذه عجالة الوقت مما سئلت ، واقترحت من الكلام » .

فهو رجل مقصد للطلاب ، يؤتى اليه ، ويؤخذ عنه.

٨ ـ شرح القصيدة الطنطرانية [٢] وهذا الشرح لم نتمكن من الاطلاع عليه اذ ان الكتاب ليس في مكانه من مكتبة الازهر ، الا انه وصف بفهرسها بانه ضمن ـ مع بيان المعني ـ اللطائف البيانية، والنكت البلاغة ، والملح الغزلية ، والمدائح النبوية [٣] .

---

١ ـ نسخة تحت رقم (٦٣٧) مجاميع بدار الكتب المصرية ، وذكرها كارل بروكلمان : تاريخ الادب العربي : الملحق من الجزء الاول : ص ٥٢٠.

٢ ـ الزركلي : الاعلام : الجزء العاشر : «المستدرك» ص ٢٢٥ نقلا عن فهرست الازهر ، فهرست المكتبة الازهرية : الجزء الخامس : ص ١٥١ ـ وصفها الفهرست بانها نسخة ضمن مجموعة بخط نعمة الله بن احمد الغساني عام ٩٤٠ من الهجرة ، مسطرتها (٢٧) سطرا في (٤) ورقات تحت رقم (٤١٧) مجاميع .

٣ ـ القصيدة نظمها معين الدين ابو نصر احمد بن عبد الرزاق الطنطراني المراغي المتوفى عام ٤٨٥ هـ في مدح الوزير نظام الملك .

هذا ما امكن من البحث من مصنفات الاسفراييني ، ومكان وجودها بمكتباتنا في مصر يقينا اما غيرها فان ما ورد من ارقام غير موثوق به تماما ، وذلك يتضح من مضاهاة ما ورد بها من رقم بما هو موجود لدينا ، وهو أمر واضح لدى بروكلمان .

أثره في التأليف النحوي :

كانت لهذي الاعمال التي أثرت عن هذا الرجل آثارها سواء أكانت هذي الآثار آراء اخذت عنه ورددها النحاة في غير موضع أم كانت خدمات قام بها اناس وقفوا عليه ، وأفردوا له .

وبالتتبع رد صاحب الخزانة آراء للاسفراييني عن «اللباب» استشهادا بها في احد عشر موضعا [1] ، وعن «اللب» في ستة مواضيع [2] ، وصاحب الهمع يذكر صاحب اللباب في موضعين [3] ، واللب في موضع [4] ، وصاحب الضرائر يذكر كلا منهما في موضعين [5] بالاضافة الى متفرقات بحاشية الامير [6] وبشرح المغني وشواهده [7] .

---

١ ــ البغدادي : خزانة الادب : الجزء الاول : ص ٢١٨ ــ ٢٨٦ ــ الجزء الثاني : ص ١٩١ ــ ص ٣٤٠ ــ الجزء الثالث : ص ١٠٢ ــ ص ٢٣١ ــ الجزء الرابع : ص ٧ ــ ص ١٥٠ ــ ص ١٥٨ .

٢ ــ البغدادي : خزانة الادب : الجزء الاول : ص ٣٦٨ ــ الجزء الثالث : ص ١٠٣ س ١٤ ــ الجزء الرابع : ص ٩٦ س ١٨ ــ ص ١٢٧ ــ ص ١٣٠ ــ ص ٢٤١ .

٣ ــ السيوطي : همع الهوامع : الجزء الاول : ص ٣ ــ ص ٢٤٧ .

٤ ــ السيوطي : همع الهوامع : الجزء الاول : ص ٣ .

٥ ــ الالوسي : الضرائر : (اللباب) ص ٢١٩ س ١٠ ــ ص٢٣٩س١٧ (اللب) ص ٣٤ ــ ص ١٩٨ س ٢

٦ ــ الامير : حاشية على المغني لابن هشام ..

٧ ــ اسماعيل الصاوي : شرح المغني وشواهده ..

وهو ذكر له اهميته في اثر الرجل في الدرس النحوي ...

اما الخدمات فلقد لقي منها ما يدل على فائق العناية به فمما وجدنا للباب :

١ ـ شرح لم يعلم مؤلفه بقلم نسخ قديم [١] .

٢ ـ شرح لمحمد بن عثمان بن محمدبن ابي علي العرض الزوزني كتبه في عام ٨٤٢ من الهجرة [٢] .

٣ ـ شرح بعنوان العباب في شرح اللباب لجمال الدين عبد الله بن محمد الحسيني المعروف بنقرة كار [٣] من علماء القرن الثامن الهجري ، أتم تأليفه في شهر جمادي الاولى من عام ٧٣٥ من الهجرة ، أوله : « الحمد لله الذي له الكلمة العليا والاسماء الحسنى .. » وخطه محمد ابن ابي بكر بن علي الحسن السيوطي . فرغ من كتابته في شهر جمادي الاولى عام ٨١٧ من الهجرة [٤] .

ـ نسخة اخرى من الشرح السابق محذوفة الخطبة بقلم معتاد تمت كتابتها عام ١١١٠ من الهجرة [٥] .

---

١ ـ نسخة في مجلد تحت رقم(١٢٩٣ب) مكتبة محافظة الاسكندرية.

٢ ـ نسخة مصورة من مكتبة سوهاج ـ لدى معهد المخطوطات العربية .

٣ ـ طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة : الجزء الاول : ص ١٤٩ ـ اليسوعي : معجم المنجد : ص ٤٥٨ ـ حاجي خليفة : كشف الظنون ـ بروكلمان : تاريخ الادب العربي : اتفقا في تاريخ وفاته وهو عام ٧٧٦ من الهجرة .

٤ ـ نسخة (خ) تحت رقم ١٩٢ بدار الكتب المصرية ، ذكر هذا الشرح طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة : الجزء الاول : ص ١٥٠ :

٥ ـ نسخة (خ) تحت رقم (٤٥م) بدار الكتب المصرية .. وهناك نسخ منه عدها كارل بروكلمان .

٤ ـ شرح لقطب الدين محمد بن مسعود بن محمود السيرافي الفالي [١] قرر فيه انه استفاد من الاسفراييني ايما افادة [٢] .

٥ ـ شرح لم يذكر مؤلفه للشيخ جمال الدين محمد بن محمد التبريزي الاقسرابي ،فرغ منه سنة ٧٤٠ من الهجرة ، وهو ابن ست وعشرين ، اوله : « الحمد لله الذي انزل كتابا اشرقت به القلوب » وأسماه « كشف الاعراب » [٣] .

٦ ـ شرح لم يذكر مؤلفه وألف حوالى عام ٧٢٨ من الهجرة [٤] .

ولم تكن هذه الخدمات ، وما قد يكون هناك غيرها الا الادلة على ما أحدثه من تأثير في الدرس النحوي ، ولم يكن ذلك أيضا قصرا على اللباب بل كان هناك ما افرد للب الالباب ... من ذلك :

١ ـ شرح اللب لجمال الدين عبد الله بن محمد الحسيني المعروف بنقرة كار وهو الذي اسلفنا القول بانه شرح اللباب ، اوله « الحمد لله قاشع غمام الغموم ويقرر صاحبه فيه ان هذا الكتاب(لب الالباب)لم يشرحه احد من فضلاء وعلماء العصر . وعلى هذا فهو اول شرح لهذا الكتاب ، واذا كان كتاب لب الالباب الفه الاسفراييني اتحافا للوزير شمس الدين صاحب الديوان اذ ذاك ، فان شرح هذا الكتاب قام صاحبه النقرة كار

---

١ ـ طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة : الجزء الاول : ص ١٥٠ـ بروكلمان : تاريخ الادب العربي : ملحق الجزء الاول : ص ٥٢٠ ـ اليسوعي ـ معجم المنجد : ص ٤٥٨ .

٢ ـ حاجي خليفة : كشف الظنون : الجزء الثاني : ١٥٤٣ .

٣ ـ المصدر السابق .

٤ ـ المصدر السابق ـ بروكلمان : تاريخ الادب العربي : الاسكوريال رقم ١٦٩ ـ بترسبورج ٩٠٨ .

باهدائه للوزير فخر الدين ابي طالب العلوي [١] ـ نسخة بمكتبة محافظة الاسكندرية [٢] + ـ نسخة بدار الكتب المصرية كتبت عام ٨٤٩هـ [٣] + ـ نسخة اخرى بالدار بخط محمد بن ابي بكر وبهامشها تقييدات كثيرة [٤] .

ـ نسخة في أولها فوائد من النحو والحديث سنة ٨٢٢ من الهجرة [٥] .

٢ ـ شرح تأليف العلامة محمد بن مسعود بن محمود بن ابي الفتح السيرافي الفالي، وقد سلف انه شرح اللباب أيضا، وأتم تأليف هذا الشرح في يوم الخميس الرابع عشر من شهر ربيع الأول عام ٧١٢ من الهجرة بشيراز [٦]

ـ نسخة بقلم معتاد لمت في آخر رجب ٧٣٢ من الهجرة [٧] .

---

١ ـ حاجي خليفة : كشف الظنون : الجزء الثاني : من المجلد الثاني عمود ١٥٤٣ .

٢ ـ طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة : الجزء الاول : ص ١٤٩ .

ـ نسخة (خ) تحت رقم ١٠٣٨ب وهي بدون تاريخ . ولها حاشية علقها السيد احمد بن عبد الله القريبي ـ ذكرها حاجي خليفة في كشف الظنون ، وهناك نسخة اخرى بمكتبة المحافظة مؤرخة عام ٨٣٠ من الهجرة مكتوبة بقلم عادي تحت رقم (١٢٧٥ب) .

٣ ـ نسخة (خ) تحت رقم (٥٠٠٧ هـ) بدار الكتب المصرية وعنها اخذنا فيما نعرض .

٤ ـ نسخة (خ) تحت رقم ١٦٨ بدار الكتب المصرية .

٥ ـ نسخة (خ) تحت رقم (١١٠٥) بالدار .

٦ ـ بروكلمان : تاريخ الادب العربي : ملحق الجزء الاول : ص ٥٢٠ ـ الجزء الاول يذكر لهذا الشرح نسخا متعددة ـ اليسوعي ـ المنجد : ص ٤٥٨ .

٧ ـ نسخة (خ) تحت رقم ١٥٠ بالدار .

ـ نسخة اخرى منه كتبت عام ٧٣٢ من الهجرة ايضا [١] .

ـ نسخة اخرى بخط احمد بن تقي الدين فرغ من كتابتها في شهر رمضان عام ٩٤٩ من الهجرة [٢] .

٣ ـ شرح لمجهول عمل في ٧٢٨ من الهجرة [٣] .

٤ ـ شرح لعبد الله بن احمد المتوفى عام ٧٧٦ من الهجرة [٤] .

٥ ـ شرح لمؤلف مجهول موضوع تحت عنوان تاريخ الادب

٦ ـ شرح مشابه لسابقه [٥] .

٧ ـ شرح بعنوان « خلاصة الافكار في بيان زبدة الاسرار من شرح مشكل لب الالباب ، اوله « الحمد لله الذي رفع قدر العلماء لاستثمار الاحكام من محكم تنزيله » [٦] .

٨ ـ شرح لفوبل بابا ثلوع عام ٧٦٨ [٧] .

وامكن البحث ايضا من الحديث عن آثار كتابه الشائع النسخ (الضوء) فلقد عثرنا على :

---

١ ـ نسخة (خ) تحت رقم (١٥١) بالدار .

٢ - نسخة (خ) تحت رقم (١٥٢) بالدار .

٣ ـ بروكلمان : تاريخ الادب العربي : الاسكوريال ط (٢) تحت رقم ١٦٩ .

٤ ـ المصدر السابق : تحت رقم ١٦٨ .

٥ ـ المصدر السابق : تحت رقم ٢٨٥ جوته ـ برلين : ٦٦٦٥ ـ انجلترا : ٨٩٨ ـ شروح اخر في الدار ٦٦٨٨ .

٦ ـ حاجي خليفة : كشف الظنون : الجزء الثاني : ١٥٤٦ .

٧ ـ المصدر السابق .

١ ــ حاشية «قاضيجق» وهي على الضوء ألفها عبـد اللطيف بن جلال الدين محمد القزويني المعروف بقاضي بلاط ، وصل فيهـا الـى آخر الباب الثاني، وانتقل الى رحمة الله تعالى ، ثم قام العلامة كلتجـق باتمامها على النسق • نسخة مكتوبة في الثاني عشر من ربيـع الاول من عام ١١١٢ من الهجرة بخط ابي بكر بن سليمان (١) •

ــ نسخة اخرى كتبت على صفحتها الاولى « شـــرح الضـوء لقاضجيق وكلتجق » (٢) •

٢ ــ شرح ابيات الضوء على المصباح لتاج الديـن محمد بن محمد ابن احمد الاسفراييني وهذا الشرح لم يعلم مؤلفه • اوله : « الحمد لله الذي بسط الارض ورفع السماء » • وهو ضمن مجموعة مخطوطة (٣)

٣ ــ شرح على خطبة الضوء الفها رضي الدين الخوارزمي وهـي ضمن مجموعة ، ولعلها هي المقدمة التي اشار اليها بروكلمان مع نسخـة الضوء المطبوع (٤) •

ولقد كان لكل هاتيك الخدمات التي لقيها الاسفراييني آثارها هي الاخرى في مجالات الدرس فلقد استشهد صاحب الخزانة بشراحه فـي

---

١ ــ نسخة (خ) تحت رقم (٥٧٧٧هـ) بدار الكتب المصرية •

٢ ــ نسخة (خ) تحت رقم ١٥٢٤ بدار الكتب •

٣ ــ نسخة (خ) تحت رقم ٤٣٦ بدار الكتب ــ ذكرهـا الفهرست ــ سبتمبر ١٩٢٦ ، هامش ص ٢١ س ٢٦ ــ ٢٧ مما سبق •

٤ ــ بروكلمان : تاريخ الادب العربي : الجـزء الاول : ص ٢٩٣ ــ هامش ص ٢١ •

خمسة عشر موضعا [1] وصاحب الهمع مرة [2] وصاحب الضرائر مرتين [3] وصاحب حاشية المغني الامير ، وشرح شواهد المغني في مظان متفرقة [4].

ووجدنا ايضا ان هذي الشروح عليها حواش ، ولها افرادات من الدرس [5].



وضح من هذا كله ان الاسفراييني له آثار محسة في ميادين من الدرس متشعبة ، ومما هو جدير بالذكر ان ذلك لم يكن قصرا على رأي منفرد له ، قال به ، فأخذ عنه ، او رد لسابق رأي اقترحه فتناقله النحاة ، وما الى ذلك من تلامذة يلتمسون لديه بغيتهم ويرون غلتهم ، وانما وجدنا صدى منهجه في كتاب اللباب لدى شخصية مصرية ونعني بها ابن هشام المصري في كتابه شذور الذهب.

---

١ ــ البغدادي : الخزانة الادبية : الجزء الاول : ص ١٤٦ ــ ص ٣٠٦ ــ ص ٢٦٣ ــ ص ٣٦٨ ــ الجزء الثاني : ص ١٩٩ ــ ص ٣٤٩ ــ الجزء الثالث : ص ١٠٣ س ١٢ ــ ص ٣٩٠ س ٣ ــ ص ٤٠٨ س ١١ ــ ص ٤٠٩ س ٣ الجزء الرابع : ص ٧ س ١ ــ ص ١٢٦ س ٢٣ ــ ص ١٣٢ س ٩ .

٢ ــ السيوطي : همع الهوامع : الجزء الثاني: ص ٢٠ س ٩ من اسفل الصفحة .

٣ ــ الالوسي : الضرائر : ص ١٩٨ س ١٣ ــ ص ٢٦٦ س ٢ .

٤ ــ الامير : حاشية على المغني : الجزء الاول على هامش المغني : ص ٩٥ مثالا ، اسماعيل الصاوي ، شرح المغني وشواهده : ص ١١٩ ــ ص ٤٩٤ ــ ص ٤٩٥ ــ ص ٤٩٦ ــ ص ٤٩٨ ــ ص ٥٠١ ــ ص ٤٨٩ .

٥ ــ حاجي خليفة : كشف الظنون : هامش ص ٢٨ س ٣ ــ ٤ ، وما أوردناه بالنسبة للخزانة والهمع والضرائر استقراء مستقصي ، أما بالنسبة للامير والصاوي أمثلة وكلها معين على ما اخذنا به انفسنا .

واذا كنا قد خرجنا من الفصل السابق الذي اشرنا فيـه لطرف من الحديث عن علماء البيئة ـ وقد تقرر بأنهم هم الذين عشقوا التجوال في مختلف الاقطار فأثروا وتأثروا ، أخذوا واعطوا ، ومنهم من قدم مصر.. واعتناق بيئة اسفرايين المذهب الشافعي وما لذلك من مصرية اثر ، لذلك كله دلالته التي تمكن من القول بان هناك اثرا ما ـ ان لم يكن مباشـرا على التفكير النحوي بمصر الذي يمثل لونا منه ابن هشام .

وان لم يكن هذا فبالقطع ـ امكن الحديث من القول بسبق هذي البيئة ممثلة في صاحب اللباب للبيئة المصرية ممثلة في صاحب الشـذور المولود بعد وفاة الاسفراييني ـ صنيعه في شذور الذهب،النهج الذي يجعل نصبعينيه ـ في النظرة الى الدرس النحوي ـ تتبع آخر الكلمةفي حالاتها المتعددة التي تعتورها بتغاير المعاني ـ وما اقتضته هـذه النظرة من لون من الصنيع كانت هذه الاعمال نتيجته .

ولم يجد الاسفراييني من ينتصر له انصافا ، بينما وجد الاخـر من يدعو له دون وجه ، فما يثير الدهش ان صاحب الخزانة يذكـر صدد حديثه عن اختيار الكوفيين لشرطية ان المدغمة في ما نحو «أما انت منطلقا انطلقت » وآن الرضي فضل هذا الرأي الكوفي المنحى الذي نحاه ابـن هشام فيقول: (وهذا من توافق الخواطر كما يقال « وقع الحافر موضع الحافر » ، وينقل ذلك صاحب نشأة النحو وتاريخ اشهر النحـاة موردا النص الذي اسلفنا صدد ترجمته للرضي قائلا : « مستـدلا في هـذا الاختيار بعين ما استبدل به ابن هشام » ثم يعقب ـ وما يغني ذاك ـ مع ان ابن هشام ولد بعد وفاة الرضي بنحو عشرين عاما » [1] .

---

١ ـ محمد الطنطاوي : ص ٢١٥ س ٨ .

ومن ثم فلا يأخذنا ما ارسله السيوطي من انـــــه لم يقف له على ترجمة [1] او عرض طاش كبرى زاده لاعماله ضمن المختصرات في هــذا العلم [2] ، لكن للدلالات السياسية ــ التي ينبغي وضعها في الاعتبار ــ من عدم استقرار البيئة بعامة [3] وارتباطه هو بسبب ما بصاحب الديوان الذي كانت نهايته النهاية التي اسلفنا ، وما تفيده الروايـــة من تحديد تاريخ وفاة الاسفراييني ــ فان لتلك الامور اعتباراتها فيما هنالـك من استغلاق امر هذا الرجل الا ان الذي يجزم به ــ ان البيئة الخاصة التي وجد فيها هذا الرجل وما كان يكتنفها من جو البيئة العامة ــ والاعمـال التي خلفها نتائج لذلك كله ــ وما أحدثت من اثر دليـــل على مكانته ، واعلان عن اصالته .



---

١ ــ السيوطي : بغية الوعاة : ج ١ ص ٩٤ .

٢ ــ طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة : ج ١ ص ١٤٩ ومابعدها .

٣ ــ سبق التعرض لها .

انظر الى هذه المقارنة :

اللباب الاسفراييني	الشــــذور ابن هشام
١ ــ مقدمـــة	١ ــ مقدمة
٢ ــ حديث عن الاعراب	٢ ــ حديث عن الاعراب
٣ ــ حديث عن المعربات	٣ ــ حديث عن المعربات
٤ ــ المرفوعات	٤ ــ المرفوعات
٥ ــ المنصوبات	٥ ــ المنصوبات
٦ ــ المجرورات	٦ ــ المجرورات
٧ ــ المجزومات	٧ ــ المجزومات (التوابع)
٨ ــ غير المستبد	

شهيرات نساء العصر الأموي

الدكتور رمزية الاطرقجي
كلية الآداب - قسم التاريخ
جامعة بغداد

ان الاخبار عن النساء متناثرة في بطون السير ، والكتب التاريخية والمخلفات الادبية ، وقصائد الشعراء ، ولقد طوت هذه المؤلفات على كثير من فضليات النساء اشتهر عنهن سلامة الرأي، وحسن التدبير ، وتصريف الشؤون على اساس متين ، فالعصر الاموي مليء بفضليات النساء ذوات الاثر الخالد ، اللاتي اشتهرن واتصفن بميزات ومواهب فذة • ولم يقتصر ظهور شهيرات النساء على طبقة دون اخرى ، فمن زوجات الخلفاء ، كأم البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك ، التي اشتهرت بالفصاحة ، والبلاغة ، وقوة الحجة ، وبعد النظر ، الى تلك الطبقة من جمهور الاماء ، اللاتي يعنى بتعليمهن الاداب من شعر ، ورواية ، وموسيقى ، كسلامة وحبابه وجميلة ، وغيرهن كثيرات•

وكان هناك خلفاء يشجعون الغناء والموسيقى ، ويقضون ساعات من اللهو والمجون ، كيزيد بن معاوية ، ويزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد بن يزيد ، وخلفاء يقضون ايامهم في الجد وادارة الملك كمعاوية

ابن ابي سفيان [1] ، وعبد الملك بن مروان ، وعمر بن عبد العزيز ، وكان من ورائهم الشعب تارة تظهر عليه مظاهر التمتع بحياة الترف ، واخرى تظهر عليهن مظاهر الورع والتقوى والزهد بالدنيا [2] ، واشتهر منهن بالمواهب اللسانية متمثلة هذه الطبقة ، برابعة العدوية .

ومنهن نساء في العهد الاموي لم يفتهن مشاهدة الندوات ، والاخذ باطراف الحديث ، والمناظرات ، مما كان له اكبر الاثر في تشجيع الاداب والمعارف وتتمثل هذه الطبقة بالسيدة سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة زوجتا مصعب بن الزبير ، وهما من النساء الشهيرات المتعلمات في العصر الاموي كان يدخل اليهما الشعراء ويجالسا الاجلة من قريش .

وساهمت المرأة في العصر الاموي مساهمة ادبية ، فكانت الجرأة الادبية في هذا العصر استمرارا للجرأة الادبية التي كانت في عصر الخلفاء الراشدين ، وشملت الخلفاء الاوائل من الامويين ، فالخليفة معاوية بن ابي سفيان ، كان مشجعا لهذه الجرأة الادبية واستمرت حتى زمن عبد الملك بن مروان ، ثم اخذت تخفت شيئا فشيئا ، ومن اشهر هؤلاء النساء الزرقاء بنت عدي ، في عهد معاوية بن ابي سفيان وليلى الاخيلية في عهد عبد الملك بن مروان ، وسيأتي الكلام عنهما .

---

١ ـ كان معاوية بن ابي سفيان يعيب على الراغبين في الغناء ولاسيما اهل الوجاهة والشرف وله مع عبد الله بن جعفر حكاية تدل على ما عابه عليه من استماع الغناء (جرجي زيدان تاريخ التمدن الاسلامي) جـ ٥ ص ٣٥ .

٢ ـ خاصة العراق ، فقد غلب عليه روح التصوف والزهد، واصبح مركزا للحياة الفكرية والعقلية في عهد الدولة الاموية .

وهناك أمثلة رفيعة عن شجاعة النساء وعلى رأسهن اسماء بنت ابي بكر ـ ام عبد الله بن الزبير ـ ، اما غزالة الحرورية فهي من نساء الخوارج التي خرجت وقاتلت ضد الحجاج .

وبعد هذه المقدمة القصيرة اقول قول الشاعر المتنبي :

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال

وسأبدأ بالكلام عن شهيرات النساء في العصر الاموي بسيدة قريش الاولى ـ سكينة بنت الحسين ـ

هي سكينة بنت الحسين بن علي بن ابي طالب ، وامها الشاعرة رباب بنت امرىء القيس بن عدي بن اوس .[3]

كان من ابرز نساء العرب اللاتي خرجن بسهم وافر في العلم والمعرفة ، وحزن قصب السبق في ميدان الادب والشعر ، وكان لهن القدح المعلى في كل هذه الميادين مجتمعة [4] ، فكانت تسيطر على المجتمع الادبي دون ان تتخلى عن اعتزازها بشرفها العالي [5] .

فمشاركتها في الحياة الادبية والاجتماعية في عصرها [6] ، حيث

---

٣ ـ الطبري : تاريخ الطبري جـ ٥ ص ٤٦٨ الطبعة الثانية .
قيل ان اسمها آمنة ، أمينة ، أميمة ، وسكينة لقب لقبتها به امها (ابن خلكان وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٣٩٧) .

٤ ـ علي ابراهيم حسن : نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب ص ٦٦ .

٥ ـ عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطىء ـ : سكينة بنت الحسين ص ١٢٦ .

٦ ـ الزجاجي : امالي الزجاجي ص ١٦٨ .

كان يجتمع اليها الشعراء والادباء والمغنون فيحتكمون اليها مما انتجته قرائحهم فتبين لهم الغث من الجيد ، وتناقش المخطىء مناقشة علمية فيقتنع بخطأه ، ويقر لها بالفضل وسعة الاطلاع [٧] .

بالاضافة الى هذا فقد اتصفت بالجود والكرم ، وخفة الروح وملاحة الدعابة ، كما عرفت بالاغداق على الشعراء والادباء الذين يجيدون القول شعرا ونثرا [٨] ، فقد احضرت سكينة يوما ابن سريج . وعزة الميلاء في مجلسها ، وبعد ان غنيا قدمت لكل منهما دملج كان في عضدها يزن كل دملج اربعون مثقالا ذهب [٩] وقصدها الفرزدق من مكة فقدمت له جاريتها كان معجبا بها وآثرته على نفسها وأوصته بحسن صحبتها [١٠] .

وكان امراء الشعر في عصرها ، يجتمعون في دارها في المدينة فتأذن لهم ، وتجلس حيث تراهم ولا يرونها ، وقد اتخذت لها وصيفة تنقل الى كل منهم رأيها في شعره ، وكلما فرغت من شاعر دخلت على مولاتها وعادت برسالة منها لشاعر اخر ، واذا اشتجر الخلاف بين رواة الشعر كان الاحتكام عندها ، فقد كانت واعية للشعر حافظة له [١١]

وكانت سكينة سيدة الناقدين فهي حكم الشعراء الذي لا يرد حكمه . اجتمع اليها ذات مرة جرير ، والفرزدق ، وكثير ، وجميل ،

---

٧ ـ عمر كحالة : اعلام النساء ج ٢ ص ٢٠٢ .
٨ ـ علي ابراهيم حسن : نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب ص ٦٦ .
٩ ـ الاصفهاني : الاغاني ج ٧ ص ٤٥ ـ ٤٦ .
١٠ ـ المصدر السابق ج ١٦ ص ١١٦ .
١١ ـ المصدر السابق ج ١٦ ص ١٠٨ .

ونصيب فنقدت لكل شعره وأخذت عليه مأخذه ، ثم اثابت كلا منهم بألف دينار ، فخرجوا بخمسة الاف دينار (١٢) .

ولها نوادر وحكايات ظريفة مع الشعراء وغيرهم (١٣) ، كما كانت شديدة المزاج والتبسط في الحديث وحبها للنكتة . كانت دمثة الخلق ذات ايمان قوي بالله ، وشجاعة نادرة تحدث فيها اهل زمانها ، وصارت مضرب الامثال في الوفاء والمرونة والشهامة وعفة اللسان (١٤) ، فهي سيدة سيدات عصرها ، اسماهن صفاتا واخلاقا ، اجملهن واظرفهن ، كانت تعتز بجمالها وتعده من نعمة الله عليها وتحرص على اظهاره في ابدع مظهر ، وقد كانت شديدة التأنق ذات هيبة ووقار ، وما اناقتها المشهورة ، وطرفها السكينية الا آية اعزاز بجمالها . وجمال شعرها كان امرا معروفا ، وكانت لها طريقة خاصة في تصفيفه والطرة السكينية منسوبة اليها (١٦) ، فكانت تصفف جمتها تصفيفا لم يرر احسن منه ، وسميت تلك الجبة بالسكينية ، واخذ الرجال يقلدونها في ذلك ، وكان عمر بن عبد العزيز ، اذا وجد رجلا يصفف جمة السكينية جلده وحلقه (١٧)

---

١٢ ـ المصدر السابق جـ ٨ ص ٣٧ ، وعبد الله عفيفي ، المرأة في جاهليتها واسلامها جـ ٢ ص ١٤٨ ، ومحمد جميل بيهم، المرأة في التاريخ والشرائع ص ٢١٨ .

١٣ ـ الاصفهاني : الاغاني ص ١٩٥ ، وابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٣٩٤ ، وعمر كحالة : اعلام النساء ص ٢٢١ .

١٤ ـ علي ابراهيم حسن : نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب ص ٦٦ .

١٥ ـ دائرة المعارف : جـ ١٢ ص ٢٠ ـ ٢١ مادة سكينة .

١٦ ـ ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٣٩٤ .

١٧ ـ الاصفهاني : الاغاني جـ ٤ ص ١٥٩ ، وعمر كحالة ، اعلام النساء جـ ٢ ص ٢٢٢ .

تزوج مصعب بن الزبير سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة [١٨] وجمع بينهما في عقد نكاحه [١٩] ، ودفع مصعب لسكينة صداقا خمسمئة الف درهم واهدى لها مثلها [٢٠] . وقيل ان عبد الله ابن الزبير اخو مصعب غضب لزواج اخيه مصعب من سكينة لما دفعه مصعب من اموال طائلة [٢١] ، وبعد مقتل مصعب خطبها عبد الملك ، فقالت : « والله لايتزوجني بعده قاتله ابدا فردته » [٢٢] .

قالت سكينة لعائشة يوما : « انا اجمل منك وقالت عائشة : « بل انا اجمل » فاختصمتا الى عمر بن ابي ربيعة فقال : لأقضين بينكما ، اما انت .. ياسكينة فاملح منها ، واما انت يا عائشة فاجمل منها . فقالت سكينة : « قضيت لي والله » . وكانت سكينة تسمي عائشة ـ ذات الاذنين ـ لانها كانت عظيمة الاذنين . [٢٣]

وقد اثر وفاة زوجها مصعب في نفسها اعمق التأثير حتى بدت حزينة كئيبة ورثته باشعارها [٢٤] ، وكان مصعب يقدرها اعظم التقدير

---

١٨ ـ توفي مصعب بن الزبير بن العوام عام ٧١ هـ في قتال مع عبد الملك بن مروان . ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ٣٢٣ .

١٩ ـ ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر ج ١ ص ١٩٦ . ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٤١٢ .

٢٠ ـ الاصفهاني : الاغاني ج ١٠ ص ٥٣ .

٢١ ـ الخربوطلي : تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي ص ٣٣٥ ، ولكن الحقيقة غير ذلك وان الدوافع الى غضبه عدم رغبته في مصاهرة اخيه لبني هاشم في الوقت الذي كان يقوم هو فيه باضطهاد وجودهم .

٢٢ ـ الاصفهاني : الاغاني ج ١٩ ص ٦١ .

٢٣ ـ المصدر السابق ج ١٦ ص ١٠٠ .

٢٤ ـ القيرواني : زهر الاداب وثمر الالباب ج ١ ص ١٠٢ .

وكانت علاقتهما كزوجين موضع حسد الناس ، وعلى الرغم من انه كان زوجا للسيدة عائشة بنت طلحة ، الا ان عائشة كانت صعبة المراس ، ولذا كانت سكينة اكثر قربا الى قلبه لانها كانت لينة العريكة ، تتصف بنبل الفعال ، وجميل الخصال ، وكان زوجها يطرب لسماع جزل شعرها ورصين بيانها ، وان صحبتها لمصعب جعلها غير موفقة في الزواج بعد مصرعه ، وان زواجها من زيد بن عثمان لم يكن موفقا ، وسرعان ما انفصلت عنه بعد ان اتضح لها بخله ، وهي المعروفة بالجود..والكرم، فقد سكنت في قصر منيف ، وعاشت عيشة هنيئة ، يحوطها الترف والنعيم .

ماتت سكينة في يوم صائف شديد الحر بالمدينة سنة ١١٧هـ في خلافة هشام بن عبد الملك ، وكان على المدينة خالد بن عبد الملك بن الحرث بن الحكم فقال : « لا تصلوا عليها حتى اشهدها ، ولم يأت حتى تغيرت فاشترى محمد بن عبد الله المطرف ـ ابن اخت سكينة ـ بثلاثين دينارا عودا وامر بالمجاعير فوضعت حول النعش ، خوفا من ان تتغير ويشم من نعشها رائحة مكروهة ، فلما صلى الناس العشاء اتى خالد بن عبد الملك وأمر بالصلاة عليها ثم دفنت [٢٥] » .

اما سيدة قريش الثانية وعقيلتها وجميلتها فهي عائشة بنت طلحة ، وكانت تجمع الى جمالها عزة النسب فأبوها طلحة بن عبد الله التيمي الصاحب الجليل لرسول الله (ص) وامها ، ام كلثوم بنت ابي بكر ، وكانت اشبه بخالتها ام المؤمنين ، عائشة ، واحبهم اليها واطبعهم على

---

٢٥ ـ البلاذري : انساب الاشراف ص ١٩٧ . الاصفهاني : الاغاني ج ١٦ ص ١١٧ .

علمها وادبها ، ومن اجل ذلك زوجها من ابن اخيه عبد الله بن عبدالرحمن ابن ابي بكر الصديق [٢٦] ، وقيل لقي عبد الله الامرين من دلالها ومصارفها [٢٧] ولما مات عنها عبد الله تزوجها مصعب بن الزبير ، وساق اليها الف الف درهم [٢٨] . وذكر الاصفهاني ، ان مصعب اهداها اضافة الى المهر ثمان لؤلؤات قيمتها عشرون الف دينار [٢٩] ، وقبل الزواج منها احب ان يستطلع حالها بعد ان اثقلتها الايام ، فبعث عزة الميلاء ، المغنية المشهورة لتأتيه بوصفها ، وكانت (عزة) خبيرة بشؤون النساء ، فمضت عزة حتى دخلت على عائشة فابتدرتها قائلة : فديتك كنت في مأدبة لقريش . فتذكروا جمال النساء وخلقهن ، فذكروك فلم ادر كيف اصفك ، فألقي ثيابك ، ففعلت عائشة . وتأملتها عزة مليا ثم قالت: خذي ثوبك فديتك ! وهمت بالانصراف لكن عائشة امسكتها وقالت : وانا ايضا لي حاجة عندك ، فسألتها عزة : وماهي ، بنفسي انت ، اجابت تغنين صوتا ، فاندفعت عزة تغني ، وبعد سماع عائشة للشعر قبلت عزة ودعت لها بعشرة اثواب وبطرائف من الفضة ، وعادت عزة توصف لمصعب جمال عائشة وفتنتها [٣٠] ، فخطبها وتزوجها .

وكانت نساء العراق يقصدونها طالبات وساطتها عند مصعب لبعض ازواجهن من بعض ما عليهم من ضرائب [٣١] لما كان لها من كلمة مسموعة ومكانة عند زوجها مصعب .

---

٢٦ ـ صلاح الدين المنجد : جمال المرأة عند العرب ص ٨ .
وعبد الله عفيفي المرأة العربية في جاهليتها واسلامها جـ ٢ ص ١٤٤ .
٢٧ ـ عائشة عبد الرحمن : سكينة بنت الحسين ص ٦٩ .
٢٨ ـ عبد الله عفيفي: المرأة في جاهليتها واسلامهاجـ ٢ ص ١٤٤.
٢٩ ـ الاصفهاني : الاغاني جـ ١٠ ص ٥٣ .
٣٠ ـ عائشة عبد الرحمن : سكينة بنت الحسين ص ٧١ .
٣١ ـ الاصفهاني : الاغاني جـ ١٠ ص ٥١ ـ ٥٤ .

اما علمها وادبها واجزال مشورتها للشعراء والمغنين فمما لا شبيه لها فيه الا سكينة بنت الحسين ، فكانت عائشة من النساء اللاتي نبغن في الادب وايام العرب والنجوم (٣٢) ، واخبارها مع الشعراء كثيرة .

وفدت يوما على هشام بن عبد الملك فقال لها ما اوفدك ؟ قالت : «حبست السماء المطر ، ومنع السلطان الحق »، قال اني سأعرفك حقك ، فبعث الى مشايخ بني أمية فقال : ان عائشة عندي فاسهروا عندي الليلة ، فخرجوا فما تذكروا في شيء من اخبار العرب واشعارها ، وايامها ، الا أفاضت معهم فيه ، وما طلع نجم الا سمته فقال لها هشام ، اما الاول فلا انكره ، واما النجوم فمن اين لك ؟ قالت : اخذتها عن خالتي عائشة ، فامر لها بمائة الف درهم ، وردها الى المدينة .

كانت عائشة من اللواتي اوتين حظا عظيما من الجمال ، فهي غادة قريش الجميلة التي خلد اسمها شعراء الحجاز ، عمر بن ابي ربيعة والحارث بن خالد المخزومي ، وابن قيس الرقيات في قصائد رجعتها معازف المغنين ، واصوات المغنيات ، كما تعلقت بها امال عدد من امجد الفتيان القرشيين ، فما يحض عنها زوج الا سارع الخطاب متلهفين الى تلك التي شاعت فيها قولة « ابي هريرة » حين رآها لاول مرة : سبحان الله ، كأنها من الحور العين . (٣٤)

---

٣٢ ــ علي ابراهيم حسن : نساء اهن في التاريخ الاسلامي نصيب ص ٧٥ ــ ٧٦ .
ومحمد شفيق غربال : الموسوعة العربية الميسرة ص ١١٧٥ .
٣٣ ــ ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١٠ ص ٥٧ ، وعبد الله عفيفي : المراة في جاهليتها واسلامها ج ٢ ص ١٤٤ .
٣٤ ــ عائشة عبد الرحمن : سكينة بنت الحسين ص ٦٩ .

وكانت لاتستر وجهها فعاتبها زوجها مصعب بن الزبير ، فقالت : ان الله وسمني بميسم جمال ، فاحببت ان يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم [٣٥] ، والله ما بي وصمة استتر لها ..

ورآها عمر بن ابي ربيعة ايام الحج وكان يطوف حولها وهي تكره أن يرى وجهها حتى رآها وهي ترمي الحجار ساخرة ، وقال فيها الشعر، ولما منعوه من قول الشعر فيها ، قال: « لا اذكرها في شعر ابدا ، ولكنه كني عن اسمها . [٣٧]

من حيث العلم ، كانت صبغة العصر الاموي دينية عربية ، فازاء ما نشأ فيه من الرجال في العلوم الدينية واللغوية ، فقد قام فيه من النساء طبقة من الزاهدات ، عرفن غالبا بالعلوم مع التقوى ، وساعد على وجودهن قرب العهد من صدر الاسلام واشهر هؤلاء الزاهدات ، رابعة العدوية بنت اسماعيل بن الحسن ، مولاة آل عتيق [٣٨] ، وكانت تكنى ـ بأم الخير ـ .

اما بداية حياتها ، فقد ولدت بالبصرة حوالي عام ٩٥ هـ وقيل ٩٩ هـ [٣٩] ، وتاريخ وفاتها مختلف عليه فقيل عام ١٣٥ هـ ، ١٨٠ هـ ،

---

٣٥ ـ صلاح الدين المنجد : جمال المرأة عند العرب ص ٨ .

٣٦ ـ القيرواني : زهر الاداب وثمر الالباب جـ ١ ص ٣٠١ .

٣٧ ـ الاصفهاني : جـ ١ ص ١٩١ ـ ١٩٢ .

٣٨ ـ آل عتيك : وهم قبيلة من قيس بن عدي : دائرة المعارف الاسلامية جـ ٩ ص ٤٣٨ مادة رابعة العدوية، وعلي ابراهيم حسن: نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب ص ١٢ .

٣٩ ـ المصدران السابقان : ص ٤٣٨ ، ص ١٢ .

١٨٥هـ[٤٠]، مات ابوها اسماعيل وهي لا تزال شابة وكان الغلاء قاسيا فلم تستطع ان تواجه الحياة ، وتتحمل تكاليفها الباهظة ، وأصبحت من الموالي ، ووقعت في اسر رجل ظالم ابقاها عنده مدة اذاقها خلالها انواع العسف ثم باعها الى رجل آخر كانت في بيته اسوأ حالا مما كانت في بيت سلفه ، ثم منحها حريتها وترك لها الخيار في أن ترحل عن بيته، او تبقى فيه ، ولكنها آثرت ان تترك الدار لتعيش من عرق جبينها [٤١] .

فأم الخير ، ولية متصوفة ، وعابدة شهيرة [٤٢] ، تمكنت من معرفة دقائق التصوف مكانا عاليا ، واستفتاها في دقائق التصوف كبار المتصوفة في عصرها ، وغرست في زمنها بذور التصوف وان ظهورها أثر في كثير من المسائل الاساسية للصوفية . [٤٣]

كانت رابعة من أهل المذهب البصري ، وقد قيل عنها ، ان تحمسها لحياة الزهد مؤديا الى معالجة احوال صوفية مختلفة والى البحث في فروض دقيقة في العمليات والعقائد ، وتعتبر رابعة عند الباحثين في أمور الولاية والاولياء اعظم ولية ، فهي السابقة الى وضع قواعد الحب والحزن ، في هيكل التصوف الاسلامي ، وهي التي تركت في الاثار الباقية نفثات صادقة في التعبير عن حبها وعن حزنها وان الذي

---

٤٠ ـ ابن خلكان : وفيات جـ ٢ ص ٤٨ .
ومحمد جميل بيهم : المراة في التاريخ والشرائع ص ٢١٨ . قدرية حسين : شهيرات النساء ص ١٦٣ .

٤١ ـ علي ابراهيم حسن : نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب ص ١٢ .
وقدرية حسين : شهيرات النساء ص ١٥٦ .

٤٢ ـ دائرة المعارف الاسلامية جـ٩ ص ٤٣٨، مادة رابعة العدوية.

٤٣ ـ قاسم غني : تاريخ التصوف في الاسلام ص ٥١ .

فاض به بعد ذلك الادب الصوفي من شعر ونثر في هذين البابين ، لهو نفحة من نفحات رابعة العدوية امام العاشقين والمحزونين في السلام [٤٤]

كانت حياة رابعة العدوية ، بعد ان اصبحت حرة طليقة ، دروسا نافعة ، وعظات بالغة ، فقد نشرت بين ابناء وبنات عصرها القول الحكيم، والحديث الشريف ، وكانت تردد القول المأثور : « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا [٤٥] » ، ويكافىء المؤمن والمحسن ويجازي المسيء . [٤٦]

لقد خلد اسمها على صفحات التاريخ عنوانا لانكار الذات وحميد الصفات ، فقد جمعت مزايا كثيرة اكسبتها لقبا جديرا بالاحترام اذ كانت تدعى ـ تاج الرجال ـ تعظيما لقدرها ، واشادة بمواهبها . [٤٧]

كانت لا تقبل عطاء من احد ، فقد احضر لها احد تجار عصرها كيسا به بعض المال حين علم بمرضها لتنفق مما فيه ، فرفضت اخذه ، وحين تكلم معها في ذلك الحسن البصري ، ردت عليه قائلة : « كيف احصل على هذا المال ، وانا لا اعلم ، هل اكتسبه صاحبه من حرام او حلال » [٤٨] .

---

٤٤ ـ عمر كحالة : اعلام النساء جـ ١ ص ٤٣٠ ـ ٤٣١ .

٤٥ ـ انور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه ص ٦٨٦ ، وعلي ابراهيم حسن ، نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب ص ١٣ .

٤٦ ـ المصدران السابقان ص ٦٨٦ وص ١٣ .

٤٧ ـ قدرية حسين : شهيرات النساء ص ١٥٩ .

٤٨ ـ علي ابراهيم حسن : نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب ص ١٣ .

كان يزورها كثيرون من الناس ، ويشركون بمجالسها ، رجال من افاضل العلم ، ويجدون في محاضراتها انسا عميقا .

رآها يوما بعض اهل الفضل وسألوها لماذا تعيش منزوية ولاتتزوج ، فأجابت ، انما يشغل خاطري ثلاثة امور « اولاها ، هل اموت وانا على ايمان كامل ، والثاني ، هل اانال صحيفتي بيدي اليمنى يوم الحساب ، والامر الثالث ، لا ادري مع أي فريق اكون يوم الحشر، أمع الذاهبين الى الجنة ام مع الهالكين في جهنم ، فاذا كنت مشغولة اللب بامثال هذه الامور فكيف ابحث عن الزواج ؟ » (٤٩)

وعندما ماتت زوجة حسن البصري طلبها للزواج فلم تقبل ، وارسلت اليه قصيدة ضمنتها كثيرا من التغزل الالهي ، وقد سألها عقب ذلك في محادثة دارت بينهما : « أليس لك رغبة في الزواج قط ؟ » اجابت : « انما يتزوج من يملك ارادته بنفسه ، اما انا فليس لي ارادة ، ان انا الا عبدة المولى عز وجل ، وضعت نفسي تحت ارادته وتصرفه » . (٥٠)

لم يكن حبها لله خوفا من النار او طمعا في الجنة كزهد الحسن البصري وغيرها من زهاد عصرها ، بل تشوقا اليه ، وانسا به ، كانت بمذهبها هذا مؤسسة للحب الالهي المنزه عن الفرض ، ولها في تصويره اقوال مأثورة منظمة ومنشورة، والحب الالهي عندها حبان، حب تنشغل فيه بذكرها لله وتسميه حب الهوى ، وحب تنكشف فيه الحجب ويتجلى جمال المحبوب الحقيقي . (٥١)

---

٤٩ ـ قدرية حسين : شهيرات النساء ص ١٦٣ .
٥٠ ـ المصدر السابق : ص ١٦٣ .
٥١ ـ محمد شفيق غربال : الموسوعة العربية الميسرة ص ٨٤٩ .

كانت كثيرة البكاء ، قرأ رجل عندها آية من القرآن فيهـــا ذكر النار ، فصاحت ثم سقطت وبالاضافة الى ما كانت عليه من زهد وعبادة فقد كانت شاعرة وكان مدار شعرها الحب الآلهي [٥٢] ، وهي لا ترضى عن حبيبها بديلا مهما حل في تقدير الناس ، ويذكر المستشرق ارنولـد : ان للصالحة ، رابعة العدوية في الكتب العربية اخبارا واشعار ولكن يشـك في نسبة الاشعار اليها . [٥٣]

توفيت رابعة العدوية وهي في الثمانين من عمرها ، وكان كفنهـا عباءة من الصوف كانت تصطحبها اينما ذهبت ، وأوصـــت احـــدى صديقاتها بان يكفنوها بتلك العباءة [٥٤] ، ولايزال قبرها الـى اليوم في رأس جبل الطور في شـــرق القـــدس [٥٥] يـــزوره النـــاس للتبرك . [٥٦]

كانت رحمها الله شخصية غريبة ذات مزايا انفردت بها من بين ربات الخدور في العصر الاموي ، وبداية العصر العباسي ، كما كانت مثـالا نادرا للتصوف والزهد والخشوع ، ضحت دنياها لقاء آخرتها ، اذ كانت تستطيع ان تعيش مرفهة منعمة كمعاصريها ، ولكنها لازمـــت الفقر ، وانواع العذاب والمشقة ، لمحو كل عاطفة دنيوية من نفسها .

---

٥٢ ــ عمر كحالة : اعلام النساء جـ ١ ص ٤٣٠ــ٤٣١ .

٥٣ ــ توماس ارنولد : تراث الاسلام جـ ١ ص ١٣٣ .

٥٤ ــ عصام العبد الله : رسالة المراة المؤمنة ص ١٦٨ .

٥٥ ــ علي ابراهيم حسن : نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب ص ١٤ .

٥٦ ــ وقول الله سبحانه وتعالى « يرفع الله الـــذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات والله بما تعلمون خبيـــر » (سورة المجادلة ، آية ١١) .

ومن النساء المتقدمات من شعراء الامويين ، وشاع ذكرها ايضـــا بالحسن والفصاحة وحفظ انساب العرب وايامها واشعارهـــا هي ليلى الاخيلية ، عاصرت الخلفاء الراشدين وواكبت بعض احـداث عصرهم ، وهي ليلى بنت حذيفة بن شداد بن كعب بن الرحال بن معـاوية .(٥٧) وقيل في نسبها هي ليلى بنت عبد الله بن الرحال بن شداد بن كعب بن معاوية بن عبادة بن عقيل ... بن عامر بن صعصعة (٥٨) .

وعلى الرغم من انها عاشت شطرا من حياتها في عصـــر الخلفـاء الراشدين الا اننا لا نجد لها في هذا العصر الا قطعة رثاء في عهـــد الخليفة عثمان بـن عفان ، ويظهر ان مـــا قالته لـم يصلنا ، وان اكثر شعرها الذي بين ايدينا يرجع الى العصر الاموي ، ففيه ذكر لخلفاء هذا العصر وبعض امرائه ، جاءتهم مادحة او شاكية او عاتبة ، وجـاء في اكثر المصادر انها شاعرة اموية ظهرت فيـه شاعريتها ، ومدحت خلفـاء وامراء العصر وحضرت بعض مجالسهم .(٥٩)

كان توبة بن حمير يهواها وهي ايضا كانت تهواه ، ولم يكن بينهما نسب الا انهما كانا جميعا من بني عقيل بن كعب، واقاما على حب عفيف

---

٥٧ ــ ابن حزم : جمهرة انساب العرب ٢٩١ ، والقلقشندي : نهاية الارب ص ٤٠٦ .

٥٨ ــ عمر كحالة : اعلام النساء ج ٤ ص ٣٢٦ .

نسبت الى جدها معاوية بن عبادة المعروف بالاخيل ، وكان قد ادرك الاسلام فاسلم (ابن حزم : جمهرة انساب العـــرب ص ٢٩١ ، وديوان ليلى الاخيلية ص ١٨ ، وقيل ايضا قيل لها الاخيلية لقول جدها كعب :

نحن الاخايل ما يزال غلامنـــا حتى يـدب على العصا مذكورا

٥٩ ــ ديوان ليلى الاخيلية ، جمع وتحقيق خليل ابراهيم العطية ، وجليل العطية ص ٢٠ .

دهرا الى ان قتل توبة . [٦٠] وكان ابوها قد رفض ان يزوجها توبة ، وقد اكدت عفة توبة معها للحجاج حين سألها قائلا ... ان شبابك قد ذهب واضمحل امرك وامر توبة ، فاقسم عليك الا صدقتني ، هل كانت بينكما ريبة قط ، أو خاطبك في ذلك قط ؟ قالت : « لا والله ايها الامير » . [٦١]

نالت ليلى الاخيلية مكانة لائقة في عصرها ، واحتكم بعض شعراء عصرها فتحكم بينهم ، وهي اشعر نساء العرب عند كثير من الرواة ، وقيل انها اغزر بحرا واكثر تصرفا واقوى لفظا ، من الخنساء ، اما الخنساء فاشعر منها في الرثاء ، [٦٢] اما ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء وكثير غيره من المؤرخين فلا يقدمون عليها بالشعر غير الخنساء [٦٣] .

ان ليلى الاخيلية ، مثال المرأة العربية التي جمعت الى جانب شاعريتها وسرعة بديهتها ، فصاحة وعقلا راجحا ، [٦٤] وقد وفدت على معاوية بن ابي سفيان يوما وانشدت بين يديه فسألها حاجتها قالت:«ليس مثلي يطلب الى مثلك حاجة فتخير انت ، فاعطاها خمسين من الابل [٦٥] .

---

٦٠ ــ الزجاجي : امالي الزجاجي ص ٧٧ .
٦١ ــ المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١٧٠ .
٦٢ ــ القيرواني : زهر الاداب ج ٤ ص ٩٩٨ ، وكحالة : اعلام النساء ج ٤ ص ٣٢٦ .
٦٣ ــ ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٤١٦ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٢٨٩ ، وابن تفرى بردى النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة ج ١ ص ١٩٣ .
٦٤ ــ القيرواني : زهرة الاداب ج ٤ ص ٩٣٢ .
٦٥ ــ المصدر السابق ص ١٠٠٣ .

ووفدت على مروان بن الحكم فوصلها وسألها حاجتها ودخلت على عبد الملك بن مروان وقد أسنت فقال لها : مارأى فيك توبة حين هويك ؟ قالت : ما رآه الناس فيك حين ولوك . فضحك حتى بدت له سن سوداء كان يخفيها .[٦٦]

ويروى ان ليلى الاخيلية ، قدمت على الحجاج فانشدته [٦٧]

اذا ورد الحجاج ارضا مريضة تتبع اقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء السقام الذي بها غلام اذا هز القناة سقاها

فاعجب الحاضرون بكمالها وجمالها وطلاقة لسانها [٦٨] وأمر لها الحجاج بخمسمائة درهم ، واكساها خمسة اثواب احدهما كساء خز ، ووصلها محمد بن الحجاج بوصفين .[٦٩]

وكان للحجاج اربع نسوة كلهن شاعرات وعالمات وفقيهات [٧٠]، ثم قال الحجاج لليلى ، أي نسائي أحب إليك ان انزلك عندها الليلة ، قالت ومن نساؤك ايها الامير ؟ فذكرهن لها فقالت القيسية ، فلما كان الغد دخلت عليها وأكرمتها ، فصبت حليها عليها حتى اثقلتها لاختيارها اياها

---

٦٦ ـ ابن قتيبة : الشعر والشعراء، المجلد ٤ ص ٤١٨، والقيرواني زهر الاداب جـ ٤ ص ١٠٠٤ .

٦٧ ـ المبرد : الكامل جـ ١ ص ٣٦ .

٦٨ ـ المرزباني : اشعار النساء ص ٥٥ .
ابن القيم : اخبار النساء ص ٣٣ .

٦٩ ـ عمر كحالة : اعلام النساء جـ ٤ ص ٣٣٠ .

٧٠ ـ عبد الله عفيفي : المرأة العربية في جاهليتها واسلامها جـ ٤ ص ١٤٤ .

ودخولها عليها دون من سواها من نساء الحجاج • (٧١)

اما عن وفاتها فقيل ان ليلى الاخيلية ، قبلت من سفر ، فمرت بقبر توبة ومعها زوجها (٧٢) وهي في هودج لها فقالت ، والله لا ابرح حتى أسلم على توبة فجعل زوجها يمنعها من ذلك ، وتأبى الا ان تلم به فلما كثر ذلك منها تركها فوصلت الى قبر توبة ، وسلمت عليه ، وكانت الى جانب القبر بومة كامنة فلما رأت الهودج واضطرابه فزعت وطارت في وجه الجمل فنفر ، فرمى بليلى على رأسها فماتت من وقتها ودفنت الى جنبه • (٧٣)

ومن الشعر والادب ننتقل الى الشجاعة والوفاء ، فلقد تألقت في تاريخ المرأة اسماء نساء بقيت ذكريات كفاحهن ونضالهن وجرأتهن منهن من عاصرن خلفاء الامويين الاوائل ، وهن نورا يضيء الطريق لكل امرأة تريد ان تجمع لنفسها بين عزة الدنيا ونعيم الاخرة ، وكان حكم معاوية وسعة صدره وحلمه الذي تعدى الحدود حتى وسع اللواتي حملن السيوف في صفوف علي رضي الله عنه ضده ، كالزرقاء بنت عدي ، وأم الخير بنت حريش فلما استتب له الامر استقدمهما اليه وحاورهما ، فكانتا متلاقيتان على الوفاء ، بالاضافة الى الانفة والصراحة، والاعتماد على النفس •

---

٧١ ـ زوجات الحجاج ثلاثة ام الجلاس بنت سعيد بن العاص الاموية ، وهند بنت اسماء بن خارجة ، وهند بنت المهلب بن ابي صفرة، نزلت ليلى عند القيسية وتقصد بها (هند بنت اسماء) : العقد الفريد جـ ٦ ص ٣٢٢ •

٧٢ ـ قيل انها تزوجت مرة وقيل مرتين : ديوان ليلى الاخيلية ، جمع وتحقيق خليل العطية وجليل العطية ص ٣٢ •

٧٣ ـ الاصفهاني : الاغاني جـ ١١ ص ٢٣٠ •

فقد استقدم معاوية الزرقاء بنت عدي ، معززة مكرمة ، ورحب بها ، وقال لها : « كيف حالك ياخالة ؟ وكيف رأيت مسيرك ؟ » . قالت : « خير مسير كاني كنت ربيبة بيت ، أو طفلا ممهدا ، » قال : « بذلك أمرتهم ، فهل تعلمين لم بعثت اليك ؟ » قالت : « وهل يعلم ما في القلوب الا الله » قال : « بعثت اليك لأسألك ، ألست راكبة الجمل بصفين بين الصفين توقدين الحرب ، وتحثين على القتال ؟. فما حملك على ذلك ؟ » . قالت : « يا امير المؤمنين انه قد مات الرأس ، وبتر الذنب » . قال : « صدقت ، فهل تحفظين كلامك يوم صفين ؟ » قالت : « ما أحفظه » قال : ولكنني والله احفظه . لله ابوك لقد سمعتك تقولين ــ وذكر مقالتها التي اسلفتها ــ ثم قال لها : « والله يازرقاء لقد شركت عليا في كل دم سفكه » فقالت : « احسن الله بشارتك ، يا امير المؤمنين وأدام سلامتك ، مثلك من بشر بالخير ، وسر جليسه » . قال : « وقد سرك ذلك ؟ » . قالت : « نعم لقد سرني قولك ، فاني بتصديق الفعل ؟ » قال: « والله لوفاؤكم له بعد موته احب الي من حبكم له في حياته !! » (اذكري حاجتك). قالت : « يا امير المؤمنين اني قد آلت على نفسي الا أسأل اميرا اعنت عليه سيئا ابدا : ومثلك اعطى من غير مسألة ، وجاد من غير طلب » . قال : « صدقت فاقطعها ضيعة أغلتها في أول سنة عشرة الاف درهم واعادها ومن معها مكرمين [٧٤]

ومن ذوات الحنكة والدراية ، ومن شهيرات نساء العصر الاموي عاتكة ام يزيد بن عبد الملك بن مروان ، وهي بنت يزيد بن معاوية [٧٥]

---

٧٤ ــ محمد جميل بيهم : المرأة في حضارة العرب ص ٣٥ ، وأحمد خيرت : مركز المرأة في الاسلام ص ١١٥ .

٧٥ ــ المبرد الكامل والاصفهاني : الاغاني جـ٢ ص ٣٤١، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٣٧١ .

وزوجة عبد الملك بن مروان ، فقد كان لها منزلة كبيرة عنـده ، وكانت احب الناس اليه ، كما يظهر من قصة تروى عنهما ، قيل غضبت يوما لأمر كان بينهما فطلب رضاها بكل شيء فأبت ، واختلت الى نفسها واقفلت بابها فلم تفتح لأحد حتى احتال عليها الخليفة بان أجلس أحد الخاصة ببابها يطلب توسطها كذبا عليها مدعيا ان احد ابنيه عدا على الاخر فقتله، وان الخليفة عبد الملك ابى الا أن يقتل المعتدي ، فكان هـذا سببا في صلحها مع الخليفة .[76]

كانت محسنة للفقراء تسعى لعمل الخير تصل الرحـم ، فحين سألها عبد الملك ان تجعل مالها لابنيها يزيد ومروان الاصغر قالـت : « علي بشهود عدول فلما دخلوا عليها قالت : « اشهدوا انـي تصدقت بمالي على فقراء آل ابـي سفيان » . وقالت ايضا : « انـي لا اخـاف على ولدي من الفقر فهما ابنا امير المؤمنين » .[77]

ولما قتل مصعب ونصب رأسه بدمشق وأرادوا أن يطوفوا به في نواحي الشام[78] ، اخذته عاتكة بنت يزيد فغسلته وطيبتـه ودفنتـه وقالت : « اما رضيتم ما صنعتم حتى تطوفوا به وتنصبوه في المـدن ، والله هذا بغي » .[79] وكانت قد نهت زوجها عبد المـلك عن قتال مصعب وبكت وبكى جواريها لبكائها ... وعبثا حاولت صـده عن محاربته .[80]

---

٧٦ ــ فيليب حتي : تاريخ العرب المطول ج ٢ ص ٢٩٧ .
٧٧ ــ البلاذري : انساب الاشراف ج ١ ص ٢٥٢ .
٧٨ ــ ابن القيم : الفتوح ج ٦ ص ٦٧ .
٧٩ ــ البلاذري : انساب الاشراف ج ١١ ص ٢٦ .
٨٠ ــ ابن طباطبا : الفخري في الاداب ص ١٢٣ .

اما ام البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك وابنـة عبد العزيز بن مروان ، فقد عرفت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجـة في مهـام الدولة . [81] كانت تقول لزوجها الوليد ، لا احب ان يخلو بك الحجاج وقد قتل الخلق ، وسمعت عن الحجاج يوما قوله للوليد ، دع عنـك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فان المرأة ريحانة وليست قهرمانة . [82]

فأرسلت في طلبه وعاتبته على كلامه للوليد ، وعلى اشيـاء كثيرة اخرى ، ولم تأذن له بالجلوس واختتمت قولها معه بقول الشاعر عمران ابن حطان فيه : [83]

اسد علي وفي الحروب نعامـة   فتخـاء تنفر من صغير الصافـر

ثم امرت جارية لها فاخرجته .

ولأم البنين اخبار كثيرة في الجود والكرم وغيرهـا من فضائل الاخلاق . [84]

ذكرت سابقا ان احدى زوجات الحجاج هي هند بنـت اسماء بن خارجة الفزاري وأعود هنا لأذكر شيئا عنها فهـي من ربـات الخبرة والحنكة والادب والكمال ، تزوجها جماعة من امراء العراق في الدولـة الاموية فتزوجها عبيد الله بن زياد ، وكانت تحبه حبا عظيما ، فلما قتـل

---

٨١ ـ علي ابراهيم حسن : نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيـب ص ٧٦ .

٨٢ ـ ابن قتيبة : عيون الاخبار جـ ٢ ص ١٧٠ .

٨٣ ـ المسعودي : مروج جـ ٣ ص ١٥٨ ، ص ١٥٩ .

٨٤ ـ المصدر السابق : ص ١٦٠ .

وكانت معه لبست قباء وتقلدت سيفا ، وركبت فرسا لعبيد الله ، ودخلت الكوفة ليس معها دليل ، وراءها بشر بن مروان ، فخطبها وتزوجها ثم مات عنها بشر فلم تجزع عليه ، ثم تزوجها الحجاج [٨٥] . ولم يطل زواجها من الحجاج ، فارسل اليها يطلقها بكلمتين ويمتعها بعشرة الاف درهم فأتاها الرسول وقال لها : « يقول الحجاج : كنت فبنت ، وهذه عشرة الاف درهم متعة لك » . فقالت له : « كنا فما حمدنا ، وبنا فما ندمنا ، واعطت العشرة الاف بشرى لمن بشرها بالطلاق [٨٦] ، وقيل كان قد بعث لها هدية زواجه منها مائة الف درهم وثيابا كثيرة . [٨٧]

وبعد ان طلقها الحجاج خطبها عبد الملك بن مروان ، فاشترطت عليه ان يقود الحجاج الجمل الذي يحمل هودجها من العراق الى الشام . [٨٨]

وكانت هند تستنشد جرير من وراء الحجاب وتجيب على اشعاره . [٨٩] وما دمت في الحديث عن الادب والحكمة والشجاعة فلا بد من التحدث عن اسماء بنت ابي بكر الصديق (رض) [٩٠] تزوجت في صدر الاسلام ، الزبير بن العوام ، وعندما وجد الزبير نفسه في ضيق اضطرت اسماء الى أن تكسب قوتها بالاعمال الشاقة ، وقسا زوجها في

---

٨٥ ـ الاصفهاني : الاغاني : ج ١٧ ص ١٥٩ .
٨٦ ـ ابن قتيبة : عيون الاخبار ج ٥ ص ٢٠٩
٨٧ ـ الاصفهاني : الاغاني ج ١٨ ص ١٣٠ .
٨٨ ـ ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ١٣٩ .
٨٩ ـ كحالة : اعلام النساء ج ٥ ص ٢١٧ .
٩٠ ـ وتكنى بذات النطاقين : طيفور بلاغات النساء ص ٢٧٣ .

معاملتها ، ثم طلقها فقاست مع ابنها ، [٩١] وشاركته في حياته العاصفة ، فهي المرأة التي اشتهرت بالحكمة ، والفصاحة ، والشجـــاعة ، وثبات الجنان . [٩٢]

ولمـــا قتل عبد الملك بـــن مروان مصعب بن الزبير ، ندب للخروج الى عبد الله بن الزبير ، فقام اليه الحجــــاج بن يوسف ، ولما رأى ابن الزبير من اصحابه تثاقلا وانه لا طاقة له بالحرب دخل على امـــه اسماء ، فقال : «كيف أصبحت يا اماه!» قالت : « اني لشاكية يا بني،ان في الموت لراحة ، وما احب ان اموت الا بعد خلتين ، اما أن قتلت فاحتسبـــك او ظفرت فقرت عيني بك ، قال : «يااماه ان هؤلاء قد اعطوني الامان» [٩٣] فقالت له : « أي بني لا تقبل خطه تخاف على نفسك منها مخافة القتل ، مت كريما ، واياك ان تؤسر ، او تعطى بيدك » . [٩٤]

مما ذكر يتبين ان ابن الزبير حاول ان يستسلم لما انفضت من حوله ذووه وولده ولكن امه صاحت بـــه : لا تمكن عبيد بني امية منك [٩٥]

---

٩١ ــ دائرة المعارف الاسلامية : ص ١٧٠ مادة اسماء ، واسمـــاء بنت ابو بكر هي الاخت الكبرى لعائشة زوجة الرسول (ص) . وعبد الله ابن الزبير هو أول مولود للمهاجرين بالمدينة وهو عريـــق النسب من جهة ابيه وامه ، ونشأته عالية رفيعة فوالده الزبير احد السابقين الاولـــين للاسلام وجدته لابيه صفية بنت عبد المطلب ، عمة الرسول (ص) وخالتـــه عائشة ، زوجة الرسول (ص) (احمد شلبي : التاريخ الاسلامي ص ٢١٦)

٩٢ ــ أحمد شلبي التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ص ٢١٧ .

٩٣ ــ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٣٩٩ .

٩٤ ــ المسعودي : مروج الذهب جـ ٣ ص ١١٣ .

٩٥ ــ طيفور : بلاغات النساء ص ١٣٠ ــ ١٣٢ .

احمد شلبي : التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ص ٢٢٦ .

ولضربة سيف في عز خير من ضربة سوط في ذل ، ولما قال لها : « ياماه اني اخاف ان ... قتلني هؤلاء القوم ان يمثلوا في ». قالت : « يا بني ان الشاه لا تألم السلخ اذا ذبحت » . (٩٦) وقالت له ايضا : « أرى ان تموت كريما، ولا تتبع فاسقا لئيما » . ولما دنا ليعانقها حست على جسمه الدرع فقالت له : « ما هذا صنيع من يريد ما تريد ، فخلع درعه وخرج يقاتل حتى قتل ، وارسل الحجاج رأسه الى عبد الملك ، وبعـــد بضعة أيام خرجت امه على الحجاج ، وهي عجوز وعمياء ، وبكت ابنها وقالت: اللهم اني راضية عنه فارضى عنه (٩٧) ، ثم قالت للحجاج : يا حجاج اما آن لهذا الراكب ان ينزل ؟ » فقال الحجاج ، « أما روحه فالى مالـك ، واما جثمانه ففي طريق البلاء » . فقالت : كذبت ياحجاج ! ان الله تبارك وتعالى من ذلك اعدل من ان يجمع على النبي سيف القاسطـــين ، وثأر الظالمين ، وقد قال النبي (ص) « يكون في امتي رجلان افـاك ومبير ، فاما الافاك فصاحبك عبد الملك بن مروان ، واما المبير فانـت ياحجاج ، فقال : صدقت يا اسماء ، انا مبير المنافقين ، فقالت : علمك شاهد عليك، ثم ولت وهي باكية ، فرق لها الحجـاج ، وامر بابن الزبير فانزل عـن خشبته وحمل اليها ، فامرت به وصب عليه الماء ، وحنط وكفن ، وصلي عليه ودفن(٩٨) ، وجاء في الكامل لابن الاثير : ان اسماء ارسلت الـى عبد الملك بن مروان تستأذنه في تكفينه ودفنه ، فأبى الحجاج ، وكتـب الى عبد الملك يخبره بصلبه فكتب اليه يلومه ويقول : الا خليت بينـه وبين امه ، فأذن لها الحجاج فدفنته . (٩٩)

---

٩٦ ــ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٣٩٩ .
٩٧ ــ فيليب حتي : تاريخ العرب المطول جـ ١ ص ٢٥٦ .
٩٨ ــ ابن اعثم : الفتوح جـ ٦ ص ٢٨٠ .
٩٩ ــ ابن الاثير : الكامل جـ ٤ ص ٣٥٧ .

كانت اسماء قد بلغت من العمر مائة سنة لم تقع لها سن ، ولا يبض لها شعر ولم ينكر لها عقل، واوصى ابنها عبد الله نسائه اذا سمعن بموته عليهن ان يضممن امه اليهن . [١٠٠]

لقد سجلت رحمها الله بنصحها لابنها شرفا لم يدركه سواها ففضلت موت ولدها على الحياة الذليلة . [١٠١]

وقبل ان اختتم قولي عن النساء اللاتي اشتهرن بالشجاعة والحكمة والدراية ، لا بد من الاشارة الى بعض نساء الخوارج ، فهناك امثلة رفيعة بين نساء الخوارج في العهد الاموي عرفن في الشجاعة ، فقد خرج شبيب بن يزيد الشيباني قائد الخوارج على عبد الملك بن مروان وكانت ام شبيب وزوجته غزالة الحرورية ، تتعاقب وزوجها على قيادة الجيش بشجاعة وبسالة ، تذكران على مر الايام ، وقد خرج الحجاج في جيش كثيف وخرجت غزالة في اربعين من جندها ، فواجه الحجاج جلدا لا مثيل له به وولى الادبار [١٠٢] .

وقد رمى الحجاج غزالة بخمسة جيوش وهي تلتهمهم التهاما فقد

---

١٠٠ – المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١١٤ .

١٠١ – الاصفهاني : الاغاني ج ١٨ ص ٥٥ ، وابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٦٤ .

١٠٢ – عمران بن حطان ، من شعراء الخوارج (الشراة) طالبه الحجاج فخرج هاربا وظل يتنقل في احياء العرب حتى مات في روذ ميسان الى جانب الكوفة (الاصفهاني – الاغاني ج ١٦ ص ٥٥) .

ملئت القلوب اثرا والافواه خبرا ، وسخر اهل العراق منه وقد عبر بذلك عمران بن حطان [١٠٣] بعد ان الح في طلابه كتب اليه :

اسد علي وفي الحروب نعامة   فنخاء تنفر من حفير الصافر [١٠٤]
هلا برزت الى غزالة في الضحى   بل كان قلبك في جناحي طائر

وقتلت في موقعة بين شبيب والحجاج غافلتها فرقة من جنده من ورائها ، ومن بعدها فاض جند شبيب وعفا اثره [١٠٤] ، وقبل ان تموت اقسمت لتصلي في مسجد الكوفة معقل الحجاج ، ودار امارته ، ولما اتت جامع الكوفة كان معها سبعين رجلا فصلوا به الغداة وخرجت غزالة مما كانت أوجبته على نفسها فقال الناس بالكوفة في تلك السنة :

وفت الغزالة نذرها   يا رب لا تغفر لها

ان النساء اللاتي ذكرتهن سابقا اشتهرن بالعلوم الشرعية واللسانية والعقلية ، وذوات رأي وظرف وجزل ، واشتهر منهن بالشجاعة والجرأة، ونستطيع ان نقول كلهن عربيات في نسبتهن وثقافتهن ، ويندر ان نجد بينهن من ينتمي الى غير الجنس العربي عدا القيان والمغنيات ، ومع ذلك فقد تثقفن ايضا بالثقافة العربية ، وتأدبن بالادب العربي ، لانهن جلبن الى البلاد العربية قبل ان يفقهن شيئا من معارف بلادهن .

وقد حفلت كتب الادب والتاريخ بذكر اخبار المغنين والمغنيات وكلهن من طبقة الجواري. وكان لهن تجار يعدونهن اعدادا فنيا ولاسيما

---

١٠٣ ـ الاصفهاني : الاغاني جـ ١١ ص ٥٥ وابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ ٢ ص ١٦٤ .

١٠٤ ـ احمد خيرت : مركز المرأة في الاسلام ص ١١٣ .

في الشعر والادب والرقص والموسيقى ، فنشأت طبقة رفيعة من الجواري المهذبات المثقفات ، كانت حافزا لغيرها من الطبقات الاخرى للاقبال على العلوم والفنون بغية الحظوى عند الرجال [١٠٥] .

وعزة الميلاء اقدم من غنى من النساء بالحجاز الغناء المتقن الموقع وكانت عزة مولاة للانصار بالمدينة وهي أصل من اصول الغناء العربي [١٠٦] وكانت جميلة الوجه والجسم فاضلة عفيفة النفس ، مطبوعة على الغناء ، حاذقة تضرب بالعود ، اخذت الغناء من قدامى المغنيات [١٠٧] ، ماتت قبل جميلة المغنية ، فاخذ عنها معبد ، وابن محرز ، ومالك بن ابي السمع وغيرهم من المكيين والمدنيين .

سميت الميلاء لتمايلها في مشيتها ، وقيل بل كانت تلبس الملاء وتشبه بالرجال ، فسميت بذلك ، او لانها كانت مغرمة بالشراب ، وكانت تقول : خذ ملئا واردد فارغا ، ولكن الصحيح انها سميت الميلاء ، لميلها في مشيتها . [١٠٨]

وقد حجت مع مجموعة من الشعراء والمغنين فتلقاهم في مكة امثال ابن سريج والعريض وابن محرز ، وخرج ابناء أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون الى حسن هيئتهم [١٠٩] .

---

١٠٥ ـ المسعودي : مروج الذهب جـ ٣ ص ١٣٩ .

١٠٦ ـ الاصفهاني جـ ١٧ ص ١٠١ ، محمد شفيق غربال : الموسوعة العربية ص ١٢١٠ .

١٠٧ ـ الاصفهاني : الاغاني جـ ١٧ ص ١٦٢ .

١٠٨ ـ المصدر السابق .

١٠٩ ـ احمد امين : فجر الاسلام ص ١٣٧ .

قيل كانت عزة مطبوعة على الغناء لايعيبها اداؤه ولا صنعته ولا تأليفه ، كانت تغني اغاني القيان ، ولما قدم نشيط ، وسائب خاثر المدينة [110] غنيا اغاني بالفارسية ، فلقنت عزة عنهما نغما وألفت عليها الحانا عجيبة ، فهي اول من فتن اهل المدينة بالغناء وحرض نساءهم ورجالهم عليه .

وكان ابن سريج في حداثة سنه يأتي المدينة ، فيسمع من عزة ويتعلم غناءها ، ويأخذ عنها ، وكان بها معجبا واذا سئل من احسن الناس غناء قال : مولاة الانصار المفضلة ، على كل من غنى وضرب بالمعازف والعيدان من الرجال والنساء .

وكان منزلها مأوى القراء ، منهم طويس ، ومعبد ، وكان طويس اذا ذكرها يقول هي سيدة من غنى من النساء مع جمال بارع ، وخلق فاضل واسلام لا يشوبه دنس ، تأمر بالخير وهي من اهله وتنهي عن السوء وهي مجانبة له . [111]

أما معبد فيقول : « أثبت عزة يوما وهي عند جميلة ، وقد أسنت وهي تغني على معزفة » ، وغنت يوما عمر بن ابي ربيعة لحنا لها في شيء من شعره ، فشق ثيابه وصاح صيحة عظيمة صعق معها ، فلما افاق

---

١١٠ ـ سائب خاثر : من فحول المغنين الاوائل في الدولة الاموية كان منقطعا الى عبد الله بن جعفر بن ابي طالب لا يغني لاحد سواه ، وقتل سائب في يوم الحرة في خلافة يزيد بن معاوية (الاصفهاني ج ١٧ ص ١٠١ وص ١٠٣) .

١١١ ـ المصدر السابق ج ١٧ ص ١٠١ ، ص ١٠٣ وص ١٦٤ .

قال له القوم « ألغيرك الجهل يا أبا الخطاب » قال : اني سمعت والله ما لم املك معه نفسي وعقلي . (١١٢)

وذكرت سابقا انها كانت قد هبت الى عائشة خاطبة لهـــا ، كلفها مصعب بن الزبير بذلك كما حضرت مجلسا لسكينة بنت الحسين مع ابن سريج وبعد ان غنيا قدمت لهما هدية ثمينة . (١١٣)

ومن المغنيات الشهيرات ايضا جميلة الخزرجية وهي من مغنيــات المدينة ، وهي مولاة بني سليم ، وكان دارها قبلة الموسيقيين والمغنين من المكيين والمدنيين ، وكان عمر بن ابي ربيعة يحضر حفــلاتها الموسيقية ، ومن تلامذتها حبابة وسلامة المشهورتان في بلاط يزيد . (١١٤)

وكانت تجمع الى جمالها ورزانتها وبرخامة صوتها ارفع طبقــات الغناء ، ويروى انها حجت على رأس موكب من المغنيـــين والمغنيــات والشعراء والموسيقيين والاصدقاء ، واندفع الناس بالحجاز وراء الغنــاء والموسيقى ، ولكنها كانت لا تخلط الجد بالهزل ، فانها لما قضت حجها سألها المكيون ان تجلس لهم مجلسا ، فقالت : للغناء ام للحديث ؟ قالوا: لهما جميعا فقالت ، ما كنت لأخلط جدا بهـــزل وأبـــت ان تجلس للغناء . (١١٥)

وكان الناس يجتمعون عند جميلة ، فتضرب ستـــارة ، وتجلس

---

١١٢ ـ المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٦٤ .

١١٣ ـ المصدر السابق : جـ ٧ ص ٤٥ـ٤٦ .

١١٤ ـ محمد جميل بيهم : المرأة في حضارة العرب ص ١٤٦ .

١١٥ ـ عمر كحالة : اعلام النساء جـ ١ ص ٢٢٩ .

الجواري كلهن فيضربن وتضرب ، وقيل ضربت على خمسين وترا فتزلزلت الدار ثم غنت على عودها ، والجواري يضربن على ضربها • [116]

وقد اجمع مجيدو عصرها في الموسيقى ، على انها امام هذا الفن ، وكانوا يحكمونها فيما كانوا فيه يختلفون ، وكانت جميلة في شبابها تجتمع بعزة الميلاء في شيخوختها ، وتستفيد منها ، فلذلك يمكن القول انها عوضت الفن عنها ، واشغلت مكانتها بعد وفاتها [117] وقد اتخذت كلتاهما المدينة مقاما لاقامة حفلاتهما الغنائية ، لان الحجاز وبالاخص المدينة كانت ابان العصر الاموي موطن الغناء ومنها انتشر الى الشام والعراق ، فقد استحضر خلفاء الامويين المتأخرين منهم المغنيين من الحجاز لاقامة حفلات الغناء في دمشق ، وقد اثر هذا الغناء في نفوس فتيان العرب من اهل هذا العصر ، ودفع بعضهم الى اللهو والعبث •

اما حبابة ورفيقتها سلامة ، فهما اشهر المغنيات في العصر الاموي قاطبة ، وكان لهما شأن كبير عند الخليفة يزيد بن عبد الملك •

فسلامة كانت مولده من مولدات المدينة وبها نشأت [118]، وسميت سلامة القس ، لان رجلا يعرف بعبد الرحمن بن ابي عمار الجشمي من قراء اهل مكة ، زاهدا ومتعبدا ، وكان يلقب بالقس لعبادته شغف بها

---

١١٦ ـ احمد امين : فجر الاسلام ص ١٧٧ •

١١٧ ـ محمد جميل بيهم : المرأة في حضارة العرب ص ١٤٦ •

١١٨ ـ ابن قتيبة : عيون الاخبار جـ ٤ ص ٨٩ •

فغلب عليها لقبه (١١٩) ، واشتراها يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان وعاشت بعده (١٢٠) .

وكانت سلامة وحبابة من فتيات اهل المدينة وكانتا حاذقتين ظريفتين ضاربتين ، وكانت سلامة احبهما غناء ، وحبابة احسنهما وجها، كانت سلامة تقول الشعر ، وكانت حبابة تتعاطاه وتحسنه .

وكانت سلامة واختها لسهيل بن عبد الرحمن ـ امير من قريش ـ (١٢١) وبالاضافة الى ان سلامة مغنية حاذقة ، وجميلة وظريفة ، وتقول الشعر وترويه ، كانت تقرأ القرآن وتحسن الحديث ، وكانت احسن الناس وجها واسماهن عقلا . (١٢٢)

كان يزيد بن عبد الملك خليع بني امية ، يبالغ في المجون يحضره الندماء في مجلسه ، وحذا حذوه في ذلك ابنه الوليد ، فكان اذا جلس يزيد للشرب (١٢٣) اقعد حبابة في يمينه وسلامة عن يساره ، ويقول يا حبابة غنيني ، ويا سلامة اسقيني .

---

١١٩ ـ ابن قتيبة : عيون الاخبار جـ ٤ ص ١٣٤ وابن قيم الجوزية ، اخبار النساء العربيات ص ٢٩ .

١٢٠ ـ الاصفهاني : الاغاني جـ ٨ ص ٣٣٦ ، ومحمد شفيق غربال، الموسوعة العربية ص ٩٩٥ .

١٢١ ـ الاصفهاني : الاغاني جـ ٨ ص ٣٣٧ ، وعمر كحالة : اعلام النساء جـ ١ ص ٢٣٢ .

١٢٢ ـ الاصفهاني : الاغاني ج ٩ ص ١٣٠ ، والقيرواني : زهرة الاداب ، وغرة الالباب جـ ١ ص ٢٣٢ .

١٢٣ ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٤ ص ١٤٦ـ١٤٧ .

ولما توفي يزيد رثته ، سلامة بمرثية ، فما سمع السامعون بشيء احسن من ذلك ولا اشجى ، وقد سألها الوليد بن يزيد يوما ان تغنيه شعرها في يزيد ، فادمعت عيناها ، فاقسم عليها فغنته ، قال لها الوليد : « رحم الله ابي ، واطال عمري وامتعني بحسن غناك يا سلامة ، ولكن ابم كان ابي يقدم عليك حبابة ؟ قالت : لا ادري والله . قال لها : ولكنني والله ادري، ذلك بما قسم الله لها ، قالت : يا سيدي أجل[١٢٤].

اما حبابة فهي الاخرى من مولدات المدينة ومن فتياتها ، كانت لرجل يدعى عثمان بن سهل بن حنيف ، واسمها العالية ، فلما صارت الى يزيد سماها حبابة . [١٢٥]

قال سليمان بن عيان : « هممت ان احجز على يزيد ، فرد يزيد حبابة فاشتراها رجل من اهل مصر » فلما ولي يزيد الخلافة قالت له زوجته ـ وهي من آل عثمان بن عفان ـ يا امير المؤمنين هل بقي من الدنيا شيء تتمناه بعده ؟ قال نعم حبابة . فارسلت سعدة رجلا فاشتراها باربعة الاف دينار وزينتها حتى ذهب عنها كلال السفر ، فأتت بها يزيد، فحظيت سعدة عند يزيد واكرمها وحياها . [١٢٦]

اما المسعودي فيقول : « ان مسلمة بن عبد الملك عدل يزيد وقال له ينبغي ان تظهر للناس العدل ، وترفض هذا اللهو ، فارتدع عما كان عليه ، واظهر الاقلاع والندم ، ولكن حبابة توسطت باحد المقربين الى

---

١٢٤ ـ الاصفهاني : الاغاني جـ ٨ ص ٣٤٨ـ٣٤٩ .

١٢٥ ـ عمر كحالة : اعلام النساء ، جـ ١ ص ٢٣٢ ، ومحمد شفيق غربال الموسوعة العربية ص ٦٨٨ .

١٢٦ ـ الطبري : تاريخ الطبري جـ ٧ ص ٢٣ـ٢٤ .

يزيد ورجت ان تسمع يزيد صوتا واحدا من شعر الأحوص ، ثم يفعل ما بدا له ، فقبل ، فلما فرغت جعل يردد قولها ثم عاد بعد ذلك الى اللهو ، وجاء في النجوم الزاهرة ، ان يزيد تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز واقام يسير سيرته ، اربعين يوما ، وترك اللهو والشراب ، فقالت حبابة الى احد المقربين ليزيد قربني منه حيث يسمع كلامي ، ولك عشرة الاف درهم ، ففعل فلما سمع انشادها دخل عليها وعاد الى انهماكه ولذاته . (١٢٨)

كانت سلامة عند يزيد بن عبد الملك قبل حبابة ، فباتت حبابة تنظر الى سلامة بتلك العين الجليلة المتقدمة ، وتعترف بفضلها عليها . (١٢٩)

وقد اخذت حبابة الغناء عن ام عوف ـ جارية يزيد بن عبدالملك ـ وذلك انها كانت تختلف الى يزيد قبل ان تفضي اليه الخلافة وهي طاعنة (١٣٠) في السن ، وكذلك اخذت الغناء عن جميلة ، وعزة الميلاء ، ومعبد وقيل انها دخلت على يزيد في ازار له ذنبان وبيدها دف ترمي به وتتلقاه ، وهي تغني (١٣١) ، وغنت يوما ليزيد فاهوى ليطير ، فقالت : يا امير المؤمنين ان لنا فيك حاجة ، فقال والله لأطيرن ، فقالت : على من تخلف الامة والملك قال عليك والله : وقبل يدها (١٣٢) .

---

١٢٧ ـ المسعودي : مروج الذهب جـ ٣ ص ١٩٧ .
١٢٨ ـ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٥٥ .
١٢٩ ـ الاصفهاني : الاغاني جـ ٨ ص ٣٣٧ .
١٣٠ ـ عمر كحالة : اعلام النساء جـ ٣ ص ٣٧٩ .
١٣١ ـ محمد شفيق غربال : الموسوعة العربية الميسرة ص ٦٨٨ .
١٣٢ ـ المبرد : الكامل جـ ٥ ص ١٢١ .

وخرجت معه الى ناحية الاردن ، يتنزهان ، فرماها بحبة عنب، فدخلت حلقها وهي تضحك فشرقت وصرخت وماتت ، فتركها ثلاثة ايام لم يدفنها(١٣٣) حتى اتنت وهو يشمها ويقبلها ويبكي •

وقيل ايضا انه دعا بحبابة فقال : اسقيني وغنيني ، فتناولت حبابة حبة رمان فوضعتها في فيها فغصت بها وماتت ، فجزع يزيد جزعا اذهله ، وامتنع من دفنها حتى قال له مشايخ بني امية ان هذا عيب فأذن في دفنها (١٣٤) ، وبعد خمسة ايام لم يطق ذلك فنبشها ثم مرض مرضا شديدا حتى قتله (١٣٥) بعد سبعة عشر يوما ، وفي رواية اخرى لم يلبث بعدها الاربعين يوما (١٣٦) حتى مات ودفن الى جوارها ، وقبل وفاته ضم اليه جويرية لها كانت تحدثها ، فكانت تخدمه ويتذكر بها حبابة حتى مات • (١٣٧)

وعلى ضوء هذا العرض التاريخي المركز لدور المرأة في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والادبية ، والثقافية ، والفنية نستطيع ان ندرك اهمية ما يمكن ان تلعبه من دور كبير في تقدم المجتمع ونهضته في مختلف ميادين الحياة ، فالمرأة هي روح الفن ، ومبعث الاصلاح ، تستطيع ان تكون سعادة المجتمعات ، واداة فعالة في بناء نهضتها وكانت المرأة ذات شأن في السلم والحرب ، والعلم ، والعمل والادب والفن جميعا ، والمثل الصالح ، والنموذج القويم •

---

١٣٣ ــ المصدر السابق جـ ٥ ص ١٢١ .
١٣٤ ــ المسعودي : مروج الذهب جـ ٣ ص ١٩٨ ، والمبرد الكامل ، جـ ٢ ص ٢٥٤ .
١٣٥ ــ المسعودي : مروج الذهب جـ ٣ ص ١٩٨ ، وتغرى بردى ، النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٥٦ .
١٣٦ ــ محمد شفيق غربال : الموسوعة العربية الميسرة ص ٦٨٨ .
١٣٧ ــ المسعودي : مروج الذهب جـ ٣ ص ١٩٩ .

المراجع

ابن اعثم : ابو محمد بن اعثم الكـوفي « ت ٣١٤هـ ـ ٩٢٦م ».
(الفتوح جـ ٦ الطبعة الاولى : الدكن ، الهند) .

ابن تفري بردى : ابو المحاسن يوسف بـن تفـري بـردى (ت ٨١٣ هـ ـ ٨٧٤هـ)
(النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصـر والقاهرة ـ القاهرة) .

ابن حزم : محمد علي بن سعيد بن حزم الاندلسي (٤٥٦ هـ) .
(جمهرة انساب العرب) نشر وتحقيق أ .ليفي بروفنسال، ١٩٤٨ ـ دار المعارف ـ مصر .

ابن خلكان : محمد بن شاكر بن احمد الكتبي (ت ـ ٧٦٤هـ) .
(وفيات الاعيان) جـ ٢ تحقيق الدكتور احسان عباس ـ بيروت .

ابن طباطبا : محمد بن علي طباطبا (٧٠٩ هـ) .
(الفخري في الاداب السلطانية والـدول الاسلامية)
(بيروت ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م) .

ابن عبد ربه : ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي (٢٤٦ هـ ـ ٣٢٨ هـ) (العقد الفريد) شـرح وضبط ، احمد امين ، وابراهيم الايباري وعبد السـلام هـارون ، القاهرة ، ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٩م) .

ابن قتيبة : ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٣ – ٢٧٦ هـ) (١ – عيون الاخبار) مجلد ٤ كتاب النساء القاهرة ١٩٦٩م .
(٢ – الشعر والشعراء) جـ ٢ المحقق احمد محمد شاكر القاهرة ١٣٦٩ هـ – ١٩٥٠ م .

ابن قيم الجوزية : شمس الدين ابو عبد الله محمد بن بكر الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية (٦٩١ هـ – ت ٧٥١هـ) .
(اخبار النساء) بيروت .

ابن الاثير : عز الدين ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الاثير .
(الكامل في التاريخ) بيروت ١٣٨٥هـ – ١٩٦٥م) .

ابو الفداء : عماد الدين اسماعيل بن علي بن شاهنشاه (٦٧٢ هـ – ٧٣٢ هـ) (المختصر في اخبار البشر) الطبعة الاولى، المطبعة الحسينية – القاهرة ١٣٢٥ هـ .

ارنولد : توماس ارنولد .
(تراث الاسلام) جمهرة من المستشرقين باشراف ارنولد ، تعليق جرجيس فتح الله – الموصل ١٩٥٤م.

الاصفهاني : ابو الفتح علي بن الحسن المرواني (٢٨٤ – ٣٥٦ هـ) .
(الاغاني) دار الثقافة – بيروت .

امين : احمد امين .
(فجر الاسلام) الطبعة التاسعة ١٩٦٤م القاهرة .

البلاذري : احمد بن يحيى بن جابر البلاذري ٢٧٩ هـ .
١ – (انساب الاشراف) جـ ٢ تحقيق باقر المحمودي الطبعة الاولى بيروت ١٩٧٤ م .
٢ – (انساب الاشراف) جـ ١١ مطبعة بولس ايل في مدينة غرينزولد المسيحية ١٨٨٣م .

بيهم : محمد جميل بيهم .
١ ــ (المرأة في التاريخ والشرائع) بيروت ١٣٣٩ هـ ــ ١٩٢١م .
٢ ــ (المرأة في حضارة العرب) الطبعة الاولى ــ دار النشر للجامعيين ، ١٩٦٢م .

حتي : فيليب حتي ــ (ت ١٩٧٨م) ، وادوار جرجس ، وجبرائيل جبور (تاريخ العرب المطول) الطبعة الرابعة ــ مطابع الغندور ــ بيروت ، ١٩٦٥م .

حسن : حسن ابراهيم حسن :
(تاريخ الاسلام السياسي ، والديني ، والثقافي ، والاجتماعي) القاهرة ، ١٩٥٣م .

حسن : علي ابراهيم حسن :
(نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب) الطبعة الثانية ، مطبعة السعادة ، ١٩٦٣م .

حسين : قدرية حسين .
(شهيرات النساء في العالم الاسلامي) دار الكتاب العربي ــ بيروت .

الخربوطلي : علي حسين الخربوطلي :
(تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي) دار المعارف بمصر ــ ١٩٥٩م .

خيرت : احمد خيرت (مركز المرأة في الاسلام) مطابع دار المعارف بمصر ١٩٧٥ .

دائرة المعارف الاسلامية : مادة رابعة العدوية ومادة اسماء .

الرفاعي : انور الرفاعي :
(الاسلام في حضارته ونظمه ، دار الفكر ، ١٣٩٣ هـ ــ ١٩٧٣م) .

الزجاجي : ابو القاسم : عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي (ت ٣٤٠ هـ) .
(امالي الزجاجي) تحقيق عبد السلام محمد هارون ، المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٣٨٢ هـ .

زيدان : جرجي زيدان: تاريخ التمدن الاسلامي ـ القاهرة ١٩٣١.

شلبي : احمد شلبي :
(التاريخ الاسلامي، والحضارة الاسلامية) الطبعة الثالثة ١٩٦٩م .

الطبري : ابو جعفر محمد بن جرجيس الطبري (٢٢٤هـ ـ ٣١٠هـ).
(تاريخ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك) دار المعارف ـ بمصر ١٩٦٦م .

طيفور : ابو الفضل احمد بن طيفور (٢٠٤ ـ ٢٨٠ هـ) .
(بلاغات النساء) دار النهضة الحديثة ـ بيروت ، ١٩٧٢م .

العبد الله : عصام العبد الله .
(رسالة المرأة المؤمنة) .

عبد الرحمن : عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) .
سكينة بنت الحسين ، مطبعة دار الهلال .

العطية : خليل ابراهيم العطية ، وجليل العطية جمعا وحققا .
(ديوان ليلى الاخيلية) دار الجمهورية بغداد، ١٩٦٧م.

عفيفي : عبد الله عفيفي .
(المرأة العربية في جاهليتها واسلامها) مطبعة الاستقامة ـ القاهرة .

غني : قاسم غني .
(تاريخ التصوف في الاسلام) ترجمة صادق نشأة ، واحمد القيسي ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .

غربال : محمد شفيق غربال :
(الموسوعة العربية الميسرة) مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ـ ١٩٥٩م .

القيرواني : ابو اسحاق ابراهيم بن علي الحصرمي القيرواني (ت ـ ٤٥٣هـ) (زهرة الاداب ، وثمرة الالباب) حققه محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٢م .

القلقشندي : ابو العباس احمد (٧٥٦ هـ ـ ٨٢١ هـ) .
(نهاية الارب في معرفة انساب العرب) تحقيق ، ابراهيم الابياري ـ القاهرة، ١٩٥٩م .

كحالة : عمر كحالة .
(اعلام النساء) الطبعة الثانية ، مطبعة الهاشمية ، ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٩م .

المبرد : ابو العباس محمد بن يزيد المبرد (٢٨٥ هـ) .
(الكامل في اللغة العربية والنحو والتصريف) ج ٢ عارضه بأصوله وعلق عليه محمد ابو الفضل ابراهيم ـ والسيد شحاتة، مطبعة النهضة ـ مصر .

المرزباني : ابو عبيد الله بن عمران المرزباني (ت ٣٨٤ هـ) .
(اشعار النساء) تحقيق سامي مكي العاني ، وهلال ناجي ، دار الرسالة للطباعة بغداد ١٩٧٦م .

المسعودي : ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) .
(مروج الذهب ، معادن الجوهر) طبعة منقحة ـ بيروت .

المنجد : صلاح الدين المنجد .
(جمال المراة عند العرب) بيروت مطبعة دار الكتب ١٩٥٧م .

اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبي (٢٩٢ هـ) (تاريخ اليعقوبي) ليدن بريل ، ١٨٨٣ م.

الفكر العربي بين الجبر والاختيار

الدكتور صالح الحمارنة
الجامعة الاردنية

صدر في الكويت مؤخرا كتاب جديد بعنوان : « الفكر العربي ــ جذوره وثماره » ، عن مكتبة الفلاح ، من تأليف الدكتور محمد الهاشمي ، استاذ الفكر العربي في جامعة بغداد لعدة سنين... فالدكتور الهاشمي منذ تخرجه من بريطانيا في مطلع النصف الثاني من هذا القرن قام بتدريس مادة الفكر العربي الاسلامي في العراق ، وقد تخرج على يديه العديد من الطلبة ، كما اشرف على كثير من رسائلهم الجامعية ، وكان دائما يحثهم على التفكير العلمي السليم وعلى الجد في العمل وعدم التسليم للغيبيات والكسل .

والدكتور الهاشمي في كتابه « الفكر العربي » يحاول القاء الضوء على العوامل الرئيسية التي دفعت بحركة الفكر في العصر الوسيط ، يوم نهض العرب بقوة الاسلام ، وأنشأوا دولة كبرى وحضارة زاهية [١] .

---

* تعليق على كتاب

في هذا الكتاب يجد القارىء دراسة دقيقة مركزة في موضوع الفكر العربي من حيث نشأته الاولى تتناول البذور الأصلية التي نشأت في العصر القديم ، وتأثير هذه البذور في العصر الوسيط ، وما لحق ذلك من تطور على يد المفكرين العرب .

لقد حرص مؤلف الكتاب على ابراز الرابطة ما بين الفكر الاسلامي وبين البيئة الفكرية والعلمية التي نشأ فيها وترعرع حيث يقول : « فاختلط العرب بأهل البلاد المفتوحة ... فأثروا فيهم وتأثروا بهم ... » [٢] ، فالبصرة والكوفة ، هذان المركزان الكبيران للحضارة العربية الاسلامية ، قد قامتا في السهل الذي كان « ميدان تفاعل حضاري ، ومركز نشاط اقتصادي ... ومنذ القدم كانت تلتقي فيه أمم مختلفة وعناصر متباينة ... تتنافس في كسب المعرفة وتتسابق في الحصول على وسائل القوة » [٣] .

وحين يتحدث عن الجزيرة العربية ، يشير المؤلف الى التأثير الحضاري في نفوس العرب هناك، قد جاء بعوامل اخرى فيقول : « ان العزلة قد جعلت من بلاد العرب حمى يتعذر على الغزاة اقتحامه ، فكانت بهذا ملجأ للمضطهدين من جيرانهم ومن غيرهم ، فلجأ اليها اليهود والنساطرة واليعاقبة في اعقاب الاضطهادات المختلفة التي واجهتهم ... » [٤] فهذه الجماعات الوافدة على العرب عاشت بينهم واختلطت بهم ، وكانت واسطة تعريفهم بالافكار الغريبة عنهم ، وبهذا ارتفع مستواهم الفكري وتهذبت جوانب من حياتهم الفطرية الساذجة [٥] ، ومعلوم أيضا أن العرب بدورهم كانوا يرحلون الى الاقطار المجاورة لهم ، وهذا الاحتكاك له

أثره الحضاري أيضا ، يذكر المقدسي : « كان فيهم من كل ملة ودين ، وكانت الزندقة والتعطيل ، فيما قريش والمزدكية والمجوسية في تميم واليهودية والنصرانية في غسان ، والشرك وعبادة الاوثان في سائرهم [٦] ، فكان العرب كما يقول المؤلف « يسيرون الى التحول بوعي وبدون وعي ، فجاءت اليقظة الفكرية فزادت في الميل الى هذا التحول وذلك انها كشفت مواطن ضعف الحياة القديمة ... ففي الشعر الجاهلي شواهد ، وفي حركة الاحناف شواهد اخرى ، هذه الدعوات وغيرها اسهمت اسهاما فعالا في الاعداد لما حققه الاسلام فيما بعد .[٧]

ان ابرز قضية يركز عليها مؤلف الكتاب هي حرية الرأي والأخذ بالعقلانية في الحياة الفكرية ، ويؤكد المؤلف ان الدين الاسلامي الحنيف يحث المؤمنين على ذلك ويدعوهم اليه ، « ومع ان الاسلام دين يقوم على الوحي والمعجزة وما اليهما مما يتصل بالفكر الماورائي ــ الذين يؤمنون بالغيب ــ الا انه كثيرا ما لجأ الى العقل يحرك به الوعي الذاتي للفرد ، ويدفع به الى الاستقلال في الرأي » [٨] . وان الدعوة الى النظر العقلي كثيرا ما ترد في القرآن الكريم تملأ صفحاته وتتدافع في سوره سواء المكي منها او المدني .

ويفرد الدكتور الهاشمي مكانا بارزا في كتابه لقضية الجبر والاختيار في الاسلام فهو يرى ان في الجبر « الانحراف امر مفروض من الله على الناس » في حين في الاختيار « يرى ان الانحراف من صنع الانسان ، وأن واجب الانسان تعديل هذا الانحراف » .[٩] ويعلل الدكتور الهاشمي ظهور هذين التيارين الفكريين بانه « في تاريخ كل أمة واجهت حكاما منحرفين يريدون التستر على انحرافهم ، ومحكومين واعين يريدون تعديل الانحراف » [١٠] ، ويشرح حقيقة

الانسان في ظل هذين التيارين فيقول : « ان الفرد في مجتمع « الجبر » آلة طواعية ، معزول عن الاسهام في العملية الاجتماعيـــة ••• والحياة الاجتماعية في ظل « الجبر » تدور في اطار خاص لاتتعـــداه ، اما في مجتمع « الاختيار » فان الفرد حر في تصرفه ، وهو مدعو الى الاسهام في العملية الاجتماعية اسهاما ايجابيا نافعا بل ان ذلك مفروض عليه لان الحياة الاجتماعية في نظر اهل الاختيار ، اوسع من ان تحد باطار خاص او نظام راكد ، وهي تستوحي نظمها وتقاليدها مـن الممارسة والتجربة لا من مجرد الفروض والتخمينات ، وذلك انه بدون التجربة تهبط الحياة ويتدنى مستواها » • (١١)

ويخلص المؤلف الى القول : « هذا وكأن منطق « الجبر » منطـق من يريد ابقاء ما كان على ما كان » ومنطق « الاختيار » منطق من يريد التغيير والتطوير والتسامي ، والذين بنوا قواعد الاسلام كانوا من اهل الاختيار ، وكان خصومهم من اهل الجبر •

اننا تلمس بوضوح ان موقف المؤلف مع حرية الاختيار ، فهو من اكثر المتحمسين لحرية الفكر في العالم الاكـــاديمي العربي ، ويرى ان الاسلام هو مع حرية الفكر ، وواجب كل مسلم وعربي ان ينهج المنهج السليم في حرية التفكير والعمل بمثابرة على تغيير عالمنا الراكد الى عالم متغير ينشد الخير والتقدم والانطلاق •• ويورد المؤلف أمثلة واضحـة من الآيات الكريمة تدعم موقفه وتؤيد ما يذهب اليه : « وقـال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه شيء » (١٦/٣٥) ، « واذا قيـل لهم انفقوا مما رزقكم الله ، قال الذين كفروا للذين آمنـوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ، ان انتم الا في ضلال مبين » (٣٦/٤٧) • وجـاء في سبب نزول هذه الآية الاخيرة ان مشركي قريش احتجوا في منـع

الحقوق ، من اطعام الغني للفقير ، بان قالوا ــ كيف نطعــم من يقدر الله على اطعامه ولو شاء لأطعمه • (١٢)

ويعلل الدكتور الهاشمي ظهور مبدأ الجبر عند المسلمــين ، بأن معاوية لما رأى الناس لايأتمرون بأمره جعل من الجبر حجة عليهم (١٣) ، واستمر هذا التيار بقوة مدة خلافة بني امية ، لكــن المؤلف يستدرك فيقول : « بيد ان الجبر الذي تسلحت به دولة بني اميــة في مواجهــة خصومها في ميدان الجدال والحوار لم يحقق ــ على مايبدو ــ الغــاية المقصودة منه كاملة ، ذلك انه مناقض لروح الاسلام ، هذه الروح التي فرضت على المؤمن الا يستسلم للواقع الفاسد وان يعمل لهدمه ، وقــد اكدت هذه الروح سيرة النبي الكريم والصحابة » (١٤) ، فبــين كيف فشل اتباع مذهب الجبر في الدفاع عن مذهبهم حين أخذ بعض الخلفــاء ومن يعملون في خدمتهم ، يجاهــرون بالفسق ويمعنون فــي البطش بخصومهم الى الحد الذي صار من المتعذر مــعه تبرير سيرتهم هــذه بالجبر ، وانها مفروضة على الناس بقضاء من الله (١٥) ، يضاف الى ذلك كله انه اذا كان فساد الحكام امرا واقعا يجب الاستسلام له ، لانه بقضاء الله فالثورة عليهم ، وهي واقع آخر ، لابد ان تكون بقضاء الله ايضا، وهكذا فان منطق الجبر كان في المدى البعيد هادما نفسه بنفسه (١٦) •

اما تيار الجماعة النقية الوادعة المؤمنة ، فلكي يجد تمثيلا لــه في ظل الجبر برز مذهب الارجاء كبديل له (وفي اللغة ، الارجــاء معناه التأجيل) ، واول ما ظهر مذهب الارجاء في دمشق ، والمقصود به هنــا هو تأجيل الحكم على مرتكب الكبيرة بالكفر او بالفسق ، وترك البــت في هذا الامر الى الله تعالى • ويقرر المؤلف ان مذهب الارجاء لايختلف

مضمونا وغاية عن الجبر ، وانما تميز بطابع التقوى [17] ، اذن فالارجاء تأكيد للاسلام الظاهري لا ثورة عليه •

وطبيعي ان نرى المؤلف يتحمس لمبدأ المعتزلة ، وان يرى في مواقف واصل بن عطاء وجماعته، بداية نصف دولة العقل على دولة النقل ، ذلك الزحف الذي اعطى للايمان صورا جديدة [18] ، « ان قدرة الانسان على افعاله واختياره لها وحريته في هذا الاختيار ، كان المنطق الاول للفكر العربي الاسلامي » [19] •

ومذهب الاعتزال ، بجانب الترجمة والنقل الى العربية ، كان من اهم الاسباب الكامنة وراء التقدم الكبير في الفكر العربي الاسلامي وفي مختلف العلوم في القرنين الرابع والخامس الهجريين •

ويخلص المؤلف الى القول ان « الفكر العربي الوسيط كان مرهونا بقضية الحرية في الرأي والقول ، فالحرية في الرأي تزود الفكر بالمادة الضرورية لبقائه ، والحرية في القول تفسح المجال للتنافس واختيار اقوم الآراء وأصوبها ••• وفي هذا تكمن فرص الابداع والاختراع » [20] ، ويتضح هذا بمقارنة العصر العباسي الاول بالثاني، ففي الاول كان الفكر نشيطا يوم كانت الحرية مكفولة ، وفي الثاني مال الى الركود بعد ان اشتدت السلفية على اهل العلم ، ومنعوا من الاشتغال بالعلوم العقلية والفلسفية [21] • وهنا يعلل الاستاذ المؤلف لماذا توفرت الحرية في العصر العباسي الاول ولم تتوفر في العصر الثاني منه ، يعلل ذلك بان المجتمع العربي انذاك كان يعتمل في داخله تياران رئيسيان متباينان ، او كما سماها المؤلف فريقين : « فريق انحدر من بيئة صحراوية قاسية تميزت بشح الموارد وصعوبة العيش الى حد

يعجز فيه الفرد مهما بذل من جهد عن تأمين حاجاته الضرورية ، وبذلك استولى عليه اليأس وفقد ثقته بنفسه واستسلم للقضاء والقدر ، وعاش عيشة راكدة ، «محافظا» يأبى التطور والتحرر ، ويرى فيهما « بدعة » و « ضلالة » ، وفريق آخر له جذور عريقة في الحضارة ، عاش في بيئة غنيةبالموارد فعمل وانتج وافاد من عمله وانتاجه ... وبذلك نشأ نشأة مستقلة يعتمد على ذاته ويثق بقدرته وعقله الخلاق ويرى فيهما مادة الحياة والوسيلة المؤدية الى التغيير والتطوير .. « هذان الفريقان اللذان كانا القوة الدافعة في ذلك العصر كانا في صراع دائم » (٢٢) .

وبعد ان يستعرض المؤلف النهوض الفكري والعلمي والفلسفي لدى العرب المسلمين في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، يشير الى الضعف والركود الذي اعقب ذلك ويعلل اسبابه بان « الفكر مال الى الركود نتيجة ضغط السلفية المتشددة على المشتغلين بالعلوم العقلية والفلسفية وانعدام حرية الرأي (٢٣) ، وان هذا الاتجاه المعادي للعلوم العقلية والفلسفية اخذ يتصاعد بمرور الزمن الى ان استقر على قاعدتين :

أ ـ احدهما حظر الاشتغال بهذه العلوم ومنع استخدامها في موضوعات الدين بحجة انها قاصرة عن درك الحقائق ولان الاشتغال بها يؤدي الى الالحاد .

ب ـ والاخرى اعتماد ماوراء العقل والوجدان طريقا للكشف عن الحقيقة الدينية ... والعكوف على العبادة والرياضة الصوفية .

وهنا يتطرق المؤلف الى الصوفية واثرها في الحياة الفكرية لدى العرب المسلمين فيشير الى ان الصوفية التي اعتمدها كثير من الناس ، هي الطريقة الهندية ، هذه الطريقة التي تدعو الى اعتزال الناس والدنيا

وقتل الجسد والشهوة ، وبظهور التصوف ، يقول المؤلف ، « تكتمل المذاهب الاربعة التي انتهى اليها الفكر العربي في العصر الوسيط وهي: السلفي والعقلاني والكلامي والتصوف » (٢٤) .

ويشرح المؤلف بجمال ان الاسلام ضد التصوف الذي يدعو الى قهر الحياة والجسد في المخلوق ، فيقول : « اجل لقد دعا الاسلام الى الزهد في حطام الدنيا وحث الناس على البساطة في العيش والقصد في المأكل والملبس وذلك لمواساة الفقراء والمحرومين ومساعدتهم ، وقد ضرب الرسول الكريم والصحابة الاجلاء مثلا اعلى في هذا الباب ، فكانوا قدوة لغيرهم في التضحية ونكران الذات . بيد ان الرسول الكريم والصحابة ، كانوا مع هذا يعملون من اجل الدنيا ، ويسعون في طلب الحياة ، وعملوا من اجل الحصول على وسائل القوة فيها ، وتنافسوا في ذلك اشد التنافس ، فاين هذا من بغض الحياة واماتة الاحساس وتعذيب الجسد والتمارين المولدة للذهول الصوفي ؟ هذا يدفع بحركة الفكر وذاك يعيقها .... » (٢٥) .

ويؤكد المؤلف في النهاية حقيقة هامة جدا وهي « ان الخلط بين التصوف الذي هو اصيل في دين الاسلام ، والتصوف الذي هو غريب عنه طارىء عليه ، هو الذي حمل بعض « الباحثين » على ان يعزو ركود الفكر العربي في العصر الوسيط الى دين الاسلام ، في حين ان هذا الدين بريء من ذلك (٢٦) .

وبعد ، ففي هذا الوقت العصيب الذي يواجه الشعوب العربية ومثقفيها ، والذي يكثر فيه الدس والتضليل بل والتحريف في تراثنا الثمين ، ويكثر من جهة اخرى التزمت والتشدد ، وتزداد صيحات

اللاعقلانية وصرخات الطائفية الضيقة ، وترتفع كذلك دعوات التعصب المقيت بحيث يخلق جو للفساد ثم للمزايدات الفارغة وتروج بضاعة المتاجرين بالمبادىء والقيم ، هؤلاء الناس الذين نرى في رد الكندي (ت ٢٦٠ هـ) ، فيلسوف العرب ، على السلغيين الذين يتظاهرون بالدفاع عن الدين ، نرى فيه ـ كما اورده المؤلف ـ جوابا شافيا لهم « .. ذبا عن كراسيهم المزورة التي نصبوها من غير استحقاق ، بل للترؤس والتجارة بالدين وهم عدماء الدين ، لان من تجر بشيء باعه ، ومن باع شيئا لم يكن له ، فمن تجر بالدين لم يكن له دين ، ويحق ان يتعرى من الدين من عاند قنية علم الاشياء بحقائقها وسماها كفرا » (٢٧).. أقول ، في هذا الوقت صدر كتاب الدكتور الهاشمي القيم ، هذا الكتاب الذي يدعونا الى التفكير العلمي الحر السليم ، والى الاحتكام الى منطق العقل ، هذا العقل الذي يقول عنه الفارابي ، الفيلسوف ، « ان أخص الخيرات بالانسان هو عقل الانسان، اذ بالعقل صار الانسان انسانا» (٢٨) .. ، كما يحثنا على التعرف بوعي على تراثنا المجيد فان « المعرفة هي اثمن شيء يملكه الانسان في هذه الحياة » (٢٩) .

صحيح ان الكتاب يتعرض لمسائل اخرى كثيرة يمسها المؤلف مسا دون ان يتوسع في شرحها ، مثل مسألة : متى ظهر الخوارج ؟ فهناك اشارات جاءت في الكتاب تشير الى انهم ظهروا في اواخر ايام الخليفة عثمان (رضي الله عنه) ، وانهم برزوا ايام واقعة الجمل (٣٠) ، ثم ان الكتاب لا يناقش كثيرا من المدارس الفكرية الاخرى المتعددة ، والتي مسها الاستاذ الهاشمي مسا رفيقا ، وهو خير من يعرفها ، والتي كان بودنا لو طالت ... ثم نرى التسليم لدى المؤلف ببعض الروايات

التاريخية التي تحتاج الى نقد وتمحيص مثل الصفحات ٧٣ ، ٧٤ ، كما نجد في الصفحات من ٤٥ـ٥٠ سردا تاريخيا فيه شيء من الاسهاب يتنافى مع طبيعة الكتاب واسلوب الدكتور الهاشمي.

واخيرا ، فان الذي نرجو من استاذنا الكريم ، الهاشمي ـ امد الله في عمره ـ ان يتوسع في صفحات الكتاب في الطبعة او الطبعات القادمة حتى تعم الفائدة المرجوة ، آملين ان تشاع قراءته بين الناس .



المراجع والمصادر

١ ـ الدكتور محمد الهاشمي : الفكر العربي ـ جـذوره وثماره ، مكتبة الفلاح ـ الكويت ، سنة ١٩٧٨ ، ص ٥ .

٢ ـ الهاشمي : ن.م. ص ٥ .

٣ ـ ، ٤ ـ الهاشمي : ن.م. ص ٢٦ ، ٢٨ .

٥ ـ الشهرستاني : الملل والنحل ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .

الهاشمي : الفكر العربي ، ص ٢٨ .

٦ ـ المقدسي : البدء والتاريخ ، ٣١:٤ .

٧ ـ ، ٨ ـ الهاشمي : الفكر العربي ، ص ٣٠،٣٣ .

٩ ـ ، ١٠ ـ ، ١١ ـ الهاشمي : ن.م ص ٥٣ـ٥٤ .

١٢ ـ الطبرسي : مجمع البيان ٤٢٨/٨ .

الهاشمي : الفكر العربي ، ص ٥٤ .

١٣ ـ ، ١٤ ـ الهاشمي : ن.م ، ص ٥٤ .

١٥ ـ ، ١٦ ـ ، ١٧ ـ الهاشمي : ن.م، ص ٥٨ـ٥٩ .

١٨ ـ ، ١٩ ـ الهاشمي : ن.م ، ص ٦٥ـ٦٧ .

٢٠ ـ ، ٢١ ـ ، ٢٢ ـ الهاشمي : ن.م، ص ١٣٩ .

٢٣ ـ الهاشمي : ن.م ، ص ١٠٣ .

٢٤ ـ الهاشمي ن.م، ص ١١٥ .

٢٥ ـ ، ٢٦ ـ الهاشمي : ن.م ، ص ١٤٠ـ١٤١ .

٢٧ ـ الكندي : رسائل الكندي الفلسفية ، تحقيق الدكتور محمد عبد الهادي ابو ريدة ، ص ١٠٣ـ١٠٤ .

الهاشمي : الفكر العربي ، ص ١٠٠ .

٢٨ ـ الفارابي : التنبيه على سبل السعادة ، ص ٢٢ .

٢٩ ـ الهاشمي : الفكر العربي ، ص ١٠ .



"تيمورلنك في ديار بكر"

الدكتور عماد الدين خليل
المتحف الحضاري - الموصل

كان لظهور تيمورلنك القوي على مسرح الاحداث في الشرق ، وطموحه الشديد للسيطرة على العالم الاسلامي ، وحشده القوات الكبيرة لهذا الغرض ، والانتصارات السريعة التي احرزها في تقدمه نحو الغرب ، كل هذه العوامل اثرت تأثيرا مباشرا على وجهة الاحداث في منطقة (ديار بكر) حيث كان (الاراتقة) يحكمون منذ قرون عديدة •

والاراتقة هؤلاء هم عائلة تركية تنتمي الى جدها أرتق بن اكسك الذي قدم وعشيرته مع السلاجقة ولعب دورا كبيرا في تثبيت اركان دولتهم ايام السلطان الثالث ملكشاه (٤٦٥ ـ ٤٨٥ هـ) فولوه وابناءه عددا من المناصب العسكرية والادارية في العراق والشام وفلسطين •• وانتهى الامر بولديه سقمان وايلغازي الى الاستقرار بديار بكر في الجزيرة الفراتية في اواخر القرن الخامس الهجري وتأسيس اماراتهم هناك ، حيث ظلوا يحكمون الاقليم القرون الطوال ، ولعبوا دورا خطيرا

في مجرى العلاقات مع الصليبيين والمماليك والمغول ، فضلا عن العباسيين والسلاجقة ، كما اسهموا في النمو الحضاري للاقليم .. وكان سقوط آخر اماراتهم في ماردين على يد دولة الخروف الاسود عام ٨١٢ هـ [١] .

ولقد بذل الاراتقة لدى اقتراب الخطر التيموري جهودا كبيرة في اطلاع حكومة المماليك على تحركات تيمورلنك واهدافه العسكرية ، وتنبيههم الى مدى الاخطار التي تحيق ، ليس فقط بالامارات الموالية لهم ، بل بوجود المماليك ذاته ، كما غدت ماردين مركزا لاستخبارات المماليك في هذا الشأن . ولقد قام الاراتقة بهذا الدور بسبب قربهم من مسرح الاحداث ، وتعرضهم للخطر قبل غيرهم ، وولائهم للمماليك [٢] .

في ٤ رجب من عام (٧٨٩هـ ــ ١٣٨٧م) عاد الى مصر من ماردين الامير طغاي الذي كان قد سافر الى ماردين لكشف اخبار تيمورلنك ، واعلم المسؤولين ان اميران شاه بن تيمورلنك دحر قوة موالية للمماليك بقيادة قرا محمد امير التركمان ، وانه توجه بعد ذلك صوب آمد في ديار بكر ومن ثم تكاثرت الاشاعات عن قرب قيام تيمورلنك بغزو الشام ومصر على رأس قوات كبيرة « فحصل للسلطان ــ الظاهر برقوق ــ

---

١ ــ انظر : عماد الدين خليل : صفحات مجهولة من الغزو التتري ، مجلة المؤرخ العربي ، عدد ١١ سنة ١٩٧٩ .

٢ ــ انظر ابن الفرات ، تاريخ ٣٦١/٩ ، ٣٧٨ و
Lane - poole , Egypte , pp. 331 - 332 .

وابن اياس ، بدائع الزهور ٢٩٩/١ ، ٣٠٠ــ٣٠١ .

تشويش عظيم بسبب ذلك » وامر بالاستعداد لمجابهة الموقف [1] .

انشغل تيمورلنك طيلة السنوات التالية في الجبهة الشرقية ، ولم يوجه اهتمامه الجاد صوب الجبهة الغربية (العراق ، الجزيرة، الشام) الا في عام (٧٩٥هـ ــ ١٣٩٢م) بعد ان ثبت اقدامه في الشرق . ففي التاسع عشر من شوال من ذلك العام حضر الى مصر رسول الملك الظاهر عيسى امير ماردين واخبر المسؤولين بان تيمورلنك استولى على تبريز ، شمالي بلاد فارس ، وانه ارسل رسوله الى صاحب ماردين يطلب قدومه الى هناك فاعتذر هذا له « بان على يده يدا وهو صاحب مصر » فارسل تيمورلنك يقول له ، ان اسلافك حكموا هذه البلاد منذ مئات السنين وكانت الخطبة والسكة باسمهم « فايش كان صاحب مصر » ؟ [2] ، وواضح له انه ليس لسلطان مصر حكم بماردين ، ومن ثم ارسل اليه خلعة وطلب منه ان ينقش اسمه على الذهب والدنانير كاعتراف رسمي بسلطته . ولذا ارسل صاحب ماردين كتاب تيمورلنك هذا والخلعة بصحبة رسوله الى مصر ليعلم رأي السلطان « فاعيد الجواب اليه بان يخطب باسم سلطانه الى ان نرى ما نختاره » [3] ، وقد اكد صاحب ماردين بهذا الموقف مدى ارتباطه بسياسة المماليك والتزامه بما يرونه بشأن هذا الحدث الخطير [4] .

---

١ ــ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ٢٤٧/١١ .
٢ ــ ابن الفرات ، تاريخ ٣٤٣/٩.
٣ ــ العيني عقد الجمان (مخطوطة ٤٥٤/٦٥) ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ٤٣/١٢ ، ابن الفرات ، تاريخ ٤٠٥/٩ وانظر ابن دقماق الجوهر الثمين (مخطوطة ص ٢١٦) .
٤ ــ انظر المقريزي ، السلوك (القسم المخطوط ٤١٦/٣) عاشور ، العصر المماليكي ص ١٥٨ــ١٥٩ .

قام تيمورلنك في نفس العام (٧٩٥هـ ـ ١٣٩٢م) بمهاجمة بغداد ، واجرى فيها مجزرة رهيبة ، وتوجه في مطلع العام التالي نحو الشمال ففتح تكريت عنوة وتقدم الى الموصل فصالحه صاحبها وسار في خدمته ، ومن ثم تقدم الى ديار بكر [١] فاستولى على عدد كبير من مدنها وحصونها في فترة قصيرة كرأس عين والرها وميافارقين ، وقامت قواته خلال ذلك بنهب وتخريب معظم مناطق ديار بكر ، وقدم الى تيمورلنك حاكم حصن كيفا الايوبي وحاكم جزيرة ابن عمر واعلنا طاعتهما له فاعادهما الى امارتيهما دون ان يتعرض لهما بأذى [٢] . واراد الظاهر عيسى حاكم ماردين ان يحذو حذوهما بعد اذ لم ير جدوى انتظار نجدة من المماليك الذين لم يتخذوا موقفا حاسما ازاء قوات تيمورلنك في ديار بكر ، فيما عدا المحاولة التي قام بها نائب حلب بارسال قوة قوامها الف فارس هاجمت طلائع قوات تيمورلنك عند الرها وهزمتها فانسحب هؤلاء الى رأس العين [٣] ، وسوى وقوف قوات لب وبعض القبائل التركمانية على الفرات لصد حركات العدو [٤] .

جمع الظاهر عيسى حاشيته وقال : اني ذاهب الى هذا الرجل (أي تيمورلنك) ومظهر له الانقياد فان ردني حسبما اريد فهو المراد ،

---

١ ـ المقريزي ، السلوك (القسم المخطوط ٤١٦-٤١٧) ابن العماد ، شذرات الذهب ٣٣٧/٦ ، ٣٣٤ ، الصائغ ، تاريخ الموصل ص ٢٥٣ .

٢ ـ ابن العماد ، شذرات ٣٤٤/٦ـ٣٤٥ ، ابن خلدون ، العبر ١١٧٥/٥ـ١١٧٦ ، ١٠٨٢ـ١٠٨٥ ، البدليسي ، شرفنامة ص ١٧٥ ، ابن صصري ، الدرة المضيئة ص ١٤٨ ، ابن عربشاه ، عجائب المقدور في اخبار تيمور ص ٤٧ـ٤٨ ، الصائغ ، تاريخ الموصل ص ٢٥٣ـ٢٥٤ .

٣ ـ ابن الفرات تاريخ ٣٧٠/٩ .

٤ ـ ابن خلدون ، العبر ١٠٨٥/٥ .

وان طالبني بالقلعة فامتنعوا انتم ، واياكم ان تسلموها اليه او تعتمدوا على كلامه ، وان خيركم بين تسليم القلعة وبين اتلافي فاختاروا الثانية فانكم ان تسلموها اليه خرجتم من باطنكم وظاهركم واتى بالهلاك على أولكم وآخركم وخسرتم شعاركم وغبنتم انفسكم ودياركم .. ومن ثم توجه الى تيمورلنك بعد ان استخلف ابن اخيه الملك الصالح شهاب الدين احمد بن الملك السعيد اسكندر . ونزل يوم الاربعاء ١٥ ربيع الاول (٧٩٦هـ ــ ١٣٩٣م) واجتمع بتيمورلنك في نهاية الشهر بمكان يدعى الهلالية . وسرعان ما قبض عليه تيمورلنك وطلب منه تسليم القلعة فاجابه : « بان القلعة عند اربابها وبيد اصحابها وانا لا املك الا نفسي فقدمتها اليك وقدمت بها عليك فلا تحملني فوق طاقتي » . فأتى به تيمورلنك الى القلعة وطلب من اهلها تسليمها اليه فأبوا فقدمه اليهم ليضرب عنقه او يسلموا فرفضوا ، فطلب منه كي يؤمنه ستة ملايين درهم فضي ، فضلا عن الهدايا التي يتقرب بها اليه [1] . ويظهر ان الظاهر لم يتمكن من استجابة طلبه الاخير لذا ضيق عليه تيمورلنك في سجنه ومنعه عن الناس « ليذهب عنه ما به من قوة » [2] ومن ثم اخذ تيمورلنك يتردد وقواته في انحاء ديار بكر والموصل يفسدون ويخربون. وفي جمادي الاخرة امر قواته بالتوجه الى ماردين فتقدموا اليها بسرعة مذهلة ووصلوها على حين غفلة يوم الثلاثاء الثاني عشر من الشهر المذكور فحاصروها فجرا واحلوا بها الدمار [3] ، وتسلقوا اسوار المدينة

---

١ ــ ابن عربشاه، عجائب المقدور ص ٤٨ـ٤٩ .

٢ ــ المصدر السابق ص ٤٩ .

٣ ــ المصدر السابق ص ٤٩ ، وينقل عنه ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي (مخطوطة ٢/٤٩٧) ويذكر الغياث في تاريخه (ص ٢٠٧) ان سبب عودة قوات تيمورلنك الى ماردين هو اعلانها العصيان ، كما يذكر

من ثلاث جهات ، الجنوب والغرب والشرق ، وتمكنوا من الاستيلاء عليها عنوة وخربوا فيها وفسقوا ، وانسحب اهالي المدينة الى القلعة تحت حماية نبال جند القلعة ، وبقي قسم منهم يقاتلون الاعداء . واستمر القتال حتى امتلأت المدينة بالقتلى والجرحى ، وعندما دخل الليل انسحب جند تيمورلنك وعسكروا تجاه المدينة واخذوا يعدون انفسهم لهجوم جديد لدى الفجر [1] . وقام علاء الدين الطنبغا ــ نائب السلطنة بماردين ــ وجماعة من الامراء بتعزيز التحصينات [2] . وما ان طلع الفجر حتى قامت قوات تيمورلنك بهجومها ضد المدينة بشكل اشد واعنف فخربوها وهدموا اسوارها وتمكنوا عقيب الظهر من الاستيلاء



البدليسي (شرفنامة ص ١٥١) انه صدرت من حاكم ماردين بحق اصحاب تيمورلنك امور غير مرضية . والواضح ان القلعة لحين وقوع هذه الاحداث لم تخضع لتيمورلنك او تعلن طاعتها له مما يضعفه ما اورده البدليسي والغياث ، فضلا عن ان ما اورده ابن عربشاه في هذا المجال يعتبر اشد وثوقا بسبب معاصرته للاحداث ، وانظر ابن خلدون ، العبر ١١٧٦/٥ ،وابن صصري ، الدرة المضيئة ص ١٤٨ .

١ ــ ابن عربشاه ، عجائب المقدور ص ٤٩ــ٥٠ ، وينقل عنه ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي ٤٩٧/٢ .

٢ ــ ابن الفرات ، تاريخ ٤٥٣/٩ العيني ، عقد الجمان (مخطوطة ١١/٦٦ــ١٢) ويشيران الى ان هؤلاء قاموا بتنصيب الملك الصالح ابن اخي الملك الظاهر عيسى سلطانا في ماردين عوضا عن الظاهر الذي كان محتجزا لدى تيمورلنك. ونحن نعلم ــ حسبما اورده ابن عربشاه ــ ان الظاهر قام بنفسه باستخلاف ابن أخيه قبيل مغادرته لماردين .

على البلد [1] واستغلوا مزارعه وبساتينه للحصول على المؤونة [2] ، ومن ثم شددوا حصارهم على القلعة ، وابلى الطنبغا نائب ماردين بلاء حسنا في القتال ، وتمكن انصاره من حماية القلعة وقتل عدد كبير من قوات تيمورلنك [3] ، ولما فشل هذا في الاستيلاء على القلعة فكر بسلوك سبيل الحيلة والمصالحة ، فارسل اليهم مع رسوله يقول : نعلم اهل قلعة ماردين والضعفاء والعجزة والمساكين اننا قد عفونا عنهم واعطيناهم الامان على نفوسهم ودمائهم فليأمنوا وليضاعفوا لنا الادعية [4] . ولكن حيلته لم تنجح لشدة يقظة المسؤولين في ماردين . وبسبب ذلك ولقلة المؤونة ، واشتداد البرد اضطر الى فك الحصار والتوجه الى آمد [5] . وما ان فرض الحصار عليها وبدأ في قتالها حتى طلب اهلها الامان فأمنهم ثم ما لبث ان اعمل فيهم السيف واباد معظمهم وقام بتخريب المدينة ، كما تمكن من الاستيلاء على بعض المواقع الاخرى في المنطقة . ومن ثم عاد الى بلاده في ذي القعدة عام (٧٩٦هـ

---

١ ـ ابن عربشاه ، عجائب المقدور ص ٥٠ ، ويشير ابن صصري (الدرة المضيئة ص ١٥٨) الى ان الشائعات وصلت دمشق باستيلاء تيمورلنك على ماردين ، وان رد الفعل لدى اهالي دمشق كان شديدا حيث عمهم الخوف ، مما يشير الى مدى اهمية ماردين كأهم حصن في الجزيرة .

٢ ـ التاريخ الغياثي ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

٣ ـ ابن الفرات ، تاريخ ٤٥٣/٩ ، العيني ، عقد الجمان (مخطوطة ١١/٦٦ـ١٢) .

٤ ـ ابن عربشاه ، عجائب المقدور ص ٥٠ وهو يذكر انه نقل رسالة تيمورلنك هذه الى أهالي ماردين بنصها كما وجدها .

٥ ـ يخطىء (بوفا) في الاشارة الى ان تيمورلنك استولى على ماردين خلال هذا الهجوم (دائرة المعارف الاسلامية، الترجمة العربية ١٦٠/٦ـ١٦١) .

ــ ١٣٩٣م) [١] مستصحبا معه الملك الظاهر « بسوء نية » [٢] حيث اعتقله في مدينة سلطانية مع اربعة من كبار امرائه ، وضيق على الظاهر لكي يقطع خبره كلية عن ماردين [٣] .

وما ان رحل تيمورلنك عن ماردين حتى ارسل صاحبها الى الظاهر سلطان المماليك في مصر يخبره ان تيمورلنك لم يستطع الاستيلاء على ماردين وانه عجز عنها ، وكان قد اشيع قبل ذلك على افواه الناس انه قد استولى عليها ، ففرح السلطان بذلك وخلع على رسوله [٤] .

وهكذا استطاعت ماردين بما كانت تتمتع به من حصانة ، وبتضحية

---

١ ــ ابن عربشاه ، ص ٥٠ ، ونقل عنه ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي (مخطوطة ٤٩٧/٢ــ٤٩٨) الغياث ، تاريخ ص ٢٠٦ــ٢٠٧، ابن خلدون ، العبر ١١٧٦/٥ ،١٠٨٢ــ١٠٨٥ ، ابن دحلان ، الفتوحات ١٠٥/٢ ، البدليسي شرفنامة ص ١٥١ــ١٥٢ ، الرمزي ، وقائع قزان وبلغار ٦١٣/١، ويذكر الصائغ (تاريخ الموصل ص ٢٥٣ــ٢٥٤) نقلا عن السمعاني (المكتبة الشرقية مجلد ٣ جزء ٢ ص ١٣٤) ان سبب عودة تيمورلنك الى ماردين والمواقع المجاورة في الجزيرة والقيام باعمال انتقامية ضدها في عامي ٧٩٦و٨٠٣ هو عدم وفاء حكامها بالالتزامات المالية السنوية تجاه تيمورلنك ، ولان هؤلاء تغيروا عليه وخلعوا طاعته وصاروا في طاعة السلطان احمد الجلائري بعد عودته الى بغداد . واذا كان هذا ينطبق على ماردين في عام ٨٠٣ كما سيأتي فانه لاينطبق في المرة الاولى ٧٩٦ حيث ان ماردين لم تلتزم حينذاك بأي شيء تجاه تيمورلنك .

٢ ــ ابن عربشاه ص ٥٠ .

٣ ــ ابن عربشاه ص ٥٠ ونقل عنه ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي (مخطوطة ٤٩٧/٢ ــ ٤٩٨) .

٤ ــ ابن الفرات تاريخ ٣٧٨/٩ ، العيني عقد الجمان (مخطوطة ٤٦١/٦٥) .

سلطانها الظاهر واخلاص امرائها ان تصمد امام هجوم تيمورلنك وان تحافظ على استقلالها دون معظم مدن الجزيرة ، ودون ان تحصل على مساعدة تذكر من حلفائها المماليك • وقد اتجه رسول صاحب ماردين ثانية الى مصر في جمادي الاخرة من العام التالي (٧٩٧هـ ــ ١٣٩٤م) لمقابلة السلطان الظاهر ، فخلع هذا عليه وارسل معه خلعا ثمينا للملك الصالح صاحب ماردين [١] تأكيدا لحسن العلاقات بين الطرفين ولموقف الاخير من هجوم تيمورلنك وعدم تخاذله ،ومن ثم اعيدت خطبة صاحب ماردين للسلطان الظاهر [٢] •



حاول تيمورلنك ان يستخدم وسيلة اخرى لاخضاع ماردين بعد ان اخفق في الاستيلاء عليها بالقوة، فعمل على الاستفادة من وجود الظاهر عيسى محتجزا لديه منذ عام (٧٩٦هـ ــ ١٣٩٣م) • ويصور ابن عربشاه الخطوات التي اتبعها تيمورلنك لتحقيق هذا الغرض حيث يقول: مكث الظاهر سنة معتقلا لا يدري احد خبره ، ثم وفدت الملكة الكبرى اليه وخففت عنه ما به من ضيق وسمحت له بمراسلة جماعته وحرضته على طلب الدخول في رضى تيمورلنك وطاعته زاعمة له انها ناصحة له وطالبة مصلحته ، وكان ذلك من مكائد تيمورلنك وباشارته • ثم رجع تيمورلنك بعد ان صفى مشاكله في الجهات الشرقية من مملكته الى همذان في شعبان (٧٩٨هـ ــ ١٣٩٥م) واستدعى الظاهر « باكرام تام وانشراح صدر وخاطر » ففكوا قيوده وقيود امرائه وعظموه غاية

---

١ ــ ابن الفرات ، تاريخ ٩/٤٠٥ .

٢ ــ ابن دقماق ، الجوهر الثمين (مخطوطة ص ٢٢١) .

التعظيم مع ذويه ودخل الظاهر على تيمورلنك في ١٧ رمضان « فتلقاه ــ هذا ــ بالاحترام واعتنقه واذهب عنه دهشه وقلقه وقبله في وجهه مرارا واعتذر اليه مما فعله معه جهارا وقال له ، انك والله ولي ورفيع القدر كأبي بكر وعلي وتحلل منه عما صدر في حقه ، واضافه ستة ايام ، وخلع عليه خلع الملوك العظام واحله محلا جميلا واعطاه عطاء جزيلا . من ذلك مائة فرس وعشرة بغال وستون الف دينار وستة جمال وخلع مزركشة . وانعامات وافرة .. ولواء يخفق على رأسه » كما اعطاه ستا وخمسين منشورا كل منشور بتولية بلد. وان لاينازعه فيه منازع . وكان مما شملته تلك البلاد ، الرها في اقصى ديار بكر الى حدود اذربيجان وارمينية « وكل ذلك من الدهاء والمكر وان جميع حكام تلك البلاد يكونون تحت طاعته ، معدودين في جملة خدمه وجماعته ، يحملون اليه الخراج والخدم ولا ــ يصدرون الا عن امره ــ بحيث يكون شخص كل من مجاوريه ، بما افاء الله عليهم ، لظله فيء ويعفى هو فلا يحمل الى تيمورلنك ولا الى غيره شيء، وهذا وان كان في الظاهر كالاكرام فانه فيما يؤول اليه وبال عليه وانتقام ، وفيه كما ترى ما فيه ، والقاء العداوة بينه وبين مجاوريه »[1] .

اشترط تيمورلنك على الظاهر ، لقاء ذلك ، ان يكون تحت حمايته ويعول في كل اموره عليه ، وخاصة في النواحي السياسية والعسكرية ، وان يلبي دعوته بالقدوم اليه كلما طلبه[2] ، ويضرب السكة باسمه . وأن لا يطيع صاحب مصر ، وان يلقي القبض على الامير علاء الدين

---

١ ــ ابن عربشاه ص٥١ وانظر ابن العماد، شذرات ٦/٣٥٢ــ٣٥٣.

٢ ــ ابن عربشاه ص ٥١ ، ونقل عنه ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي (مخطوطة ٢/٤٩٧ــ٤٩٨) ، ابن العماد ، شذرات ٦/٣٥٣ .

الطنبغا فور دخوله ماردين ويرسله اليه • فحلف له الظاهر على ذلك (١) ومن ثم عانقه تيمورلنك وودعه وامر امراءه بتشييعه ، فخرج من الضيق الى السعة في رمضان سنة (٧٩٨هـ ـ ١٣٩٥م) وتوجه الى تبريز حيث اجتمع باميران شاه ابن تيمورلنك فزاد هذا في اكرامه وعطاياه وشيعه في احسن هيئة ، ومن ثم توجه الى ديار بكر عن طريق ارمينية• وما ان وصل خبره الى اهالي امارته حتى ابتهج الناس ودقت البشائر يوم الجمعة الحادي عشر من شوال ، وخرج اهالي ماردين واكابرها للاستقبال وعلى رأسهم ولي عهده الملك الصالح ، فدخل المدينة وتوجه الى مدرسة حسام الدين وزار والده وامواته الماضين وعزم على التنازل عن منصبه والتوجه الى الحجاز ، الا ان الناس خاصتهم وعامتهم لم يتركوه « وتراموا عليه » وعند ذلك قرر البقاء في منصبه (٢) • وبلغ الطنبغا ان الظاهر يريد القبض عليه وارساله الى تيمورلنك فهرب الى مصر في المحرم من عام (٧٩٩ هـ ـ ١٣٩٦م) فانعم عليه السلطان (الظاهر برقوق) وعلى من معه ورتب لهم الرواتب الضخمة (٣) •



بهذا الاسلوب استطاع تيمورلنك اخضاع الاراتقة في الوقت الذي عجز عن تحقيق ذلك باستخدام القوة • وبتسلم الظاهر عيسى مقاليد الحكم في ماردين في اواخر عام (٧٩٨هـ ـ ١٣٩٥م) اتجهت

---

١ ـ ابن العماد ، شذرات ٣٥٣/٦ •

٢ ـ ابن عربشاه ص ٥١ـ٥٢ ، ونقل عنه ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي (مخطوطة ٤٩٧/٢ـ٤٩٨) •

٣ ـ ابن الفرات تاريخ ٤٥٣/٩ ، ابن دقماق ، الجوهر الثمين (مخطوطة ص ٢٢٣) العيني ، عقد الجمان (مخطوطة ١١/٦٦ـ١٢) •

العلاقات الخارجية للامارة وجهة جديدة مخالفة لما كانت عليه فقد غدت خاضعة لتيمورلنك وكان عليها ان تخطب له وتضرب السكة باسمه وان يلبي اميرهـا دعوة تيمورلنك كلما وعـاه والا يطيع صاحب مصر (١) ، وبهذا انتهت العلاقات الودية بين الاراتقة والمماليك تلك العلاقات التي استمرت ما يقرب من القرن والتي ظل الاراتقة طوالها موالين للمماليك في سياستهم الخارجية ومراسيمهم الداخلية ، فضلا عن ان شك الظاهر بجدوى علاقته مع المماليك وامكان قيام هؤلاء بانقاذ امـارته من غزو الغزاة ، دفعه الى مصالحة الايوبيين المتحمسين لتيمورلنك في حصن كيفا، كما دفع هؤلاء الى التصالح مع القبائل التركمانية التي بـدأت تغزو المنطقة وخاصة الآق قوينلو (٢) .

ولكن الاوضاع لم تستمر بهذا الاتجاه سوى فترة قصيرة ، كان الظاهر يتحين خلالها الفرص لاعلان العصيان على السيطـرة التترية . والواضح انه ارغم على قبول شروط تيمورلنك بسبب الظروف السيئة التي مرت به خلال فترة اعتقاله ورغبته في التخلص من الاسـر . وقد اوضح ابن عربشاه انه حاول التنازل عن منصبـه فور وصوله الـى ماردين مما يشير الى انه لم يخضع كل الخضـوع لاغراءات تيمورلنك وانه فضل التنازل عن منصبه على البقاء فيه تابعا للتتر يأتمر بأمرهم (٣) . وفي الندوة الادبية التي عقدت اثر تسلمه المنصب وما قيل فيهـا من

---

١ ــ ابن عربشاه ص ٥١ ، ابن العماد ، شـذرات ٣٥٣/٦ ، ابن الفرات تاريخ ٤٥٣/٩ .

٢ ــ Enc. Isl. Art. Artukids , New ed .

٣ ــ ابن عربشاه ص ٥٢ .

ابيات ايحاءات بمدى حقده على تيمورلنك ورغبته وحاشيته بزوال ملكه حتى لقد انشد احدهم وهو الحسن بن طيفور :

طغى (تمر) واستأصل الناس ظلمه وشاعت له في الخافقين الكبائر
لقد زاد بغيا فافرحوا بزواله لأن علي الباغي تدور الدوائر

ويظهر ان الظاهر كان يتمتع باستقلال كبير خلال السنوات التي سبقت عصيانه بسبب رغبته في التمرد على السلطة التترية من جهة ولانشغال تيمورلنك خلال تلك السنوات « في جهات اخرى وانه اهمل امر ماردين وتناساها ولم يتعرض الى ما يتعلق بها من مدنها وقراها »[1] ومن ثم اعاد الظاهر صاحب ماردين الخطبة لبرقوق في مصر [2] . وفي عام (٨٠٢هـ ـ ١٣٩٩م) اتاحت الظروف لتيمورلنك اتخاذ اجراءات شديدة ضد ماردين بسبب موقف صاحبها المتردد تجاه السلطة التترية. فقد استدعي تيمورلنك في ذلك العام من قبل بعض قواده بسبب عصيان بعض الامراء جنوبي الاناضول ، فتوجه الى ارزنجان ومنها الى ماردين حيث قامت قواته باعمال انتقامية ضدها من نهب وتخريب [3] . ويظهر ان تيمورلنك طلب من صاحب ماردين خلال ذلك مطالب عديدة فجاهر بالعصيان « لما كان قاساه اولا من طاعة ذلك الغادر ـ الذي ـ ندم على اطلاقه اول مرة » [4] .

لم يشأ تيمورلنك الانشغال فترة طويلة بماردين للعمل على اخضاع

---

١ ـ المصدر السابق ص ٦٣ .

٢ ـ ابن اياس ، بدائع الزهور ٣١٥/١ .

٣ ـ ٤ ـ ابن عربشاه ص ١١٦ .

صاحبها وتأديبه ، لذا غادرها على ان يعود اليها بعد تصفيـــة مشاكله وتنفيذ اهدافه الواسعة في الجهات الشمالية الغربية من العالم الاسلامي. واستطاع في تلك الجولة ان يـــدمر ويستولي على عـــدد من المدن الاسلامية في آسيا الصغرى والشام كسيواس ويهسنا وملطية ثم حلـب ودمشق . ثم كر عائدا في ٣ شعبان (٨٠٣ هـ ـ ١٤٠٠م) الى حلب ـ من دمشق ـ وفعل بها مافعله في المرة الاولى ، واتجه من هنـــاك الى ماردين بعد ان قوي مركزه اثر تحطيمه الجناح الشمالي لدولة المماليك. ونهبت قواته الرها لدى مرورهم بها ، ومن ثم ارسل تيمورلنك رسوله الى ماردين يستدعي الظاهر برسالة رقيقة اعرب فيها عن شوقه الشديد للقائه ، فأبى الظاهر ان ينزل اليه ولم يستمع الى كلامه « ولا التفـت اليه ، فانه كان قد (آذاه) اول مرة فما احتاج الى تجربته آخـر مرة ، وسلك معه بر السلامة » [(١)] واكتفى بارسال خادم له يدعى الحاج محمد ابن خاصبك ومعه الهدايا والخدم ، واعتذر لتيمورلنك عن حضوره بعدة أمور منها تخوفه من غدره كما فعل في المرة الاولى عـام (٧٩٦ هـ ـ ١٣٩٣م) فلم يلتفت تيمورلنك الى ذلك وتقدم على رأس قواته صوب ماردين ونزل على دنيسر في العاشر من رمضان وتهيأ لحصار ماردين . وكان سكان المدينة قد استعدوا لذلك فاخلوا المدينة وانتقلوا الى القلعة الشديدة الحصانة والتي تتمتع بموارد تموينية كثيرة في الجهات الخلفية من جبلها ذي الوادي الكثير الانهار والذي تنتشــر فيـــه المزارع والمراعي [(٢)] . وشدد تيمورلنك الحصار عليها من شتى جهاتها ، واخـذ يتدارس مع قواده نقاط الضعف في امكانياتها الدفاعيـــة ، ولم يكن

---

١ ـ ٢ ـ ابن عربشاه ص ١١٦ .

حواليها مكان للقتال ولا لنصب المجانيق ، فعول تيمورلنك على القيام بمحاولات لنقب بعض جوانب حصونها بالمعاول والفؤوس لفتح ثغرات فيها تتمكن قواته من التسرب عبرها الى قلب القلعة ، واستمرت عمليات الهدم والنقب الى العشرين من رمضان دون جدوى • ولما ادرك تيمورلنك عدم جدوى الاستمرار على الحصار قام بتخريب المدينة وتهديم اسوارها ومبانيها وجوامعها وقلع اشجارها « فمحا آثارها وفك اساسها واحجارها »[1] ومن ثم غادر ماردين في ٢٠ رمضان (٨٠٣ هـ ــ ١٤٠٠م) متوجها الى بغداد واخذ يعبث في طريقه بتلك المنطقة ، فخرب نصيبين ورعى مستغلاتها وفعل بها ما فعل بماردين[2] •

ترك تيمورلنك احد حلفائه التركمان وهو قرايلوك عثمان امير قبيلة (آق قوينلو) على حصار قلعة ماردين ، بعد ان ولاه على آمد وبعض المواقع المجاورة في المنطقة ، وقد اضطر هذا الى الانسحاب هو الاخر بسبب مناعة ماردين من جهة ، وعدم وجود المراعي الكافية لاطعام خيول القوات المهاجمة من جهة اخرى[3] •

وهكذا استطاعت ماردين ان تثبت قدرتها العظيمة على المقاومة بعد ان اعلنت العصيان على اقوى دولة في الشرق انذاك ، واستطاعت ان تقاوم حصارا تمكن اصحابه ان يكتسحوا بقواتهم الضخمة ــ خلال ذلك

---

١ ــ المصدر السابق ص ١١٧ ونقل عنه ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي (مخطوطة ٢/٤٩٧ــ٤٩٨) ، العيني ، عقد الجمان (٦٦/١٤٠).

٢ ــ ابن عربشاه ص ١١٧ــ١١٨ ونقل عنه ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي ٢/٤٩٧ــ٤٩٨ ، وتناول الحادثة باختصار كل من الغياث ، التاريخ الغياثي (مخطوطة ص ٢١١) ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ١٢/٢٦٤ــ٢٦٦ •

٣ ــ التاريخ الغياثي (مخطوطة ص ٢١١) وانظر ابن عربشاه ص ١١٨ •

العام بالذات ـ معظم الجهات الغربية الوسطى من العالم الاسلامي . وكان من المتوقع ان تسقط هذه الامارة او تعلن استسلامها فور عودة الجيوش التترية المنتصرة لحصارها في رمضان من عام (٨٠٣هـ ـ ١٤٠٠ م) ولا ريب ان هنالك عوامل عديدة مكنت ماردين من الثبات بوجه الحصار ، منها ان تيمورلنك كان منهمكا في الاستعداد للتوجه الى بغداد واعادة اخضاعها ، ولذا فانه ما لبث ان ترك احد قواده على الحصار وتوجه هو الى بغداد ، وكان من المرجح ، لو اشرف بنفسه وبكل قواته على الحصار ، ان تضطر ماردين على الاستسلام . ومنها ان الخراب الذي لحق بالمناطق المحيطة بماردين من جراء التحركات العسكرية المستمرة ، لم يمكن قوات قرايلوك عثمان من الحصول على الطعام سواء لقواته او لخيوله ولذا اضطر الى الانسحاب . كما لا ينكر ما كانت تتمتع به قلعة ماردين من حصانة طبيعية وموارد تموينية (١) ساعدتها على عدم تمكين الغزاة منها قرونا طويلة ، فضلا عن ان الاراتقة كانوا قد تمرسوا على الدفاع واتخاذ الاجراءات المناسبة له بما يمتلكوه من خبرات سابقة في هذا المجال ، وهكذا وجدنا سكان المدينة ينسحبون بسرعة الى القلعة قبل ان تبدأ قوات تيمورلنك الحصار .

ورغم كل ما سبق فان هذا الحصار كان قد الحق اضرارا بالغة بالامارة ، وأصاب بالدمار مدينة ماردين ولم يسلم منه الا القلعة ، وقد ترك قرايلوك عثمان المنطقة وقد تحولت الى خراب (٢) وغادرها عدد كبير من سكانها (٣) ، ولم تستطع ماردين ان تنهض من كبوتها هذه المرة

---

١ ـ ابن عربشاه ص ١١٦ وانظر مادة (ماردين) في المصادر الجغرافية الاسلامية .

٢ ـ التاريخ الغياثي (مخطوطة ص ٢١١) .

٣ ـ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي (مخطوطة ٢/٤٩٧ـ٤٩٨) .

اوتستعيد ازدهارها وعمرانها ، خاصة وانه لم تكن هناك قوة اسلامية تحتمي بها هذه الامارة لتتجه بعد ذلك الى الاعمار والبناء كما كانت تفعل في السابق . ذلك ان المماليك كانوا قد تلقوا ضربات قوية حاسمة من قبل تيمورلنك في الشام لم يستطيعوا معها ان يعيدوا تنظيم علاقاتهم الخارجية مع القوى الاسلامية ، وخصوصا في الشام والجزيرة والاناضول ، طيلة سنوات عديدة . ويظهر ان الاراتقة حاولوا ان يلتزموا في هذه الفترة بسياسة الحياد وعدم استفزاز أي من تيمورلنك او المماليك ولذلك نجدهم يتخذون دور الوسيط في المفاوضات التي جرت بين الطرفين في عامي (٨٠٤ هـ ـ ١٤٠١ م) و (٨٠٥ هـ ـ ١٤٠٢ م) [١] .

تعرضت ماردين طيلة السنوات التي سبقت سقوطها الى هجمات مستمرة من قبل القبائل التركمانية في المنطقة وبخاصة قبيلة الخروف الابيض التي اعتاد زعيمها قرايلوك عثمان المجيء كل سنة الى اطراف ماردين « فيرعى الزرع ويخرب ويمضي » [٢] . وقد اضطر الظاهر عيسى الى مصانعته وعدم اللجوء الى قتاله [٣] بسبب ما لحق ماردين من خراب ودمار اثر حصار تيمورلنك عام (٨٠٣هـ ـ ١٤٠٠ م) فضلا عن

---

١ ـ القلقشندي ، صبح الاعشى ٧/ ٣٢٠ـ٣٢٤ .

٢ ـ التاريخ الغياثي (مخطوطة ص ٢٣٠) . وقرايلوك هو بن قطلوبك كان ابوه احد امراء حاشية ملوك ماردين ، وقد انتمى ابنه هذا الى تيمورلنك وحارب معه وتمكن من الاستيلاء على آمد وبعض المواقع القريبة منها فأقره تيمورلنك عليها ، ويعتبر قرايلوك مؤسس دولة الخروف الابيض (آق قوينلو) انظر ابن تغري بردى ، المنهل الصافي (مخطوطة ٢/٣٧٣) والتاريخ الغياثي (مخطوطة ص ٢١١ ، ٣٠٦) وابن عربشاه ص ١١٨ .

٣ ـ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي (مخطوطة ٢/٤٩٧) .

عدم امكان اللجوء الى حماية المماليك في الشام بسبب ما اصابهم من ضعف اثر الضربة التي تلقوها من تيمورلنك ، ومن ثم وجد الظاهر نفسه مضطرا الى التوسل لدى تيمورلنك ان يكف قرايلوك عثمان عنه ، فطلب تيمورلنك من حليفه عثمان التوقف عن مهاجمة ماردين الا ان هذا لم يستجب لامر تيمورلنك واستمر على غاراته [1]. وقد اوقف عثمان بهجماته هذه اعادة اعمار ماردين وتحصينها كما ساعد على اضعافها ونشر الخراب في ربوعها مما ادى الى فقدان كل مقوماتها الدفاعية ومكن بالتالي قرا يوسف امير دولة الخروف الاسود من اسقاطها بعد فترة قصيرة .

عمل الظاهر جهده لايقاف هجمات قرايلوك عثمان على ماردين ورأى ان خير وسيلة لتحقيق ذلك هي التحالف مع امير قوي للعمل ضد مطامع عثمان ، ووجد فرصة مناسبة في التحالف مع الامير جكم بن عوض نائب حلب المملوكي الذي انشق على المماليك عام (٨٠٨ هـ ـ ١٤٠٥ م) واعلن نفسه سلطانا في حلب ، وخطب له في انحاء واسعة من الشام . وقد تم الاتفاق بينه وبين الظاهر عيسى على قتال عثمان ، فتوجها على رأس قواتهما الى آمد في ذي الحجة سنة (٨٠٨ هـ ١٤٠٥م) لاستردادها منه ، فتصدى لهما عثمان بقواته وانتصر عليهما بعد قتال قصير ، واسفرت المعركة عن مقتل جكم والظاهر وتشتت قواتهما [2] ، ولا ريب ان تحالف الظاهر عيسى مع جكم ألب المماليك عليه واعطى المجال للقبائل التركمانية في الجزيرة لتوثيق علاقاتهم بالمماليك [3] ، وبهذا ازدادت عزلة ماردين وغدت تقف وحدها وجها لوجه امام مصيرها .

---

١ ـ المصدر السابق ، نفس الصفحة .

٢ ـ المصدر السابق ٢/٤٩٧ـ٤٩٨ . وانظر ابن اياس ، بدائع الزهور ٣٥١/١ ، ٣٥٢ ، صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ص ٢١٦ .

٣ ـ انظر المقريزي ، السلوك (القسم المخطوط ٣ ـ ١ ـ ٨٠) .

تولى حكم ماردين بعد الظاهر ابن اخيه الملك الصالح شهاب الدين احمد بن اسكندر بينما استمر قرايلوك في هجماته على الامارة مما ادى الى انهاكها تماما [١] .

وفي عام (٨١٢ هـ ـ ١٤٠٩ م) عزم قرا يوسف ، امير دولة الخروف الاسود (قراقوينلو) التي كانت تشمل انذاك اذربيجان واربل والموصل وسنجار وبعض انحاء العراق ، على التوجه الى ديار بكر في محاولة لضمها الى امارته ، مستفيدا من فرصة تحالفه مع المماليك [٢] . فتوجه الى ماردين وهنالك التقى بقرايلوك عثمان وجرى قتال بين الطرفين اسفر عن هزيمة قرايلوك ، ومن ثم حاصر قرا يوسف ماردين التي كانت قد فقدت جل طاقتها الدفاعية ، واذ ادرك الملك الصالح انه عاجز عن مقاومة قرايوسف طلب منه اجراء مفاوضات مع خصمه ، وعرضت حاشية ماردين على الصالح ان يخطب ابنة قرايوسف ويتنازل له عن ماردين كمهر لذلك لقاء ان يمنحه قرا يوسف الموصل [٣] وان يدفع له عشرة الاف دينار والف فرس وعشرة الاف رأس من الغنم [٤]، فاستحسن الصالح هذه الشروط وعرضها على قرايوسف فقبلها هو الاخر ، ومن ثم تسلم ماردين وزوج ابنته بصاحبها وارسله الى الموصل [٥] .

---

١ ـ ابن تفرى بردى ، المنهل الصافي (القسم المخطوط ٢/٤٩٧ـ ٤٩٨) والقسم المنشور ١/٢٢١ ـ ٢٢ .

Enc. Isl. Art. Artukids , (New ed). .

٢ ـ المقريزي ، السلوك ، (القسم المخطوط ٣ـ١ـ٨٠) .

٣ ـ التاريخ الغياثي (مخطوطة ص ٢٣٠ـ٢٣١) .

٤ ـ ابن تفري بردى ، المنهل الصافي ، القسم المنشور ١/٢٢٢ .

٥ ـ التاريخ الغياثي (مخطوطة ص ٢٣٠ـ٢٣١) .

فعل قرا يوسف ، لدى دخوله ماردين ، ما فعله تيمورلنك في البلاد التي استولى عليها [1] ، ومن المرجح ان عددا كبيرا من بقايا البيت الارتقي قتلوا خلال ذلك ، وان كثيرا من المعالم الحضارية الارتقية درست ، وان شواهد ثلاثة قرون ونصف من حياة الاراتقة اضحت في قبضة قبيلة تركمانية جديدة على الحضارة . وبعد اربعين يوما من دخول الصالح الموصل اسقي سما هناك ومات [2] مخلفا اربعة اولاد ، فاخرجهم قرايوسف من الموصل [3] . وبذلك قضي على اخر نفوذ سياسي للاراتقة ، وغدت امارة ماردين ضمن دولة الخروف الاسود [4] ، وقد ارسل قرايوسف الى المماليك في الشام يعلمهم باستيلائه على ماردين ، وانه على نية التوجه الى الشام لما بين الطرفين من المودة والعهود [5] .



---

١ ـ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي ، القسم المنشور ٢٢٢/١ .

٢ ـ التاريخ الغياثي (مخطوطة ص ٢٣٠ـ٢٣١) ويذكر ان ابن تغرى بردى (المنهل الصافي ، المنشور ٢٢٢/١) ان ذلك حدث بعد ثلاثة ايام فقط من دخول الصالح الموصل وان زوجته توفيت هي الاخرى وان ذلك تم عام ٨١١ وليس ٨١٢ كما اورد الغياث في تاريخه، ولاريب ان مااورده الغياث اكثر دقة بسبب اطلاعه على تفاصيل هذه الاحداث.

٣ ـ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي ، (القسم المنشور ٢٢٢/١).

٤ ـ المصدر السابق ٢٣٩/١ـ٢٤٠ وانظر ، المقريزي ، السلوك (القسم المخطوط ٣ـ١ـ٨٠) ويخطىء ابن حجر (الدرر الكامنة ٩٦/٢) في القول بأن استيلاء التركمان على ماردين تم عام ٨٠٩هـ بعد قتل صاحبها الظاهر عيسى في تلك السنة ويخطىء العمري (تاريخ الموصل ص ٦٩) في ان اول ظهور قرايوسف كان عام ٨١٣ هـ ، كما يخطىء العزاوي (العراق بين احتلالين ٢٧/٣ـ٢٨) في عدم تمحيصه لتواريخ هذه الفترة .

٥ ـ المقريزي ، السلوك (القسم المخطوط ٣ـ١ـ٨٠) .

ولكن ماردين لم تبق بيد قرايوسف طويلا ، اذ اعـــاد قرايلوك عثمان الكرة عليها وهاجمها مستغلا فرصة تغيب حاكمها المدعــو ناصر الذي انابه فيها قرايوسف ، وتمكن قرايلوك من الاستيلاء عليهـــا في عام (٨١٣ هـ ــ ١٤١٠ م) [١] .

وهكذا قضي على آخر الامراء الاراتقة ، وسقطت آخر اماراتهـم على يد قوات من جنسهم من التركمان [٢] ، بعد ان حكمت ما يزيد على الثلاثة قرون تعرضت خلالها لاخطار شتى وهجمات مستمرة . وكـان الذي يجعلها تصمد دائما ما تتميز به من امكانيات دفاعية ، فضـــلا عن وجود قوة كبيرة تركن اليها وتدخل في حمايتها ازاء الاخطار والهجمات، ولكن الانهاك الذي لحقها بسبب الهجمات المستمرة من قبل تيمورلنك والقبائل التركمانية ، والضربات التي وجهت الى المماليك في الشام على يد تيمورلنك كانت العوامل الاساسية في سقوط الامارة ، اذ تركـت وحدها ، ضعيفة منهكة ، في خضم من الغليان العسكـــري ، لتجابـه مصيرها على يد قوى تركمانية جديدة فتية ظهرت في المنطقة، واستطاعت بفضل تحالفها مع تيمورلنك واتباعه ان تبسط نفوذها هناك .

---

١ ــ التاريخ الغياثي (مخطوطة ص ٢٣٠ ــ ٢٣١) العمري ، تاريـخ الموصل ص ٦٩ .

٢ ــ انظر بشأن نشوء امارتي الاق قوينلـــو (الخروف الابيض) والقراقـوينلو (الخـروف الاسود) ، العـزاوي ، التعريف بالمؤرخـين ص ٢٢٨ــ٢٣١ ، ٢٤١ــ٢٤٥ ، العراق بين احتلالـــين ، الجزء الثالث ، طرخان ، دولة المماليك الجراكسـة ص ١١٨ــ١٢٠ ودوائـــر المعارف الاسلامية .

لمحة عن "مخطوطة"

تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن

للعلامة الحسين بن عبد الرحمن الأهدل "ت ٨٥٥هـ/ ١٤٤٨م"

علي عقيل
المركز اليمني للابحاث الثقافية . عدن



وصف الكتاب اجمالا :

ان « تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن » لمؤلفه العلامة الحسين ابن عبد الرحمن الاهدل ، هو على حد تعبيره « انتقاء وانتخاب » من قبله لتاريخ الجندي البهاء ابي عبد الله محمد بن يوسف بن يعقوب بن جبريل [١] ، مع ما ضمه من « زيادات مستحسنة » [٢] فالكتاب اذن

---

١ ــ هو مؤرخ اليمن العلامة القاضي محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي ، اخطأ في اسمه السخاوي في « الاعلان » وحاجي خليفة والبغدادى في هدية العارفين وكحالة ، والاصح ما ذكرناه بالرجوع الى كتابه « السلوك » . والى ما جاء في « العقود اللؤلؤية » للخزرجي ــ توفى عام ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م بروكلمان : ١٨٤ ــ التحفة ص ١ .

٢ ــ تحفة الزمن (المقدمة) ورقة ١ نسخة كاملة مخطوطة في المركز اليمني نسخت عام ١٠٦٣ هـ وقد قوبلت على الام المنسوخ منها عام ١٠٦٤ هـ .

سمته الظاهرية ، اختصار لتاريخ الجندي واستدراك لما فاته ، ولكنا اذا أمعنا فيه وجدنا ان هذا الانتخاب وهذا الاستدراك هو عمل داخل ضمن تأليف البهاء الجندي وقد صيغ من جديد، وظهر من نتاج هذا العمل كتاب كبير اخر ، فهو ليس تكملة ملحقة بكتاب الجندي الحاقا بعد الانتهاء منه بما يعني التذييل ، كما هو الحال في بعض المؤلفات وانما اشبه بل أجدر بتأليف جديد يتضمن في متنه انتقاءات اساسية من تاريخ الجندي ، وفيما بين التذييل ، وهذا النمط من التأليف فرق واضح . وقد عملت مقارنة لبعض نصوص كتاب الجندي «السلوك»[1]، مع ما يورده الأهدل فوجدت مصداق ما ذهبت اليه .

وهذه الطريقة يسلكها ، كما يبدو لي جملة من مؤلفي ذلك الزمان السابق ، اما تواضعا منهم وانصافا للمؤلف السابق ، او لاسباب عملية كالغرض التعليمي والتسهيل على الطلاب بما يسمى اختصارات مضافا اليها تعليقات الاستاذ المؤلف بما يراه تصحيحا لبعض ما وهم فيه المؤلف السابق ، مع ذكر الحوادث المعاصرة، وهكذا تكون الحصيلة ظهور « الكتاب الجديد » .

واشارة الى ذلك ، ففي كتاب تاريخ آخر هو « غربال الزمان » يقول مؤلفه الحرضي : [2] « هذا مختصر مما اختصره الفقيه العلامة

---

١ ــ « السلوك في طبقات العلماء والملوك » نسخة مصورة في المركز اليمني رقم ٣٢١ عن نسخة باريز رقم ١١٢٧ .

٢ ــ هو يحيى بن ابن بكر بن محمد بن يحيى بن محمد العامري الحرضي اليمني (أو زكريا) محدث ، حافظ ، مؤرخ مشارك في بعض العلوم ولد في « حرض » عام ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م وتوفي فيها عام ٨٩٣هـ ــ ١٤٨٨م من تصانيفه « غربال الزمان في التاريخ » والرياض المستطابة في جملة من روي في الصحيحين من الصحابة وعدد اخر من المصنفات .

ــ السخاوي : الضوء اللامع ١٠ : ٢٢٤ .

الحسين بن عبد الرحمن الأهدل من تاريخ الامام الاكمل ذي التصانيف العديدة المفيدة عبد الله بن اسعد اليافعي [١] ، وهما نقلاه عن حافظ عصره ، وسند مصره ابي عبد الله محمد بن احمد الذهبي ، واعترفا له بالسبق فانه صاحب « ميزان الاعتدال في نقد الرجال » [٢] .

والواقع ان كل المؤلفات التاريخية هي خلاصة وانتقاء للحوادث المعاصرة ، والفارق انما هو في تمحيص هذه الوقائع وعمل المقارنات ثم التحليل والمنهج المتبع والاسلوب الذي تصاغ به ، ولكن مؤلفي ذلك العصر ، كأنما يتحرون الدقة فيسمون ما يعملونه « اختصارا وانتقاء » بينما هو في اغلبه عمل جديد ، واضافات معاصرة هامة .

وكمثال من أمثلة كثيرة يشير الى ما ذهبنا اليه . يقول الاهدل :

« وفي مواضع مما ذكره الجندي خلاف ، يعرف بمراجعة ما صح من السيرة » ويستدرك على الجندي حالا خطأه في تعداد زوجات الرسول بأنهن ثلاث عشرة ، واستشهد بان الطبري وغيره ذكروا انهن احدى وعشرون ، طلق منهن ستا ، ومات عنده خمس ، وتوفى عن عشر ، وواحدة لم يدخل بها [٣] .

---

١ ــ هو عبدالله بن اسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمني المكي توفي عام ٧٦٨هـ ــ ١٣٦٧م . له تاريخ « مرآة الجنان » و « مرهم العلل المعضلة » ــ الدرر الكامنة ٢ : ٢٤٧ــ٢٤٩ .

٢ ــ الحرضي . مقدمة الكتاب ورقة ١ ميكروفيلم المركز رقم ٣١٩ عن نسخة باريس رقم ١٥٩٣ .

٣ ــ تحفة الزمن ــ الاهدل ورقة ١٠ ــ «السلوك» ــ الجندي ــ ميكروفيلم المركز ٣٢١ ورقة ٥ .

كما يعقب على الجندي حول بناء مسجد الجند فيقول : ان بناءه كان في عهد عمر بن الخطاب ، واذا كان معاذ بن جبل أوصاه الرسول ببنائه فقد يعني ذلك البداية به فقط [١] .

ويقول الجندي : « ومن نواحي صنعاء فقهاء زيدية لم اتحقق حالهم ، وأما أئمتهم فيذكرون مع الملوك « فيعقب الاهدل كعادته. قلت: ونحن نذكر من تأخر من ائمتهم وعلمائهم » [٢] .

وهذا يعني ان الكتاب ليس مجرد اختصار لتاريخ الجندي ، وانما انتقاء لما يراه مهما فيه ، ثم توسعا في بعض جوانب اخرى « وزيادات نافعة مستحسنة » ، بعضها حدث في عصره، وبعضها في عصر الجندي نفسه ولكنها فاتته ، وهكذا فهو يذكر أحداثا وترجمات لم يأت عليها الجندي المتوفي عام ٧٣٢هـ ــ ١٣٣٢م ، وخير وصف لهذا الكتاب ما ذكره «بروكلمان» عنه (١٨٥:٢ قسم ٢٣٨:٢) قال : وهو اقتباس وتكملة لتاريخ « السلوك » للجندي وثمة تنقيح له من هذا القبيل لكتاب اليافعي « مرآة الجنان » عنوانه غربال الزمان .

وهو وان تابع الجندي في ترتيبه للطبقات ، لكنه يبدو في كتابه مستقلا عما يكتبه الجندي فيقول مثلا ، قال الجندي : ويسرد كلامه ثم يعقب ، فاذا انتهى قال : رجعنا الى كلام الجندي ، وبعد ذلك يقول : قلت ، ويستلى في التعقيب والادلاء برأيه ، وخاصة اذا كان الموضوع يتعلق بمذهبه كالدفاع عن الاشعرية، او الهجوم على الصوفية ، او

---

١ ــ التحفة . ورقة ١٢ .

٢ ــ التحفة . ورقة ٢٩٥ .

الحديث عن مشايخه ، او موقفه من الحكـــام آل رسول ، او الائمة الزيدية .

ويعلق على بعض ما يورده الجندي حول عـــدد غزوات الرسول وما قاتل فيها ، وعدد سراياه دون تحقيق جازم فيقول : « وهو يتساهل في مواضع مما تقدم ومما سيأتي ، وفي النسخة التي اختصرت منهـــا أسقام ، وقد تحريت الصواب جهدي ، وقد تابعته على بعض ما ذكره من غير استدراك لبعض ما لم احققه، اذ التواريخ يقع فيها مثل ذلك، ويجوز تأخير البيان الى وقت العمل ، ولا غنى عن التحقيق مما صح في التفسير وكتب الحديث المعتمدة ، وقد نبهت على ماتيسر التنبيـــه عليـه في الاختصار وحذفت بعض المواضع بالكلية » [1].

ويأخذ على الجندي ــ من جملة ما يأخذ ــ اهماله لذكر القاضي الحسن بن محمد بن ابي عقامة التغلبي ، وكان من الموالين للحكام آل نجاح الاحباش ، فطلب منه « جياش » [2] جبـــاية اهـل « مودع » واختلف معه في ارغامهم على ذلك حتى انتهى الامر بقتله ظلما وعدوانا ، رغم ما يشاع من اتصاف جياش بالعدل ، كما جرت به العادة عند بعض المؤرخين في التملق للحكام.

---

١ ــ تحفة الزمن ص ١٠ .

٢ ــ جياش بن نجاح هو الحاكم الثالث من الاحباش في زبيد وتهامة الذين حكموا بعد الصليحيين بدءا من عام ٤٠٣هـ ــ ١٠١٣م الى ٥٥٥هـ ــ ١١٥٠م ، وكان جياش (ابو الطامي) شاعرا فصيحا له ديوان وكتـــاب هو « المفيد في اخبار زبيد » ملك تهامة عام ٤٦٢ هـ وتوفى عام ٤٩٨هـ ــ بامخرمة : قلادة ٢ــ٢ــ٦٤١ .

وتأليف الكتابة استغرق من المؤلف ست سنوات ، فقد قال في اخر الكتاب :

« انتهى التاريخ الى هذا الموضع في جمادي الاخرة من سنة ٨٣٢هـ ، وكان شروعي في اختصاره في سنة ست وعشرين (٨٢٦هـ)[١]، ولكن يبدو ان الفراغ الفعلي من التأليف بالنسبة للنسخة التي بين ايدينا ــ لم يتم الا سنة ٨٥١ هـ أي قبل وفاته باربع سنوات ، فقد بقي الكتاب بين يديه يلحق به ما يستجد من الاحداث ، وما يطرأ من الوقائع . وكان اخر ما سجله قبل ختم الكتاب ما ذكره عن اخر سلاطين آل رسول « المسعود » قال : « ثم عهد لآخر منهم لقب بالمسعود ، وهو من ذرية الناصر ، فطلع الى (تعز) وجرت بينه وبين المظفر حروب خرب بسببها اكثر قرى تعز ، ونهب العبيد نهبا عاما ، والامر على ذلك من امر المظفر والمسعود الى سنة احدى وخمسين وثماني مائة احسن الله عاقبتنا والمسلمين آمين . تم الكتاب بحمد الله ومنه وكرمه وحسن توفيقه ، والحمد لله اولا وآخرا وباطنا وعلى كل حال من الاحوال [٢] ولكن هذه الاضافات رغم أهميتها التاريخية لا تتعدى الثلاث ورقات ، ولا يعني ذلك بحال التعليقات والاستدراكات والاضافات التي ضمن الكتاب والتي سبقت الاشارة اليها .

والنسخة التي نقدمها هنا هي نسخة المركز اليمني للابحاث الثقافية بعدن ، وهي نسخة كاملة عدد اوراقها مئتان وسبع وستون ، ومقاسها ٣٠×٢½ سم ومسطرتها ٢٩ ، وقد تمت نساختها نهار الاربعاء تاسع عشر

---

١ ــ التحفة ص ٩٥٠ .

٢ ــ التحفة . ص ٥٩٥ .

من ذي الحجة عام ١٠٦٣ هـ بخط محمد الحاتمي نسبا الحراني بلـدا ، وقوبل بها على الام المنسوخ منها ضحى يوم الاثنين رابع عشر شعبـان سنة ١٠٦٤هـ ، وكان ذلك برسم حاكم الديار الوصابية واميـر الدولة الامامية بدر الدين محمد بن عبدالله العثماني . والخط الذي كتبت به هذه النسخة رغم ان الناسخ ـ كما يذكر ـ حراني البلد هو خط يمني قديم ، معظمه دون نقط . وبعض الحروف المهملة كالدال توضع تحتهـا نقطة تأثرا بالكتابة العربية القديمة حيث تنقط بعض الحروف المهملة بما يشاكل نقط الحروف المعجمة [1] .

وتوجد للمخطوطة عدة نسخ . منها نسخـة في مكتبـة المتحف البريطاني تقع في ٣١٣ ورقة [2] ، ونسخة اخرى في « رواق المغاربـة ٩١٤ الازهر « الموجود منها قطعة من اخرها، وقد وصل فيهـا المؤلف الى سنة ٧٢٤هـ ، وفرغ من نساختها سنة ٨٦٤هـ وتقع ٥٢ ورقة ، وقد صورها معهد المخطوطات العربية التابع للجامعة العربية وجعلها تحت اسم : « بهجة الزمن في تاريخ سادات اليمن » [3] .

كما توجد نسخة اخرى وهي ايضا ناقصة من اخرها ، اذ تنتهي فيها عند قوله : « من علاء صعدة في اخر المائة الثالثة وأول التاسعـة من الاشراف ، وتقع في ٢٣٤ ورقة . وقد صورها معهد المخطوطات العربية عن مكتبة (خدا بخش بتنه ٢٤٨٥ ف ـ ٣٠٨٨) [4] .

---

١ ـ انظر : المزهر للسيوطي ص ٤٠ وشرح التكميـل لخاتمة التسهيل : عبد الله بن حامد السقاف ص ٢٠٢:١٩ .

٢ ـ هامش تاريخ اليمن لعمارة اليمني ص ٥٥ .

٣ ـ فهرست المخطوطات العربية ٦٨:٣ (التاريخ ـ القسم الرابع).

٤ ـ فهرست المخطوطات العربية ٩٦:٢ (التاريخ ـ القسم الثالث) .

منهج المؤلف :

قد يكون من التجاوز ان نطلق كلمة «منهج» ، لانهـــا تعني في مفهوم عصرنا المنهج الاكاديمي في البحث ، لكن ذلك لا يمنـــع من ان نستخلص فهم المؤلف لكيفية معالجته لتأليف كتـــابه ، ولنسم ذلـك « المنهج »٠

أجمل المؤلف منهجه في تأليفه لكتابه هذا وغيره كما يقول بالنص: « ومن طريقي اني لا احب الرواية الا عن ثقة ولا آخذ ممن دب ودرج، ولا عن ممن لا اعرف ديانته ، ولم اخف عقيـــدتي ولا اقول اني اعرف كل ما اشرت اليه من العلوم معرفة تامة ٠٠ مع اعترافي بالتقصير »[١]٠

وهذا المنهج ــ كما نرى ــ هو منهج اسلامي بحت مرتبط بعلـم الحديث واسناده ونقده واعتماده على الشخصيات الموثوقة في نقـــل الحديث مما يسمى « الجرح والتعديل » وهو ادق واعمق طريقة او منهج في التحري والبحث ، ولذلك فاطلاقنا لكلمة « منهج » قد تكـــون في موضعها قياسا على الزمان والمكان ٠

ويبدو أن الأهدل ــ مع ذلك ــ دقيق الفهم لمعنى التاريخ ، فقـــد استشهد به السخاوي في « الاعلان » عندما تحدث عن الغرض مـــن التاريخ فقال : « قال البدر حسين الأهدل في أول تحفـــة الزمن فـــي تاريخ سادات اليمن انه من العلوم المفيدة اذ به يحصل للخلف علـــم أحوال السلف ، ويتميز به أهل الاستقامة عن أهل الصلف ، ويستفيـــد

---

١ ــ التحفة ٠ ورقة ٤٣٩ ٠

الناظر الاعتبار ومعرفة عقول الأوائل ، وتبين به كثيرا من الدلائــل ، ولولاه لجهلت الاحوال والدول والأنساب والاسباب ، ولما عرف الفرق بين الجهلة وذوى الالباب [1] .

وقال العامري ابو زكريــا يحيى بن ابي بكر الحرضي (ت ٨٩٣ هـ) في مقدمة كتابه : غربــال الزمان : « والاهــدل يرى الرد على مــن شطح وجاوز الحد وجادل في ذلك ، ويراه من المهمات ، بل من فروض الكفايات » [2] .

واذ يقول عبدالله بن أسعد اليافعي في تاريخه : « اني لم اذكــر تاريخ موت آحد من أعيان متأخرى شيوخ اليمن العلماء مع كثرتهم ، لأني لم أظفر بتاريخ يكون لهــم جامعا » [3] يقول الاهــدل منتقدا : « الصواب في عدم ذكرهم ، عدم العناية بتواريخهم » [4] .

وهذا يدل على تقدير قيمة التاريخ عند الاهدل ، وغوصه في فهم مدى العناية بجمع المعلومات والمواد التاريخية كمنهج يتبعه ، تثبت ذلك تعقيباته واستدراكاته على اليافعي والجندى ، وتحقيقه للكثير من الحوادث وغرباتها ، ومواقفه المنصفة الحازمة في تاريــخ ذوى السلطة والجــاه ، او اصحاب المذاهب المخالفة لعقيدته .

---

١ ــ رونثال. د. العلي . علم التاريخ عند المسلمين ٤٣٧ .

٢ ــ « غربال الزمان » المقدمة ص ١ ــ للحرضي .

٣ ــ اليافعي « مرآة الجنان » ٤:٣٣٥ .

٤ ــ الحرضي . غربال الزمان ورقة ٢٢٠ ميكروفيلم المركز رقــم ٤٨١ عن نسخة معهد المخطوطات العربية رقم ٢٢ : ١١٥٠ .

طريقة المؤلف في الكتاب :

اتبع الاهدال طريقة الطبقات على طريقة من سبقه كابن سمرة واليافعي والجندي من اليمنيين ، وأصحاب الطبقات كما هو معروف ـ مختلفون في تحديد مدة الطبقة فيما بين عشرين عاما (١) او جيل كامل . وطريقة الطبقات أقدم تقسيم زمنى وجد في التفكير الاسلامى ، وهو يرتبط بعلم الحديث ، وتراجم الشخصيات المهمة في نقل الاحاديث ، كما فعل ابن سعد في طبقاته وابن عبد البر ، وابن حجر العسقلانى ، ثم استعملت هذه الطريقة في ترجمة الرجال من فقهاء وادباء وشعراء واطباء ومؤرخين ، اما بشكل عام او كل فئة على حدة . ثم حدث التقسيم المحلى حسب الترتيب الزمنى لعلماء وفقهاء كل اقليم عربي او اسلامي ، او فقهاء كل مذهب دينى على حدة مثل طبقات الشافعية او الملكية .

ويبدو واضحا من اسم الكتاب ومن مقدمته ، حين تعرض المؤلف لاقسام التأليف في التاريخ من تاريخ عام وتاريخ خاص ببلد المؤلف ، ثم قوله عن كتابه « والغرض به وبأصله بيان بعض فضائل اليمن واهله(٢) ان الكتاب مخصوص باليمن ، وبدأ به على طريقة الطبقات بادئا بذكر من دخل اليمن من الصحابة كأبي بكر وعلي وابي عبيدة ومعاذ ، ثم يأخذ في ذكر التابعين من اليمنيين كشريح وابى موسى الاشعرى وكعب بن مانع (كعب الاحبار) رغم وفاتهم خارج اليمن ، وينتقل الى طبقة ثانية تبدأ بطاؤوس وهكذا .

---

١ ـ لسان العرب ١٢ : ٧٩ وما بعدها .

٢ ـ التحفة : ص ١ .

وهو اذ يذكر فقهاء وعلماء كل طبقة حسب التسلسل الزمني يعلن انتقاله من الطبقة التى يترجم لرجالها الى الطبقة التى تليها بقوله : « ثم صار العلم او الفقه الى طبقة اخرى منهم فلان .. » وتكاد لاتلاحظ احيانا ان بين الطبقتين اكثر من عشرين عاما ، واذ يذكر الطبقة يذكر علماء أو فقهاء كل مخلاف بل كل مدينة وقرية في اليمن عموما . فيقول : ومن «المعافر» او من «وصاب» او من «تريم» او «ظفار» او «ابين» الخ ..

ولا يكتفى كما ذكرنا بما ذكره الجندى المتوفى عام ٧٣٢ هـ عن رجالات اية طبقة او فقط الحاق زيادات مفيدة عن ترجمات بعضهم ، بل يستطرد الى ذكر المعاصرين له (اي المؤلف) من اهل ذلك البلد او ذاك مترجما لهم في نفس المكان ، اما على سبيل الاستطراد او قاصدا ذلك ، وكأنه متلاف نقصا لا بد من سده وعدم تجاوزه فمثلا اذ يترجم الجندي ذرية الفقيه علي بن الامام زيد بن الحسن الفائشى من مدينة « حرض » نجد الاهدل لا يكتفي بما اورده عن هؤلاء في الطبقة ذاتها ، بل يذكر بقية العلماء من بنى عامر الحكميين في « حرض » من بعد عصر الجندى في نفس المكان ، فيترجم للمتوفين في اواخر المئة الثامنة واوائل التاسعة[1] .

واذ يتابع الاهدل الجندى في ذكر علماء كل طبقة : تاريخ مولد الشخصية ، قريته ، نشأته ، شيوخه ، تنقلاته ، رحلاته ، واحيانا بعض ما حدث للمترجم له في حياته الاجتماعية والعلمية والدينية ثم تاريخ وفاته ، لا يكتفي بهذا بل يعقب – كما اسلفنا – على الجندي ويصحح بعض الوقائع وهو ينص صراحة على ان الجندى ، قد شرط ان يذكر من عرض ذكره من العلماء والاعيان ولم يتفق له الوفاء به[2] .

---

١ – نفس المصدر السابق ص ٣١٥ .

٢ – نفس المصدر السابق ص ٥ .

وهو يستطرد في القضايا الفقهية والمذهبية فيتابع نصوص الجندى اذ يتعرض مثلا لاحوال القرامطة الاسماعيلية ، وينقل عن كتاب « المرهم » لعبدالله بن اسعد اليافعي ما اورده فـي الموضوع ، ويعقب مـن عنده بتعليق آخر على بني « الانف » الاسماعيليين ويشير الى ضعفهم وما آل اليه امرهم بسقوط حصن « ذى مرمر » عام ٨٢٧ هـ في يد الامام صلاح الدين بن علي .

والتعريف بالكتاب مـن حيث مادتـه ، والقضايا العلمية والادبية والسياسية والاجتماعية المطروحة فيه اوسع من ان تتناولها هذه اللمحة التي لا تعتبر سوى اطلالة مارة بالكتاب ، وللباحث محاولة متواضعة في اصدار كتيب عن الكتاب ومؤلفه يأمل الوفاء به قريبا .



ملامح من الهجرة الأجنبية إلى منطقة الخليج العربي وأثرها على عروبة المنطقة

علي عجيل منهل
كلية الاداب ــ قسم التاريخ جامعة بغداد

هناك ظاهرة سياسية وديمغرافية بارزة وخطرة في منطقة الخليج العربي ، سائدة الان ، وهي ، تزايد هجرة العناصر غير العربية الى المنطقة ، وخصوصا العناصر البلوشية والتايوانية والكورية الجنوبية ، ويجري استخدامهم في قطاع الصناعة والخدمات وبخاصة في المصانع الكبيرة التي تقوم بانشائها الشركات الرأسمالية الكبيرة ، وكذلك يتم استخدامهم وبشكل واسع في القوات المسلحة والشرطة والامن ، بالنسبة للعناصر البلوشية ، ويستخدم الكوريون والتايوانيون بشكل خاص في قطاع النفط .

وقبل التطرق لهذا الموضوع ، لا بد من القاء نظرة على الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة في المنطقة ، وسياسة الامبريالية الاميركية في تشجيعها للهجرة الاجنبية الى منطقة الخليج العربي [1] وقد شخص التقرير السياسي هذه الظاهرة الخطرة حيث ورد فيه (ان محاولة الامبريالية خلخلة الواقع القومي في منطقة الخليج العربي أو تغييره ، هي حلقة من المخطط الامبريالي الرامي الى ترتيب

الاوضاع في المنطقة العربية لضمان تدفق الطاقة من مصادرها ولضمان مواصلاتها عبر الخليج العربي والبحر الاحمر والبحر الابيض [٢] وفي سبيل احكام سيطرتهم على هذه المنطقة ، اتجه الاستعماريون سياسة بعيدة المدى ، بالاضافة الى الاحتلال المباشر ... وتنظيم الهجرة الاجنبية [٣]) .

فمنطقة الخليج العربي ، باستثناء العراق ومناطق العيون والواحات في الجزيرة العربية ، تعتبر مناطق قليلة السكان بل ويصعب العيش في بعض اجزائها . وحتى في المناطق الآهلة بالسكان في منطقة الخليج العربي ، نجد ان الاتفاق العام للدولة باشكاله المختلفة تسبب في عدم الاقبال على كثير من الاعمال رغم كل الحوافز ، فكان لا بد ان تلجأ الى القوى العاملة غير المحلية من اجل استثمار الموارد المتوفرة . ونتيجة لعوامل جذب اخرى الى المنطقة وسياسات الدول ذات الاهداف البعيدة بالمنطقة ، نزحت اليها اعداد كبيرة من السكان غير العرب بحيث يصل عدد الوافدين أكثر من عدد السكان الاصليين .

والجدول التالي يبين حجم السكان الاصليين والوافدين في بعض اقطار الخليج العربي .

اسم القطر	السنة	الوطنيون	الوافدون
الكويت	١٩٧٠	٣٤٧٣٩٦	٣٩١٢٦٦
البحرين	١٩٧١	١٧٨١٩٣	٣٧٨٨٥
دولة الامارات العربية المتحدة	١٩٧٢	١١٩٩٥٠	١٣٢٧٥٠
قطر	١٩٧١	٤٥٧٠٠	٦٥٣٠٠
عمان	١٩٧٠	٥٥٠٠٠	٥١٠٠٠

المصدر : د. صادق مهدي السعيد ، السكان والقوى العاملة في اقطار الخليج العربي ص ٣٢٨ من منشورات مركز دراسات الخليج العربي ، الكتاب الاول ، جامعة البصرة ١٩٧٤ .

كما ان هناك ظاهرة مهمة تتمثل في ارتفاع معـدل النمو السكاني للوافدين في منطقة الخليج العربي • والجدول الآتي يوضح ذلك :

القطر	معدل نمو السكان الاصليين	معدل نمو السكان الوافدين
الكويت	٣ر١٠ ٪	٧ر١١ ٪
البحرين	٥ر٣ ٪	٣ر٠ ٪
قطـر	١ر٩ ٪	؟
الامارات العربية المتحدة	٦ر٩ ٪	٧ر١٥ ٪
عمـان	٠ر٢ ٪	؟

المصدر نفسه ، ص ٣٢٨ •

وفي قطاعي النفط والمال ، فان اهم ظاهرة سائدة في المنطقة ، هي ان قرابة نصف النفط الذي تصدره الاقطار المصدرة للنفط (الاوبك) يخرج من اقطار ذات كثافة سكانية قليلة • وهذه الاقطار تؤلف شبـه الجزيرة العربية ، كما ان هذه الاقطار لديها القسم الاعظم من الاحتياطي الثابت في العالم وقد وصلت فوائض موازين المدفوعات لاقطار الاوبك (٥٥) بليـون دولار في سنة ١٩٧٤ وهي تعادل ١٠ ٪ من التجـارة العالميـة ، وتعادل حوالي ثلث الاحتياطات النقديـة العالمية (وبضمنها الذهب بالسعر الرسمي) • ويراد بالفائض هنا ، هو فائض المدفوعـات الجارية بعد طرح جميع النفقات على السلع والخدمـات ، وبضمنها المشتريات المباشرة من الاسلحة والمنح المقدمة لدول المواجهـة لاعادة تسليحها •

يؤلف الانفاق على التسلح في الخليج العربـي فقرة مهمـة في موازنات الانفاق لدى اقطار الخليج العربي • ويمكن القول ان سباق التسلح في هذه المنطقة وما يجاورها ، قائم على اشده • ويمكن اعطـاء

فكرة عامة عن هذا السباق في التسلح بملاحظة ميزانيات الدفاع لبعض اقطار الخليج العربي في الجدول ادناه .

ميزانيات الدفاع للسنوات ١٩٧٣ـ١٩٧٥ .
(بملايين الدولارات)

القطـر	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥
الكويت	١٢٥	١٤٠	٥٠٠
عمـان	١١٠	١٧٠	٤٠٠
السعودية	١٠٨٠	١٧٠٠	٢٩٠٠
الامارات العربية المتحدة	١٠٠	١٥٠	٢٥٠

المصدر : جون بيرسيغال ، الثروة النفطية وانماط الاتفـاق والاستثمار فـي الشرق الاوسـط ، مـراجـعة الدكتور محمد عـزيز ، ص ٣٣٧ ، مجلة البحوث الاقتصادية والادارية بغداد / آب / ١٩٧٧ .

والغالب ، ان ما يقرب (٣٠٪) من مجموع الايرادات النفطية في الخليج العربي ينفق على التسلح ونتيجة للتوسع العددي للقـوات المسلحة في المنطقة وكذلك زيادة عدد افراد الشرطة والامن وابتعـاد العناصر الوطنية عن العمل في هذه القطاعات ، لتوفـر الاغراءات في المجالات والوظائف الاخرى ، مما ادى الى الاستعانة بالعناصر غيـر العربية (وقد تم ذلك لاسباب سياسية معينة) مما خلق خللا في التركيب القومي للقوات المسلحة العاملة في المنطقة لصالح العناصر غير العربيـة وخصوصا استخدام العناصر (البلوشية) و (المرتزقة). والمرء يتذكـر دور المرتزقة في محاربة الثورة اليمنية بتحريض من الامبريالية الاميركية. اما في منطقة الخليج العربي ، فتعمد الامبريالية الاميركية على جماعـة البلوشي ، الذين يكونون كثافة سكانية كبيرة وخطيرة في المنطقة ومما

يزيد من خطورة الموقف ، ان البلوش لهم جذور عميقة في المنطقة وهم عماد معظم القوات المسلحة في الخليج العربي .

ومن خلال استعراض التحركات المعادية في المنطقة نلاحظ ان ، البلوش ، هم العنصر الاكثر شيوعا وغلبة في تجمعات المرتزقة وفي العمل في الاجهزة العسكرية ومن ثم فان خطر البلوش لايتهدد منطقة الخليج العربي بل يتهدد كل الجزيرة العربية من اقصاها الى اقصاها ، ومما يساعد ويضاعف من هذا الخطر ، ان البلوش ليسوا عنصرا طارئا من المرتزقة كالاوروبيين مثلا لانهم ذوو جذور عميقة ضاربة في الجزيرة العربية ولا سيما في منطقة الاحساء ، منذ بداية هذا القرن .

يدعي البلوش انهم من اصل عربي وانهم ينتمون الى العشائر الكلدانية التي حكمت بابل من سنة ٢٢٥٠ الى ٥٣٨ ق.م وان موطنهم الاصلي مدينة (المعرة) ويقول بعضهم انهم من نسل المقداد بن الاسود. والبلوش في سبيل ذلك ، يتذرعون بالعديد من الحجج التي تقول بانهم عرب الاصل ، ومن هذه الحجج ، العملات والاثار وما اسفرت عنه حفريات البروفيسور باروت (Parrot) في (تليحيري) بسوريا ، ومن اكثر الاسانيد التي يعتز بها البلوش لانها تقول انهم (عرب) ، البحث الذي نشره المؤرخ البريطاني السير توماس هولديش في بحثه (عرب حدودنا الهندية) [٤] .

Thomos Holdicl , Arabs of Our Indian Frotiers .

ويعتبر هذا البحث من الابحاث الانثروبولوجية التي كانت تشرف عليها وزارة المستعمرات البريطانية والتي تخدم السياسة الامبريالية البريطانية في شبه القارة الهندية ، وذلك عندما كانت بريطانيا تحتل الهند .

ويدلل البلوش على عروبتهم ، بانهم مسلمون وبان العديد من قبائلهم ما تزال تحمل اسماء عربية كالتي تسود بين القبائل العربية في سوريا والعراق كالمعري والجمالي والماحري والازدي ... الخ. ويسكن البلوش المنطقة التي تسمى نسبة لهم (بلوشتان) ومساحتها حوالي (٤٠٠٠٠) ميل٢ وتمتد بين ايران وباكستان وافغانستان والاتحاد السوفيتي وتسيطر عليها ايران وباكستان . ويزعم البلوش ان عددهم حوالي (٢٠) مليون نسمة ولكن ليست هنالك احصائيات رسمية ولا حتى شبه رسمية ، تؤكد هذا الزعم .

ويعاني البلوش منذ فقدانهم لوجودهم المستقل والامن ، من سياسة البطش والاضطهاد من الدول التي يسكنونها ، مما ادى الى هجرتهم باعداد كبيرة الى منطقة الخليج العربي فرارا من البطش والارهاب من جهة وبحثا عن عمل يقيمون به أودهم .

وقد استغل البلوش ادعاءهم ، بانهم من اصل عربي ، في جذب العطف والترحيب بوجودهم ، بالاضافة الى اعلانهم ، انهم العرب ، يجمعهم العداء للدول الطامعة في الخليج العربي .

استغلت الامبريالية البريطانية عملية التشريد التي تعرض لها البلوش وخاصة منذ الثلاثينيات وقامت بتوجيه موجات البلوش الهاربة الى منطقة الخليج العربي لكي تستخدمهم في خلق قوة عسكرية أجيرة في المنطقة تخضع لسيطرتها وتكون أداتها في البطش والارهاب بالحركة الوطنية التي بدأت تتجدد ملامحها وسماتها في هذه الفترة .

فجندت بريطانيا البلوش فيما يسمى بكشافة عمان او جيش ساحل عمان ، وهو جيش على غرار جيش البادية السابق في حضرموت قبل

استقلال اليمن الديمقراطية ، الذي كان جيشا اجيرا يضم قطاعا كبيرا من المرتزقة المحليين وكانت بريطانيا تشرف عليه وتقوم بتدريبه وصرف اجور افراده ، وكان هذا الجيش في حقيقته ترجمة دقيقة لسياسة التفرقة التي درجت بريطانيا على مارستها بين البدو والحضر لتسيد فئة البدو على الحضر كسلطة قاهرة وهو الامر الذي كان يعمق الهوة بين الفئتين .

وبعد اكتشاف النفط في منطقة الخليج العربي وما رافقه من تغيرات اقتصادية واجتماعية وسياسية ونمو وبروز حركة التحرر الوطني في المنطقة ، فقد عملت بريطانيا على ايجاد سلطة قاهرة للشعب العربي وحركته الوطنية وكانت هذه السلطة فئة البلوش . وقد ساعد بريطانيا في تحقيق اهدافها ، الترحيب اللامحدود الذي قوبل به البلوش عند وصولهم الى المنطقة لان عرب الخليج لم ينظروا اليهم على انهم عنصر غريب رغم جهلهم للغة العربية ، وقد ساهم بذلك كونهم مسلمين ، وكلما ازدادت فاعلية الحركة الوطنية في الخليج العربي توسعت بريطانيا في تجنيد المرتزقة من البلوش لرصد تحركات العناصر الوطنية وابرز عناصرها الفاعلة في الساحة السياسية كذلك اوحت بريطانيا لسلطان مسقط بالاعتماد على البلوش كقوة محاربة بدلا من العرب ابناء البلاد الاصليين . وقد اسرف سلطان مسقط في الاعتماد على العناصر البلوشية فهم يكونون ٨٠٪ من مجموع جيشه والباقي من الايرانيين ، اما القيادة فعبارة عن مجموعة من الضباط الباكستانيين حتى رتبة نقيب ، اما الرتب الاعلى فكانت من البريطانيين بالاضافة الى ذلك فان البلوش يكونون من (٧٠) الى(٩٠٪) من مجموع سكانها ، كما ان في بعض مناطقها لايوجد فيها أي تجمع عربي ذي نسبة مؤثرة .

ومن الجدير بالملاحظة ان البلوش كانوا عماد الجيش المرتزق الذي كونته بريطانيا وشركة عمان المحدودة • وهي شركة بريطانية لاجتياح عمان في منتصف الخمسينات باسم سلطان مسقط •

وهكذا يلاحظ ان البلوش يكونون طبقة عسكرية قاهرة في معظم مناطق الخليج العربي ، وهذا يعيد للذاكرة قصة الوجود المملوكي في مصر ، حقيقة ان البلوش لم يحكموا ولكنهم ولا شك اداة بطش في يد الاستعمار والثورة المضادة او اية قوة معادية للعرب والتي تدفع اكثر •

وبرزت خطورة العناصر الاجنبية والبلوشية بشكل خاص ، بعد توحيد الامارات العربية المتحدة بشكل دولة رسمية ، اذ ان من المفروغ منه ، ان الدولة الجديدة قد وحدت كل التنظيمات العسكرية التي كانت قائمة في الامارات والتي دخلت في الدول الجديدة ، ومعظمها من العناصر البلوشيه لتجعل منها نواة الجيش • وفي حالة الاتجاه لتعريب الجيش سيجد البلوش انفسهم تلقائيا في صف القوى المعادية والطامعة في الخليج العربي ويصبحون اداة في يد الاستعمار الجديد •

ومن الجدير بالملاحظة ، حيث تتضح خطورة الهجرة الاجنبية ، بتكليف العناصر المهاجرة بأعمال هي من صميم واجبات العناصر الوطنية، في جميع انحاء العالم ، اعني بذلك على وجه الخصوص ، جنود الشرطة، فقد لوحظ ان ابناء البلاد لا يقبلون على الاعمال الشاقة او التي تتطلب انضباطا خاصا ، وهكذا اضطرت الامارات العربية المتحدة الى تحشيد معظم رجال الشرطة من بين الهنود والباكستانيين (البلوش) وبقيت معظم المناصب القيادية وحدها مقصورة على الوطنيين (٥) • ولا شك ان استمرار الشبان العرب في دولة الامارات العربية المتحدة للحياة السهلة الميسرة ، هو من أخطر المشاكل الاجتماعية التي تعاني منها أقطار الخليج المنتجة للنفط ، واذا استمر الوضع على هذا المنوال الخطر ، فانه يخشى

على بعض بلدان الخليج من ان تفقد مسحتها العربية ، واذا نظرنا الى سكان دولة الامارات العربية المتحدة من حيث جنسيتهم ، لهالنا ارتفاع نسبة الاجانب ونسبة الذكور من السكان بدرجة شاذة ، كما يتضح ذلك من المقارنة التالية بين امارة (ابو ظبي) وبين بعض الاقطار الخليجيـة والاجنبية .

والجدول الآتي يوضح ذلك (مقارنات سكانية ٪)

ولـة	مجموع السكان	نسبة السكان الوطنيين	نسبة الاجانب	نسبة الذكور	نسبة الاناث
ظبي (١٩٦٨)	٤٦/٣٧٥	٤٨	٥٢	٧٥	٢٥
ظبي (١٩٧٥)	٢١٠/٨٧٠	٢٧	٧٣	٧٣	٢٧
حرين (١٩٧١)	٢١٦/٠٠٠	٨٣	١٧	٥٤	٤٦
ويت (١٩٧٣)	٨٧٣/٤٧٤	٤٥	٥٥	٥٥	٤٥
يسرة	٦/٢٦٩/٧٨٣	٨٣	١٧	٤٩/٣	٥٠/٧

المصدر : د . يوسف ابو الحجاج ، الكيان السياسي والاقتصادي لدولة الامارات العربية المتحدة (دراسة تحليلية) مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، عدد ١٩٧٨/١٥ ص ٦٦ ، ٦٧ .

ونحن ازاء بنية ديمغرافية مختلفة ، ومما يزيد من اختـــلالها ، ان نسبة كبيرة من هـؤلاء الأجانب هم من غيـر العرب وخاصة الهنـود والباكستانيين والايرانيين . ولا شك ان بعض هؤلاء قد مضى علـى اقامتهم في الامارات مدة طويلة وارتبطت حياتهم بها ، وقد لا يصعب

اندماجهم في المجتمع العربي ، ولكن منهم أيضا من تسلل الى البلاد منذ وقت غير بعيد ـ وبطرق غير مشروعة وهي عملية لم تنقطع بعد انقطاعا تاما ولا تزال تشغل اذهان الناس في الدولة الجديدة .

ومن البديهي ان تزايد مثل هذه العناصر غير العربية يعني تشويه الوحدة البشرية ، وافساد التجانس العرقي واللغوي ـ بل والديني أيضا في بعض الحالات وخاصة ان هذه العناصر تتوزع في اكثر من موضع في البلاد في دبي بوجه خاص وكذلك في عجمان ورأس الخيمة وغيرها (٦) وتعتبر دبي بصورة خاصة مقصد الوافدين من الهند والباكستان وايران ، حتى قبل استقلال ثروة النفط ولما اكتشف النفط وما ادى الى اغراءات معينة ، في الاجور خاصة ، مما ادى الى تدفق سيل من المهاجرين حتى بلغت نسبتهم حوالى ٨٥٪ من مجموع الذين يسكنون امارة دبي ومعظم هؤلاء من العناصر غير العربية ، يأتون من الهند وباكستان وايران ويعمل الهنود في جميع الاعمال اليدوية والخدمية في الفنادق والمحال التجارية في حين يشتغل الايرانيون بالتجارة (٧) .

والحل الذى يفرض نفسه ، لدولة الامارات العربية المتحدة ، هو المزيد من تشجيع هجرة العرب الى الدولة الجديدة وذلك لتقليص الحجم النسبي للاقليات غير العربية ، كما ان تيسير التجنس بجنسية الدولة للمهاجرين العرب والتوسع في هذا المجال ، يؤدى الى التوازن في حجم السكان العرب مع الاقليات غير العربية .

ومما هو جدير بالملاحظة ان سكان دولة الامارات العربية المتحدة ، قد بلغ عام ١٩٧٦ حسب التعداد الرسمي (٦٥٠ ٠٠٠) نسمة . وان هذه القوات البشرية لا تحقق التناسب مع مساحة الدولة ، ومواردها ومطامحها

في استغلال هذه الموارد [٨] ولعل ما يوضح طبيعة هـذه المشكلة ، ان نتيجة المسح الشامل التى قامت به المؤسسة الاستشارية السويسرية ، كان مفاده ، بان البرامج الصناعية المنشودة في دولة الامـارات العربية المتحدة لا يمكن ان يتحقق ويؤتي ثماره الا اذا زاد سكان الدولة بحيث يصل عام ١٩٨٥ نحو (٣) مليون نسمة ويشير تقريـر هـذه المؤسسة صراحة ، الى انه اذا استمرت دولة الامارات في تقييد الهجرة الى البلاد فان الاسواق المحلية تكون اصغر مما يمكنها من ايقاف الصناعات الجديدة على قدميها [٩] .

هناك حقيقة مهمة تتعلق بقضية (البلوش) ، وهى نمو اتجاهات تقدمية بين صفوفهم رغم انهم يدركون انهم غرباء عن المنطقة ، وان البعض منهم ، دعوا مواطنيهم الى التعقل وعدم اقحام انفسهم كقوة اجيرة باطشة وخاصة في مسقط . ورغم هذا فـان بعض العناصر البلوشية الواعية تطرح فكرة خاطئة مفادها ، ان انسحاب البلوش من جيوش ساحل عمان ومسقط ككل سوف يترك اثارا خطيرة على الموقف السياسي ، وانه من صالح العرب بقاء البلوش في الموقع او المواقع التي يحتلونهـا . وهذا رأي خطير وعلامات شك في موقفهم من الحركة الوطنية فـي الخليج العربي ، ما لم يتدارك حكام وشعب المنطقة ، هذا الخطر الان ، ولا شك انهم اداة خطرة في المنطقة بيد الامبريالية والدول الطامعة فـي الخليج والجزيرة العربية ، للسيطرة على ثرواتها النفطية .

ويمكن القول ، ان (مشكلة البلوش) يمكن ان نجد لها ، حـلا مناسبا ، اذا ما استطاعت ونجحت الحركة الوطنيـة في التغلغل بـين صفوفهم وكسبهم الى جانب نضال الحركة الوطنيـة وعلى الحكومات العربية ، الاستفادة من البلوش في المجالات غير العسكرية .

وهكذا يلاحظ ، ان الوضع السكاني في منطقة الخليج العربي ، يكشف المؤامرة التى تاخذ وجها جديدا وسافرا في محاولة انتزاع هويتها القومية عن طريق التغيرات الديموغرافية فيها ، ومن اجل فتح العيون عليها ، اذ كانت هناك نية لدرئها .

ان اخطر الحلقات التى تشهدها منطقة الخليج العربي ، تدفق الاف العمال الاجانب الى منطقة الخليج والجزيرة العربية بصورة خاصة . وقد اعدوا سلفا لخدمة الامبريالية الاميركية . ان السياسة الاميركية في المنطقة تمارس سياسة خبيثة لتغير الوضع السكاني في المنطقة وذلك من اجل سلخ المنطقة عن اصولها القومية وواقعها العربي واستبدالها باصول اخرى . .

لقد اشرفت الامبريالية الاميركية في السنوات الاخيرة، على عملية ارسال الاف العمال الكوريين الجنوبيين والتايوانيين، المدربين على حمل السلاح الى دول الخليج والجزيرة العربية بخاصة حيث وصل عددهم (١٢٠) الف نسمة ، وهؤلاء يقومون حاليا باعمال مدنية ، مع انهم مهيئون اصلا لاعمال عسكرية طبقا لخطط الولايات المتحدة الاميركية بتأمين السيطرة على منابع النفط وخطوط مواصلاته .

ان هجرة العمال الاجانب الكوريين الجنوبيين والتايوانيين الى منطقة الخليج والجزيرة العربية يؤدي الى النتائج التالية :

١ ـ ان الهجرة من دول غير عربية الى المنطقة ما هو الا محاولة لالغاء الهوية القومية للسكان العرب ، وذلك لجعلهم اقلية سكانية لا تستطيع تقرير مصير المنطقة بعد ان يصبح الاجانب اغلبية ساحقة .

٢ ـ ان وجود عدد كبير من هؤلاء الاجانب يعطي دولهم (حجة) التدخل في شؤون البلد المضيف لهم ، على اساس حماية الجاليات التابعة لها ، وهكذا يصبح البلد المضيف فريسة لتدخل اجنبي ، قد يصبح خطيرا في المستقبل ٠

٣ ـ ان الجاليات الاجنبية تدين بالولاء لبلدها الام ، بغض النظر عن طبيعة النظام السياسي القائم في بلدهم ، ويمكن ان يكونوا طابورا خامسا للدعاية والتخريب والتجسس كما يمكن استخدامهم لأي عمل عسكري يقع في منطقة الخليج العربي ٠

٤ ـ يعمل هؤلاء الاجانب على اضعاف الروابط القومية التي تربط المواطن العربي ، صاحب البلد المضيف بامته العربية لان الجاليات الاجنبية ، تعتبر الروابط القومية بين السكان العرب في البلد المضيف والامة العربية تهديدا لمصلحتهم وتحديا لوجودهم كجاليات ٠

٥ ـ ان وجود الجاليات الاجنبية ، يؤدى الى زيارة التفكك الاجتماعي والصراع الحضارى والتفسخ الخلقي وتفشي الجرائم وطغيان شتى المعايير الخلقية والسلوكية المستوردة ٠

٦ ـ تواجه الدول العربية المضيفة ضغوطا عديدة عبر وجود العاملين الاجانب فيها وما يعززه وجودهم من مشاكل اقتصادية واجتماعية وسياسية ٠ ويمكن الاستشهاد بدولة الامارات العربية المتحدة ، لانها نموذجا للدولة العربية الخليجية التى تواجه مؤامرة التغيير السكاني ، وانه بعد قيام هذه الدولة الجديدة برزت المشكلة السكانية ٠ فهذه الدولة ، تبنت مشاريع صناعية لا تتناسب مع حجمها السكاني ولا مع ما تملكه من كوادر وخبراء في مختلف الحقول ٠ وقد برزت الحاجة

لاستيراد الرجال من الخارج لا الخبراء والفنيين وحسب ، بل العمال غير المهنيين ايضا ، وعندما بدأت هذه العملية الواسعة وتوسعت فتحولت فيما بعد الى مشكلة « مقلقة » ، ليس من الناحية القومية فحسب بل ومن زاوية اجتماعية واقتصادية واستراتيجية ايضا .

ومن اجل فهم ذلك ، لابد من الاستعانة بلغة الارقام ، لتوضيح آرائنا ، فقد بلغ سكان الامارات عام ١٩٦٤ (٨٤) الف نسمة واغلبهم من المشتغلين بتربية الحيوانات الصحراوية وصيد اللؤلؤ والاسماك . ثم ارتفع العدد الى (١٨٠) الف نسمة بعد ان بدأت عمليات انتاج النفط فيها ، مما ادى الى استقطاب الايدى العاملة من الاقطار المجاورة والغربية وفي عام (١٩٧٥) تضاعف العدد اكثر من ثلاث مرات ليصبح عدد السكان ما يقارب (٦٥٦) الف نسمة وارتفع عام ١٩٧٧ الى (٨٦٢) الف نسمة . اما حجم القوى العاملة في البلاد فلا يتجاوز نسبة ٣٥٪ من مجموع السكان . ومما يزيد من تعقيد المشكلة ، ان هناك زيادة في نسبة المهاجرين من الخارج تبلغ ٧٥٪ في حين ان زيادة السكان الاصليين تبلغ ٢٥٪ (١٠) . ومن الجدير بالملاحظة ان القاء نظرة على الجداول الاحصائية ، لتركيب السكان وشرائحه في دولة الامارات العربية المتحدة نجد ان مجموع العمال الذين دخلوا الى دولة الامارات عام ١٩٧٦ بموافقة فردية او جماعية ما يقرب من ٨٠ ٪ منهم كانوا غير الناطقين بالعربية وتشير الاحصائيات ، الى ان امارة دبي تحتضن نسبة عالية من هؤلاء حيث بلغت نسبة الداخلين من العمال الاجانب في عام ١٩٧٦ اكثر من (١١٥) الف عامل بنسبة ٤٨٪ من مجموع العمال الوافدين وفي قطاع النفط ، الذى يعتبر عماد الاقتصاد الوطنى للدولة الفتية ، يشكل العمال غير العرب نسبة ٤٥٪ من مجموع العمال ، وهذا يعنى ، ان نسبة

الوطنيين العاملين في قطاع النفط محدودة للغاية • وتتعدى ظاهرة طغيان العناصر الاجنبية على الوطنيين في القطاع الخاص الى القطاع العام • وخصوصا في قطاع التوظيف والادارة والعمل • وحسب بعض الاحصائيات نجد ان نسبة العاملين الاجانب في بعض وزارات دولة الامارات العربية المتحدة تصل الى ٢١٪ من المجموع الكلي ومما يخفف من صورة هذا الموقف ، هو ارتفاع نسبة العاملين العرب في اجهزة الدولة حيث تصل ١٨٪ من المجموع الكلي مع العلم ان مجموع الموظفين العاملين في الدولة عام ١٩٧٦ حوالى (٢٣٥٤٥) موظفا [١١] •

وقد اوضح (زائر عربي [١٢]) للملكة العربية السعودية ، ان من الاشياء الملفتة للنظر كثرة الاجانب في البلاد، وتحسس المواطنين بكثير من الرهبة والخوف لهذا الفيضان الطارئ • ولن يمضي وقت طويل، اذا استمر تدفق الاجانب على البلاد ــ حتى يصبح ابناء البلاد فيها اقلية حقاء لقد رفعت القيود عن قدوم الاجانب ، ولا سيما غير العرب منهم ، حتى اصبحت الشركات الاميركية والكورية واليابانية وغيرها تستقدم منهم الآلاف دون رقيب او حسيب •

ان اقامة مشاريع كبيرة جدا ولا تتناسب مع طاقات الدولة ، تؤدى الى استيراد العمال الفنيين والخبراء ، امر غير مبرر يساعد على تدوير اموال النفط للدول الغربية ، ويساهم في خلق كتلة بشرية غريبة عن الوسط العربي الذى نعيش فيها • ان دول ناشئة في المنطقة ، وضعيفة الامكانيات في مؤسساتها وتستورد هذا العدد من الاجانب للعمل فيها • تتعرض حتما للتفكك في مختلف الجوانب السياسية والعسكرية والامنية والقومية • ان وجود كثافة سكانية اجنبية يعرض الدولة ، لخطر الابتلاع الخارجي ، المسنود بحالة من التفكك الداخلي والتفكك القومي

والامني • وهذا ما نلاحظ بوادره في تحول العرب فـي امارات معينة الى اقلية •

ان الوضع الذى تعيشه بعض الاقطار العربية الخليجية في ظـل تدفق الاف السكان المهاجرين المستوردين مـن الخارج للعمل كأدوات للانتاج ، يطرح في الحقيقة التساؤلات وعلامات الاستفهام ، حول مصير ومستقبل المنطقة ، وهويتها القومية ، في ظـل مخطط مدروس لجعـل الوجود العربي في المنطقة ضعيفا هشا لاخضاع المنطقة ووضعها تحت هيمنة النفوذ الامبريالي للسيطرة على ثرواتها •





المصادر والهوامش

١ ـ حول هذا الموضوع ، انظر ، علي غنام ، الغـزو او ما يسمى (بالهجرة) بغداد ١٩٧٢ ص ٣ وما بعدها .

٢ و٣ ـ التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن ، ص ١٦٧ و١٦٩

٤ ـ حول هذا الموضوع انظر :

محمد الديب ، البلوش والمرتزقة في الجزيـرة العربية ، مجلـة الكاتب المصرية عدد ٨٧ ـ ١٩٦٧ ص ٤٩ .

٥ ـ انظر ، الدكتور صلاح العقاد ، التيار الوحـدوي ومعوقاته في دولة الامارات العربية المتحدة ، مجلة السياسة الدولية ، عـدد ٤٠ ـ ١٩٧٥ ص ١٤٩ .

٦ ـ د. يوسف ابو الحجاج ، الكيان السياسي والاقتصادي لدولـة الامارات العربية المتحدة . مجلة دراسات الخليـج والجزيرة العربيـة عدد ١٥ ـ ١٩٧٨ ص ٦٧ وقد اورد ، الدكتور سيد نوفل تقديرات لعدد نسمة وان عدد الهنـود يقارب عدد الباكستانيين . وكذلك قـدر عـدد الباكستانيين من مختلف الامارات (عدا امارة دبي) يقدر بحوالي ٢٥٠٠٠ نسمة وان عدد الهنود يقارب عـدد الباكستانيين . وكذلك قدر عـدد الافغانيين بحوالي (٥٠٠٠) نسمة وقدر عدد الايرانيين في ساحل الامارات بحوالي ٦٥٠٠٠ نسمة . وذكر ان في امارة دبي يوجد اكثـر من ٣٠٠٠٠ نسمة من الايرانيين . ومثلهـم من الهنـود والباكستانيين بينما يقـدر عدد المواطنين العرب باكثر من ١٥٠٠٠ نسمة ، وذكر ايضا ، بان الايرانيين يشكلون في الشارقة حوالي ٦٠ بالمئة ، فضلا عن وجود نسبة كبيرة منهم

في عجمان وراس الخيمة اما الوافدون العرب فلا يوجد منهم سوى ٦٠٠ شخص من اللبنانيين والفلسطينيين ، كما لا يوجد من المصريين والسوريين الا بضعة عشرات .

انظر د. سيد نوفل ، الخليج العربي ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٩ ص ٢٧٦ .

٧ ـ د. صلاح العقاد ، المصدر السابق ص ١٤٩ .

٨ ـ ان مساحة دولة الامارات العربية حوالي ٧٧٧٠٠ كم مربع ، وان الدخل السنوي لمواطن الامارات في الوقت الحاضر حوالي ١٣٧٠٠ دولار وهو اكبر متوسطات الدخل في العالم وقد قدر دخل الدولة من النفط لعام ١٩٧٦ حوالي ٨٠٠ مليون دولار حسب تقديرات البنك الدولي . انظر : د. شاكر خصباك ، دولة الامارات العربية المتحدة ، بغداد ١٩٧٧ ص ١٣٧ .

٩ ـ د. يوسف ابو الحجاج ، المصدر السابق ، ص ٦٦ .

١٠ ـ الهجرة الاجنبية ، الخليج العربي لن يعود عربيا مجلة الكفاح العربي عدد ٦ـ٩٧٨ ، ص ٣٢ .

١١ ـ حول الهجرة الاجنبية الى دولة الامارات انظر ، د. شاكر خصباك ، المصدر السابق ، ص ١٢٠ ومابعدها .

١٢ ـ مجلة صوت الطليعة عدد ١٣ـ١٤ ـ ١٩٧٦ ، ص ١١٢ .

بنو معن ثم آل زريع في عدن

الدكتور محمد أمين صالح
أستاذ التاريخ الاسلامي
المساعد بآداب القاهرة

قبل الحديث عن تاريخ عدن السياسي في عصر الاستقلال ، وجب الاشارة الى عمارة هذه المدينة ـ الدولة مقدمة لبلوغها مركزا اقتصاديا رئيسيا في التجارة العالمية بين الشرق والغرب في العصر الاسلامي .

فيذكر ابا مخرمة نقلا عن ابن المجاور (١) مايفيد ان عدن كانت لسانا من الارض يمتد في البحر مما يلي جبل عمران ، وان الفرس الذين جاؤوا اليمن على عهد سيف بن ذي يزن اطلقوا البحر على تلك الجهة فصارت جزيرة عدن. وعرفت المنطقة البحرية المستجدة ببحيرة الاعاجم. فلقيت حركة النقل والشحن صعوبة شديدة باستخدام قوارب صغيرة تأتي بالبضائع الى البر وتطلب الامر اقامة قنطرة على سبع قواعد عرفت بالمكسر وسلك الناس والدواب الى البلد .

---

١ ـ ابن المجاور : تاريخ المستبصر ١١٦/١ . ليدن ١٩٥١ .
ابا مخرمة : تاريخ ثغر عدن ١\٨ـ٩ . ليدن ١٩٣٦ .

وتبعا لذلك تفيد المصادر السابقة ان الحركة التجارية بعدن قبيل الاسلام لم تكن نشطة « اذ قل ما كان يقصدها من المراكب بل كانت تمر بها وتتجاوزها الى الاهواب وغلافقة وغير ذلك من البنادر » على البحر الاحمر • ثم ان سكانها انذاك كانوا يعملون بصيد البحر ويسكنون في طرف المدينة قريب من الساحل • وخلت بقية المدينة من السكنى والعمران •

والواقع ان الشريان التجاري البحري كان يتردد بين طريقين : البحر الاحمر والخليج العربي ، يزدهر احدهما على حساب الاخر تبعا السياسات الدولية المعاصرة • فقد شهد طريق الخليج العربي رواجا قبل الاسلام نتيجة لسياسة الفرس في منافستهم الاقتصادية مع دولة الروم• ولم يلبث ان تحول الشريان التجاري تدريجيا الى طريق البحر الاحمر صعدا الى القلزم التي اتصلت بالنيل بقناة امير المؤمنين بعد فتح العرب لمصر • فازدهرت تبعا لذلك موانىء المخا والجار وجدة على الساحل الشرقي للبحر الاحمر وكذلك نرى الامر بالنسبة لعدن فيما حدث بها من بناء تلك القنطرة لتسهيل حركة النقل والتفريغ • ومع كل فقد عاد طريق البحر الاحمر الى أفول في القرن الثاني الهجري تبعا لسياسة العباسيين في بغداد بتنشيط الخليج العربي •

ولا تشير المصادر الى زمن بناء تلك القنطرة التي ترمز الى بدء الاهتمام باستغلال ميناء عدن بالنسبة للتجارة الشرقية ، ولا الى احداث خاصة بها اللهم الا ما ذكر عن بناء مسجد جامع على عهد الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز [1] لغرض ديني بحت • ولا الى عمال فيها عن حكام

---

١ ـ عمارة اليمن : المفيد في اخبار صفاء وزبير ٦٧ .

اليمن في عصر الولاة • انما تواجدوا من بعد في القرن الثالث الهجري على عهد ابن زياد مؤسس اول دولة مستقلة بتهامة اليمن ، الذي « كان له نواب بعده فقصدتها المراكب ودخلوها ورأوا انها اقرب واخلص لهم من غيرها فترددوا اليها » [1] •

ولهذا فانه من المرجح بدء ازدهار عدن كمدينة تجارية تكتسب من بعد اهمية سياسية في القرن الثالث الهجري وبخاصة منذ نصفه الثاني حين استعاد البحر الاحمر اهميته للمرة الثانية في العصر الاسلامي، وظهور المصالح المشتركة بين كل من الطولونيين فالاخشيديين ثم الفاطميين في مصر ، وبين الزياديين ثم الصليحيين باليمن • وبالتالي اكتسبت عدن مركزا سياسيا بتواجد اسرات حاكمة مثل بني معن ثم آل زريع تدين بالتبعية للدولة المترئسة حينا او مستقلة حينا اخر •

فبالنسبة لبني معن هناك خلاف بين المؤرخين حول نسبهم فيذكر ابن خلدون [2] انهم ينتسبون الى معن بن زائدة • وهو معن بن زائدة الشيباني الربعي احد ولاة اليمن الاقوياء ١٤٢ ــ ١٥٠هـ على عهد الخليفة ابو جعفر المنصور العباسي والذي امتد سلطانه على كل انحاء اليمن حتى حضرموت جنوبا حيث قضى على بقية الخوارج الاباضية هناك [3] على حين يذكر عمارة اليمني ونقل عنه المؤرخون اليمنيون [4] قوله « واظنهم من غير ولد معن بن زائدة الشيباني » • واجتهد محقق [5]

---

١ ــ ابا مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ١\٩ •
٢ ــ ابن خلدون : كتاب العبر ٤/٤٦٦ .
٣ ــ د. امين صالح : تاريخ اليمن في العصر الاسلامي ١١٢ . القاهرة ١٩٧٥ .
٤ ــ المفيد : ٨٢ ، تاريخ ثغر عدن : ٢/١٦٤ ، قرة العيون : ٣٣٤ .
٥ ــ المفيد : ٨٥ ج ١ .

مفيد عمارة بنسبتهم الى حمير ثم من الاصلــــج دون اعتمـــــاد على مصدر • ولا ندري أهي قحطانية تنفي تغلب احـــدى عشائر ربيعـة العدنانية على بقعة ارض اليمن ؟ فهم قد كرهوا افعال هذا الوالي وكثرت شكايتهم منه لانه كان ينفذ سياسة الخليفة المنصور العبـاسي سواء في الانتقام لما فعله خوارج اليمن في قديد ، وايضا لتحطيم الحلف الـذي كان بين اليمن والربيعة [1] • ولهذا فنحن لا نأخذ بظن عمارة ونميل الى قول ابن خلدون فقد استخلف معن بن زائدة ابنه زائـــدة على اليمن حين استدعاه الخليفة الى بغداد وسيره الى سجستان عام ١٥١هـ حيـث قتل هناك « فأقام بعد ابيه ثلاث سنين » [2] • ونرجح ان هـــذا الابن وأهله بقوا باليمن ثم لحقوا بالامير ابن زياد من زبير وصاروا من رجاله فتولوا حكم عدن •



ولاتظهر المصادر بداية حكم بني معن في عـــدن ، ولا عن نطاق نيابتهم عن الزياديين في اليمن الجنوبية ، سوى انهم كانوا همزة الوصل بين آل زياد وحضرموت [3] ، ولا عن اعمالهـــم العمرانية او الادارية شيئا ، ولا عن مواقفهم السياسية تجاه امارة آل يعفر او سيطرة علي بن الفضل وقد وصلت غزواته الى أبين [4] • ومن هذا الغموض نرى انهم

---

١ ــ ابن اياس الازدي : تاريخ الموصل ١٧٤ــ١٧٥ . القاهرة ١٩٦٧ (عن خوارج اليمن ووقعة قديد ، انظر تاريخ اليمـــن الاسلامي للمؤلف ص ١٠٩ــ١١٠) .

٢ ــ ابن الربيع : قرة العيون باخبار اليمن الميمون : ١٢٣ . القاهرة ١٩٧١ .

٣ ــ صالح الحامد : تاريخ حضرموت ١/٣٥٤ ، ٣٥٩ .

٤ ــ المؤلف : تاريخ اليمن الاسلامي ١٦٦ .

باعتبارهم نواب ابن زياد كانوا يرفعون اليه سنويا من الضرائب على مراكب الهند التي ترد بالتوابل والبخور ، وضرائب العنبر على على السواحل بباب المندب وعدن وأبين والشحر [١] . ثم تفصح المصادر قليلا بالقول بخروج بني معن الذين كان لهم السلطة على عدن ولحج وأبين والشحر وحضرموت عن حكومة زبيد بعد وفاة الحسين بن سلامة [٢] القائد والوصي على آخر الامراء الزياديين عام ٤٢٨هـ . وقد يكون هذا ما قصده ابن خلدون من قوله عنهم انهم امتنعوا عن بني زياد وقنعوا منهم بالخطبة والسكة [٣] ثم هم لم يشاركوا في الاحداث التي ادت الى انتقال الحكم في زبيد من الزياديين الى بني نجاح الذين اقتصروا على حكم الرسول الغربية باليمن دون الجنوبية منها . ومن ثم بدأ بنو معن كحكام مستقلين في عدن الجنوبي برئاسة عليا وظلوا على ذلك مدة ربع قرن الى ان استولى علي بن محمد الصلحي على اليمن الجنوبي عام ٤٥٥ هـ فدخلوا في دولته وتحت طاعته فابقاهم نوابا له في حكم تلك المناطق [٤] .

نخلص من ذلك الى ان بني معن هؤلاء ـ مهما كان اصلهم ـ قد رفعوا من شأن عدن تجاريا بعد اصلاح لطبوغرافية المدن وتوالى قدوم المراكب التجارية فيحصلون منها الضرائب ، كما استفادوا من تعمير الحسين بن سلامة لطرق الحج والتجارة من عدن الى مكة . وبدا الثراء تدريجيا على ولاتها الذين سكنوا الحصون فتطلعوا الى الاستقلال بها فترة الى ان خضعوا للصليحيين . فغيروا ولاءهم للمذهب السني

---

١ ـ المفيد : ٦٢ ، ابن خلدون : ٤٥٦/٤ .
٢ ـ المفيد : ٨٢ ، قرة العيون : ٣٣٤ .
٣ ـ ابن خلدون : ٤٦٦/٤ .
٤ ـ المفيد : ١٧٧ ، ابن المجاور : ١٢١/١ ، ابا مخرمة ١٦٤/٢ .

والدعوة للخليفة العباسي الى المذهب الاسماعيلي والخطبة للخليفة القاضي باعتبار علي بن محمد الصليحي احد دعاته . ففقدوا ما كانوا يتمعتون به من استقلال ورضوا التبعية لدولة الصليحيين الفتية ولم يكن يستطيعون لها دفعا . وبالتالي تعهدوا بدفع خراج عدن وقدره ماية الف دينار سنويا جعله الصليحي صداقا للسيدة بنت احمد بن جعفر بن موسى الصليحي حين زواجها من ابنه المكرم احمد عام ٤٥٨هـ [١] .

ودلت الاحداث على ان بني معن شعروا بخسارة فادحة من هذه التبعية الاخيرة ، وباتوا مثل غيرهم من افراد اليمن المغلوبين على امرهم مثل بنو الكرمدي بالمعافر ، والمناخيون بالمذغيرة ، والسخطيون في يحصب وغيرهم ، باتوا يترقبون فرصة للخلاص من قبضة الصليحي الذي كان يعلم نواياهم ويخشى بأسهم او غدرهم بدولته فكان يسد عليهم المنافذ فاخرجهم في صحبته عند سفره الى الحج في موسم ٤٥٩هـ ، حتى لا يثوروا في غيبته على المكرم احمد ابنه الذي استخلفه بصنعاء، تلك السفرة التي لقي فيها الصليحي حتفه غيلة على يد سعيد الاحول بن نجاح . ولم يشأ سعيد الاحول الا الانتقام لمقتل ابيه من الصليحي واهله فقط فهو قد عفا عن سائر من معه من الامراء الذين عادوا الى بلادهم [٢] . وفي نيتهم الانتفاض على الدولة . وكذلك فعل بنو معن حين عادوا الى عدن فامتنعوا عن دفع ما التزموا به الى سيدة بنت احمد زوجة المكرم [٣] . وهكذا تخلص بنو معن من هذه التبعية واستقلوا بعدن من جديد .

---

١ ـ المفيد : ١٧٨ ، ابا مخرمة : ١٤٦/٢ . ابن المجاور : ١٢١/١ يذكر تاريخ الزواج ٤٦١ هـ وهو خطأ .
٢ ـ المفيد : ١٢٤ .
٣ ـ المفيد : ١٧٧ ، ابن المجاور ١٢١/١ .

ولم يكن المكرم يسكت عن ضياع ملك ابيه رغم الظروف الصعبة التي بات فيها من انقلاب امراء اليمن وتهديد بعضهم له في صنعاء فضلا عن وجود امه اسماء بنت شهاب في اسر سعيد الاحول بزبيد • فخاض حروبا عدة خلص بها امه من ذل الاسر واخضع المنقلبين عليه ومنهم بني معن •

وهناك مخطوطة « روضة الازهار » للحجوري اعتمد عليها محقق مفيد عمارة جاء فيها حوادث المكرم احمد مع آل معن مربوطة بالسنين لم توجد في غير هذه الروضة نقلها سيادته كما يقول على علاتها دون تمحيص [1] وكان لابد من اعمال الفكر التاريخي لاستخلاص وقائع الاحداث من هذا المصدر واستكشاف الغموض الذي اكتنف هذه الفترة الانتقالية من عدن من بني معن الى حكام جدد عرفوا بآل زريع •

فقد تواجد عباس بن معن في عدن مستقلا مدة ثلاث سنين من ذي الحجة ٤٥٩ هـ الى وفاته في ذي الحجة ٤٦٢ هـ تولى بعده محمد بن معن وهو الذي واجه ضربات المكرم احمد في غزوتيه المتتاليتين على عدن عامي ٤٦٧ ، ٤٦٩ ، هـ فكان يلجأ مع اهله وانصاره الى اصور • ثم يعود محمد بن معن على صلح • وكان من شروط الصلح الاول امتلاك المكرم احمد المنطقة من الحج الى باب المندب وبقاء محمد بن معن في أبين • ثم سلم بنو معن في الصلح الثاني باب عدن ونصف قوانينه والعارة ولحج وأبين•

وهكذا لم يكد يبقى لبني معن شيء في عدن الا قدر معلوم من

---

١ – المفيد : ١٧٧ –١٧٨ ج ١ اورد بالحاشية النص ذاته من المخطوطة .

الاموال دون الولاية . ولجأ محمد بن معن واهله مرة ثالثة الى آجور حيث بقي نحو خمس سنوات ليعود عام ٤٧٣هـ وينقض الاتفاق الاخير. فكان ان اسند المكرم احمد ولاية عدن لاخوين هما العباس ومسعود ابني المكرم اليامي الهمداني ليتولى هؤلاء استخلاص عدن نهائيا من بني معن . فاشتبكوا معهم في وقعتين عند بلدة خنفر الاولى صفر ٤٧٧هـ والثانية جمادي الاخرة ٤٧٨هـ لقي فيها مهر بن معن الهزيمة ، ولم يلبث ان مرض ومات في اخر هذا الشهر فيخلفه ابن اخيه يعفر بن عباس بن معن مدة ٦١ يوما فقط كي يسلم بعدها الى الحكام الجدد . وانتهى بذلك حكم بني معن في عدن ونواحيها .

اما عن العباس ومسعود ابني المكرم اليامي الهمداني فهما من رجال دولة الصليحيين . « فقد كان للعباس سابقة محمودة وبلاء حسن في قيام الدعوة المستنصرية مع الداعي علي بن محمد الصليحي ثم مع ولده المكرم احمد عند نزوله زبيد لاستخلاص امه اسماء بنت شهاب[1] كذلك وقفوا بجانب الدولة في تلك الظروف الصعبة التي واجهها المكرم احمد عقب اغتيال ابيه حتى استعاد ملكه ومنها عدن كما اسلفنا . فجاءت توليتهم عنه جزاء وفاقا لما قدموه من خدمات جليلة .

على انه يلاحظ ان المكرم احمد بن علي الصليحي لم يفرد ولاية عدن لشخصية واحدة من هذه الاسرة الهمدانية انما جعلها قسمة بين الاخوين ، فولى العباس باب عدن وما يصل البر ، ومقره عدن . وولى اخوه مسعود امر الساحل والمراكب وحكم المدينة . ومقره حصن الخضراء . كما استحلها المكرم احمد بدفع ذلك الحق السنوي في خراج

١ ـ المفيد : ١٧٦ ، ابن المجاور : ١٢١/١ ، قرة العيون : ٣٠٤ .

عدن لزوجته الحرة الملكة (١) وقدره مائة الف دينار ، التي كان يدفعها بنو معن من قبل .

هذا وقد توفي المكرم احمد عام ٤٨٠هـ وقيل ٤٧٩هـ (٢) . كما توفي العباس بن المكرم سنة ٤٨١هـ فخلفه ابنه زريع في ولايته على باب عدن بجانب عمه مسعود على المدينة والساحل . وقد لا نبعد عن الحقيقة بالقول بميل زريع بن العباس الى المخالفة . فاليه نسبت امارة جديدة بعدن . ويبدو انه كان يطمع ان يحل مكانا اكثر نفوذا في دولة الصليحيين في ذي جبلة وليس عدن ومن ثم فهو غاضب على تولية شخص اخر غيره هو المفضل بن ابي البركات الحميري اقوى حصون العاصمة وبه ذخائر الدولة . غير ان مسعود بن المكرم كان اكثر اتزانا من ابن اخيه وقسيمه في حكم عدن ، فهو لا يرضى شق عصا الطاعة واضطر زريع بن العباس الى مجاراة عمه مسعود في الوفاء للحرة الملكة بالتعهد السابق واسترضى نفسه بتملك حصن الدملوة (٣) .

ولم يلبث ان حلت كارثة بمقتل كل من مسعود وابن اخيه زريع ، فقد اقبلا من عدن يشتركان في غزوة على زبيد بقيادة المفضل بن ابي البركات فقتلا هناك عام ٤٨٥هـ فخلعهما والداهما ابو السعود بن زريع ، وابو الغارات بن مسعود كل في ارثه من عدن . ولم يكن لدى ابني العم الآن مايدعو للتمسك بعهود ابائهم تجاه الحرة الملكة ورجلها الاول

---

١ ــ المفيد : ١٧٧ــ١٧٨ . ابن المجاور ١/١٢١ ، قرة العيون : ٣٠٤ ــ٣٠٥ ، تاريخ ثغر عدن : ٢/١٠٨ .

٢ ــ ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن : ١٢٢ــ١٢٣ ، يذكر بعض المؤرخين تاريخا اخر لوفاة المكرم احمد عام ٤٨٤ . انظر المفيد وتاريخ ثغر عدن : ٢/٩ . وقرة العيون : ٢٦٥ .

٣ ــ قرة العيون : ٣٠٥ .

المفضل بن ابي البركات الحميري . فكان ان عزما على الاستقلال بعدن بعدم دفع هذا الالتزام السنوي للصليحيين [1] .

ولم ترض الحرة الملكة بدورها الا ان تحافظ على كل سلطاتها في انحاء دولتها باليمن وحقها من عدن بالذات وآزرها المفضل بن ابي البركات الحميري بان قاد جيشا الى عدن فتصدت له هذه الاسرة الهمدانية وجرت بينهما عدة وقائع لم تكن حاسمة . ثم تداعى الطرفان الى الصلح باستمرار وفاء حاكمي عدن ولكن بقدر النصف فقط من خراج عدن وبلغ خمسين الف دينار [2] .

وكان هذا حلا مرحليا اذ كان حكام عدن يتطلعون الى الاستقلال عن الصليحيين بالتخلص من هذا الالتزام وحققوا ذلك في خلاف ثان وثالث اخير مستفيدين من الظروف والمشاكل التي واجهتها الحرة الملكة .

فقد انتهز ابو السعود بن زريع وابو الفارات بن مسعود فرصة ثورة الفقهاء في التعكر وانتحار المفضل بن ابي البركات غما وكمدا عام ٥٠٤هـ فعمدوا الى قطع هذا النصف . فتولى اسعد بن ابي الفتوح ابن عم المفضل قتالهما بأمر الحرة الملكة الى ان تم الصلح على قدر الربع فقط . ثم اوقف حاكما عدن هذا الالتزام عند تغلب بني الزر من خولان على التعكر عام ٥٠٩هـ [3] ثم توفي ابو السعود بن زريع عام ٥١١ هـ ، فخلفه ابنه سبأ على ارثه .

---

١ ــ المفيد ١٧٨ ، ابن المجاور ١٢٢/١ ، قرة العيون : ٣٠٥ (كانت غزوة المفضل بن ابي البركات لزبيد احدى حلقات الصراع بين الصليحيين وبني نجاح . كما كانت وفاة زريع بن العباس عام ٤٨٥ هـ كما في روضة الازهار للحجوري . المفيد : ٣٨٠ .

٢ ــ المصادر السابقة .

٣ ــ المفيد : ١٧٩ . ابن المجاور : ١٢٢/١ ، قرة العيون : ٣٠٥ .

وهكذا حققت عدن نوعا من الاستقلال الاداري والمالي عن دولة الصليحيين وفي اطارها باستمرار التبعية الروحية بالدعوة الخليفة الفاطمي في الوقت الذي كان يزداد نفوذ بيت زريع في انحاء اليمن الاسفل مثل الفضل ومسعود ابني زريع اللذين تصديا لمحاولات ابن نجيب الدولة استعادة نفوذ الحرة الملكة وحقها المفقود وهزماه عند الجؤة[1] عام ٥١٨هـ . كمااشترك سبأ بن السعود بن زريع بجانب ابن عمه ابي الغارات بن مسعود مع بني الزر من خولان والمنصور بن المفضل بن ابي البركات واسعد بن ابي الفتوح، وبمعنى اخر تحالفت همدان وخولان وحمير في حصار ابن نجيب الدولة بالجند ، ثم التخلص من هذا الداعي الواحد باعادته الى مصر في أسوأ حال . وخرج سبأ بن ابي السعود بن زريع وقد اضاف الى ارثه السابق باب عدن والتعكر والدملوة ، اضاف حصونا اخرى مثل سامع ومطران ويسين وذبحان علاوة على اعمال واسعة كثيرة في بعض المعافر والجند [2] . اما البيت الثاني بيت ابي الغارات فلم يفز بشيء سوى ما كان له من امر الساحل والمدينة وحصن الخضراء تولاه ابناء ابي الغارات بن مسعود ، محمد وعلي على التعاقب .

كذلك ارتفع شأن بني زريع من ناحية اخرى جاء نتيجة انقسام الامامة او الخلافة العظيمة بعد اغتيال الخليفة الآمر ذي القعدة عام ٥٢٤هـ بتمسك الحرة الملكة بالدعوة للامام الطيب بن الآمر ، محولة امر الدعوة للخليفة الحافظ الى سبأ بن ابي السعود . وحمل الداعي سبأ بن ابي السعود بن زريع القابا فخمة فهو « الداعي الاوحد المظفر مجد الملك شرف الخلافة عضد الدولة سيف الامام تاج العرب ومقدمها

---

١ ـ المفيد : ١٦٩ ، ثغر عدن : ٤١/١ .

٢ ـ المفيد : ١٨١ـ١٨٢ . قرة العيون : ٣٠٥ـ٣٠٦ .

داعي امير المؤمنين » [1] • وهكذا جمع سبأ بن ابـي السعود بن زريع بين الدولة والهوة.وصار في مركز يضارع الصليحيـين بل تمهـد السبيل ليخلف دولتهم •

ولم يلبث ان دب الخلاف والشر بين ابناء العم من هـذه الاسرة الحاكمة وفاز آل زريع بن العباس بعد قتال شديد بملـك بيت ابـي الفارات بن مسعود وصفيت لهم عدن • ويظهر المؤرخون بـداية هذا النزاع ومظاهره بما حدث من احتكاك بين نواب الطرفـين ودون ذكر الاسباب التي نراها فيما شعر به علي بن ابي الفارات من حقد وحسد لما لمسه من صغر شأنه دون شريكه في حكم عدن الداعي الاوحد سبـأ بن ابي السعود • فأوحى الى نائبه ابي القاسم محمد بن الخزري بالاشتطاط في قسمة الارتفاع على احمد بن غياث نائب الداعي • وكـذا استخدام الشدة والتضييق وظلم الناس من رعايا الداعي بخاصة ، عـلاوة على تطاول هذا النائب وعماله بالاقوال بمذمة الداعي بما يوجب الغيظ ويثير الحفيظة « ولم ينههم مولاهم عن ذلك » • وزاد الموقف توترا عزم علي ابن ابي الفارات على رفع يد سبأ بن ابي السعود قسيمه في حكم عدن • ولم يكن امام الداعي مفر سوى قبول التحدي وقد نفذ صبره او انهى استعداداته للنزال بالمؤن والرجال [1] •

وأدار الداعي سبأبن ابي السعود بن زريع القتـال في جبهتـين الاولى : عند عدن ذاتها بقيادة مولاه الشيخ بلال بن جـرير المحمدي ، بينما عسكر هو بجيش كبير في قرية يقال لها بني أبه على وادي الحج، في مواجهة بني عمه بمدينة كبيرة لهم مسورة ايضا يقـال لها الرعارع • ودار القتال سجالا بين الفريقين طيلة عامين [2] الى ان انتهى في ظـروف

---

١ ـ المفيد : ١٨١ ، ٢٥٦ .

٢ ـ المفيد ، ابن المجاور : ١٢٤/١ . قرة العيون ٣٠٦ .

وتنائج هجوم بحري خارجي على عدن .

فقد انتهز حاكم جزيرة كيش فرصة هذا النزاع الجـــاري بعدن توقيتا مناسبا لتجريد حملة ذات اسباب اقتصادية. ذلك ان هذه الجزيرة بحكم موقعها الجغرافي عند مدخل خليج عمان قرب ساحل فارس، كانت قد خلفت سيراف ابان القرن الخامس الهجري ــ الحادي عشر الميلادي. كمركز للتجارة الهندية بالخليج العربي . ثم تحولت هذه التجارة الـــى عدن وبالتالي فقد حكم ملك الجزيرة مصدرا كبيــــرا من الثروة التي صارت الان الى حكام عدن [١]. وليس أدل علـــى ثراء هؤلاء من آل معن ثم بني زريع من دفع ذلك الالتزام السنوي للحرة الملكة وهو مائة الف دينار كما اسلفنا . فضلا عن دخولهم وثرواتهم الخـاصة [٢] . بما يشير الى ازدهار تجاري لم تشهده عدن من قبل .

ونود في البداية ان ننوه ان الغرض من هذا الهجوم لم يكن هدفه « اخذ عدن » [٣] كما افاد ابن المجاور ذلك ان تقدير القوة العسكرية المصاحبة للاسطول المهاجم لم يتجاوز تقديرها سبعمائة رجل [٤] ، وهي

---

١ ــ المفيد : ١٨٢ــ١٨٥ ، قرة العيون : ٣٠٦ــ٣٠٨ .

2 - Goitein , Two Eyewitness Reports of an Expidition of the King of Kish (Qais) against Aden , ps. 247 - 248 . (Bulletin of the School of Oriental and African Studies . V. XVI , 1954 , part II .)

٣ ــ قدرت ثروة بلال بن جرير نائب الداعي سبأ في عدن عند وفاته بـ ٦٥٠ الف دينار ملكي و ٣٠٠ الف دينار مصري فضلا عن خزائن الملبوس والطيب وأصنافه والعدد والسلاح وتحف الهند وألطاف الصين والمغرب والعراق وغير ذلك مما لا يدخل كما قال عمارة اليمني تحت الحصن ، وانتقل الجميع بوصية بلال الى مولاه الداعي محمد بن سبأ (المفيد: ١٩٧)

٤ ــ ابن المجاور : ١/١٢٤ .

غير كافية لاحتلال عدن بحرا وبرا ، انما كان صاحب كيش يريد « قطعة من عدن » [١] اي جزء منها ، وتكون الخضراء قلعة الساحل فقط دون التعكر ، كنقطة ارتكاز لاعتراض وتشتيت السفن التجارية الواردة عدن .

وتساعدنا التفاصيل التي أوردها ابن المجاور عن هذا العدوان بجانب الوثائق وهي عبارة عن رسالتين[٢] صادرتين من أحد التجار الكارمية الذين يردون عدن احداهما الى القاهرة والثانية الى الهند كشاهدي عيان لاحداث الحملة ، في استخلاص الظروف التي افشلت الحملة من جهة ، والمؤثرة على احداث الصراع الجاري بين البيتين الحاكمين من جهة ثانية ، واخيرا بيان اهمية مثل هذه الوثائق في معرفة الحقيقة التاريخية التي تؤيد او تصحح ما يرد منها في المصادر الاوروبية .

تألفت القوة الحربية التي جهزها « ولد العميد صاحب كيش الى عدن ٠٠٠ برمتين كبار و٣ شفاريات ، وعشر حاشجيات . وفي الجميع تقدير ٧٠٠ رجل » [٣] افلحوا في النزول واحتلال جبل صيرة ، بينما شرد الناس من البيوت الى الحصون ، ولم يكن معهم سلاح للدفاع . وبات كل فريق يخاف صاحبه طيلة شهرين .

---

1 - Ibid .

٢ — هاتان الرسالتان من مجموعة الوثائق المعروفة باسم وثائق الجنيزة المحفوظة الان في مكتبات جامعة كمبردج واكسفورد وغيرها . وعكف الباحث Goitein على نشرها . واختص الرسالتين بمقالة بمجلة معهد الدراسات الشرقية والافريقية عام ١٩٥٤ .

3 - Goitein , op. cit. , Dociument , No. 182 pp. 254 - 255 .

وجبل صيرة هو جبل شامخ في البحر مقابل عدن (ابن المجاور : ١/١١١) وهو ما يسمى اليوم حقان ، ويسمى البنديرة وفيه كانت ترسو المراكب الشراعية في سالف الايام (المفيد : ١٧٨ ج ٢) .

وتنفق رواية ابن المجاور مع ماجاء بالوثائق من نزول العدو بجبل صيرة [1] ، وذكر ايضا انواع السفن المهاجمة باسماء تختلف عما جاء سابقا ، فقال « جهز ملك الجزيرة قيس دوانيج ، وبرمات شبه ابرام النارجيات ونهابيق [2] ، دون تحديد لعدد كل نوع منها ولا تقدير القوة العسكرية المصاحبة ، انما سماهم «الجاشو» . واضاف انهم « انفذوا رسولهم الى ... [3] اصحاب التعكر والخضراء ، وقالوا لهم : اعلموا ان ملك كيش انفذنا الى اخذ عدن ، فان جئتم بالصلح والا جئناكم بالفتح وهو اقبح . فقال له صاحب الخضراء انا عبدكم والبلد بلدكم ، وولوا فيها من شئتم . فلما سمع القوم هذه المقالة نزلوا من الدوانيج والبرمات الى الساحل وهم آمنون مطمئنون . وانفذ لهم صاحب الخضراء الضيافة التامة من خبز ولحم ونبيذ [4] .

١ ــ ابن المجاور ١٢٤/١ .

٢ ــ جاء ترتيب انواع المراكب في الوثيقة طبقا لاهميتها بعكس ما اورده ابن المجاور . فالبرمتان الكبار ذكرهما ابن المجاور الثانية في الترتيب وهي البرمات شبه ابرام الفارجيات . وهي سفن شبه دائرية من قطعة خشبية واحدة . والشفارات هي الدوانيج وهي سفن مصاحبة ذات حجم متوسط اقل من السابقة . واخيرا الحاشجيات وهي النهابيق وهي قوارب صغيرة ملحقة بالسفن الكبار تستخدم للنجاة أو الانزال (Goitien , op. cit. , pp. 252 - 253 .

٣ ــ العبارة الواردة هنا « انفذوا رسولهم الى بني زريع يعني اصحاب التعكر والخضراء » . ولم يكن بتوزيع حكام الخضراء بل بيت ابن ابي الفارات . .

٤ ــ ابن المجاور : ١٢٤/١ تمضي رواية ابن المجاور بان الجاشو اقبلوا على الاكل ودار السكر بينهم رغم تحذير مقدمهم . ونحن نتفق مع Goitein في القول بان الرواية كلها شبه اسطورية (p. 251) .

ومهما يكن من موقف صاحب حصن الخضراء كما صوره ابن المجاور ، فانه كما بدا من الوثائق عاجزا عن التصدي لهذا العدوان حتى انزعج الناس فهجروا بيوتهم الى الحصون وتحت الحصون • ونسجل هنا على بيت ابي الفارات بن مسعود الذي كان متوليا امر المراكب والمدينة والساحل ، الغفلة والاهمال والتقصير في عدم التفكير بضرورة اعداد قوة بحرية خاصة للدفاع عن احتمالات هجوم بحري على عدن مكتفين بقوة الحصون • الخضراء قلعة البحر • والتعكر قلعة البر • هل يكون لدى حكام عدن روح البحر •؟ قد يكون الامر كذلك بالنسبة للسفن فلم نسمع عن اسطول يمني قام بواجبه في الدفاع عن عدن التي تعرضت فيما بعد لهجمات بحرية متعددة •

وفي وسط هذه الظروف الصعبة كان لابد ان ينهي ابناء العم الخلاف ويوقف القتال وتتوحد الجهود للدفاع عن املاكهم • وجاءت على ابن ابي الفارات رسالة او وفد من ابن عمه صاحب التعكر يسأل : «مانصنع وهذا العدو قد دهمنا؟» فاعترف علي بن ابي الفارات بعجزه بقوله : « غلطنا في الكيل فشرد منا الحيل ، واعمل برأيك فيما ترى » فاشترط الداعي سبأ بن ابي السعود نزول غريمه من الخضراء شرط كفاية العدد • فنزل وسلم الى ابن عمه »[1] •

نخلص من ذلك ان ظروف هذا الهجوم اظهر ضعف علي بن ابي الفارات عن الدفاع عن المدينة والساحل حتى احتله الاعداء وترك لمنافسه الداعي هذه المهمة • فكان ان تقدم بلال بن جرير بقواته التي قدرتها الوثيقة بنحو الفي رجل وكبس جيش العدو فقتل الكثير وهرب

---

١ ـ ابن المجاور : ١/١٢٥ .

الباقون تاركين متاعهم غنيمة ، الى المراكب التي ظلوا بها مرابطين في البحر [١] • ولم تكن لدى بلال بن جرير بطبيعة الحال قوة بحرية يطارد بها المنهزمين الذين باتوا يهددون المراكب التجارية الواردة الى عدن • وهاجموا فعلا مركبين هجوما فاشلا لما اصابهم من جوع وعطش • فوصل المركبان الى الساحل بسلام فاستخدمهما بلال بن جرير كقوة بحرية حشدهما بالمقاتلة وخرجتا للمطاردة » فلم يعد لهم حيلة في المكلا ولا في البلد ، فرجعوا وراحوا خلف الجبل الى ان طاب لهم الريح وسافروا [٢] على اقبح صورة مقتولين خاسرين [٣] •

وانجلى الموقف نتيجة لهذا الهجوم الفاشل الذي تعرضت له عدن بسبب المنافسة التجارية من جزيرة كيش ، وفي اثناء هذه الحرب الداخلية بين بيت ابي الفارات وبني زريع ، بانتصار كبير لبني زريع في جبهة عدن باستيلاء مولاهم بلال بن جرير على امر المدينة والساحل فقط دون حصن الخضراء • فمتى حدث ذلك ؟

مرة اخرى تعترضنا مشكلة التحديد الزمني للاحداث الهامة في تاريخ اليمن • فمثلا عمارة اليمني وهو المعاصر وعمدة المؤرخين عن هذه الفترة لم يشر لا من قريب ولا من بعيد عن الهجوم البحري على عدن وان افاض بذكر تفاصيل الصراع الدائر بين البيتين الحاكمين عند وادي الحج فقط دون عدن • ودون تاريخ ايضا لبدايته ونهايته • وهذا فضلا عن اختفاء تاريخ الرسالتين المشار اليهما • وقد اجتهد ناشر وثائق

---

1 - Goitien : op. cit. , Document , No. 2 , p. 255 .

2 - Ibid .

3 - Ibid , Document No. 1 , pp. 254 - 255 .

الجنيزة في تحديد زمن هذا العدوان الذي استمر « شهري زمان » [١]، بعد المقارنة بوثائق اخرى معاصرة فأكد تاريخ الخطابين بعام ١١٣٥م[٢] دون تحديد للشهر ، وهو الموافق ربيع الثاني ٥٢٩ ـ ربيع الاول ٥٣٠ هـ • ونحن بدورنا نرجح ان استسلام حصن الخضراء لم يأت على الفور نتيجة الشرط الذي ذكره ابن المجاور ، واما الحصن ظل يقاوم حصار بلال بن جرير الى ان استسلم في اواخر عام ١٣١ بعد اكثر من عام من انسحاب العدوان • فكتب بلال يبشر الداعي سبأ بن ابي السعود الذي كان يقود القتال في جبهة لحج عند الرعارع مع بيت ابي الفارات وتعددت بينهما الوقائع تجلت فيها انواع من الفروسية الهمدانية الى ان استولى الداعي سبأ بن ابي السعود على الرعارع وارسل بدوره بالبشرى • فالتقى البشيران في الطريق • ويعني هذا استسلام بيت ابي الفارات في كلا الجبهتين في وقت واحد • والتجأ علي بن ابي الفارات الى حصنين له يقال لهما المنيف والحقلة في اعالي لحج • ودخل الداعي سبأ بن ابي السعود مدينة عدن مالكا لجميع جهاتها • ولم يلبث أن توفي بعد سبعة اشهر من دخوله عدن في شعبان ٥٣٢ هـ [٣] •

ثم تعرض بيت بني زريع الى هزة كادت تودي بهم وهم في عنفوان قوتهم بظهور النزاع بين اولاد الداعي سبأ • ثم عاد امره الى استقامة بما قام به مولاهم الشيخ بلال بن جرير في خدمتهم مرة ثانية [٤] • كان الداعي سبأ قد اوصى بامر الدولة الى ولده علي الاغر • ونفذت الوصية

---

١ ـ Ibid , Document No. 2 , p. 255 .

٢ ـ Ibid , p. 250 .

٣ ـ المفيد : ١٨٧ ، ١٨٠ ج ١ و١٨٩ ج ١ . قرة العيون : ٣٠٩ .

٤ ـ المفيد : ١٨٩ ـ ١٩٠ . قرة العيون : ٣٠٩ . ابن المجاور : ١٢٣/١ . ابا مخرمة : ٢\٢١٧ .

وولى علي الاغر بن الداعي سبأ واتخـذ مقره الدملـوة • ولا يفصح المؤرخون عن الاسباب التي دفعته الى اتخاذ موقف عـدائي ضد اخيه محمد • وربما كمن السبب مع مرض خطير يفتـك بـه احاله الـى شخص يائس من بريق العز والسلطان الذي سيفوز به اخوه محمد من بعده ولمن وشك • فاراد البطش به فاضطر محمد بن سبـأ الى الفرار بجلده لاجئا الى المنصور بن المفضل بن ابي البركات الحـاكم الصليحي بالجند• او ان على الاغر وقد شعر بدنو اجله اراد ان يجعل امر الدولة الى اولاده رغم صغر سنهم في ذرية بيت واحد من بني زريع • فاعترض اخوه محمد على هذه الوصية فخرج الى الجند ينتظر هناك الى حين •

وأي كان السبب فان علي الاغر بن سبأ لم يعمر طويلا اذ توفي بالدملوة من مرض السل عام ٥٣٤هـ ، وقد اوصى لاولاد صغار ثلاثة هم : حاتم وعباس ومنصور ، وجعل كفالتهم الى رجلي البلاط والدولة وهما عبده انيس وهو استاذ حبشي ، ويحيى بن علي الكاتب والوزير • ولم يكـن هذا امرا يستقيم •

فلم يكن من المنتظر ان يقبل بلال بن جرير النائب في عدن سيادة الوصي والكفيل استاذ انيس الذي ربما كان سبب فساد العلاقة بين بلال وبين الاغر حتى عزم هذا على التخلص منه بالقتل او انه كان هناك تعاطفا بين بلال بن جرير وبين محمد بن سبأ اللاجىء بالجنـد ويراه الرجل المناسب من بني زريع لحكم الدولة ، والمنتظر ايضا ان يتولـى امـر الدعوة • فكان ان تحرك بلال بن جرير ليضع الامر في نصابه كما يذكر المؤرخون من ارساله بعض رجال همدان الى الجند يستدعون محمد بن سبأ ويعدونه بالمساعدة « بالروح والمال » • واستجاب محمد بن سبـأ سريعا « فخرج مع الهمدانيين فتلقاه بلال قرب عدن وترجـل بين يديـه

وسار معه الى المنظر واقعده فيه ثم نزل وقعد للنـــاس واستحلف لـه الناس جميعا » • وكانت الخطوة التالية اعـــداد جيش حوصرت بـه الدملوة فاستسلم [1] من بها من هؤلاء الحكام الصغار والاوصياء •

وهكذا استقرت الاوضاع وعادت دولة بني زريع الى قوة محافظة على املاكها السابقة في عدن ولحج والدملوة اذ تولى محمـــد بن سبأ « كل ما كان تحت طاعة ابيه من اهل السهل والجبل [2] » بفضل جروء الشيخ بلال بن جرير المحمدي في جمع امر الدولة في شخص محمد بن سبأ بن ابي السعود الذي مالبث ان تقلد ايضا امر الدعوة للخليفة الحافظ الفاطمي • فقد قدم من مصر القاضي الرشيد احمد بن الزبير بسجـــل تقليد علي الأغر بن سبأ امر الدعوة ، فوجده قد مات • ولم يكن امام القاضي الرشيد وهو السفير الفاطمي باليمن وبتشجيع من بـلال سوى اقرار الامر الواقع فقلد الدعوة اخاه محمد بن سبأ ولقبه « العظيـــم المتوج المسكين » • كما فاز بلال بن جرير بلقب « الشيخ السعيد الموفق السديد » •

وتوج الشيخ بلال بن جرير اعماله بمصاهـــرة • اذ زوج الداعي محمد بن سبأ بابنته ، وحدد في جهازها اموالا جليلة • واقبـل الشعراء يمدحون في مثل هذه المناسبات فينالون الكـــرم الزائد من الداعـي والشيخ ، فذاع صيتها في كل انحاء اليمن • ثم توفي الشيخ بـــلال

---

١ ـ المصادر السابقة •

٢ ـ المصادر السابقة •

ابن جرير عام ٥٤٥ هـ فاسند الداعي محمد بن سبأ اعماله في عدن الى ابنه ياسر بن بلال الذي كان ايضا من الاجواد الامجاد [١] .

ويمثل عهدي الداعي محمد بن سبأ ثم ولده الداعي عمران ٥٤٨ ـ ٥٦٠هـ [٢] ذروة ما بلغه بنو زريع من نفوذ وسلطان سياسي امتد على جميع اليمن الاسفل . ففي هذا الوقت تحولت دولة الصليحيين الى عدة جيوب اقطاعية بعد وفاة الحرة الملكة في ذي جبلة في شعبان ٥٣٢ هـ وانتقل جميع ما كان بيدها من حصون وذخائر الى المنصور بن المفضل بن ابي البركات . واستمر الصليحيون على الدعوة للامام المستور الطيب بن الامر ، بينما بدا نجم الداعي محمد بن سبأ اكثر اشراقا فهو يدعو للخليفة الفاطمي في القاهرة الحافظ ثم الظافر فضلا عن وحدة ملكه في الجنوب ، ثم صلاته الودية مع المنصور بن المفضل فتفاوض معه للتنازل عما بيده من ملك الصليحيين ، وتسليم ٢٨ حصنا ومدينة ومنها ذي جبلة مقابل مبلغ مائة الف دينار عام ٥٤٧هـ وتقوقع المنصور في حصنيه صبر وتعز وقصد الداعي محمد الى المخلاف وتفقد الحصون وسكن ذي جبلة . واقبل الشعراء يهنئونه « وطاش فرحا بما صار اليه وبسط يده بالعطايا [٣] وبالمثل كانت مكانة ونفوذ وكرم ابنه الداعي عمران حين كان « المسافرون من اهل اليمن الى الديار المصرية يحكون من مكارمه وشدة عزائمه مايخجل الدهر اذا كاد والغيث اذا جاء [٤] ».

---

١ ـ المفيد : ١٩٠ ، قرة العيون : ٣١٠ .

٢ ـ اختلف المؤرخون في سنة وفاة الداعي بن سبأ . فذكرت لذلك اعوام ٥٤٨ (المفيد : ١٩٥ ، ابن المجاور : ١/١٢٣ . وقرة العيون : ٣١٤) او عام ٥٤٩ (المفيد : ١٩٥ ج ٢) او عام : ٥٥٠ (ابن سمرة : ١٦٨).

٣ ـ المفيد : ١٩٣ ، نهجة الزمن : ٦١ـ٦٢ ، قرة العيون : ٣١٤ . ابا مخرمة : ٢/٢١٨ .

٤ ـ المفيد : ١٩٦ .

وشاهدت عدن على هذا العهد عمرانا جديدا من نوعه ببناء الدور من الحجر والجص والخشب . وكان الحجر يجلب من اعمال أبين لأجل العمارة . وتبنى الدار مربعة من طبقتين : السفلى تستخدم مخازن ، والعليا مجالس [١] . كما بني صهريج ضخم لحفظ مياه المطر وقت السيول صار مرفقا عاما . كما اقيم أول سور امتن من الحصن الاخضر الى جبل حقان (صيرة) فجاء ضعيفا وتهدم بفعل موج البحر فأدير سور ثان من القصب [٢] كان الغرض منه منع التهديم ، وكثر ورود الناس والتجار عدن من شتى الجهات والجنسيات باعتبارها المركز الرئيسي للتجارة بين الهند وشرق أفريقيا ومصر . تجمع بين أهل مصر والمغرب والفرس والحضارم والمقادشة والزيالع والحبوش «وتسولوا فصاروا أصحاب خير ونعم» كما أثرى حكام عدن ثراءا ملحوظا في اغداقهم الاموال او ما خلفوه من ثروات .

أما عن علاقات بني زريع مع جيرانها من الامارات باليمن مثل بني نجاح في زبيد ، وبني حاتم في صنعاء وبقايا قلاع الصليحيين مثل حصن قبطان ، فكانت طيبة . فلم نسمع عن مشاكل بينهم جميعا . بل ان علي بن مهدي وقف استعداداته لنزال حكام زبيد ذهب الى الداعي محمد بن سبأ في ذي جنلة يطلب منه المساعدة ضدهم فلم يجبه الداعي [٣] فكانت علاقات حسن الجوار هي القائمة وتجري بين عون وزبيد المعاملات

---

١ - ابن المجاور : ١/١٢٦ : ١٣٧ ، مثل الدار التي سكنها الداعي محمد بن سبأ بعدن فكانت عالية تضاء بالشموع ويبخر فيها العود : واستخدم اسفلها كمخازن (نفسه ١/١٢٧) .

٢ - ابن المجاور : ١\١٢٨ ، ابا مخرمة ١/١٤ .

٣ - المفيد : ٢٤٧ ، قرة العيون : ٣٦٢ .

والمراسلات التجارية • الى ان تبدلت القوى الحاكمة في زبيد من بني نجاح الى بني مهدي •

فان هذا الهدوء الذي دام ما يزيد عن عشرين عاما بات مهددا من شخصية علي بن مهدي الذي عصف بامارة بني نجاح واستولى على زبيد في رجب ٥٥٤ هـ ، وبدأ أولاده يشنون من تهامة حربا تخريبية توسعية على مدن وحصون اليمن الأسفل بغاراتهم الاولى على لحج والجند عام ٥٥٥ هـ ، ثم الاستيلاء على الجند عام ٥٥٨ هـ ثم هزيمة جيوش بني زريع أمام بني مهدي في موقعة الجواه ٥٥٩ هـ •

وبذلك شهد أواخر عهد الداعي عمران بن محمد بن سبأ ضعف سيادة بني زريع على ملكهم باليمن الاسفل ، كما لم يظهر من بني زريع بعد وفاة الداعي بعدن عام ٥٦٠ هـ شخصية قوية تخلفه لمواجهة أطماح بني مهدي ، اذ توفي عن أطفال ثلاثة هم : محمد وابي السعود ومنصور نقلوا الى حصن الدملوة تحت كفالة جوهر المعظمي مولاه ونائبه في الدملوة • وظل ياسر بن بلال بن جرير على نيابته في حكم عدن ، فكان أن تقوقعت عدن والدملوة فلم تفعلا شيئا أو بالاحرى حكامهما ياسر وجوهر موالي بني زريع في مواجهة بني مهدي الذين استولوا حتى عام ٥٦٢ هـ على جميع مدن وحصون نجد اليمن الاسفل • وأزالوا ملك بني زريع وبقايا الصليحيين من تلك الجهات ، بل ان جوهر المعظمي اضطر الى مصالحة عبد النبي بن مهدي حفاظا على الدملوة رغم مناعتها القوية •

وهكذا كان الانهيار السريع لملك بني زريع باليمن فاقتصر على عدن والدملوة ، على يد بني مهدي من زبيد والذين لم ولن تتوقف

عزيمتهم عن قتال مخالفيهم ، فهم يعتبرونهم أهل حرب يستبيحون دماءهم وأموالهم ، وهذا مذهب الخوارج عقيدتهم • فهم في عداء مذهبي مع بني زريع •

وجاء الهجوم الاخير على عدن التي تعرضت الى حصار جيوش عبد النبي بن مهدي • فالتجأ أحد بني زريع وهو حاتم بن علي الأغر بن سبأ الى صنعاء وزمار مستصرخا برجال اليمن • فأجابه السلطان علي بن حاتم أمير صنعاء وجاء بالجيوش المتحالفة من همدان وسنجاب وجنب أنزلت الهزيمة ببني مهدي في موقعة هائلة بذي المدينة ــ تعز ــ في ربيع الاول ٥٦٩ هـ كما هزمت قواتهم المحاصرة عدن • فأبيدت قوات عبد النبي جميعها من اليمن الأسفل وسلم لبني الداعي عمران : عدن وهي بيد ياسر بن بلال ، والدملوة بيد جوهر المعظمي • اما بقية اليمن الجنوبي بمدنه وحصونه فكان امرها بيد قوى محلية غير سياسية•وبات أمر هذه الجهات في شبه فراغ لم يدم طويلا •

فقد جاء اليمن جيش فاتح قادم من مصر بقيادة نوران شاه أخي صلاح الدين الايوبي عرضنا الى أسبابه السياسية والاقتصادية تفصيلا في السابق [1] فاستولى على زبيد في شوال ٥٦٩ هـ وأزال دولة بني مهدي ثم استعد لدخول نجد اليمني • ففي خلال عامين استولى نوران شاه على أمر اليمن من عدن جنوبا حتى صنعاء شمالا فضلا عن تهامة • فقد دخل نوران شاه حصن تعز والجند ثم عدن في ذي القعدة ٥٦٩ هـ [2] • وقد قاتل ياسر بن بلال الجيش الايوبي خارج عدن فانهزم

١ ــ انظر مقال : « بنو مهدي في زبيد » للمؤلف بالعدد ٢٥ من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

٢ ــ قرة العيون : ٣٧٧ .

هو ومن معه ، وفوت نوران شاه الفرصة على المنهزمين بأن سبقهم الى دخول تعز وعدن ومنع جنده من نهب المدينة [١] ، أما ياسر بن بلال فانه التجأ لدى جوهر المعظمي بالدملوة ثم قبض عليه بعد قليل عندما خرج يوما من الدملوة متنكرا يريد المدينة [٢] .

ومضى نوران شاه في فتوحاته عام ٥٧٠ هـ بأن نهض قاصدا مخلاف جعفر فأخذ حصن التعكر ثم سار الى نقيل سمارة الحدين اليمني الأسفل والاعلى وقصد دوران في يحصب العامر حين تقابل مع جموع مذحج بقيادة السلطان عبدالله بن يحيى الخبي فتقاتلا ثم اصطلحا . ثم توجه الى ذمار فاعترضته جنب فانهزمت والتجأت الى حصن هران . ثم سار الى صنعاء وعسكر عند الجيوب ـ شرق صنعاء تحت جبل نعم ـ ولم يكن بنو حاتم حكام صنعاء متواجدين بها انما كان السلطان علي بن حاتم متحصنا في براش واخوه بشر بن حاتم في غران . فكان أمر صنعاء بيد مشايخها ووجوه أهلها . فخرجوا يقدمون صنعاء مدينة مفتوحة للقائد الايوبي فملكها [٣] . وهكذا عاد نوران شاه من هذه الجولة الكبيرة الى زبيد وقد استولى على ملك واسع عريض .

ثم قام نوران شاه بجولة ثانية يكمل السيطرة على فتوحاته فاستولى على جميع حصون المعافر مثل صبر وذخر والسمدان وغيرها ولم يستعص عليه غير حصن الدملوة [٤] الذي سيأتي استسلامها من بعد .

---

١ ـ بهجة الزمن : ٧٦ .
٢ ـ قرة العيون : ٣١٩ـ٣٢٠ .
٣ ـ نفس المصدر : ٣٧٧ ـ ٣٧٩ .
٤ ـ قرة العيون : ٣٧٩ .

ذلك أن نوران شاه لم يكن راغبا في البقاء باليمن رغم ملكه الواسع وماله الوفير ، ودارت المكاتبة بينه وبين أخيه صلاح الدين الذي أذن له أخيرا بالقفول من اليمن [1] وقبل عودة نوران شاه عام ٥٧١ هـ أمر بقتل من في أسره من حكام عدن وزبيد السابقين، وعلى رأسهم عبدالنبي ابن مهدي واخوته ، وياسر بن بلال بن جرير وعبده مفتاح على باب الخان بزبيد ، كما وزع حكم بلاد اليمن على كبار مساعديه وقواده . فجعل مبارك بن منقذ نائبا على زبيد وتهامة ، وعثمان الزنجبيلي على عدن ، وياقوت التعزي في التعكر وتعز وأعمالهما [2] كما رتب الولاة في الحصون [3] .

ودب الخلاف بين هؤلاء النواب . فقدم اليمن عام ٥٧٧ هـ أخ ثان لصلاح الدين هو سيف الاسلام طغتكين بن أيوب . ولن نعرض الى سلطنة طغتكين الا بقدر تتبع قضائه على بقايا بني زريع في حصني حب والدملوة ، وبقايا الصليحيين في حصن قيظان في مخلاف العود وذي رعين ما بين المعافر ويحصب العلو .

وبدأ طغتكين بحصن حب وبه زياد بن حاتم بن علي الاعز الزريعي، اذ حاصره طغتكين حصارا طويلا امتد أكثر من عام واستصرخ زياد بن حاتم الزريعي مثل أبيه ببني حاتم حكام صنعاء ، وأيضا بالسلطان عبدالله ابن يحيى والشيخ عمران بن زيد رؤساء جنب . غير انه لم يتم مثل ذلك التحالف السابق ضد ابن مهدي بسبب تخاذل الرؤساء . فسقط الحصن

---

١ ـ نفس المصدر : ٣٨٠ـ٣٨١ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ١/٣٠٦ـ٣٠٨ .

٢ ـ قرة العيون : ٣٨٢ـ٣٨٣ .

٣ ـ نفس المصدر : مهجة الزمن : ٧٦ .

في يد طغتكين بن أيوب عام ٥٨٢ هـ وقضى على جميع من فيه من بني زريع [1] .

وفي عام ٥٨٤هـ تسلم طغتكين حصن قيظان من أسعد بن علي بن عبدالله الصليحي بعد حصار تسعة أشهر بوساطة السلطان بشير بن حاتم أمير صنعاء ـ وكان قد وصل الى طغتكين يعلن ولاءه فلقي اكرامه [2] ـ بشرط خروجهم سالمين الى صنعاء ، وتبادل طغتكين الايوبي وأسعد الصليحي الرهائن ضمانا لتنفيذ الاتفاق [3] .

وكان الدملوة هو الحصن المنيع الاخير لبني زريع ، وهو في يد مولاهم جوهر المعظمي كفيل أولاد الداعي عمران كما أسلفنا . فتعرض لحصار شديد من جانب طغتكين عام ٥٨٤ هـ عازما على فتحه . فكان أن دبر جوهر المعظمي أمره مع الفاتح الايوبي أوفق تدبير لضمان سلامته ومن في كفالته من بني زريع . فقد عرض جوهر المعظمي اتفاقا [4] بصلح مع طغتكين بتسليم الدملوة مقابل عشرة آلاف دينار ملكية . وكان شرطه « أن لا يطلع اليه نائب ولا ينزل هو من الحصن حتى يكون عيال سيده وأموالهم قد ركبوا البحر من أي موضع شاؤوا » فوافق طغتكين ورفع الحصار .

وفعلا قبض جوهر المعظمي الثمن ، ثم جهز أولاد سيدة بنين وبنات وتجهز هو في زي امرأة وخرج معهم من الدملوة بالاموال قاصدين

---

١ ـ قرة العيون : ٣٨٨ ، ٣٨٩ قدر عدد من قتل بـ ٥٥٠ رجلا (نفسه : ج ١) .

٢ ـ قرة العيون : ٣٩٢ .

٤ ـ نفس المصدر : ٣٩٠ .

قرة العيون : ٣٩٠-٣٩٢ .

ساحل المخا وابحروا جميعا الى جهة الحبشة . وفي نفس الوقت فانه أوهم طغتكين أنهم لا يزالون بالحصن بحيلة ذكية فقد ترك لدى كاتبه بالدملوة أوراقا كثيرة بالارزاق كانت تصدر بتوقيعه حتى اذا بلغ مأمنه أوفد مبعوثا برسالة الى طغتكين مرفقا بها امرا الى كاتبه بتسليم الحصن الى الفاتح الايوبي . فسأل طغتكين المبعوث مندهشا : أليس جوهر في الدملوة . فأجابه بأنه أول من نزل من الحصن .

وكان طبيعيا أن يتعجب سيف الاسلام طغتكين من مهارة وذكاء جوهر المعظمي واعتبر أمره منتهيا . وتقدم لاستلام الدملوة ، ففوجيء بموقف آخر من النائب في الحصن اذ رفض التسليم ، يدبر امر نفسه ، مستفيدا من مناعة الحصن وأهميته بالنسبة للسيادة الايوبية . فكان رد الفعل هذه المرة شديدا على طغتكين فعاود حصار الحصن . ثم دارت المفاوضات بوساطة أمير صنعاء بشر بن حاتم أيضا ودفع طغتكين عشرة آلاف دينار ملكية أخرى الى ذلك الكاتب ، مع ضمان خروجه وأولاده وأموالهم سالمين الى صنعاء . وهكذا دفع طغتكين عشرين ألف دينار ثمنا لفتح الدملوة ذلك الحصن المنيع صلحا وبدون قتال عام ٥٨٤ هـ .

وبذلك انتهى امر بقايا الصليحيين وبني زريع ، وانتهى أيضا النفوذ الفاطمي من بلاد اليمن على يد الايوبين . وبدأ عصر جديد في تاريخ اليمن .

النشاطات التي يعتزم الاتحاد القيام بها

١ ــ اقامة مهرجانات في جميع انحاء الوطن العربي للاحتفال بحلول القرن الخامس عشر الهجري لمدة اسبوع من ٢٧ ــ ١٢ ــ ١٣٩٩ ولغاية ٤ ــ ١ ــ ١٤٠٠ هـ .

٢ ــ نشر دراسات تاريخية في مواضيع مختلفة .

٣ ــ العمل على تنفيذ مشروع تبادل الاساتذة الزائرين بين جامعات الدول العربية .

٤ ــ اقامة مواسم ثقافية في الحواضر العربية للعمل على تطوير الدراسات التاريخية .

٥ ــ تطوير مجلة المؤرخ العربي التي تصدرها الامانة العامة للاتحاد وجعلها اكثر ملاءمة مع تطوير الدراسات والمفاهيم العلمية .

٦ ــ اقامة ندوة عالمية في تونس لمناقشة موضوع البحث التاريخي وتحديد المنهجية التاريخية للباحث العربي .

٧ ــ العمل مستمر في الاعداد والتهيئة لمهرجان التراث العربي في الاندلس والذي سيقام في ٢١ ــ ٦ ــ ١٩٨١ .

٨ ـ تنفيذ مقررات مؤتمر تاريخ الامة الذي انعقد في بنغازي وبخاصة موضوع كتابة تاريخ الامة العربية .

٩ ـ السعي الى ايفاد بعض الاساتذة المتخصصين في الحضارة العربية والاسلامية لالقاء محاضرات في التراث العربي والاسلامي في الجامعات الاجنبية ، لابراز الجوانب المشرقة لتاريخنا الحضاري وتراثنا الخالد .

١٠ ـ اقامة مهرجان للشهيد عمر المختار في مدينة بنغازي في ١٠ـ١١ـ١٩٧٩ بالتعاون مع جامعة قار يونس .

١١ ـ دراسة امكانية توحيد مناهج تدريس التاريخ في الجامعات العربية كافة .

١٢ ـ اقامة مؤتمر (التراث القومي) في دولة قطر وقد وافقت وزارة الاعلام في دولة قطر على عقد المؤتمر على نفقتها بالتعاون مع اتحاد المؤرخين العرب .

١٣ ـ اقامة ندوة عالمية لاحياء مدينة القيروان التاريخية .

١٤ ـ اقامة مهرجان في التراث العربي في مدينة الحمامات بالجمهورية التونسية .

١٥ ـ تنظيم مسابقة كبرى لكتابة احسن ثلاثة بحوث في التراث العربي احياء للتراث وتشجيعا للاخوة المؤرخين والباحثين العرب .

١٦ ـ السعي الى تنظيم لقاء سنوي للمؤرخين العرب في احدى الحواضر العربية هدفه لقاء الاخوة المؤرخين وتعاونهم والوقوف على احدث البحوث والنشريات في حقل التاريخ والاستماع الى بعض المحاضرات العلمية بالاضافة الى البرامج الترفيهية وسيكون موعد

هذا اللقاء في الاسبوع الثاني من شهر تموز (يوليو) مـن كل عـام .

١٧ ــ غقد مؤتمر تذكاري للرحالة العربي ابن بطوطه يقام في المغـرب بالتعاون مع الحكومة المغربية .

١٨ ــ اقامة ندوة تاريخية في مدينة الاسكندرية تخليدا للمؤرخ المصري الاستاذ عبد الحميد العبادى بالتعاون مع جامعة الاسكندرية .

١٩ ــ تنظيم مؤتمر يبحث في الحضارة العربية والاسلامية في سلطـنة عمان بالتعاون مع وزارة التراث القومي هناك .



كتب قامت بنشرها
الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب

١ ـ **ديوان جواهر السلوك في مدايح الملوك** ، للشاعر العماني هلا بن سعيد ابن عرابة العماني .

يعتبر هذا الديوان من مظاهر التراث الفخمة التي يتحلى بها الأدب العماني ، وقد طلبت وزارة التراث القومي في سلطنة عمان من الامانة العامة للاتحاد الاسهام بتعريف تراث عمان والعمل على نشر هذا الديوان .

وقامت الامانة العامة بتحقيق الديوان ، حيث كلفت الاستاذ الدكتور داود سلوم بتلك المهمة فقام سيادته مشكورا بعمله خير قيام وخرج الديوان تحفة رائعة من روائع التراث .

وقد تفضلت ادارة الثقافة والفنون بوزارة الاعلام في دولة قطر تحمل نفقات طبعه ، اسهاما منها في نشر التراث العربي وتعضيدا لجهود اتحاد المؤرخين العرب الذي يعمل جاهدا من اجل احياء كتب التراث والعمل على نشرها والحفاظ عليها .

٢ ـ الحركة الصهيونية في تونس
في الفترة بين ١٩١١ ـ ١٩٢٧ ٠

كتب الاستاذ الهادي التيمومي استاذ التاريخ المعاصر بكلية الأداب في الجامعة التونسية ، هذا البحث القيم الـذي تقص تطـور الحركـة الصهيونية في القطر التونسي بين سنتي ١٩١١ ـ ١٩٢٧، وابرز دور المنظمات الصهيونية ونشاطاتها في تونس واثرها فـي الحركة الصهيونية العالمية ٠

ان البحث الذي قامت الامانة العامة بنشره وثيقة تاريخية مهمـة تكشف الاتجاهات الصهيونيـة واهدافها الاستعمارية للمنطقـة العربية ٠



٣ ـ مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العماني

بكل اعتزاز ينشر اتحاد المؤرخين العرب الدراسة العلمية التـي قدمها الدكتور فاروق عمر فوزي والموسومة مقدمة في دراسـة مصادر التاريخ العماني ، والتي بين فيها اهمية عمان كما تنـاول ملامح من تاريخ هذه المنطقة المهمة من وطننا العربي ٠

وتقص الدكتور فوزي كتب السيـر العمانية وكتب الانسـاب وكتب التراجم والسير كما تناول كتب التاريخ الحولي المحلـي، واتبع دراسة باربعة ملاحق لها صلة بذات الموضوع ٠

ان قيمة هذه الدراسة مهمة لكل باحث يريد معرفة تاريخ عمـان والمناطق المحيطة بها ، وقد اضفت هذه الدراسة ايضا معلومـات قيمة عن تاريخ هذا الجزء من الوطن العربي للمكتبة العربية ٠

frew the Ahrâr over the Yemen, told me that he did not know that the Ahrâr were going to throw down leaflets.

30. **Ibid.**

31. **The Times,** London, Feb., 1948; E. Marco, **Yemen and the Western Wōrld** (London, 1968), p. 82.

32. A Brotherhood's paper, later, disclosed that the delegation carried the following proposals to the new government: the abdicatin of al-Wazir in favour of Amir Ahmad, the establishment of **majlis shurâ** presided over by al-Wazir and the adoption of a completely Islamic system of government. **Al-Mabâhith al-Qadâ'iyyah,** Cairo, 12 Dec., 1950.

33. M.M. al-Zubayri, **Ma'sât Wâq al-Wâq,** (Cairo, 1960), p. 296.

34. **SaWt al-Yaman** gave the figures of 1,745 hostages and 3, 343 prisoners released.

35. The **zakât,** paid by the Zaydi tribes of the north, was based on self-assessment **(amânah)** which made it far less than the amount demanded, according to official estimates, from the Shâfi'i peasants.

36. Al-Shammahi, p. 237.

37. **Majalat al-Ikhwân,** Cairo. 28 Feb., 1948.

38. A. Hamzah. **Laylatân fi l-Yaman** (Cairo, 1948), pp. 15, 70, 71.

the Yemeni representative to the Arab League. **Al-Salam**, Cardiff, 14 Jan., 1951. **Al-Salam** was a weekly paper edited by 'Abd Allah al-Hakimi, after the failure of the 1948 revolt, in order to further the cause of the AhrKr.

24. When Amin al-Rayhâni visited the Yemen in 1922, 'Abd Allah al-Wazir, then governor of Dhamâr, told him that «our country, by the grace of the Imam, is a country of rightness, justice, religion, truthfulness and loyalty. The ideal and just rule is ni Yemen where there is no wine, practice of fornication, murder, theft etc. This is because we are preserving our religion and following the Book of God». Al-Rayhani, **Muluk al-Arab** (Beirut, 1924), Vol. I, p. 100.

25. 'Abd Allah al-Shammâhi, **al-Yaman : al-Insân wa l-Hadârah** (Ta'izz, 1972), pp. 201-204; H. St. J. B. Philby, **Arabian Jubilee** (London, 1954), p. 190.

26. The Brotherhood's paper, **al-Ikhwân al-Muslimun,** also published the 'news' and gave an accurate account of the members of the would-be government. **Al-Ikhwân,** Cairo, 16 Jan., 1948. In a later issue, the paper published a message written by al-Banna, on 31 October 1947, to Sayf al-Islâm Ahmad, calling him to work with the Ahrâr for the development of the Yemen. **Al-Ikhwân,** 18 Feb., 1948. It is a mystery how the agreed telegram, carrying the 'news', was sent to Aden. According to al-Shammâhi, it was a trick by Amir Ahmad who had his spies among the Ahrâr, and wanted to uncover their plot.

27. Ah. H. Sharaf al-Din, **al-Yaman 'Abr al-Târikh** (Cairo, 1964), p. 320.

28. Al-Wâsi'i, in a supplementary to his **Târikh al-Yaman** (Cairo, 1947), gave the official account of the coup as published in **al-Iymân,** the Yemeni government paper.

29. **Al-Ahram,** 1st March, 1948. B.W. Seager, the British officer who

12. **Al-Yaman al-Manhubah al-Mankubah** (Aden, 1947), p. 9. In its attack on the Imamate, the book, which was written by al-Zubayri, bears resemblance of the criticism, rendered by Ali 'Abd al-RKziq in his **al-Islâm wa Usul al-Hukm,** against the Caliphate.

13. **Ibid.,** pp. 2-4, 55.

14. îmirs 'Abd Allah and al-Husayn were named by **Sawt al-Yaman** as having spent 'several million' riyals on their journeys abroad.

15. Many verses from the Qur'ân and Traditions of the Prophet were quoted to justify the rejection of oppression and injustice. Examples from the Orthodox Caliphs, especially 'Ali b. Abi Tâlib, and precedents of early Zaydi Imams were cited to prove the legitimacy of the Ahrâr's case.

16. **Sawt,** 31 Oct. 1946 & 25 June, 1947.

17. **Ibid.,** 27 Dec., 1947.

18. **Ibid.,** 11 Sept., 1947.

19. **Ibid.,** 31 Oct., 46.

20. **Ibid.,** 27 Nov., 47.

21. Both papers were owned by 'Abd al-Ghani al-Rafi'i, a Syrian who was born and brought up in the Yemen. His grandfather was the Chief Qadi of Yemen during the Ottomans. Ahmad al-Hawrash, Muhammad Salih al-Masmari and Muhi l-Din al-'Ansi were regular writers in the two papers.

22. M. A. al-Shahâri, **al-Yaman: al-Thawra hfi al-Janub wa- l-Inti Kasah fi al-Shimâl** (Beirut, 1970), p. 67.

23. Al-Wartalâni explained, later, that his visit to the Yemen was taken at the invitation of Imam Yahyâ, which was conveyed to him by

3. During the war the Shâfi'is of Tihamah welcomed the Saudi army while the Zaydi tribes, under the commandship of Sayf al-Islâm Ahmad, put up a strong resistance. As a result, some Sayyids and ulema urged Imam Yahyâ to rely more upon the Zaydis and to strengthen further the Zaydi doctorine.

4. **'Sayf al-Islâm** was the official title of the Imam's sons. It had been in use in Yemen since the Ayyubids' rule 569-626 / 1173-1228.

5. **Al-Hikmah al-Yamâniyyah** (San'â', Dhu 'l-Qa'dah 1357 / Jan. 1939), pp. 5-10, 33. The magazine shows the influence of famous writers like Muhammad 'Abduh, Jamâl al-Din al-Afghani, Abd al-Rahman al-Kawakibi and Shakib Arslan on the Ahrâr.

6. Al-Zubayri, between 1938 and 1941, was a student of Dar al-'Ulum in Cairo; his friend Ahmad Nu'mân joined al-Azhar during the same period; al-Marwani, al-Hawrash and al-'Ansi studied in Baghdad. In Cairo, al-Zubayri started his political career by establishing a Yemeni society, **Jam'iyat al-Amr bi-l-Ma'ruf wa-'l-Nahy 'an al-Munkar,** whose manifesto reflected the influence of the Muslim Brotherhood.

7. M.M. al-Zubayri, **Thawrat al-Shi'r,** (Cairo, 1962), pp. 28-29, 33.

8. B. Reilly, **Aden and the Yemen** (London, 1960), p. 23.

9. G. Heyworth-Dunne, **Al-Yemen** (Cairo, 1952), p. 38. **Sawt al-Yaman** appeared in October 1946 and continued its publication till February 1948.

10. **Sawt,** 19 Dec., 1946.

11. No formal designation of Ahmad ever took place. In fact, Imam Yahyâ never addressed his elder son as a crown prince. However, he was deeply satisfied that people treated Ahmad as the heir-apparent.

who contacted him, informing him about the tragic murder of his father and asking him to forget about their old dispute and to join hands with him against the rebellion which threatened all monarchies in the area. King 'Abd al-'Aziz, infuriated by the assassination of Imam Yahyâ whom he admired, instructed his governor of Jizan, near the Yemeni borders, to grant Ahmad any help he required. He dismissed al-Wazir's delegation as 'murderers' and delayed the commission of the Arab League from leaving for San'â', giving Ahmad the time he needed to capture the capital.

By the end of the first week in March the northern Zaydi tribes, led by Sayyid 'Ali Hamud and Sayf al-Islâm al-'Abbâs, beseiged San'â' from all sides. Many soldiers and San'ânis defected to the royalist army. Although they realized how desparate their situation was, the young revolutionaries offered a gallant resistance. On the 13th of March 1948, the many thousands of Ahmad's troops invaded the capital marking the end of the Ahrâr revolt. Scores of the Ahrâr were taken in chains to the notorious prisons of *al-Nâfi'* and *al-Qâhirah* in Hajjah. About forty leaders of the revolt were summarily executed. For a whole week San'â', the jewel of Yemen, was plundered and looted by wild tribesmen as never before in recent history. A new slogan was chanted in the streets: «Down with the constitution, long live Imam Ahmad».

1. According to the Zaydi doctrine, which is moderate Shi'i **Madhhab,** the Imamate is confined to the Fatimids who possess qualifications such as being pious, courageous, well versed in the Shari'ah etc. The Imamate does not pass automatically from father to son; it has to be conferred by the electorate of Sayyids, ulema and tribal shaykhs.

2. Imam YahyK addressed this to Nazih al-'Azm who visited the Yemen in the late twenties. Al-'Azm, **Rihlah fi Bilâd al-'Arabiyyah al-Sa'idah** (Cairo, 1937), p. 184.

powerful personality and submissively carried out his orders. After taking over San'â', Imam al-wazir sent a polite telegram to Ahmad, at Bajil near Hudaydah, in which he asked him 'to follow' the rest of the people's and pay him homage. In reply, Ahmad immediately declared his Imamate, assumed the title of al-Nâsir and sent a strongly-worded message threatening al-Wazir of a disasterous end. When reaching Hajjah three days after the coup, Ahmad showed no sign of weakness to the tribes which wanted to bargain with him for their support. Nevertheless, he promised to allow them to loot San'â' as a punishment for its betrayal. For the eager tribesmen this was a long-awaited opportunity to settle their old scores with the town-dwellers.

In contrast to Ahmad's vigorous activities, the Ahrâr relaxed after their initial success in San'â', receiving felicitations, greeting visitors and journalists from the Arab capitals. More serious, however, was the dissention and suspicion that crept in among the Ahrâr. Nu'mân was of the opinion that some of them should stay in Ta'izz to guarantee safe territory for the revolution among the supporting Shâfi's; a view which was strongly criticized by al-Zubayri as a separatist action. Nu'mân and his Shâfi' colleagues among the Ahrâr were not satisfied with their share in the government. On the other hand, al-Wazir's suspicion of the Ahrâr prevented him from leaving San'â' and fighting Ahmad before the latter reached Hajjah as they had previously planned. The Ahrâr Government naively sufficed itself with despatching cables to the Arab League asking it to visit urgently the Yemen, and to King 'Abd al-'Aziz requesting him to send fighting planes and tanks! In preparation for the proposed visit of the Arab League, the government wasted a precious time in training young Yemenis to sing the anthem of the Arab League, in making new furniture befitting the expected honourable guests and in ordering a long list of spoons, forks, plates and food from Aden. (38)

A delegation from al-Zubayri, al-wartalâni and a nephew of al-Wazir was sent to king 'Abd al-'Aziz to secure his help. 'Abd al-'Aziz had already committed himself to the aid of Amir Ahmad

The impious assassination of the elderly Imam Yahyâ, hero of the struggle against the Turks, profoundly shocked the Yemenis, even those who disliked his rule. Tribesmen, such as those of Arhab, who pledged their support to al-Wazir refused to do so when they heared of the tragic death of Yahyâ. Because of the assassination, a powerful ally of al-Wazir, 'Ali Hamud, the Governor of al-Tawilah and Kawkabân, changed sides to fight with Amir Ahmad. In the Yemeni context Ahmad could not have found a better cause for which to rally the tribes behind him He exploited the murder by depicting it as a conspiracy inteded to sell the Yemen to infidels and Christians who would wipe out Islam and would take away their women. (36) In the Arab world the news of the Imam's death turned the kings of Saudi Arabia, Jordan, Iraq and Egypt against the revolt. *Even the sympahtetic Brotherhood criticized the murder and asked the new government to punish the culprits severely.* (37)

The army, which was predominantly tribal, did not support the revolt despite the involvement of some of its officers. At the beginning it stood neutral but eventually many of the troops hurried to join Amir Ahmad who had been for many years their commander-in-chief. In fact the Amirs 'Ali, al-Qâsim, Yahyâ and Ismâ'il, who were imprisoned in Ghamdân Palace, were joined by their very guards to begin the counter-coup against the Wazir Government. The long association of the army with the Hamid al-Din family in the battles against the Turks, in establishing law and order, in performing the unpopular task of collecting the *zakât* and in providing personal guards for the Imam and his sons made Amir Ahmad the obvious choice of the troops.

Indubitably, Amir Ahmad's strong personality, courage and his knowledge of how to deal with the tribes, had a decisive effect on the course of events. All through his journey to Hajjah Ahmad, far from giving the impression of a fleeing prince, made it clear that he was the ruler in command. Qâdi Husayn al-Halâli, the Governor of Hudaydan, who was in connivance with the Ahrâr to arrest Ahmad in his way to Hajjah, could not resist Ahmad's

It is doubtful if 'Abd Allah al-Wazir, who had worked for a long time within the Zaydi Imamate as an absolute system of government, ever intended to comply with the constitutional restraints set in the National Pact. In fact, after the initial success of the coup, he confided to his chief personal guard, Shaykh 'Aziz Ya'ani, that he would soon get rid of the Ahrâr. (33)

In order to creat a favourable impression on the public and the outside world, the new government immediately released hostages and political prisoners kept in by the former Imam. (34) A programme, announced over San'â' Radio, promised the people that education throughout the country would be free; that substantial pay-increase would be given to soldiers, government officials, tribal shaykhs and village heads; that hospitals would be established to provide free medical care; that freedom of opinion, work and trade would be allowed, but members of the government and senior officials were to be prohibited from dealing in trade; and that the harsh and unjust system of collecting *zakât* would be abolished.

The Failure of the Revolt :

The history of the Zaydi Imamate in the Yemen shows that military support was essential in deciding the right of a claimant to rule. By lacking ni this vital respect, 'Abd Allah al-Wazir was doomed to fail in his bid for power whatever other tactical errors he might have avoided. The educated young men, the ulema of San'â' and the army officers who supported al-Wazir constituted a fragile power-base. The fighting forces in the country were the warrior tribes of the north, mainly Hâshid and Bakil, and the army established by Imam Yahyâ. Al-Wazir and the Ahrâr won the support of neither force. The Hamid al-Din family, despite occasional clashes, fostered the support of the northern tribes through tax-relief and annual subsidies. (35) Furthermore, the new government associated itself with town dwellers whom tribesmen despise and envy for their relative comfort.

of development, especially in the fields of economy and education.

The pact asserted that the extreme deterioration of Yemeni conditions in religious life as well as in wordly affairs, was due to Imam Yahyâ's despotism and selfishness to the extent that the real purpose of the Imamate had been betrayed. It left behind only a deceptive facade which neither conformed with the Shari'ah nor helped to achieve the reform required by Islam. For this reason, the Pact went on, the 'representatives' of the Yemeni people met and discussed the setting up of a sound and legitimate system of government, and looked for those who could carry its responsibility in a way conducive to public welfare and in a manner compatible with religious obligations. Thus, *bayy'ah* was promised to 'Abd Allah al-Wazir as a «constitutional, consultative and legitimate Imam, as it is the case among civilized nations, without violating any Islamic principle». The first condition binding on the Imam was to follow, in word and deed, the Qur'ân, the Traditions of the Prophet and the practice of pious ancestors.

The pact subjected the powers of the Imam to the consent of a provisional consultative assembly *(majlis al-shurâ)* until a constituent assembly could draw up the permanent constitution of the country. The Majlis would be responsible for legislation, passing the budget and for approving foreign treaties. The Pact listed the would-be members of the Majlis as well as the agreed candidates to fill the posts of ministers, provincial governors and top civil servants. According to the Pact, the Imam should not dismiss a minister, a governor or a senior civil without the prior approval of the Majlis. Certain conditions were laid down if the proposed constituent assembly was to be formed through an election. The Pact specified that at least two-thirds of its members should come from the towns and that Yemeni emigrants abroad should be represented. The conditions reflect the progressive outlook of the Ahrâr movement and its fear of the majority conservative tribesmen in the country.

the only telegraph office, kept the news to himself and moved immediately, with loyal soldiers and copious funds, towards the stronghold town of Hajjah amidst the northern Zaydi tribes. The group commissioned to murder him in Ta'izz did not hear of the events ni San'â' until Ahmad was safely out of the town.

The Ahrâr of Aden left *en masse* for Ta'izz and San'â'. The British Administration assisted the Ahrâr by flying some of them over the Yemen and allowing them to throw down leaflets which called the people to stay quiet and give their allegience to the new Imam. (29) It was clear that the Wazir Government was counting on the support of Britain. In its first cable to the Ahrâr in Aden, the government expressed its wish for «unlimited co-operation with Great Britain». (30 A British destroyer came from Aden to Hudaydah, in an obvious gesture of solidarity, carried out manoeuvres in the Red Sea and saluted the representative of the new government. (31) However, the British were to regret the passing of Imam Yahyâ when, later, Ahmad took a more militant attitude in the dispute over the borders.

A few days after the coup, a delegation from the Muslim Brotherhood, headed by their general secretary, 'Abd al-Hakim 'Abidin, visited San'â to congratulate the new Imam who promised them that he would abide literally by the agreed Sacred National Pact. (32) The visit was intended to give a needed moral support to the government and to inform the Brotherhood about the real situation in the country.

The Sacred National Pact :

The pact, which was written by al-Wartalâni, some months before the revolt, *summarized the ideas of the Ahrâr on reform.* Not surprisingly, *it contained a great deal of the Brotherhood's thoughts.* The pact made a strong commitment to the Shari'ah, gave the principle of *shurâ* a broad interpretation to include democratic restraints on the Imam's authority and pleaded the cause

He was also encouraged by the tense atmosphere cerated by the activities of the young Ahrâr who, beside the distribution of leaflets, planted some mines around the capital.

It appears that an assassination plan on Yahyâ's life was fixed for the 14th of January 1948 but was not carried out. The Ahrâr in Aden, who were prepared for the news, received the agreed telegram and immediately published the 'news' of Yahyâ's death and the formation of al-Wazir's government. (26) Imam Yahyâ asked al-Wazir for an explanation of the 'news'. Al-Wazir denied any part in the disclosed plans and issued a statement confirming the designation of Amir Ahmad as the successor to the Imamate. (27) Yahyâ made a show of satisfaction but went on collecting evidence against al-Wazir and sent for Ahmad to come to San'â'. It was strange that Ahmad, despite the disclosure of the plot and the invitation of his father, never attempted to go to San'â'.

On the 17th of February 1948 Imam Yahya, his chief aide 'Abd Allah al-'Amri, a grandson of Yahyâ and two companions were shot dead in their car outside San'â' by an assassination squad led by a tribal shaykh from Murâd, Sâlih 'Ali al-Qurda'i. As soon as 'Abd Allah al-Wazir received the news he moved in to seize the Imam's palace. He then gathered the ulema, army commanders and notables of San'â', informed them that Yahyâ had died suddenly of 'a heart attack' and asked them to recognize him as a 'constitutional' Imam. (28) The capital fell easily to Imam al-Wazir who assumed the title of *al-Hâdi.* Most of the people in the capital, especially the literary men and the young generation, welcomed the new regime. *A minor clash occurred in front of one of the palaces in which the Iraqi officer Jamal Jamil,* who supported the revolt, killed Amirs al-Husayn and al-Muhsin. The Ahrar paper in Aden rejoiced over the news, calling it the «greatest event in Arabio after the advent of Islam».

Crown Prince, Ahmad was cabled about the event on the same night of the assassination. In a clever move he closed down

time, he was suspicious of Amir Ahmad's Treaty of 1934. At the same time, he was suspicious of Amir Ahmad's intentions who denounced the treaty as a surrender to the Saudi aggression. 'Abd al-'Aziz promised his support on condition that nothing should be attempted during Imam Yahyâ's life. However, when he saw issues of *Sawt al-Yaman* in which there was an attack on Imam Yahyâ, on kings and despotism, he expressed to the messenger his anger that al-Wazir should have links with such 'a subversive voice'. (25) He immediately withdrew his promise of support. The Ahrâar in San'â' concealed this latter development from al-Wazir.

The Ahrar in Aden were heartened by the activities of their colleagues in San'â' and by the public stir caused by al-wartalâni. The alliance with al-Wazir family and other Sayyids came as a pleasant surprise to them. Praise for the Wazirs appeared in their paper in April and June 1947. These developments made the Ahrâr believe that their movement was on the verge of success. At one time they claimed that they commanded the support of 99 per cent of the Yemeni people. In May 1947, al-Zubayri wrote that the Ahrâr could topple down the Mutawakkilite Government in a few weeks.

The Revolt of 1948 :

By the end of 1947 the Ahrâr in San'â', led by Ahmad al-Mutâ' and Sayyid Husayn al-Kibsi, reached an agreement with 'Abd Allah al-Wazir on the members and basic principles of the government which was to seize power after the passing of Imam Yahyâ' The agreement was set up in a comprehensive constitutional document known as *al-Mithâq al-Watani al-Muqaddas* (the Sacred National Pact). It was formulated mainly by al-Fudayl al-Wartalâni. *Copies of the Pact were sent to the Ahrâr in Aden and to the Brotherhood in Egypt. At first 'Abd Allah al-Wazir was of the opinion* that they should wait for the natural death of Imam Yahyâ before carrying out their plans. He changed his mind when realizing that Yahyâ began to suspect him and might strike first.

rule of Sayf al-Islam al-Hasan, the Governor of Ibb. The *Jam'iyyah* sent its draft constitution to al-Zubayri in Aden when amended it, printed many copies and sent them back. Before the year was over members of the *Jam'iyyah* were imprisoned in Hajjah and Ta'izz.

Secret distribution of leaflets in the streets of the capital and big towns became more frequent. The government was annoyed by the activities and took strict measures against suspects. The government paper, *al-lymân,* responded by vigorously attacking the leaders of the Ahrâr, questioning their integrity and aims and describing them as 'irresponsible laymen who were neither Sayyids nor ulema'. The increase in the Ahrâr activities and their apparent publicity success attracted a new group to their side, although for a different reason. Certain distinguished Sayyids, who were indignant that the Hamid al-Dins had monopolized all power and dreaded the prospect of Crown Prince Ahhmad succeeding his old father, allied themselves with the Ahrâr. The Wazir family was the most prominent to join ranks with the Ahrâr.

The Wazirs, who served Imam Yahyâ for over two decades,

were more strict Zaydis than the Hamid al-Dins. (24) Since the designation, ni 1937, of Amir Ahmad as the crown prince, the two senior members of the family. 'Abd Allah and 'Ali, made a secret pact with Amir al-Husayn to prevent this anti-Zaydi step being fulfilled. 'Ali had a personal grudge against Ahmad: as the latter unceremoniously dismissed him from the governorship of Ta'izz which he held for twenty years. 'Abd Allah was also removed from him governorship in Hudaydah.

By October 1946 the Wazirs and members of the Ahrâr in San'â', led by Ahmad al-Mutâ' and 'Abd al-Salâm Sabrah, began to draw plans for a joint action. They sent a messenger to king Abd al-'Aziz b. Sa'ud to fnid out if he would support 'Abd Allah al-wazir in ascending the throne instead of Crown Prince Ahmad. King 'Abd al-'Aziz had evolved a friendship with al-Wazir, with whom he negotiated the Yemeni-Saudi Treaty of 1934. At the same

ing his religious enthusiasm, Imam Yahyâ requested al-Wartalâni to write a report on how to develop the country's economy, which he did. The Ahrâr hailed the report, published it in their paper and asked for its implementation. Al-wartalâni soon despaired of Imam Yahyâ ever carrying out the necessary reforms and, thus moved over to the side of the Ahrâr. He played a unifying and a revolutionary role in bringing together the different groups opposing the Imam and in urging them to take a decisive action.

The Ahrâr in Aden, wanting to make full use of the Muslim Brotherhood's support, asked al-Banna to be their authorized spokesman before the Arab League and the Arab governments. Al-Banna accepted the proposal and wrote to 'Abd al-Rahman 'Azzam, the Secretary General of the Arab League, to facilitate his visiting the Yemen. It appears that the Ahrâr had a fanciful idea about the authority and power of the Arab League regarding it, more or less, as the overall government of the Arab states. They sent several memoranda to the organization complaining about the 'serious conditions in Yemen' and calling for it to intervene in order to put things right. They were also too innocent to comprehend that Arab rulers, no matter how strong they appreciated their reformative views, would act differently in the case of a vicrevolt against a reigning monarch. In a sense, the Ahrâr fell victims of their own successful publicity campaign outside the Yemen which they mistook for more than it was worth.

Inside the Yemen the effects of the Ahrâr was less spectacular, nontheless, significant, and in terms of real power it was equally delusive. The Ahrâr paper, *Sawt al-Yaman,* and the sympathetic *Fatât al-Jazirah, al-Sadâyah* and *al-Râbitah* were surreptitiously circulated among literary groups in San'â', Ta'izz, Ibb and Hudaydah agitating the feelings against the government. The members of the old *Hay'at al-Nidâl* in San'â' became active again and new clandestine groups emerged. The most important of them was *Jam'iyyat al-Amr bi-'l-Ma'ruf wa-'il-Nahy 'an al-Munkar,* established in 1944 by Qâdi Muhammad al-Akwa' and Qâdi 'Abd al-Rahmân al-Iryâni in Ibb. It was directed mainly against the rigid

world, burdened with historical deviations, oppressed by ages of despotism and repeatedly subjected to the deception of colonialism to the results of moral failings and outmoded superstitions, *would only be saved through a courageous march on the path of Muhammad.* (20)

The Effects of The Ahrâar

Organizing political opposition to the Imam's rule was in itself a significant achievement. The Ahrâr succeeded in attracting attention to the conditions of the Yemen. Many newspapers in the Arab world started to write about the Yemen, more or less supporting the Ahrâr's view on the need for change and reform. Most important among them were the Egyptian papers, *al-Sadâqah* and *al-Râbitah al-'Arabiyyah,* which defended the Ahrâr's cause and allowed Yemeni emigrants to write about their grievances. (21) Yemeni emigrants in East Africa, Europe and America supported the Ahrâr and made contributions to their finance. *A few political parties like the Young Egypt Party (Hizb Misr al-Fatât), and more important, the Muslim Brotherhood gave a public support to the movement. Imam Yahyâ was so concerned with his criticism in the Cairo press that he made a formal protest to the Egyptian Foreign Office.* Certainly, the Imam's suspicion of establishing close links with the Arab world did not help him to gain a favourable image in the Arab nationalist press.

Al-Zubayri and Nu'mân came ni contact with members of the Muslim Brotherhood during their stary in Cairo in the late thirties. Their influence was clear in the mainfesto written by al-Zubayri for the society he founded ni 1941. (22) A closer relationship developed when *an Algerian member of the Brotherhood, residing in Egypt, al-Fudalyl al-Wartalani, came in March 1947 to the Yemen as a representative of a commercial company (23).* He caught the imagination of the young generation in San'a' and Ta'izz by his impressive religious speeches which called for the regeneration of the Muslim nation. Seening his influence and trust-

its deep social causes. The Ahrâr thought themselves capable of modernizing their society by the virture of their limited experience in the more advanced Arab countries. Their insistence on a 'constitutional consultative government' was meant to get educated men, like themselves, to share power with the Imam so as to bring about the necessary change. By accepting this principle, the Ahrâr claimed, the Imam would have taken the whole Yemeni people from misery to happiness in one day. (17)

It is interesting to note how th e Ahrâr were nifluenced by Muslim activists like al-Afghani, 'Abd al-Rahman al-Kawakibi and the Muslim Brotherhood (al-Ikhwan al-Muslimun). It was manifested in their understanding of the role of Islam in society. *«Islam is a struggle, a truthful saying, a continuous labour and a forceful faith which rings in the heart and runs into the blood... A man cannot be a soldier of Islam unless the Shari'ah dominates his mind and his heart transforming him into a block of dynamite.» (18)* Islam was referred to as a spiritual force through which the educated youth should communicate their ideas to the public because of its effective impact on them. *The struggle of the Palestinians and the recent independence of Pakistan were pointed out as successful examples of the effect of religion on the public.* The Ahrâr's paper advocated that Islam accept all the requisits of the modern age. An Azharite Yemeni, who was a regular contributor to the paper, called the Yemenis to wage jihad by building mosques, schools, hospitals, orphanages and by providing work for the unemployed. *«If the Yemenis ant want strength, power and dignity»*, the papersaid, *«they should have a strong, healthy and pure body of civilization that derives from Islam its rightly-guided spirit». (19)*

When Hasan al-Bannâ, the leader of the Muslim Brotherhood in Egypt, was approached and accepted to take up the Ahrâr's cause before the Arab League, *Sawt al-Yaman* hailed the decision and *ascribed to a view of Islam similar to that of the Brotherhood. It said that Islam si a complete way of life which could rid the whole human race of evil and darkness;* that the Muslim

launched on the way the *zakât* was expended. Instead of collecting the *zakât* from the rich and distributing it to the poor, as Islam commands, the government did exactly the opposite. It was spent on members of the royal family, favoured Sayyids, or stored in the Imam's treasury.

The Ahrâr couched their criticism of the government in religious terms, accusing it of not applying the 'true' Islam. (15) They called their opposition to the government as a holy struggle *(jihâd)* waged in the name of Allah and His Messenger against those who toyed with His people and violated His Shari'ah. It originated from following the Prophet's teaching of 'enjoining good and forbidding evil'. They claimed that they had only asked the government for what the Qur'ân and the Sunnah demanded. The Ahrâr were at pains to defend themselves against the accusation, thrown at them by the official Yemeni paper *'al-Iymân'*, of breaking their pact of allegiance *(bay'ah)* to the Imam, selling themselves to the Christians (the British ni Aden) and bearing hatred to the descendants of the Prophet just like apostates and infields. These were grave charges in the Yemen and the failure of the Ahrâr to satisfactorily dispel them among the majority of illiterate tribesmen was fatal to their movement.

In the beginning, the Ahrâar conceived their role as that of a pressure group to bring about certain political and economical changes in the Yemen. They declared five conditions on the basis of which they would support the government of the Imam: the appointment of a ministry of able men; the setting up of a consultative body *(Majlis shurâ)* comprising ulema, notables and men of wisdom; the exclusion of the Imam's sons from administrative posts; the transfer of the country's treasury into the hands of the new ministry; and the introduction of experts from other Arab countries in fields where they might be needed. (16) The Ahrâr cherished a rather vague and simplified notion of reform and development. Like pioneers in many traditional societies, they were much concerned with the symbols of modernization, which their country lacked, rather than with

Yemenis behind the cause of reform. In the beginning they avoided a direct attack on the Imam, blaming his sons: Ahmad, al-Hasan, 'Abd Allah and al-Qâsim for misgovernment, as Yahyâ himself was too old to control the country's affairs. The Ahrâr resented the monopoly of power by Hamid al-Din's Family, considering it a violation of the principles of Islam which enjoin the rule of *shurâ* and reject despotism. The designation of Amir Ahmad as a crown prince was correctly criticized as a practice alien to the Zaydi doctrine. (11) In a rare attack, the Imamate itself was described as an obsolete and backward system which corrupted the teachings of religion. Other Arab and Muslim countries, the Ahrâr asserted, successfully followed modern and useful systems of government without abandoning Islam. (12)

The Ahrâr felt deep humiliation when comparing their country in aspects of education, health, transport, organization of government etc. with other Arab states. They held the Yemeni Government responsible for their backward conditions. In comparison they admitted that the Ottomans had done more to the development of Yemen than the Imamate and the Colony of Aden was better governed. (13 The conditions of the country were attributed to the rigidity of the system, which isolated the Yemen from the rest of the world, and to the miserly attitude of Imam Yahyâ in spending the wealth of the nation which he amassed in his hidden treasuries. The Ahrâr claimed that this wealth, denied to the welfare of the people, was lavishly spent by Yahyâ's sons on their journeys abroad. (14)

The injustice that accompanied the collection of *zakât* found wide publicity in the Ahrâr's literature. They criticized the extra levy *(dam)* put over the *zakât* and the unjust way of over evaluating the crop as against the Shari'ah. The soldiers and government officials, due to their inadequate pay in the Ahrâr's view, laid further burden on the peasants, especially the Shâfi'is, through bribery and abuse of power. Discrimination against Shâfi'is and Ismâ'ilis was publicized, but in moderate tones as the Ahrâr were keen not to appear as a sectarian group. An appealing attack was

rule of the Hamid al-Din family until the revolution of 1962. Al-Mushiki and al-Shâmi soon disagreed with them and, in early 1945, returned to Ta'izz. Being Hashimites themselves they, probably, feared that the movement would be anti-Sayyid.

An Aden paper, *Fatât al-Jazirah,* sponsored the cause of disenchanted liberals and published articles critical of the state of affairs in the Yemen. They received a sympathetic response from the many Yemeni immigrants working in Aden, especially from the Shâfi'is. (8) Following a protest from Imam Yahyâ, the British Administration in Aden stopped, for some time, the publication of such articles. However, ni February 1945, al-Zubayri and Nu'mân resumed their political campaign under the association of *'Hizb al-Ahrâar al-Yamaniyyim'.* The Yemeni Government was so disturbed that Sayf al-Islâm Ahmad, in April 1946, visited Aden to persuade the Ahrâar to stop their propaganda against the government. Failing to do so, he attempted to counter their attack by telling the press that the Yemeni Government was about to introduce certain reforms concerning education and economic development.

Ironically, Ahmad's visit injected new impetus into the activities of the Ahrâr. Immediately after his departure, some wealthy Yemenis, most of them Shâfi'is, contributed 30,000 *riyâls* (about £ 7,000) for the purchase of a printing press to publish a weekly paper, *Sawt al-Yaman,* as the organ of the Ahrâr Party. (9) The Ahrâr morale was significantly boosted when, in November 1946, Sayf al-Islâm Ibrahim, renamed by the Ahrâr Sayf al-Haqq (the Sword of Truth) in order to distinguish him from the other princes, joined their ranks. (10) His support gave the party prestige and recognition and he was proclaimed leader of the Ahrâr.

The Ahrâr's Ideas On Reform :

Through their political activities, the Ahrâr aimed at exposing the backwardness of their country and the way it was misgoverned in order to win the sympathy of the Arab world and to rally the

a camel, will die as a martyr. You Yemeni people, your wealth, which is your right, is stored by the Imam while you are starving.» The Government arrested many suspects, among them : Qâdi Muhammad Mahmûd al-Zubayri, Muhammad Abu Tâlib, Ahmad al-Marwani, Ahmad al-Hawrash, Muhyi 'l-Din al-'Ansi and Muhammad al-Khâlidi. (6) Al Zubayri and Abû Tâlib used to give speeches in mosques which irritated the Imam with their critical overtones. They also wrote a memorandum to the Imam suggesting certain reforms. Yahyâ wanted to use the memorandum as a justification for taking a strong action against them; but he failed to obtain the approval of the ulema that the recommended reforms were a breach of the *Shari'ah.*

Crown Prince Ahmad governing, almost independently of his father, over the rich province of Ta'izz, began to attract the discontented liberals around him. He invited al-Zubayri, al-Mûshiki and Ahmad al-Shâmi to come and stay with him in Ta'izz. They were joined by Ahmad Mu'mân who had been a friend of al-Zubayri snice they had studied together in Cairo. Unlike his father, Ahmad was a generous man of literary taste. He appreciated and rewarded the talents of those young men who, in turn, admired him and composed poems in his praise. They saw in his strong personality a hero who, on ascending the throne, would liberate the whole of Yemen (Aden from the British and 'Asir from the Saudis), eliminate corruption in government and would achieve the needed development. (7) The honeymoon, however, was short and Ahmad became suspicious of those restless liberals who spoke a 'dangerous' language which might alienate him from the bulk of his traditional supporters. Thus his attitude towards them changed and, at one time, he threatened to soak his sword in the blood of the 'modernists' who read the books of Taha Husayn, al-'Aqqâd, al-Râfi'i etc.. His wish was prophetically fulfilled a few years later. In a mood of despair, some of the liberals fled the country: in June 1944 al-Zubayri, Nu'mân, al-Shâmi and 2al-Mushiki left for Aden; al-'Ansi and al-Hawrash for Egypt. The first two were politically the most active and formed the acknowledged leadership of the Ahrâr movement which continued to oppose the

tenaciously faithful to their well-established values. The politically conscious among them began to advocate economic and political reforms, and return to the rule of *shûrâ* (consultation). This group constituted the nucleus of the Ahrâr movement.

In 1935 Sayyid Ahmad al-Mutâ'founded a loose circle *'Hay'at al-Nidâl,* (the Society for Struggle) which represented the earliest association of Ahrâar elements. Despite its high-sounding name, the objective of the Society was simply to counter the conservative Zaydi trend that appeared after the Saudi war demanding the tightening of the Zaydi doctrine. The Society supported the young liberal amirs: 'Abd Allah and al-Husayn. (3) However, the activities of al-Mutâ'led to his arrest and a few of his fellow-Ahrâr for a short time. It was the first political imprisonment ordered by Imam Yahyâ. In 1939, Sayf al-Islâm 'Abd Allah (4), in his capacity as a Minister of Education, established a monthly magazine *al-Hikmah al-Yamâniyyah* which, under its young earnest editor 'Abd al-Wahhab al-Warith, led the way to political and literary change. From the first issue, al-Warith started a series of articles under the title *'al-Islâh'* (the Reform), in which he stressed the need to regenerate the Muslim *ummah* on the basis of Islam that calls for real progress and useful civilization. (5) *Al-Hikmah* was soon stopped by the Imam whose aides went around circulating the accusation that al-warith and his friends, presumably because of their call for reform, wanted to suppress part of the Qur'ân. To the irritation and embarrassment of the Ahrâr the accusation found wide acceptance.

A significant act of clandestine opposition to the Imam occured, in 1941, when some Yemeni students studying abroad had returned to the country. Leaflets were secretly distributed in the streets of San'â' and sent by post to senior government officials. Appearing at a time of famine and being written in a religious tone, the leaflet stirred public interest and annoyed the Imam. It urged the people to die, if necessary, in order to obtain their rights from the government. It told the Yemenis that the Prophet said: «he who dies defending his right even if it has been a rope of

After his long and successful struggle against the Turks, Imam Yahyâ extended his authority over the whole of Yemen with the exception of the Aden Protectorates. He built his army from the Zaydi tribes of Hâshid, Bakil and Khawlân, and depended in the administration of the country or *Sayyids* (Hâshimites) and the Zaydi qâdi class. Fearing that a Sayyid wielding too much power might threaten the rule of his family, Yahyâ gradually transferred senior posts of the government from former aides to his own sons. (1) Imam Yahyâ was highly suspicious of foreigners, especially Europeans, coming to the Yemen. The colonization of Arab countries by Britain and France and of Abyssinia by Italy was a lesson fresh in Yahyâ's mind. Thus, he jealously guarded the sovereignty of his country and its traditional religious way of life by isolating it from foreign influence. He refused to allow in the country diplomatic missions or western commercial companies or to encourage any form of contact with the outside world. He answered a critic, who pointed out the economic benefits that foreign firms would bring to the country, by saying that they did not help India to avert repeated famines; and that he and his people would rather eat straw than allow foreigners into the Yemen. (2) Imam Yahyâ, who never travelled outside Yemen, did not appreciate modern conveniences of life which were enjoyed by other Arab countries. But the Yemenies who visited those countries were impressed by them.

The Saudi war of 1934 which resulted in the defeat of Imam Yahyâ and his loss of 'Asir province triggered off the opposition to the Imamate. The early criticism of the state of affairs in the country took the indirect form of a new approach to literature. Young writers, who read Arabic books and magazines infiltrating through Aden and Mecca at the time of the pilgrimage, were impressed by their novel ideas and began to imitate them, breaking away from the traditional Yemeni forms of prose and poetry. In a derogatory sense those writers were called *'al-buzghah'* (the bud) and *'al-'asriyyin'* (the modernists); suggesting that they were of a fragile nature when compared with Yemenis who remained

The Free Yemeni Movement (1940-48)

And Its Ideas On Reform

By : Dr. al-Tayib Z. al-Abdin

Institute of African & Asian Studies

University of Khartoum

Emergence of the Movement :

North Yemen, which was the last country in the Muslim world to overthrow its traditional Imamate, had, in fact, seen the first coup to occur in the Arab world after the Second World War. It was engineered. In 1948, by the Free Yemeni Movement *(al-Ahrâr al-Yamaniyyûn* which managed to seize power for twenty six days. The Zaydi Imamate had survived in the Yemen for eleven hundred years (A.D. 897-1962), mostly in the area north of San'à'. Traditionally the opposition to Zaydi Imams came from other claimants of the throne or from tribes revolting in order to assert their own independence. During his long reign (1904-48), Imam Yahyâ Hamid al-Din faced both types of opposition but the one which led to his assassination was of a different nature. Although it allied itself, at times, with aspirants to the Imamate and with some discontented tribal *shaykhs,* the Free Yemeni Movement remained basically a political opposition seeking certain social and political reforms. The movement began with young men who studied in Cairo or Baghdad or had some knowledge about the outside world. They resented the backwardness of their country, its isolation from the rest of the world and the autocratic rule of the Hamid al-Din family.

ب ـ المراجع العربية :

١ ـ انيس ، دكتور ابراهيم . من اسرار اللغة . الطبعة الثالثة . مكتبة الانجلو ـ مصرية ـ القاهرة ١٩٦٦ .

٢ ـ وافي ، الدكتور علي عبد الواحد . فقه اللغة . الطبعة الخامسة . البيان العربي . القاهرة ١٩٦٢ .

٣ ـ الحماس ، الدكتور خليل ابراهيم « دراسة مقارنة للنواحي في كتاب العين والنظرية اللغوية الحديثة » مجلة السادس عشر ، ١٩٧٣ .

٤ ـ منتصر ، الدكتور عبدالحليم « خصائص اللغة العربية التعبيرالعلمي رسالة العلم . المجلد ٤١ . العدد ١٩٧٤ .

٥ ـ فريحة ، الدكتور انيس . نحو عربية ميسرة . دار البيان . بيروت ١٩٥٥ .

٦ ـ الصالح ، الدكتور صبحي . دراسات في فقه اللغة . الطبعة الثالثة. دار العلم للملايين . بيروت ١٩٦٨ .

٧ ـ البياتي ، الدكتور عادل جاسم « الملاحم العربية بالملاحم الكونية » مجلة الكتاب ، العدد الرابع .

٨ ـ ابراهيم ، الدكتور محمد حسن « نشوء اللهجات » بحث مطبوع على على الآلة الكاتبة ، معد للنشر في العدد ٢٤ ، ايلول ١٩٧٤ .

7. Hall, Jr., R.A. «Pidgins and Creoles as Standard Languages», (1972). Cited in *Socio-Linguistics,* pp. 142-154.

8. Haugen, E. «Dialect, Language, Nation», (1966). Cited in *Socio-Linguistics,* pp. 97-111.

9. Hoijer, Harry. «The Relation of Language to Culture». Cited in *Anthropology Today : Selections.* Edited by Sol Tax. Phoenix Books. The University of Chicago Press, Chicago, 1963.

10. Labov, W. «The Study of Language in Its Social Context», (1970). Cited in *Socio-Linguistics,* pp. 180-202.

11. Pride, J.B. and Holmes, J. «Introduction» to *Socio-Linguistics,* pp. 7-11.

BIBLIOGRAPHY

English Sources

1. Andrzejeski, B.W. «Poetry in Somali Society», (1963) Cited in *Socio-linguistics.* Edited by J.B. Pride and Janet Holmes. Penguin, Aylesbury, Bucks, 1972. pp. 252-259.

2. Bright, w. and Ramanujan, A.K. (1964,) «Socio-linguistic Variation and Language Chance». Cited in *Socio-Linguistics,* pp. 157-166.

3. Cazden, C.B. «The Situation: A Neglected Source of Social Class Differences in Language Use», (1970). Cited in *Socio-Linguistics,* pp. 294-313.

4. Corder, S. Pit. *Introducing Applied Linguistics.* Penguin Education, 1973.

5. Dil, Anwer S. «Towards a General Model of Language Policy Planning», *Anthropology and Language Science in Educational Development,* UNESCO, Educational Studies and Documents, No. 11, 1973.

6. Ferguson, C.A. «The Role of Arabic in Ethiopia, A Socio-Linguistic Perspective», (1970). Cited in *Socio-Linguistics,* pp. 112-124.

IV. *Summary and Conclusions*

Arabic receives a positive mark in each of the twelve criteria outlined above.

However, more effort is needed for the purpose of enriching the Arabic language in the following areas :

1. More flexibility and less rigidity in attitude towards new inescapable changes in the language are needed. Since Arabic has proved itself a language that is highly codified, the «intrusion» of few words will never endanger the language. In order to continue to be living, Arabic must be permitted to change and to accept what is new and what can be assimilated.

2. More unified effort is needed in the direction of standardizing midern technical and scientific terminology.

3. More work is needed in the direction of perfecting the Arabic writing system especially in standardizing the use of punctuation marks and in creating technical symbols and handy abbreviations. Arabic should benefit from other modern languages in this respect.

4. Deeper Analyses of the sound system of standard Arabic and studies on dialect variation are needed.

5. Contrastive analyses of Arabic and other living languages (though have started recently) need to be organized and systematically done.

6. Studies on word frequency and word counts for various purposes are lacking.

7. An intensive campaign on translating scientific texts and Arabizing technical terms is needed.

e. A pidgimzed form of Arabic (simplified in terms of structure and vocabulary is being used by speakers of Turko in the area of Lake Chad and Central Africa. The Bumbashi language is another example of pidgin Arabic.

11. Arabic is equipped with productive mechanisms that enable it to «generate» new terms in various means. Some of these mechanisms are the following :

a. *Analogy.* A process by which a known form generates a completely new form in imitation of a pattern predominant in other forms. This process enriched Arabic with forms like - hattaab - (wood-cutter) taken from - hatab - (wood) in imitation to the pattern - fa (aal - . Similarly, forms like - haddad -, - baqqaal -, - hammal -, etc. (Anis, p. 16).

b. *Derivation.* A process by which a noun is derived from verb and vice versa; an adjective from a noun and vice versa, etc.

c. *Blending.* A process in which forms are reduced and fused together, e.g., - basmala - (said - bismillah -) - (abdali - (of the family of Abdulla), - mi (lawz - = - mi (mi (- + - lawz -, etc.

c- *Creation.* A process by which a new term is created to fit a felt need such as -haatif- (telephone) - mi) yaa (- (radio), etc., Such terms receive little acceptance at the beginning, but gradually and through constant use by mass media they gain acceptance.

12. Arabic is a living language. It unifies the Arabs in its standard form and caters for their needs in the local dialects. A speaker of Arabic is distinguished from speakers of other language by the «character» of his language.

native speakers, including studies on the teaching of Arabic handwriting to the garden variety of citizens.

g. Studies on word frequency and word counts.

9. For the last 1500 years Arabic remained one of the greatest languages of the world. The amount of literature written in it is gigantic. In poetry and other types of literature, Arabic is perhaps the richest language. In manuscripts, Arabic is one of the leading languages. Works of Ibn Rushd, Ibn Sina, Al-Farabi, Al-Khawarizmi, Al-Razi, Ibn Khaldoun and Al-Bayrouni are all in Arabic.

In modern times, Arabic is picking up the trail, but slowly. Baghdad, Cairo and Beirut are becoming important publication centres. Books and journals of all kinds are being issued by universities, specialized government organs and by various private and public organisations. Because the Arabs are divided into numerous states, modern Arabic publications remain limit in distribution. What is available in one country is hardly known in another.

10. Arabic is used outside the Arab homeland in the following areas :

a. In world organizations, e.g., the UN and UNESCO.

b. In mass media particularly by radio in almost every major broadcasting agency.

c. In religious affairs all over the Moslem world.

d. As a lingua franca in Ethiopia (Ferguson, p. 120) Kenya and Somalia. As a matter of fact, much of what is called modern Somali literature is written in Arabic (Andrzejewaski, pp. 252-253).

(8) In scientific methodology, he insisted on deriving rules and conclusions from available data, not on the basis of speculations *Al-Farahidi's* students such as *Sibawaih* carried over the ingenious observations he made on language. (Al-Hamash, p. 20).

b. In semantics and rhetorics the prominent figures were *Al-Jahidh, Abi Ubaida, Ibn Al-Mutaz, Al-Mubarrid, Al-Askari* and *Al-Jurjani*. In vocabulary studies, word lists and dictionaries, masterpieces were produced. Some of these dictionaries are the following : *Al-Ain* by *Al-Farahidi, Al-Jamhara* by *Ibn Duraid, Al-Tahthib* by *Al-Azhari, Al-Muhiit* by *Ibn Abbad, Al-Sahaah* by *Al-Jawhari*, etc. There is no denying that modern times are witnessing a recess in scientific analyses of Arabic. Current studies are more or less re-statements of what was written about Arabic. Modern linguistic ideas have not been given adequate attention. The following areas need to be scientifically investigated in line with modern ideas ni language studies :

a. Analyses of the sound systems of Arabic dialects.

b. Modern dictionaries listing currently-used Arabic words and expressions.

c. Philogical studies on Arabic loan words.

d. Dictionaries specializing in various branches of human knowledge.

e. Contrastive and comparative analyses setting Arabic against cognate semitic languages and other foreign languages.

f. Studies on learning and teaching Arabic to foreign and

e. Arabic is rich in masterpieces in symbolic literature. *Kaliila wa dimna and alf Layla* are just two such masterpieces. The Quran itself is loaded with symbolic references.

Arabic, however, still needs more effort in the direction of popularizing abbreviated forms. It is very discouraging to hear Arabic speakers refer to OPEC either as - opek - when abbreviated or to that organization's full title. Arabic should benefit more from European languages but it should be enabled to have its own means of abbreviating lengthy terms or titles.

8. Old analyses of Arabic are really admirable in depth and coverage. The following areas were studied extensively:

   a. In linguistic and phonetic analysis the most prominent scholar was *Al-Khalil bin Ahmad Al-Farahidi* of the Basrah school of linguists. In his famous book *Al-Ain,* he made a number of contributions which are still valid in modern phonetics. Some of these contributions are the following :

      (1) The adoption of form, not meaning, as the subject-matter of language study.

      (2) The use of sound symbols to represent sounds.

      (3) The distinction between consonant sounds and vowel sounds.

      (4) The discovery of the role of stress in signalling different meanings.

      (5) The use of point of articulation (bilabial, labio-ural) in the classification of consonants.

      (6) The use of the criterion of frequency in determining the relative value of utterances.

      (7) The use of opposition as a basis for distinguishing one phoneme from another.

other languages and has assimilated what it has borrowed. Before the advent of Islam, Arabic borrowed many religious and cultural terms; during the Abbasid period Greek and Latin gave Arabic many philosophic and scientific words and in modern times Arabic has taken extensively from European languages. Arabic has also taken from Turkish and Persian.

Borrowing is not limited to vocabulary. It includes some structural arrangements and styles of expression. However, the major contemporary problem that Arabic speakers are facing now is disorganized borrowing of modern technical and scientific terminology. Some Arab countries borrowed from French, others borrowed from English or German. what is urgently needed is unified effort towards organizing the process of Arabizing modern foreign technical terms. The organ of the Arab League stationed ni Rabat seems to be registering some success in this direction.

7. Arabic is capable of symbolic expression like all other major languages of the world. The following are some instances :

   a. *Abbreviation.* In Classical Arabic - ?alla - means - ?an laa -. In Iraqi Arabic - lees - means - li ?ay - ay - and so on.

   b. *Abstraction.* In Classical Arabic - aql - means «mind» now. It was formerly used to refer to the rope that ties the camel's leg. Also, - majd - (glory) was used originally to refer to filling one's stomach.

   c. *Blending,i.e.,* assigning new meanings to fractions of words put together. - qarawuusti - is taken from - quruun - (centuries) and - wusta - (middle).

   d. Arabic rhetorical studies are well-known for their wide coverage and accuracy.

From the previous table the following observations can be made :

(1) English texts use more punctuation marks than what is found in Arabic texts.

(2) English texts employ a wider variety of marks than those of Arabic texts.

A close examination of the two modern Arabic texts mentioned above has revealed the following :

(1) Many punctuation marks are used for no particular reason. For example, a series of dots are often used. Also, quotation marks are used together with bold types or italics.

(2) The use of many marks lacks consistency. Some sentences are heavily punctuated, while it is often possible to find a whole paragraph with not a single punctuation mark used.

d. Arabic writing is still in need of symbols such as the phonetic symbols. Also, Arabic writing needs to be enriched with symbols for measurements and weights as well as symbols for more than one hundred chemical elements (Muntasir, pp. 8-9).

5. On the whole, Arabic has given to other languages more than it received. Almost the whole of the cultural and religious vocabulary of Persian, Turkish, Urdu, Malay and of many African languages was taken over from Arabic practically with no changes. These languages also borrowed Arabic script and metric. Arabic has also given a considerable number of cultural and scientific terms to Spanish and Portuguese and thence to the other languages of Western Europe.

6. Like all other living languages, Arabic has borrowed from

THE USE OF

PUNCTUATION MARKS IN

ARABIC AND ENGLISH

		Types of Marks used	Number of Marks used	Number of words
Arabic	Text 1	9	166	1789
	Text 2	11	241	2264
	Total		407	4053
English	Text 1	13	247	1810
	Text 2	14	282	2241
	Total		529	1051

4. Arabic has its own writing system. Thus it occupies the highest rungs of the ladder in this respect. The Arabic writing system is alphabetic consisting of 28 characters. Early Arabic inscriptions used Nabataean. Later, an inadequate form of Arabic writing evolved. When Quran was recorded, the need to distinguish one letter from another similar to it was felt. Dots were used above and below characters to enable writers to make finer distinctions. Later, short vowels and stress (emphasis) were indicated by diacritical marks in the first century of Hegra (wafi, p. 246).

The Arabic writing system also involves the use of ten numerals: 1-9 and the zero. In modern times punctuation marks have been added.

However, in spite of these achievements in the development of the Arabic writing system, some weaknesses can still be identified.

a. Because the majority of Arabic words can be vocalized from the syntactic context the majority o fwritten material is produced without any diacritics. This creates a pronunciation problem especially observed in writing foreign names (Wafi, p. 253).

b. Arabic writnig uses relatively large number of dots. English, for instance, uses only two dots while Arabic uses 22 dots. The frequent use of dots hinders the flow of handwriting and makes reading a problem especially in the early stages.

c. The punctuation system in Arabic writing has has not been formalized yet. No explicit rules have been set so far to control the use of punctuation marks. Many writers use these marks for purposes of ornamentation and other rather inconsistently. For purposes of contrast I counted the number and types of punctuation marks in two English and two Arabic texts. The results are presented in the following table :

f. Basic background materials on sciences such as physics, mathematics, chemistry, etc.

Arabic is not yet widely used in the teaching of medical sciences, engineering and advanced pure sciences.

3. Arabic is definitely the richest semitic language in vocabulary. As a language it has risen from obscurity to full maturity without undergoing a period of infancy and puberty. Arabic vocabulary even as far back as the sixth and seventh centuries is abundant and adequate.

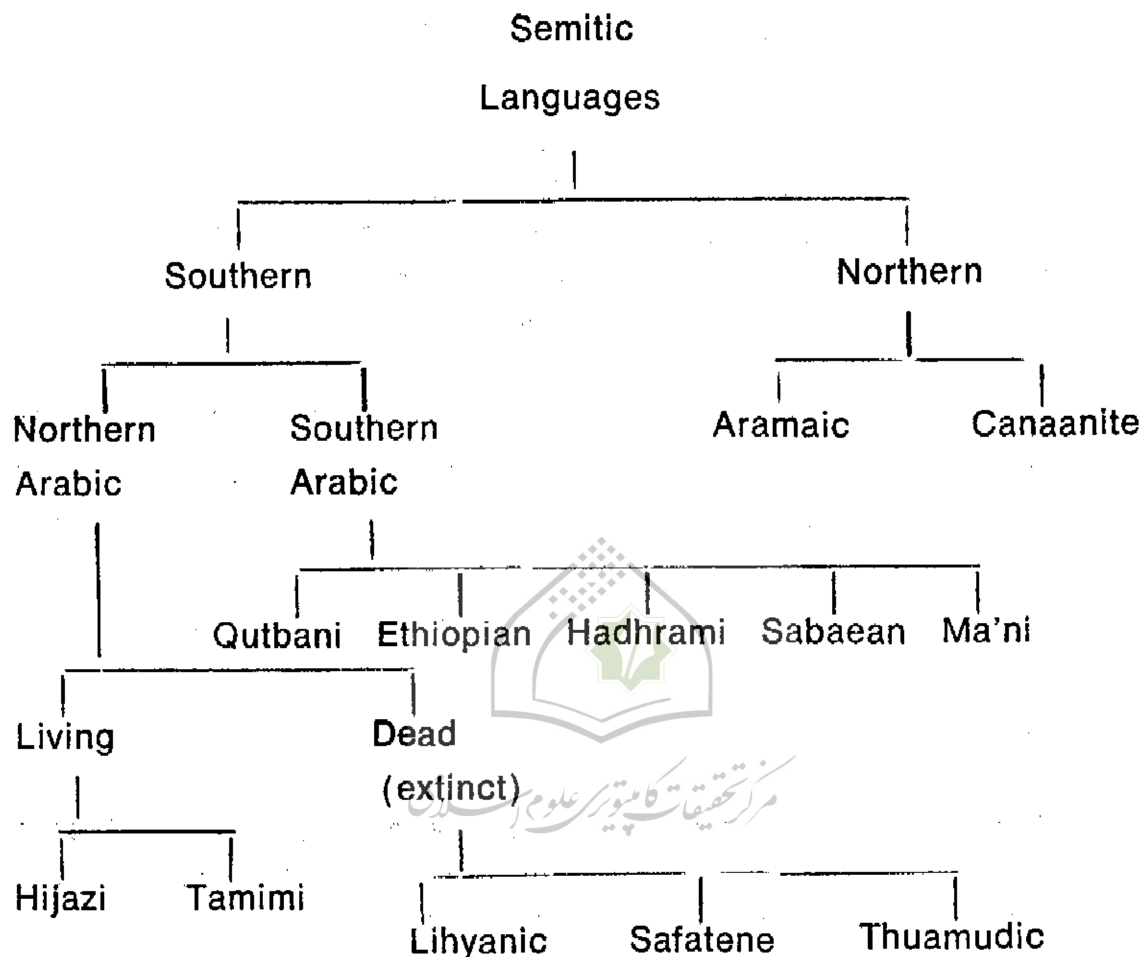
Arabic vocabulary is well-known for its 2-4 consonant roots and the internal vowel changes (infixes) that would yield a rich variety of words each expressing a different semantic and grammatical function. For example - qtl - as a root can yield - qatl - (killing) - qaatil - (killer) - qitaal - (fighting), - qatala - (killed) - yaqtulu - (kills) - muqaatil - (fighter), - qatiil - (a person killed) - maqtuul - (killed, past participle) etc.

This flexibility of inflexion and derivation has guarded Arabic vocabulary from too much admixture. Foreign loan words have been taken and subjected in most cases to the morphological patterns of Arabic.

In pre-Islamic periods Arabic has borrowed many terms from other semitic languages. During the Abbasid period Arabic has borrowed extensively from Greek and Latin, but what has been borrowed has been assimilated into the vocabulary of the language. It has been subjected to the phonetic and morphological rules of the language.

In modern times, Arabic vocabulary has been enlarged in areas where Arabic has been used. What is still lacking is a unified terminology for some of the advanced levels of pure science, engineering and medicine.

out of danger of being washed away by any additions. Quran constitutes its solid undefiable basis.



2. It is true to say that Arabic can be what its speakers want it to be. It has been so far enabled to function as a means of communication in the following areas :

a. Business transactions and banking.

b. The courts of law and the most advanced legal studies.

c. Affairs related to government and administration.

d. Mass media of all types are effectively using Arabic.

e. Almost all fields of the humanities.

mation and borrowing. Other languages have other unique means of creation.

12. The efficiency of the language in representing the unity of the nation as well as catering for the diversified needs of the speakers. In this the language should be capable of providing means of communication in situations common to all speakers (standard language), everyday situations (spoken forms), situations varying according to geographical and social contexts (dialects). A dead language has one form; a living language has several forms.

III. *The Cultural weight of the Arabic Language*

In this section I shall state where the Arabic language stands in relation to the twelve criteria outlined above, then I shall summarize the findings into two types: points of strength and points of weakness. The latter constitute the recommendations for means of enriching Arabic if more cultural weight is to be given to it.

1. The Arabic language we use today was originally the *Hijazi* dialect as distinguished from *Tamimi*. Both belong to «living» Arabic as distinguished from «dead» forms of Arabic. In turn, it belongs to Northern Arabic as distinct from Southern Arabic. The two belong to the Southern branch of the Semitic family of languages (Al-Salih, p. 71).

After the advent of Islam the Hijazi dialect became the standard language for all the Arabs as well as for all Arab and Islamic states that followed. The chief stabilizing factor behind that was the Quran (The Holy Book).

All speakers of Arabic aspire to approximate the language of Quran. This contributes towards the codification of Arabic in its sound system and structure. Arabic is and will always be

8. The availability of accurate analyses of the language itself. Prominent languages of the world are more accurately analysed and in a greater variety of ways than obscure languages. Such analyses usually involve :

   a. Phonetic and phonological analyses of the sound system of the language.

   b. Comparative and contrastive analyses that show differences and similarities between the language and other languages.

   c. Syntactic and morphological studies of the structure of the language.

   d. Analyses of the writing system of the language.

   e. Studies related to the teaching of the language to native as well as foreign speakers.

   f. Stylistic and rhetorical studies of modes of expression.

9. The amount of literature written in the language including world masterpieces.

10. The extent to which the language is used by other nations especially in the following fields :

    a. Business and commerce.

    b. Science and technology.

    c. In international mass media.

    d. As a lingua franca.

    e. In a pidginized form.

11. The degree of productivity of the language. Some languages have unique methods of producing new forms. English, for example, has reduplication, blending, back for-

They include :

1. words' referring to cultural items that are peculiar to the speakers of the language;

2. general words with lexical function, whether such words are inherited or newly created.

4. Availability of an adequate writing system by which the language is represented. On the basis of this criterian languages vary from those that have no writing system whatsover to those that have borrowed the language system of another language to those that have their own writing system.

   In alphabetic languages the writing system usually comprises the alphabet, the numerals, uunctuation marks and the special symbols used in various fields of life.

5. The amount of influence that the language has exerted on other languages in vocabulary, structures and writing.

6. The amount of benefit the language has acquired from other languages but still maintaining its independent identity. This includes what the language has been able to borrow and assimilate from other languages including what has been translated into it from other cultures (Muntasir, p. 5).

7. The degree of symbolic competence of the language. Since language is essentially a complex set of symbols, its unique function is symbolic reference to things, events and relationships. If the language is capable of performing that function in an economical way it acquires more weight. This demands the development of complex sub-systems of abbreviated symbols. It also depends upon the richness of its literature in symbolic and original ways of reference.

To discover a scale by which languages can be culturally «weighed» one has to examine the features of the prominent, living languages of the world and to note down the characteristics of those languages. By doing so I have developed a set of twelve criteria for this purpose. These criteria are continual rather then binary scales. Languages vary in the degree of availability of each feature quantitatively.

1. Codification, i.e., the degree of stability of the basic features of the language. By «basic features» we mean the sound system and the grammatical system. This demands the existence of a standard form respected and imitated by the majority of speakers and also the use of the standard form in writing (Bright and Ramunjan, p. 159).

2. Flexibility, i.e., readiness to change in response to the changing needs of the speakers. A balance should exist between feature: (1) and this feature. Too rigid codification results in stagnation, while too much response to change would lead to drift and may lead to the loss of the basic features of the language (Prise and Holmes, p. 8).

3. Abundance of vocabulary. This does not only mean the sheer number of words but the adequacy of the language vocabulary in terms of coverage. Although a language vocabulary is subsidiary to its structure, yet the stock of words of varying shades of meaning give the language flexibility of use. It is necessary here to distinguish between these types of words in any language :

   a. Structure words — usually small in number but of high frequency. They include pronouns, helping verbs, articles, prepositions, conjunctions and the like.

   b. Content words of words with dictionary meaning. They constitute the bulk of the language stick of words.

The behaviourist definition of «language» by itself is not fully adequate. Language behaviour is different from other types of behaviour such as walkign. The latter does not involve a body of objective facts while language does. We often refer to this or that person's language as poor, polished, growing, etc., while walking is mere behaviour, i.e., it does not involve any objective fact outside it.

From a physical point of view, language is essentially a set of sound patterns to which the speakers have arbitrarily assigned meaning or reference on which they implicitly agree.

Language changes according to a number of matrices: historically over the passage of time, geographically from place to place, socially from one social class to another and individually from person to person at the same time, in the same locality and social class (Haugen, p. 90). Such variation results in dialects and idiolects.

In addition to the factors of variation, language also manifests a certain degree of unity in the form of a «standard language», which often represents the ideal form of a given language. The standard orm ideally should manifest a minimum of variation and a maximum of variety of purpose (Haugen, p. 107).

II. *Elements of the Cultural Weight of Language.*

What makes a language more culturally advanced than another? It is true that any language acquires more importance if more people begin to use it? Yet this factor alone is not a decisive one. It is possible to find an «advanced» language spoken by a relatively small number of people. The reverse is also true. It is possible to find a language that is culturally behind in spite of the fact that it is used by hundreds of millions of people.

5. Language is a tool of communication. Like any tool when used in various fields it acquires sharpness and flexibility. Lack of use creates inadequacies.

Definitions

Three basic terms have occurred in the preliminary remarks: nation, culture and language. They need to be specified :

1. *Nation.* The term «nation» is one of the most difficult sociological terms. Different scholars adopt different definitions of «nation». Here I define «nation» from the language point o view. According to this view, nation is a group of people who consider themselves speakers of one language. In actual use the spekers may vary. Identity is neither necessary nor possible. what matters is the belief that the speakers hold among themselves that they use one language. Such a belief requires the acceptance of definite, and unified, linguistic norms which all speakers aspire to realize (Corder, p. 53).

2. *Culture* as a sociological term is often set in contrast to «civilization». «Culture» refers to the set of values accepted by the majority of the individuals of a nation. Such values can be inherited from the past and they can be created by contemporary circumstances. Such values lead to the adoption of certain modes of behaviour and explicit as well as implicit modes of living accepted by the members of the community (Hoijer, p. 26).

3. *Language* is a complex phenomenon. From a psychological point of view it is basically vocal behaviour that takes place as a response to certain stimuli. Since language involves communication among individuals, it is also some kind of social behaviour.

each solution a number of problems are encountered. However, when the nation already possesses a qualified well-developed language these problems are minimized.

What makes a language more adequate or more developed than another? Is Arabic a highly-developed language? Finding acceptable answers to these two questions is the major purpose of this paper.

Basic Assumptions

It is necessary to state at the outset a number of ideas that I assume to be widely accepted by modern scholars.

1. All living languages of the world have equal potential of competence. They are equally applicable to all fields of life.

2. It is not possible to classify languages on a binary scale into primitive and developed, adequate or inadequate, mature and immature, etc. The degree of adequacy of a language is decided by number of factors that ought to be identified and weighed.

3. The degree of adequacy is not decided solely by the sheer number of people using the language, but by a complex of features that it possesses.

4. It follows from (1) above that it is not right to blame the language for certain inadequacies in application to certain fields of life. It is the speakers of the language who are to blame for not exerting effort in the direction of enriching their language with a sufficient amount of flexibility acquired from applying the language in various fields of life.

I. Introduction

Purpose of the Paper

A number of factors contribute to the determination of the rate of progress that nations of this world undergo. Some of the factors are economic, some are geographic and climatic, and some are social. Language is an important social factor. Anthropologists unanimously agree on the fact that language is an essential part of any nation's culture. As cultures are various so are languages. Like culture, language is acquired through the learning of broad behavioural patterns on the basis of which detailed and minute events can be explained. Also, language and culture are subject to change as a result of the tremendous accumulation of experiences that the nation undergoes (Hoijer, p. 26).

In periods of accelerated cultural growth, a nation needs a language to facilitate the process of growth. When the nation already possesses a language that is highly developed then the process of change is facilitated in part at least. Cultural growth may be hindered if the nation is not in possession of such a language.

This need (among others) is acutely felt by developing or newly-developed nations. When no effective solutions are found, problems that may endanger the integration of the use a *lingua franca,* other nations shift completely or partially to the use of a foreign language and some nations revert to old forms of language that have little contact with the realities of the age. In



THE CULTURAL WEIGHT OF THE

ARABIC LANGUAGE



By

Khalil I. Al-Hamash, Ph.D.



Consultative Board





THE
ARAB HISTORIAN

A BULLETIN OF HISTORICAL RESEARCH



1980

EDITOR - IN - CHIEF
Prof. Dr. HUSSEIN AMIN

VOL. XV

Issued By
THE UNION OF ARAB HISTORIANS
BAGHDAD - IRAQ